

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



كلية الآداب واللغات

قسم: اللغة والأدب العربي

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه الطور الثالث

التخصص: أدب المغرب الإسلامي والحضارة المتوسطة

الحركة الثقافية وبعدها الحضاري في الفترة الأموية بالأندلس

إشراف الأستاذ الدكتور:

محمد مرتاض

إعداد الطالبة:

حفيظة صابر

أعضاء لجنة المناقشة

| | | | |
|----------------------|-----------------------------|-------------------------|--------------|
| أ.د. محمد زمري | الرتبة أستاذ التعليم العالي | جامعة تلمسان | رئيسا |
| أ.د. محمد مرتاض | الرتبة أستاذ التعليم العالي | جامعة تلمسان | مشرفا ومقررا |
| أ.د. عبد الصمد عزوزي | الرتبة أستاذ التعليم العالي | المركز الجامعي مغنية | عضوا |
| د. نورية بن عدي | الرتبة أستاذ محاضر (أ) | المركز الجامعي مغنية | عضوا |
| د. بدرية سفير | الرتبة أستاذ محاضر (أ) | جامعة تلمسان | عضوا |

السنة الجامعية: 2022م/2023م_1443هـ/1444هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ذَلِكُمْ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا

وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

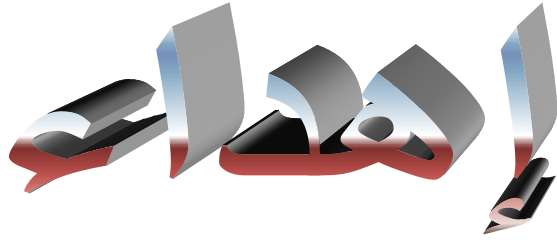
[يوسف: 38]



اللهم لك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، ملء السموات وملء الأرض، أشكرك ربي على نعمك التي لا تعد، وأحمدك ربي على أن يسّرت لي إتمام هذا البحث على الوجه الذي أرجو أن ترضى به عني.

وأقدم أسمى آيات الشكر والعرفان بالجميل للأستاذ المشرف "محمد مرتاض" الذي لم يتوان لحظة عن تقديم يد العون والنصح، ولما أبداه من صبر، ورحابة صدر في توجيهي وإرشادي لاستكمال هذا البحث، ومنحني من وقته الثمين وأفادني من بحر معلوماته وخبراته الواسعة وأسأل الله العزيز أن يجازيه خير الجزاء.

كما أتقدم بالشكر والتقدير سلفاً إلى أساتذتي الموقرين في لجنة المناقشة رئاسة وأعضاء لتفضلهم علي بقبول مناقشة هذا العمل فهم أهل لسدّ خلله، والإبانة عن مواطن القصور فيه، سائلاً الله الكريم أن يثيبهم خيراً.



إلى أمي الحنونة ، مثال التفاني والعطاء ، شافها الله وأطال في عمرها.
إلى أبي المثابر قدوتي، ومثلي الأعلى في الحياة، الذي علّمني كيف أعيش بكرامة وشموخ
إلى زوجي رفيق دربي رمز الإخلاص والوفاء .
إلى أبنائي يونس ومحمد وآلاء نور عيناى.
إلى إخوتي وأخواتي وأبنائهم، سندي وعضدي ومشاطري أفراحي وأحزاني في هذه
الحياة .
إلى جميع الأهل و الأحبّة و الأخلّاء.
إليهم جميعا
أهدي هذا البحث المتواضع راجية من المولى عزّ وجلّ أن يجعله خالصا لوجهه
الكريم.

حفيظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
أَنْزَلَ هَذِهِ السُّورَةَ

تعدّ الحضارة الإسلامية ذات مجد امتزج فيها الإنسان بالعقيدة، فقدّم أنموذجا حضاريا مجديا للبشرية جمعاء، مستفيداً من الحضارات السابقة غير ناكراً لما قدّمته، وتعدّ الأندلس جزءاً من هذه الحضارة، عاشت أزهى عصورها في ظل الإسلام بما تميزت به من عطاء وسخاء في حقول المعرفة المختلفة بما يربو عن ثمانية قرون.

بدأت قصة الحضارة في الأندلس مع قيام دولة بني أموية بها، حيث استطاع أهلها في أقل من قرن أن يجعلوا منها بلداً ذا شأن، بلغت فيه مستوى متقدما ومزدهرا قل نظيره في زمانها ذاك، عكسته كثرة الأبنية التي شُيدت والمدن التي عُمرت والأراضي التي زُرعت فأثمرت وأدهشت، والجامعات التي أنشئت، فكانت مزار العلماء والأدباء.

وأخذت هذه الحضارة تنهض، وشمسها تسطع على الأمم المجاورة المسلمة والمسيحية على حد سواء، لتبدّد الظلمة وتزيح الجهل، وتنفع البلاد والعباد، وذلكم كله ما دفعنا إلى اختيار موضوع يعالج بعض الجوانب ممّا ذكرت فكان بعنوان "الحركة الثقافية وبعدها الحضاري في الفترة الأموية بالأندلس".

ولم يكن اختيارنا لهذا الموضوع جزافاً، بل كان انطلاقا من رغبتنا في معرفة أسباب مجد المسلمين في الماضي، وقدرتهم على الزحف في بلاد الله الواسعة رافعين راية الإسلام مُتَحَدِّين الدول المسيحية دون خوف أو هوادة، واخترنا دولة بني أمية بالأندلس دون سواها لما مرّت به هذه الدولة من تحديات في سبيل القضاء على الفتن وتحقيق ذاتها، وبسط سلطاتها ونفوذها على الأمم المجاورة، حتى نتخذها معينا لنا في تفسير نكوص الحضارة العربية اليوم، إيماناً منا بأن الله ما كان ليُذِل أمة الإسلام وهي على طريق الحقّ، فمتى زاغت عن كتاب الله وسنة رسوله تشتّت شملها وأصابها الضعف والهوان، كما كانت غايتنا أيضا إبراز دور الأمويين في جعل الأندلس جسرا من جسور التواصل الحضاري بين العالمين المتصارعين الشرق والغرب، ونقلهم للحضارة بجوانبها المختلفة

الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ومختلف أنواع المعارف التي فاضت وغمرت أوروبا بجزارتها، وسعينا إلى الإجابة عن مجموعة من التساؤلات أهمها:

- هل عرفت الفترة الأموية بالأندلس ثقافة خاصة أم هي مجرد تقليد لثقافة المشرق

العربي؟

- هل استطاعت الحركة الثقافية أن تعكس الوجه الحضاري للأمويين بالأندلس؟

- إلى أي مدى وصل الإشعاع الحضاري للأمويين على البلدان المجاورة؟

وللإجابة عن هذه الإشكالات، وضعنا خطة تمثلت في مقدمة ومدخل، وثلاثة فصول، وخاتمة.

فالمدخل عالجنا فيه الحياة السياسية في الأندلس إبان الفترة الأموية .

وتناولنا في الفصل الأول الحركة العلمية بالأندلس في الفترة الأموية مبرزة أهم العلوم التي برعوا فيها، وأهم إسهاماتهم في كل مجال.

وخصصنا الفصل الثاني للحركة الأدبية ضمنته أهم الأغراض الشعرية التي شهدت رواجاً في هذا العهد، وأنواع الفنون النثرية مع عرض نماذج لكل فن من هذه الفنون.

أما الفصل الثالث والأخير فتطرقنا فيه للأبعاد الحضارية إبان فترة الدراسة، وما أضافته الثقافة الأموية للحضارة العربية، وإظهار الدور البارز والفعال للأندلس في الإشعاع الحضاري.

وكانت الخاتمة حصيلة لأهم النتائج التي توصلنا إليها.

وإذا كان لكل بحث منهج يتماشى غالباً مع الخطوط العريضة له، فإن بحثنا هذا ينطبق عليه هذا الأمر، وقد تراءى لنا أن المنهج الوصفي القائم على التحليل هو الأليق بالبحث، مع الاستعانة بالمنهج التاريخي في رصد بعض الأحداث السياسية .

وكل بحث لا يمكن له أن ينطلق من فراغ، بل إن هنالك مظاناً يرتكز عليها ويؤسس مفاهيمه عليها، وهذا ما ينطبق على عملنا هذا الذي استعان بمصادر ومراجع كانت خير عوناً لنا على إزاحة كثير من الأشواك التي اعترضت طريقه، ومن أهم هذه المصادر: "الروض المعطار في خبر الأقطار" لمحمد بن عبد المنعم الحميري، و"البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" لابن عذارى المراكشي، ومن الكتب المتخصصة في السير والتراجم "نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب" لأحمد بن محمد المقرئ التلمساني، و"الحلة السيرة" لمحمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ابن الأبار، و"المقتبس من أبناء الأندلس" لحيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي، ومن الكتب الحديثة "تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس" لخليل إبراهيم السامرائي، و"حضارة العرب في الأندلس" ليفي بروفنسال، و"دولة الإسلام في الأندلس"، محمد عبد الله عنان، "المجتمع الأندلسي في العصر الأموي"، لحسن دويدار.

ولأن كلّ البحوث التي يكتبها أصحابها لا تكاد تخلو من مصاعب وعراقيل، فهذا البحث ليس بدعا من ذلك، فقد واجهتنا مجموعة منها لعل أهمها صعوبة تحصيل المادة العلمية وتصنيفها، فهي متناثرة في مختلف المصادر الأندلسية، كما واجهتنا صعوبة في الحسم في شأن اعتماد اسهامات بعض العلماء في ميادين العلوم المختلفة أو التغاضي عنها، خاصة أن بعضهم امتدّ عمره إلى الدول اللاحقة.

ومع كل مذكرناه هنا ، فإننا نقرّ أن هذه الدراسة لم تتعرض لكل التفاصيل الموسّعة، ولكنها فقط توضح ملامح عامة حاولنا قدر جهدنا وطاقتنا أن نُبينها في صورة نأمل أن تكون أقرب إلى الكمال.

وأخيراً أتقدم بالشكر الجزيل واحترامي لأستاذي الفاضل الدكتور " محمد مرتاض " على تخصيصه جزءاً من وقته لمتابعة هذا البحث وتصويب أخطائه، وعلى رحابة صدره وسعة صدره، وإفادته لي بخبرته الطويلة في هذا المجال، كما أشكر لجنة المناقشة الكريمة لتحملهم عناء قراءة هذه الرسالة ومناقشتها، والله الموقّ.

تلمسان في 14 رجب 1444 هـ

الموافق ل 6 فبراير 2023.

حفيظة صابر



الأوضاع السياسية لدولة بني أمية بالأندلس :

1-أحوال الأندلس قبل عهد الإمارة الأموية.

2-تأسيس الدولة الأموية بالأندلس.

سُميت قديماً شبه جزيرة ايبيريا، نسبة إلى أقدم أمة عمّرت الأرض يقال لها الإيبير (Ibère)¹، وعندما جاء الرومان أطلقوا عليها اسم اسبانيا، أمّا مصطلح الأندلس الذي يشمل المناطق التي حكمها العرب والمسلمون من شبه الجزيرة،² فيعود إلى الأندليش نسبة إلى الوندال الذين سكنوها قديماً،³ وفتحت في خلافة الوليد بن عبد الملك، على يد طارق بن زياد و موسى بن نصير سنة 92 هـ / 711م، ثم انحصر المد العربي بها فترك الركن الشمالي الغربي، واقتصر على الباقي من البلاد⁴.

وتمثلت غاية العرب من الفتوحات تحرير الشعوب الأخرى من الجهل والوثنية، ونشر الإسلام وتعاليمه السّميحة، ليُنير الدّرب لها ويأخذ بيدها نحو التقدّم والازدهار، ولم تكن غايتهم يوماً السعي وراء مغنمٍ أو كسبٍ مادي فنجحوا- في شمال أفريقيا - في كسب سكان البلاد الأصليين إلى جانبهم، عندما أدرك هؤلاء جوهر الرّسالة السّامية التي يحملها العرب، فتعاونوا معهم وامتزجوا بهم، ووحد الإسلام بين الاثنين، وأصبحوا قوة كبيرة في المنطقة، واعتمد العرب اعتماداً كبيراً عليهم - البربر - لاسيما في عهد الوالي موسى بن نصير، حيث استعان هذا الأخير بزعماء من البربر بقيادة الجيوش الإسلامية في استكمال تحرير شمال أفريقيا⁵، وبفضل هذا التعاون الفعّال استطاع العرب أن يحقّقوا فتح اسبانيا.

¹ ينظر الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، شكيب أرسلان، مؤسسة الهداوي للتعليم والثقافة، مصر، ج1، ص:31.
² ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، تحقيق عبد الواحد ذنون طه وناطق صالح مصلوب، دار الكتاب الجديد المتحدة - بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص:11.

³ ينظر المسالك والممالك، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، دار الغرب الإسلامي، 1992، ج2، ص:890.

⁴ ينظر موسوعة تاريخ الأندلس، تاريخ وفكر وحضارة وتراث، حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1996، ج1، ص:10.

⁵ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص:23.

1- أحوال الأندلس قبل عهد الإمارة :

بعد الفتح الإسلامي للأندلس تعاقب على حكمها مجموعة من الولاة التابعين للدولة الأموية بالشام وبلغ عددهم اثني وعشرين والياً¹، يمارسون السلطة باسم الخليفة الأموي، ووالي شمال افريقيا، واختلفت طريقة تعيينهم من والٍ إلى آخر، فمنهم من عُيِّن من قبل والي السابق، ومنهم من عيَّنه الخليفة الأموي، والبعض نصَّبه والي شمال افريقيا، والبقية بايعهم مُسلمو الأندلس رغبة منهم في فصل الأندلس عن شمال افريقيا²، واتَّخذ المسلمون قرطبة عاصمة لهم لقربها من بلاد المسلمين، بدلاً من طليطلة-عاصمة بلاد الأندلس سابقاً- التي تقع في الشمال قريبة من بلاد فرنسا وهي بذلك غير آمنة أن تكون عاصمة للبلاد³.

وبعد استقرار المسلمين انشغلوا بعمارة الأرض، واستوطنوا عواصم الأرياف والقرى التي غنموها، وأشرفوا على المزارعين من أهل البلاد، واهتموا بفلاحة الأرض، وأسَّسوا الإدارة، وشرعوا في تعليم اللغة العربية، وبناء المساجد، وإنشاء القناطر وأشهرها قنطرة قُرْبُبة⁴، التي تعدّ من أعجب القناطر الموجودة في أوروبا آنذاك، وتشييد دُور للأسلحة وصناعة السفن، فبدأت الجيوش الإسلامية تقوى وتتعاظم في هذه المنطقة، وتلتفت للجهاد مواصلة الزحف لتصل إلى جنوب فرنسا⁵، رافعة راية الإسلام والمسلمين.

¹ ينظر موسوعة تاريخ الأندلس، تاريخ وفكر وحضارة وتراث، حسين مؤنس، ص: 28

² ينظر الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال افريقيا والأندلس، عبدالواحد دنون طه، دارالمدار الإسلامي، لبنان، ط، 2004، ص: 285-286

³ ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى المراكشي، ت: ج.س كولان وإ. ليفي برونفسال، دار الثقافة لبنان، ط2، 1980، ج2، ص: 25

⁴ ينظر نفتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر للطباعة والنشر، 1968، ج1، ص: 235

⁵ ينظر تاريخ دولة الأندلس، ايناس حسني البهجي، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، 2016، ص: 97.

ولم ينصب تركيزهم على النصارى، إذ تركوا كنائسهم، وما كانوا يُحوّلونها إلى مساجد إلاّ إذا وافقوا- النصارى- على بيعها لهم، وأمّا إن رفضوا البيع احترام المسلمون قرارهم¹، تاركين لهم مساحة من الحرّية العقائدية.

كما تنوّعت العناصر البشرية التي سكنت الأندلس، فمنهم البلديون الذين عدّوا أنفسهم المالكين الحقيقيين للبلاد، وهم أهل البلد وفتحوها ممّن صحبوا الفاتح موسى بن نصير وطارق بن زياد،² وهناك مجموعة أخرى من العرب دخلت الأندلس بعد فترة وجيزة من الفتح، أصلهم من القبائل العربية التي كانت ساكنة في بلاد الشام، أرسلهم الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك إلى شمال إفريقيا للقضاء على تمرد البربر هناك،³ ووُجد البربر الذين دخلوا الأندلس مع طارق بن زياد، وينتمون إلى العديد من قبائل البتر والبرانس في شمال إفريقيا⁴، بالإضافة إلى اليهود الذين دخلوا البلاد عن طريق التجارة، ثم مالبتوا أن كوّنوا أحياء خاصة بهم قبل الفتح الإسلامي،⁵ وكذلك المستعربون الذين بقوا على دين المسيحية بعد فتح الأندلس، وعاشوا في كنف دولة المسلمين، وتأثّروا بلغتهم وثقافتهم وأسلوب عيشهم،⁶ ونشأت طبقة اجتماعية جديدة، سمّيت بالمولدين وهي خليط من دم أهل البلاد الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام ودم البربر أو العرب الفاتحين⁷، ومن الطّبعي أن تتصل هذه العناصر بعضها ببعض، ويأخذ كل منها عن الآخر ويعطيه، وتمتزج عقلياتهم المختلفة لتكون حضارة إسلامية تحمل صبغة مميزة.

¹ ينظر فجر الأندلس، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي، إلى قيام الدولة الأموية، حسين مؤنس، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2002، ص:350.

² ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص:64.

³ ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري، ج1، ص:35-37.

⁴ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص:80.

⁵ اليهود في الأندلس، محمد بحر عبدالمجيد، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، 1970، ص:6.

⁶ ينظر تاريخ دولة الأندلس، ايناس حسني البهجي، ص:97.

⁷ ينظر المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسين الدويدار، مطبعة الحسين الإسلامية، جامعة الأزهر، ط1، 1994، ص:29.

غير أن البلاد سرعان ماتفتشى فيها الاضطراب السياسي، وغياب الاستقرار، بسبب العصبية القبلية بين العرب من جهة وبين البربر من جهة أخرى¹، وغلب عليها الضعف وانتشار الظلم والرشوة وطمع القضاة في أموال الرعيّة، حتى فرغ بيت مال المسلمين، وذلك في زمن الوالي عبد الملك² بن قطن³، وفي ولاية يوسف الفهري⁴ تعرضت البلاد إلى جفاف شديد، ولّد مجاعة جعلت أغلب المسلمين - في المناطق الشمالية خاصة - يفرّون نحو شمال إفريقيا⁵، فلم يعد باستطاعتهم مقاومة المسيحيين الذين استغلوا الفرصة وشرعوا في تنصير المسلمين⁶، واستطاع النصارى أن يتقدموا ويحتلوا جزءاً كبيراً من هذه الأرض دون جهد، وبدأ العرب يخسرون ربع ما فتحوه من الأندلس،⁷ وهذه الظروف لم تكن تسمح للمسلمين بمواصلة الفتحات الإسلامية بنفس القوة التي عرفوها سابقاً⁸.

وفي ظلّ هذه الفوضى والاضطراب، ظنّ البعض أن الإسلام بدأ يزول من الأندلس، ولكن مشيئة الله اقتضت أن يفرّ رجل من الشام يُعيد للإسلام مجده من جديد.

2- تأسيس الدولة الأموية:

¹ ينظر موسوعة تاريخ الأندلس، حسين مؤنس، ص: 28.

² عبد الملك بن قطن بن عصمة بن أنيس بن عبد الله بن جحوان بن عمرو بن حبيب بن عمرو بن شيان بن محارب الفهري، والي الأندلس لمرتين الأولى 114هـ، والثانية 123هـ، (ينظر جذوة المقتبس، الحميدي، ص: 287).

³ ينظر الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، عبد الواحد دنون طه، ص: 304-305.

⁴ يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب ابن أبي عبدة بن عقبة بن نافع الفهري القرشي (72هـ-142)، آخر ولاة الأندلس (ينظر أخبار مجموعة في فتح الأندلس، مؤلف مجهول، ص: 28).

⁵ المرجع نفسه، ص: 353.

⁶ ينظر أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، مؤلف مجهول، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت ط 2، 1989، ص: 61-62.

⁷ ينظر فجر الأندلس، حسين مؤنس، ص: 261-262.

⁸ ينظر موسوعة تاريخ الأندلس، حسين مؤنس، ص: 41.

بعد قيام الخلافة العباسية وسقوط الدولة الأموية في الشام، دأب العباسيون على ملاحقة الأمويين واستئصالهم في كافة أرجاء دولتهم، ويشاء الله أن يفلت من بين أيديهم الأمير عبدالرحمن بن معاوية بن هشام حفيد هشام بن عبد الملك عاشر الخلفاء الأمويين¹، وكانت الأندلس في تلك الفترة مجرد ولاية تابعة لولاية إفريقية إحدى ولايات الدولة الأموية، تسودها الصراعات الداخلية²، بين العرب المضرية والعرب اليمانية بسبب العصبية القبلية³، وفي تلك الأثناء هرب عبد الرحمن إلى فلسطين، ومنها إلى مصر ثم المغرب، وبعد خمس سنوات من التجول والتخفى عن عيون العباسيين، مكث عند أخواله الذين أكرموه، وراح يُعدّ العدة ويلتقط أنفاسه، ويرسم الخطوط العريضة لإقامة دولة يجبي بها أمجاد آبائه وأجداده الأمويين، وهنا أرسل عبد الرحمن أحد أتباعه وهو مولاه بدر، ليجمع كلمة الذين يدينون لبني أمية بالولاء والانتماء، فرحّب به أنصار بني أمية، ورأوا فيه شخصاً جديراً بأن يتولى زعامتهم⁴، وعبر البحر إلى شاطئ الأندلس، وهناك انضم إليه أنصار بني أمية من اليمينين لأنهم كانوا مغلوبين على أمرهم، وهزم المضريين بقيادة يوسف الفهري* في موقعة المصارة في 138هـ⁵، واستولى على مدن البلاد الأندلسية الجنوبية دون مقاومة، ثم راح يستولى على قرطبة عاصمة ولاية الأندلس سنة 141هـ، وأعلن نفسه أميراً، وقضى سنوات حكمه في تثبيت أركان دولته⁶، وتم له ما أراد بعد بضع

¹ ينظر أخبار مجموعة في فتح الأندلس، مؤلف مجهول، ص: 50-51.

² ينظر الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار التوفيقية للطباعة، 2008، ج5، ص: 121.

³ تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج4، ص: 155.

⁴ ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ص: 40-41..

* أبو محمد يوسف بن عبد الرحمن الفهري، آخر ولاة الأندلس، تولاها باتفاق المضرية واليمانية لأنه قرشي سنة 129هـ، وهو ابن

57 سنة، وفي عهد الأمير عبد الرحمن بن معاوية قام يوسف الفهري بثورة ضده، لكنها باءت بالفشل، ثم قتل بعدها عند طليطلة

على يد عبد الله بن عمر الأنصاري سنة 142هـ، (ينظر أخبار مجموعة ص: 91-100)

⁵ تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج4، ص: 155.

⁶ الفتح والاستقرار العربي في شمال إفريقيا والأندلس، عبد الواحد دنون طه، ص: 359.

سنوات فقط من تولى العباسيين عرش الخلافة في بغداد، وانفصلت بذلك الأندلس عن الخلافة العباسية انفصالا سياسيا.

عمل عبد الرحمن الداخل* على القضاء على الثورات الداخلية التي اندلعت في كافة أرجاء الأندلس، بتكوين جيش قوي، واهتم بالعلم وأهله، عُرف بعدله وميله إلى الشعر، ومما قاله يتشوق إلى مرابعه الأولى بالشّام:

| | |
|--------------------------------------|---------------------------|
| أقبر من بعضي السّلام لبعضي | أيها الراكب الميّم أرضي |
| وفؤادي ومالكـيه بأرض | إن جسي كما علمت بأرض |
| وطوى البين عن جفوني غمضي | قدر البين بيننا فافترقنا |
| فعمى باجتماعنا سوف يقضي ¹ | قد قضى الله بالفراق علينا |

بدأ عمران قرطبة على يده، فأنشأ مسجدها الجامع، أكبر أثرٍ معماري في تاريخ الغرب الإسلامي، وبني قصر الإمارة، وأمر بتجديد سور قرطبة²، فكانت من أهم أعماله الجليلة التي حفظها التاريخ.

لُقّب بصقر قريش وذلك أن أبا جعفر المنصور قال يوما لبعض جلسائه خبّروني: من صقر قريش من الملوك؟، ثم أجابهم: صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلداً أعجميا، منفردا بنفسه فمصرّ الأمصار، وجنّد الأجناد،

* عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي بن أمية بربرية من سبي المغرب تسمى راحا أو رداحا، وفي عبد شمس بن عبد مناف يلتقي نسبه بنسب رسول الله، طويل القد، أصهب، أعور، خفيف العارضين، بوجهه خال، له ضفيرتان، وكان يسمى، صقر بني أمية، ولده الذكور أحد عشر، والإناث تسع (ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج2، ص: 47-48).

¹ المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، محيي الدين، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2006، ص: 24.

² ينظر موسوعة تاريخ الأندلس، حسين مؤنس، ص: 59.

ودون الدواوين، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه، بحسن تدبيره، وشدة شكيمة¹، وبعد حياة حافلة بالإنجازات وضع خلالها قواعد دولة إسلامية قوية، ووحد أراضي الأندلس وحارب الممالك النصرانية في الشمال، اختتم حياته ببناء المسجد الجامع بقرطبة.²

ثم تولى الحكم بعده ابنه هشام (ت180هـ)*، وسنه حينئذٍ خمس وثلاثون سنة، ودامت ولايته سبع سنوات، سار فيها على نهج والده في إرساء قواعد دولة الإسلام بالأندلس بحسن سيرته، وتحريره للعدل، وعودته المرضى، وحضور الجنائز،³ والإكثار من الصدقة، خاصة صدقة السرّ، إذ يخرج في الليالي الشديدة المطر ومعه أكياس النقود، يوزعها على الفقراء والمساكين، وظلّ على هذا النحو إلى أن مات⁴، ومن محاسنه أنه جدّد قنطرة قرطبة، وأكمل بناء الجامع الذي شرع أبوه في بنائه.⁵

ثم ولي بعده ابنه الحكم⁶ (154هـ-206هـ) وله اثنتان وعشرون سنة، وكان الحكم في صدر ولايته قد انهك في لذاته، واجتمع أهل العلم والورع بقرطبة وثاروا ضده وحاولوا خلعه،⁷ وأنشدوا أشعار الزهد في حقه، وأكثروا من التعريض به قائلين: "يا أيها المسرف المتماذي في طغيانه، المصّر على كبره، المتهاون بأمر ربه، أفق من سكرتك، وتنبّه من غفلتك" مما أثار غضبه وأشعل حقه عليهم، ولم يتوقف الأمر عند ذلك القدر، بل راحوا

¹ ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ص: 59.

² ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج1، ص: 560.

* هشام بن عبدالرحمن، ويكنى أبا الوليد، أبيض مُشرب بحمرة، بعينه حول، فصيح اللسان، وسبع الجناب، حاكم بالسنة والكتاب، كريم، عادل، فاضل، متواضع، عاقل، لم تعرف منه هفوة في حديثه، ولا زلة في أيام صباه. (ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ص: 65-66)

³ ينظر جمهرة أنساب العرب، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر، 1962، ص: 94.

⁴ ينظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المراكشي، ص: 24.

⁵ ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج1، ص: 338.

* ويكنى أبا العاص أمّه جارية اسمها زخرف، وكان أسمرالبشرة، طويلاً، وأشماً، نحيفاً (ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج1، ص: 341).

⁷ تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، ج4، ص: 162.

يخططون للعصيان بتحريض العامة وتشجيعهم على الثورة ضده، فقاوم الثورات بأسلوب غير مسبوق في فترة الإمارة ببلاد الأندلس،¹ ومما يحكى عنه في هذه الواقعة - بعدما حاصر الناس القصر وأرادوا قتله - أنه طلب من أحد غلمانته أن يأتيه بالغالية^{2*}، فأبطأ الغلام وتلكأ، فأعاد ذلك عليه فقال يا مولاي، هذا وقت الغالية؟ فقال له ويلك يا ابن الفاعلة! بم يعرف رأسي إذا قطع من رؤوس العامة إن لم يكن مضمخًا بالغالية؟³، ثم خرج على أهل حي الريض، وهزمهم شرَّ هزيمة، وأمر بهدم ديارهم ومساجدهم وحرقتها، وقتل العديد منهم وأمر بنفي البقية منهم عن البلاد،⁴، فسُمي الحكم الربضي لذلك، وعرف عصره اضطراب الأوضاع وكثرة الحروب والفتن مع الثوار المخالفين له، فعمل على تثبيت النظام والاستقرار، والاستكثار من الجند والمماليك لإخمادها.

وقام بأمره من بعده ابنه عبد الرحمن^{5*} (176هـ - 238هـ) الملقب بالأوسط، وكان ملماً بالشريعة والفلسفة، وأيامه أيام هدوء وسكينة حتى سميت بالعروس، وكثرت الأموال عنده،⁶ وانتقلت الأندلس من البساطة إلى ترف الحضارة، وأُخذت القصور والمتنزهات وأنشئت المنى⁷، وعاش غالبية أفراد المجتمع في رخاء⁸، وهو أول من أقام رسوم المملكة،⁹ وبني الجسور، وزاد في جامع قرطبة رواقين، وبني بالأندلس جوامع كثيرة،¹⁰ وضرب الدرهم، واهتم بالعلوم من فقه وأدب وقرآن وحديث، حتى نبغ فيها وشجع العلماء وأجزل لهم

¹ نفع الطيب، المقرئ، ج1، ص379.

* الغالية: أخلاط من الطيب، كالمسك والعنبر ونحوهما.

³ ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج2، ص:62.

⁴ ينظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المراكشي، ص:25.

* أمه تسمى حلاوة، وصفته: طويل، أسمر، أقي، أعين، أكحل، عظيم اللحية (ينظر البيان المغرب، ص:81).

⁶ ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج1، ص:347.

⁷ المنى جمع منية وهي بيت ريفي تحيط به حدائق.

⁸ ينظر موسوعة تاريخ الأندلس، حسين مؤنس، ص:97.

⁹ ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج1، ص:347.

¹⁰ ينظر تاريخ افتتاح الأندلس، ابن قوطية، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني بيروت، ط2، 1989، ص:78.

العطايا،¹ وأدخل كتب الأوائل إلى الأندلس وحرص على اقتنائها،² فبلغت البلاد مرحلة متقدمة من المدنية في عهده، وأضحت مركزا حضاريا في العالم الإسلامي، بما عرفته من ازدهار لامثيل له في حركة العلوم والعمارة والفن.

وبعد الرّخاء الذي عرفته البلاد شاء الله أن يصيبها مجاعة مات فيها أكثر الخلق، في عهد الأمير محمد³ (207هـ-273هـ)، الذي ابتلي بكثرة الفتن واضطراب الأحوال في آخر أيامه⁴، وتولى الإمارة بعده ابنه المنذر (229هـ-275هـ) ولم تطل مدّته حيث أقام في الملك سنتين لا أكثر، وكان كثير الإهتمام بالشّعراء، عُرف بشجاعته وصرامته وعزمه وحزمه، وكان أبطال الرجال وأنجادهم من أهل الفتنة يدعون إليه دون محنة، ويرسلون إليه بالطاعة قبل أن يطلبها، حتى قيل عنه: لو عاش المنذر عاما واحدا زائداً، لم يبق بربة منافق،⁵ وبعد وفاته تقلد الحكم أخوه عبد الله⁶ (229هـ-300هـ) كثير النسك والورع، هُجرت اللذات في أيامه، وقلّ اللّهُو من جميع خاصته وعامته، وكثر أعمال الخير وإظهار البرّ والتقوى في كل طبقة من رجاله ورعيته⁷، غير أنّ الأمور تفاقمت في ولايته، وهاج الثّوار عليه من كل ناحية، وكثر المخالفون لسياسته واشتعلت نيران الفتنة،⁸ وعظّم البلاء حتى أوشكت الإمارة أن تزول .

¹ ينظر أخبار مجموعة في فتح الأندلس، مؤلف مجهول، ص: 126.

² ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج 2، ص: 91.

* محمد بن عبدالرحمن، فصيح، بليغ، عظيم الأناة، متنزه عن القبح، يؤثر الحق وأهله، لا يسمع من باغ، ولا يلتفت إلى قول زائع، وكان عاقلا، على أخلاق جميلة ومكارم حميدة، ذا بديهة وروية (ينظر البيان المغرب، ص: 107).

⁴ ينظر تاريخ افتتاح الأندلس، ابن قوطية، ص: 100.

⁵ ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج 2، ص: 120.

* وصفته: أبيض مشرب بحمرة، أصهب، أزرق، أفتى الأنف، رعة إلى الطول (ينظر البيان المغرب، ص: 151).

⁷ ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج 2، ص: 153.

⁸ ينظر أخبار مجموعة في فتح الأندلس، مؤلف مجهول، ص: 133.

ومَنَّ اللهُ على المسلمين بقائد فذٍّ، وَحَدَّ الصَّفوف وَقَوَّى الأركان وَرَفَعَ من شأن البلاد، هو الخليفة عبدالرحمن الناصر¹* حفيد الأمير عبدالله (277هـ-350هـ)، الذي تصدَّى لأعمامه وأعمام أبيه واحتاز الحكم دونهم، فأطفأ تلك النيران²، واستعادت البلاد وحدتها السَّياسية وقوّتها العسكرية وهيبته بعد أن خاض حروباً طويلة استطاع من خلالها السَّيطرة على البلاد تحت السلطة المركزية في قرطبة³، ولم يتعب من الجهاد في سبيل رفع راية الإسلام، مكثراً من الغزوات والفتوحات، وشغف بالبناء وال عمران فشيد القصور، واتَّخذ المصانع، وبنى مدينة الزهراء في غاية الأبهة والجمال⁴، وأقام فيها قصرًا عظيمًا آية في الفخامة والجلال سمّاه قصر الخلافة، أحاطه بالرياض الغناء والجنان الساحرة، وجعل جدرانه من الرخام المزدان بالذهب، وزينه بالتماثيل والصُّور البديعة، كما جعل في وسطه صهريجًا عظيمًا ملاءه بالزُّبِق، وخصص الجناح الشرقي من القصر لإقامته، وزوَّده بأنفس التحف والعجائب، من بينها، تماثيل من الذهب المرصع بالجواهر يخرج الماء من أفواهها إلى الحوض⁵، وغدَّت قرطبة في عهده واحدة من أعظم مدن العالم، وكثر ساكنوها، وأنشأ عددًا من المنتزهات العظيمة في ظاهرها و جلب لها الماء من الجبال⁶.

واهتمَّ بالتَّعليم ونشره بين شرائح المجتمع، فانعدمت الأمية تمامًا، وازدهرت التَّجارة والزراعة والصناعة وقوي إقتصاد البلاد⁷، ونقل دار السِّكة من قرطبة إلى الزهراء⁸، فجعل الأندلس وجهة للبعثات الدبلوماسية من أقطار مختلفة، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك

* أمه تدعى مزنة، وصفته: أبيض، ربة، أشهل، حسن الجسم، جميل، بهي، يخضب بالسواد (ينظر البيان المغرب، ج2، ص: 156)

² ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج1، ص: 353.

³ ينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان، ص: 426.

⁴ ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج2، ص: 222-225.

⁵ ينظر المصدر نفسه، ص: 231.

⁶ ينظر دولة الإسلام في الأندلس محمد عنان، مكتبة الخانجي القاهرة، 1997، ج2، ص: 436.

⁷ ينظر التاريخ الإسلامي الوجيز، محمد سهيل طقوش، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط5، 2011، ص: 244م

⁸ موسوعة تاريخ الأندلس، حسين مؤنس، ص: 312.

الروم والإفريقية والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه تستجدي عطفه، وتلتمس رضاه¹، سعيًا لطلب العلم أو الدعم منه .

وسار الحكم* المستنصر بالله (302هـ-366هـ) على نهج أبيه، فكانت له تجرّبه في الشؤون الإدارية والعسكرية اكتسبها نتيجة مصاحبة لوالده، حافظ على مكتسبات والده، وحماها من غارات الأسيان في الخارج،² لبقوته، وحزمه، كما عرف بغزارة علمه وأدبه يقضي الكثير من الوقت في القراءة لكن دون أن يشغله ذلك عن القيام بأعباء الدولة³، وكان رجل دولة وحرب وسياسة، قام بالعديد من الفتوحات، واهتم بالعلم وأعلى من شأن العلماء، وحرص على اقتناء أمهات الكتب مهما غلى ثمنها، وأكثر من النسخ، فحوت المكتبة في عهده نفائس الكتب⁴، وبني عددًا من المدارس، واتخذ المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن⁵، كانت جامعة قرطبة من أشهر جامعات العالم ومركزها المسجد الجامع، تدرس فيها مختلف أنواع العلوم والمعرفة وأنشأ في القصر مكتبة بني لها بناءً خاصًا حتى أصبحت أعظم مكتبة في العصور الوسطى، وقد قدر المؤرخون كتبها بأربعمئة ألف مجلد، ولما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها⁶، لضخامة ماحوته من نفائس الكتب، وهذا خير دليل على اهتمام بني أمية بالعلم وتعظيمهم لأصحابه.

وعرفت الأندلس حضارة لا مثيل لها في زمنه، غير أنّ وفاته كانت نهاية عصر الخلافة لتبدأ فترة جديدة سميت بالحجابه كون السلطة أصبحت بيد حاجب الدولة، فولي العهد

¹ ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج1، ص:366.

* أمه اسمها مهرجان، وصفته أبيض مشرب بحمرة، أعين، أفتى، جهير الصوت، قصير الساقين، ضخم الجسم، غليظ العنق، عظيم السواعد، أقمم (ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج2، ص:233).

² ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج1، ص:382-383.

³ ينظر التاريخ الإسلامي الوجيز، محمد سهيل طقوش، ص:245.

⁴ ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج1، ص:395..

⁵ ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج2، ص:240.

⁶ ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج1، ص:395.

هشام بن الحكم*، الملقب بالمؤيد، تولى الخلافة وعمره عشرة أعوام لا يفقه شيئاً في أمور السلطة، وتولى حجابته وتنفيذ أموره وتدير مملكته، أبو عامر محمد بن عبد الله* (393هـ)، الملقب بالمنصور الذي تعاون مع أم هشام صبح ووعدها باستقرار الملك لابنها، فأمدته المرأة بالأموال،¹ فوقع الخليفة الصبي تحت سيطرته، ورأى أن يقتل المغيرة بن عبد الرحمن الناصر - كان المرشح للخلافة بعد أخيه الحكم - وظلّ يُدبر المكائد والمؤامرات، واستمال العساكر إليه، حتى صار المتغلب على الأمور، وأشاع أنّ السلطان فوّض إليه النظر في أمر الملك، وتخلّى له عنه لعبادة ربه²، فدانت له أقطار الأندلس كلها وأمنت به، ولم يضطرب عليه شيء منها أيام حياته، لعظم هيئته وفرط سياسته.

وواصل المنصور مسيرة خلفاء بني أمية في الأندلس فحكم بالعدل، وأكثر من الصدقات، وأجزل على الجند العطاء، وقمع أهل البدع، وشجّع العلم والعلماء³، فكان له مجلس في كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرتة ما كان مقيماً بقرطبة، وأكثر من الغزوات، وبلغ من إفراط حبه للغزو أنه ربما خرج للمصلّى يوم العيد، فلا يرجع إلى قصره، وينصرف من المصلّى إلى الجهاد، وتتبعه عساكره وتلحق به واحداً تلو الآخر، فلا يصل إلى أوائل بلاد الروم إلّا وقد لحقه عدد كبير من العساكر، فملاً الأندلس غنائم

* أمه: صبح، وصفته: أبيض، أشهل، أعين، خفيف العارضين، لحيته إلى الحمرة، حسن الجسم، قصير الساقين، كثير العبادة وتلاوة القرآن ودراسة العلوم، يكثر الصدقات على الضعفاء والمساكين (ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج2، ص:253).

* أبو عامر محمد بن عبد الله بن أبي عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن عامر المعافري القحطاني، وكان أصل ابن أبي عامر هذا من المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء، من قرية تسمى طرّش، على نهر يسمى وادي آروا، ورد شاباً إلى قرطبة، فطلب العلم والأدب وسمع الحديث وتميز في ذلك، وكانت له همّة يُحدث بها نفسه بإدراك معالي الأمور (ينظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد بن علي التميمي، ص:30).

¹ ينظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد بن علي التميمي، ص:37.

² ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج2، ص:278.

³ ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج1، ص:396.

وسببًا من بنات الروم وأولادهم ونسائهم¹، ومحا رسم الخلافة نهائيًا، وكتب اسمه في السكة والطرز²، وأولى عناية للبناء والتعمير، فبنى مدينته الزاهرة، وتوسّع في تشييد أبنيتها، وأقامها على نهر قرطبة، وجعلها في أهبى حلّة وأحسن صورة، وأمر ببناء قصرها المعروف بالزاهرة.³

وكان المنصور جزعًا على مستقبل إرثه الذي أقامه في أحضان الخلافة الأموية، مدركًا أن مكتسباته لن تعيش طويلًا بعد غيابه لأنها ارتبطت بشخصه وبمنجزاته غير أنّ جهوده أفرزت في النهاية حكمًا وراثيًا، فخلفه ابنه الأكبر أبو مروان عبد الملك بن أبي عامر (399هـ)*، فجرى في الغزو والسياسة عن هشام المؤيد على سنن أبيه، وعرفت أيامه أعيادًا في الخصب والأمان⁴، سعى في بداية عهده إلى استرضاء الشعب، فأسقط سدس الجباية عن سائر الناس للتخفيف عنهم والرفق بهم، وبث شعور الرضى والاستبشار بالعهد الجديد⁵ دامت سبع سنين، إلى أن مات وثار الفتن بعده⁶، وكانت وفاته نذيرًا بانقلاب كبير ستشهده الأندلس، واضطراب في رخائها واستقرارها.

ثم تقلد المنصب بعده أخوه عبد الرحمن، وتسمى وليّ العهد بعدما تقرب إلى الخليفة بكافة السبل، وتمكّن من استصدار قرار منه باسناد ولاية العهد إليه، وعُرف بتصرفاته السيئة الغربية، التي تسببت في اضطراب أموره، ونقمة أهل دولته عليه، فلقي بعدها حتفه⁷ على يد محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر*، سنة 399هـ

¹ ينظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد بن علي التميمي، ص: 37.

² ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج 1، ص: 397-398.

³ ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج 2، ص: 275.

* تلقب بالمظفر، وأمه الذلفاء، عرف بزهه بوالديه، ومراقبته لربه، ومحبته للصالحين، شجاع، كسب محبة الناس له لعفته ونزاهته ونقاء سريره (ينظر أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، لسان الدين بن الخطيب، ص: 74)

⁴ ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج 1، ص: 423.

⁵ ينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان، ص: 609.

⁶ ينظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد بن علي التميمي، ص: 28.

⁷ ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج 1، ص: 426.

الذي خلع هشامًا المؤيد، وما إن استقر بمنصبه أطلق العنان لطغيانه وأهوائه، وأخذ يضطهد الناس، ويسومهم سوء العذاب، وخصّ البربر منهم بالبغض¹ والقتل والتنكيل بهم، فذبح الأطفال وشقّ بطون الحوامل وسبى الجميلات من النساء، وأصبح من حق أي نصراني أن يختار ما يشاء من بنات المسلمين ليأخذها، ويقف وسط السوق ويهزأ بالرسول صلى الله عليه وسلم كيفما شاء وهو آمن العقوبة، ومن دبت فيه الغيرة واعترض على ذلك، نصحه من حضر من المسلمين بالاشتغال بمصالحه،² فقد أذاق الله تعالى المسلمين بأس بعضهم البعض، وسلّطهم على أنفسهم، وأراهم الدّل بعد سنوات من العزّ والرّحاء.

وبقي الأمر كذلك إلى أن قتل المهدي سنة 400هـ، بأمر من هشام المؤيد واسترد الخلافة، بعد سلسلة من الخطوب والأحداث المثيرة، وكان يومئذ كهلا في نحو السابعة والأربعين من عمره³، غير أن سليمان المستعين بالله سلبه الخلافة⁴، وتميّزت فترة حكمه بالاضطراب والفوضى في قرطبة وسائر أنحاء الأندلس، وسيطر القلق على النفوس، وتولى البربر زمام الأمور، واشتدّ طغيانهم وتحكمهم، وجاشت أهواء الطامعين من زعمائهم، حتى تمخضت عن انقلاب جديد في مصير الخلافة⁵.

وبعد اختلال دعوة بني أمية، تفرّق أهلها فرقًا، وتغلب في كل جهة منها متغلب، وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه، وتقسّموا ألقاب الخلافة، فمنهم من تسمى

* أبو الوليد محمد بن هشام، تلقب بالمهدي، أمه أم ولد تسمى مزنة، ولقبها كبارها تعرف بالعرجاء لخلع كان بها، ولد محمد سنة 366هـ، وصف بأنه ثائر جسور، خليع ماجن، لا يبالي، أبيض أشقر أشهل تام القامة به انحاء تلوه صفرة، له ولد وحيد اسمه عبيد الله (ينظر جمهرة أنساب العرب، ابن حزم، ص 101)

¹ ينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان، ج 1، ص: 643.

² ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج 2، ص: 278.

³ ينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان، ج 1، ص: 649.

⁴ ينظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد بن علي التميمي، ص: 39.

⁵ ينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان، ج 1، ص: 654.

بالمعتضد، والناصر، والمستكفي، وبعضهم تسمى بالمأمون، وآخر تسمى بالمستعين، والمقتدر، والمعتمد، والموفق، والمتوكل، إلى غير ذلك من الألقاب الخلافية¹، وغاصت الأندلس في مستنقع الفتنة والفوضى حتى انفردت عقدها إلى دويلات متصارعة عرفت تاريخياً بملوك الطوائف.

وفي سنة 422هـ أسدل الستار على تاريخ دولة من أعظم دول الإسلام، زحفت بجيوشها في الأراضي المسيحية باثة الرعب في نفوس أعدائها الذين انقادوا لها صاغرين طائعين طامحين في كسب ودّها، واستجداء عطفها ورضائها، مُخْلِفة حضارة عظيمة مسّت مختلف الجوانب، وظلّت آثارها شاهدة عليها رغم نوائب الدهر، سنتطرق إليها في الفصول اللاحقة.

وفي ذلك يقول ابن حزم: «وانقطعت دولة بني مروان بالمشرق بمروان بن محمد الجعدي، وكانت على علاقتها دولة عربية لم يتخذ ملوكها قاعدة لأنفسهم، إنّما كان سكنى كل أمير منهم في داره وضيعته اللّتان كانتا له قبل الخلافة، ولا أكثروا احتجان الأموال، ولا بناء القصور، ولا استعملوا مع المسلمين أن يخاطبواهم بالتمويل ولا التسويد² ويكاتبواهم بالعبودية والملك، ولا تقبيل الأرض ولا رجل ولا يد، وإنّما كان غرضهم الطاعة الصحيحة من التولية والعزل في أقاصي البلاد، فكانوا يعزلون العمال ويولّون الأخر، في الأندلس، وفي السند، وفي خراسان، وفي إرمينية، وفي اليمن، فما بين هذه البلاد، وبعثوا إليها الجيوش، وولّوا عليها من ارتضوا من العمال، وملكوا أكثر الدّنيا، فلم يُملك أحد من ملوك الدنيا ما ملكوه من الأرض، إلى أن تغلّب عليهم بنو العباس بالمشرق، وانقطع بها ملكهم، فسار منهم عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس، وملكها هو وبنوه، وقامت بها دولة بني أمية نحو الثلاثمائة سنة، فلم يك في دول الإسلام أنبل منها، ولا

¹ ينظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد بن علي التميمي، ص: 50.

² يقصد " بالتمويل " قولهم: " يا مولاي "، ويقصد " بالتسويد " قولهم " يا سيدي ".

أكثر نصراً على أهل الشرك، ولا أجمع لخلال الخير، وبهدمها انهدمت الأندلس إلى الآن، وذهب بهاء الدنيا بزهاجها»¹، فهذه الرسالة تقرّ بفضل الأمويين على الأندلس ودورهم في بناء حضارتها، والتصدي لأعدائها، رغبة منهم في نشر الإسلام وبسط الاستقرار بالبلاد، ولم يكن المال أو الجاه، أو الملك الزائل غايتهم يوماً.

رسائل ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، تحقيق حسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط2، 1987، ج2، ص145-146.



الحركة العلمية في الفترة الأموية بالأندلس:

- 1- عوامل ازدهار الحركة العلمية
 - 2- التعليم
 - 3- المعلمون
 - 4- مراكز التعليم
 - 5- أصناف العلوم المدرّسة في الفترة الأموية
- 1- العلوم الدّينيّة:
 - 1-1- علم القراءات 1-2- علم التفسير
 - 1-3- الفقه
 - 1-4- الحديث
 - 2- العلوم الإنسانيّة:
 - 2-1- تاريخ
 - 2-2- الجغرافيا
 - 2-3- الفلسفة
 - 2-4- علوم اللغة
 - 3- العلوم العقلية:
 - 3-1- التنجيم والفلك
 - 3-2- الرياضيات
 - 3-3- الكيمياء
 - 3-4- الطب

نهضت الأندلس نهضة علمية بارزة في فترة الحكم الأموي، وهي الفترة التي مثلت انطلاقة واسعة في ميادين الحضارة و البناء الفكري، ومن الطبيعي أن يلتفت الناس إلى العلم و العلوم، فهو أساس ارتقاء الإنسان في المجتمع، وبه يحتل المكانة المرموقة فيه، بمشاركته في بناء مجتمعه و التأثير في المجتمعات الأخرى، وقد ساهمت مجموعة من العوامل مجتمعة في بناء هذا المجتمع، دفعت بعجلة التطور والازدهار في هذه الفترة .

1-عوامل ازدهار الحركة العلمية :ازدهرت الحركة العلمية بالأندلس أيام حكم

الأمويين، و مما أسهم في ازدهارها:

-اهتمام أمراء بني أمية بالتعليم و تشجيعهم للعلماء واحترام حرياتهم:

من أبرز مظاهر هذا الاهتمام حرصهم على اكتساب العلوم بشتى السبل، وتحمل المشاق في سبيل ذلك، وتعظيمهم للعلماء وأخذ مشورتهم في أمور الدين و الدنيا¹، فقد حرص الأمير عبد الرحمن الداخل على رعاية العلماء، ويعدُّ الفقيه الغازي بن قيس من العلماء الذين احتلوا مكانة مرموقة لديه، لرجاحة عقله وقيمة علمه، كونه سمع من علماء المشرق كأصمعي، والإمام مالك² فمنحه كلَّ الرعاية والاهتمام، وكان دائم الاتصال به.

وعرفت فترة حُكم عبد الرحمن الأوسط (206هـ) دفعة كبيرة للحركة العلمية ووثبة عظيمة للثقافة والفن، نتيجة الهدوء والاستقرار والرخاء الذي ميَّزها، وعرف عنه اهتمامه بالثقافة وولعه بالشعر وتذوقه وشغفه بالفنون و العلوم، وحرصه على اقتناء الكتب وجلبها من الأمصار، حيث أرسل الشاعر عباس الناصح إلى المشرق من أجل شراء كتب نافعة

¹ ينظر نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري التلمساني، ص: 213.

² ينظر ترتيب المدارك وتقريب المسالك، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي، مطبعة فضالة، المغرب، ط1، 1970،

أهمها كتاب "السند هند"^{*}، وعني الخليفة بجمع الكتب و تأسيس المكتبات، وسار على نهجه ابنه عبد الله بالرغم من تقلب الأحوال السياسية في عهده، حيث كان محبًا للعلم ومشاركًا فيه، متصرفًا في فنونه متحققًا منها، عالماً بلسان العرب بصيرا بلغتها وأيامها وحافظًا للغريب والأخبار¹، كما أسهم في إثراء خزانة الأندلس بأعماله الجليلة التي تستحق المدح والثناء.

ونخصت الحركة العلمية والثقافية في الأندلس نخضة شاملة وازدهرت ازدهارا عظيما، أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر نتيجة الاستقرار والأمن اللذان عرفهما العصر، وما صاحبهما من رخاء وتحضّر ورفي في هذه الفترة²، فلم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة وانصرفت عنه راضية³، وقد عرف بنجاحه ونباهته وتفوقه في العلوم والمعارف، وبرع في اللغة والشعر ودرس القرآن والحديث منذ نعومة أظافره، واهتمّ بالأدب وخاصة الشعر وتقرّب إلى الشعراء فكان يرتاح للشعر وينبسط لأهله ويراجع من خاطبه به من خاصته ممّا جعله يتخذ موقفا مؤيدا للنشاط العلمي في الأندلس⁴، وعمل على تقريب العديد من الأدباء إليه، وكلف مجموعة منهم باستنساخ شعر أبي تمام، وحفل بلاطه بالعديد من العلماء والأدباء والفقهاء أمثال ابن عبد ربه وعلي القالي ومنذر بن سعيد البلوطي وقاسم بن أصبغ البياني، وخلف بن عباس الزهراوي، وغيرهم من أهل العلم و المعرفة، وحرص على تكريمهم والرفع من منزلتهم

* هو أول كتاب في الفلك أوتي به إلى ديوان الخليفة المنصور العباسي سنة 154 هـ، يطلق عليه ابراهما سدهانتا لمؤلفه العالم برهمكيت وتذكره الكتب العربية باسم "السند هند" تم تأليفه سنة 425 ق.م، وتمّ ترجمته (ينظر صورة شعوب الشرق الأقصى في الثقافة العربية الوسيطة، شمس الدين الكيلاني، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2008، ص: 15)

¹ ينظر المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسين الدويدار، ص: 388.

² ينظر المرجع نفسه: ص 389

³ ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج 1، ص: 343.

⁴ ينظر تراجم إسلامية شرقية و أندلسية، محمد عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط 1970، 2، ص: 167.

مهيئاً لهم المناخ المناسب للإبداع والإنتاج العلمي¹، وذاع شغفه بالكتب واهتمامه بالعلم بين ملوك عصره، فبعث إليه الإمبراطور البيزنطي "أرمانوس" هدية علمية تمثلت في كتابين أحدهما في الطب و الثاني في التاريخ²، أثرى بهما خزانة العلم بالأندلس.

وظل الخلفاء محافظين على نهج آبائهم في تشجيعهم للعلم والعلماء، وبدا شغفهم بالعلم جلياً في إنجازاتهم، ومنهم الحكم المستنصر إذ يُعدّ أعظم خلفاء الأندلس علماً وأدباً، له عناية واهتمام بالغين بكل ما له صلة بالعلم والمعرفة، ممّا أكسبه علماً واسعاً وإدراكاً سليماً لمختلف القضايا، وأصبحت آراؤه في ميدان العلم حجة لدى العلماء³، فولعه بالكتب كان قبل جلوسه على عرش الخلافة في الأندلس وبعدها⁴، ويعود الفضل في ذلك إلى نشأته الدينية في صغره، حيث تلقى علوم الدين من حديث وتفسير وفقه على يد كبار العلماء، واستفاد من خبرتهم الواسعة في هذا المجال⁵، وبلغ الحكم درجة كبيرة من الحفظ والمعرفة⁶، نتيجة اقباله على دراسة العلوم والأدب ومجالسته العلماء، فتكونت شخصيته الثقافية وجعلت نظره صائبا وعميقا لمسائل العلم، وكثرت مطالعته للكتب، والنظر فيها باستمرار يتبع في قراءتها النظرة التحليلية والفكر الثاقب، كما كان ثقة أميناً فيما ينقل، يقرأ الكتاب ويكتب بخطه إما في أوله أو في آخره أو في تضاعفيه، نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به، ويذكر أنساب الرواة له⁷، فهذا التحقيق والتدقيق في الكتابة دليل على أمانته العلمية، وحرصه على حفظ اللغة والأدب

¹ ينظر تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، إحسان عباس، ص: 67.

² ينظر تاريخ الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، إحسان عباس، دار المعارف، مصر، ط3، 1967، ص 67.

³ ينظر الحلة السيرة، ابن آبار، تحقيق حسين مؤنس، الشركة الوطنية للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1963، ج1، ص: 200-201.

⁴ ينظر المصدر نفسه، ص202.

⁵ ينظر تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب القاهرة، 1966، ج1، ص365-366.

⁶ ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج1، ص370.

⁷ ينظر، الحلة السيرة، ابن آبار، ج1، ص: 202.

من الضياع، وبدا شغفه جلياً في احضار المصنفات من الأقاليم والنواحي باذلاً فيها ما أمكن من الأموال حتى ذقت عنها خزائنه، آثراً العلم على لذات الملوك،¹ وكان جمعه لهذه الكتب يعتمد على تجار يرسلهم إلى الأقطار أو يبعث إلى المؤلف نفسه فيطلب نسخة من كتاب ألفه، كما فعل مع "أبي الفرج الأصفهاني" حين أرسل إليه ألف دينار ليحصل منه على نسخة من كتاب الأغاني،² وعمل على إغراء العلماء بالقدوم إلى الأندلس للتأليف بها وملء الخزانة الأندلسية بأهمّات الكتب³، ولم يؤثر علما على آخر، وأمر باستنساخ الكتب المختلفة من بغداد وإرسالها إلى الأندلس، وساعده علمه الواسع ومعرفته العميقة بالتاريخ على التصنيف في هذا العلم ومن مؤلفاته "أنساب الطالبين والعلويين القادمين إلى المغرب"، ويعدّ من أهم مصنفات علم الأنساب⁴، كما ساعده على مشاركة العلماء مواضيع التأليف ووضع مناهجها فقد اقترح على الخشني تأليف كتابه "قضاة قرطبة وعلى الزبيدي تأليف كتابه طبقات اللغويين و النحويين⁵، ومن اسهاماته في دفع عجلة العلم نحو التطور والازدهار، إنشاء المكاتب لطلاب العلم ووقف الأوقاف عليها، لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين، منها أربعة وعشرون مكتبا في أرباض قرطبة⁶، وكثرت المكتبات أيامه، وكثُر نسخ الكتب، واشتغل فيها النساء في البيوت ممن عُرفن بجودة الخط و دقة النسخ، وتنافس الناس في اقتناء الكتب حتى أصبحت تُشترى لاستكمال مظهر الرقي و الترف⁷.

¹ ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج1، ص: 371.

² المصدر نفسه، ص: 362.

³ ينظر تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، إحسان عباس، ص: 64.

⁴ ينظر نفع الطيب المقرئ، ج1، ص: 371.

⁵ ينظر تاريخ الأدب الأندلسي، إحسان عباس، ص: 50.

⁶ ينظر المجتمع بالأندلسي في العصر الأموي حسن دويدار، ص: 391.

⁷ ينظر معالم تاريخ المغرب والأندلس حسين مؤنس، دار مطابع المستقبل، القاهرة، ط 1، 1983، ص: 384.

غير أن بعض النقاد يؤخذون عليه ذلك، ومنهم (ستانلي لين بول) الذي يتهمه بعدم تطلعه إلى الغزو والجهاد وإغفاله تربية ابنه هشام، فلو اهتم به ما تغلب الغير على السلطة¹، ويتفق حسين مؤنس معه في ذلك، ويرى أن الحكم المستنصر أنقذ بسبب انصرافه إلى العلم وإسرافه فيه، منشغلا عن مطالب الحكم، فلو اكتفى بتشجيع العلم دون الاشتغال به لما وجد أمثال أبي عامر سبيلا إلى السلطان²، والحق أن شخصية الحكم، وحياته الحافلة بالعلم، وحبّه للكتب آتى أكله وأينعت ثماره في ميدان العلوم.

واهتم المنصور بن أبي عامر بالعلم، وكان على صلة وثيقة بالثقافة «ارتبط بها منذ نشأته وكان على صحبة قوية للعلماء آخذ نفسه بها منذ ولايته»³، ولما منح شخصيته دور كبير في ذلك، إذ تميّز بالنباهة والذكاء والنبوغ في الدراسة أخذ العلوم⁴، فاهتم بالحركة العلمية وخاصة العلوم الدينية والأدبية⁵ وبلغت الحركة الأدبية في عهده منزلة رفيعة حيث كان يوليها رعايته واهتمامه، فقد احتشد في بلاطه نوابغ العلماء وجهابذة الأدب، وكان يغدق عليهم ضروب الكرم والعطاء أمثال الأديب زيادة الله بن علي، والشاعرين يوسف بن هارون الرمادي وأحمد بن دراج القسطلبي، والعالمين الجليلين ابن الفرضي وابن الحزم، واستنّ مجلسا يعقد كل أسبوع يجتمع فيه أقطاب الفكر من العلماء والأدباء ويأخذون في التناظر فيما بينهم، والكلام في شتى المجالات والندوات العلمية عادا للجهاد⁶، ولطالما أدلى فيه بدلوه، وشاركهم النقاش كونه أديبا وشاعرا⁷، وأنشأ ديواناً خاصا سماه ديوان الندماء،

¹ ينظر قصة العرب في اسبانيا، ستانلي لين بول، ترجمة علي الجارم، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، 2012، ص: 141-

² ينظر معالم تاريخ المغرب والأندلس، حسين مؤنس، ص 323

³ المجتمع بالأندلسي في العصر الأموي حسن دويدار، ص: 395

⁴ ينظر جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس الحميدي محمد بن فتوح ابي عبد الله، تحقيق محمد تاويت الطنجي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ط1، 1966 ص. 78

⁵ المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسن دويدار، ص: 393.

⁶ ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص: 79-80-81.

⁷ المجتمع بالأندلسي في العصر الأموي حسن دويدار، ص: 394.

يحرص على ترتيب الشعراء في طبقات وتكريمهم مما جعل الشعراء يتنافسون في نظم الشعر حتى كثُر عددهم، وأولى اهتماماً أيضاً بالعلوم الدينية واللغوية فكلف ابن المكي الإشبيلي، وأبومروان المعيطي، بجمع أقوال الإمام مالك في كتاب، واتخذ محمد بن عبدالرحمن بن معمر مدققاً وضابطاً في مكتبته¹.

ويُتضح مما سبق أن أمراء بني أمية وخلفاءها ساهموا في فترة حكمهم بالأندلس في استمرار العلوم بالأندلس وتطورها، وخلقوا الجو الملائم لها، وأسهموا فيها بما تنتجه عقولهم وقرائحهم.

– العلماء المشاركة الوافدين إلى الأندلس للتدريس والتأليف :

الذين أفادوا الأندلس بعلمهم وخبراتهم ونشر علومهم بها، كأبي علي القالي ذو النزعة الأموية اقتداءً بأبيه مولى الخليفة عبد الملك بن مروان الذي رحل إلى الأندلس سنة 330 هـ، حظي فيها بحفاوة استقبال من قبل الحكم، وكان أحفظ أهل زمانه للشعر واللغة والنحو²، كما استقبله الشعراء استقبالا حافلا وتباروا في مدحه والترحيب به، وبلغ في نفوس الأندلسيين مبلغا عظيما فمنذ وصوله الأندلس شرع في نشر العلم وساهم في بناء الثقافة الأندلسية بما أُلّفه من كتب جليلة، وجلبه لكتب مشرقية بالغة الأهمية³.

ومن العلماء الوافدين على الأندلس "المحدث عبد الرحيم بن أحمد التميمي البخاري(382-471) وكان أحفظ أهل زمانه للحديث، عرف بورعه وعدله

¹ ينظر الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة أحمد هيكال، دار المعارف، بمصر ط3..1967ص274.

² ينظر وفيات الأعيان و أبناء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط 1، 1900، ج1، ص:226

³ ينظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وأمانته¹، نفع أهل الأندلس بما يحفظه من أحاديث نبوية شريفة، أخذوها عنه حتى برعوا في هذا العلم.

وأخذوا علوم اللّغة وفنون الأدب عن ثابت بن محمد الجرجاني، الذي عُرف بسعة علمه، وعمّق معرفته بالأدب واللّغة، وفروسيته وشجاعته²، وغير هؤلاء من العلماء الذين ألهموا الأندلسيين، فاتّخذوا من علومهم ومعارفهم نقطة انطلاق لنشاطهم العلمي.

- البعثات الطلابية إلى المشرق:

أسهمت هذه البعثات في إرساء دعائم الثقافة الأندلسية، إذ عملوا على الاعتراف من منابع الثقافة العربية الإسلامية في مواطنها الأصلية، والعودة بما جادت به عقولهم وقرائحهم إلى الأندلس من أجل تدريس، وتأليف ونشر ما اكتسبوا³، فقد كان الكثير منهم يرى في الرّحلة والأخذ من المشايخ المشاركة شرفاً وفخراً يتباهى به أمام علماء بلده⁴، بل كان العالم منهم يلحقه نقص كبير في شخصيته العلمية، ويُعاب عليه إن لم تكن لديه رحلة⁵، ووُصِفوا بأنهم أكثر النّاس حباً للعلم وأهله، وكثيرو التجارة والتّغرب⁶.

وكثرة التّنقل بين مراكز العلم عادة حميدة للتّزود بالعلوم واكتساب المعارف، فطلب العلم هدف لرحلة العديد من العلماء إلى جانب الحج، إذ يؤدّون فريضة الحج ثم يلتقون بشيوخ المدينة و علمائها، ممن أخذ عن الصحابة و تابعيهم، كزياد بن عبد الرحمن الملقب بشبّطون الذي أدخل موطأ الإمام مالك، ويحيى بن يحيى الليثي الذي قصد المدينة وتلمذ

¹ ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص63-64

² ينظر الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن خطيب، ج1، ص45.

³ ينظر وفيات الأعيان و أبناء أبناء الزمان، ابن خلكان، ص:226.

⁴ تاريخ الأدب الأندلسي، إحسان عباس، ص: 38-39

⁵ ينظر ظهر الإسلام، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط4، ج1966، ص3، ص24.

⁶ ينظر المرجع نفسه، ص25

على يد خيرة علمائها الإمام مالك¹، وبقي بن المخلد الذي ضرب به المثل في تحمل أعباء السفر في سبيل العلم، والسماع عن الكثير من العلماء والشيخوخ، عاد إلى الأندلس بكتب عديدة تضم فنوناً مختلفة من العلم²، كما أدخل فرج بن سلام إلى الأندلس كتب الجاحظ، بعدما التقى به في العراق وأخذ عنه العلم³، وسار على هذا النهج علماء كثر ينقلون العلوم والمعارف إلى وطنهم حاملين معارف غزيرة وتصانيف متعددة في مختلف حقول المعرفة، كان لها دور كبير في مد الحركة العلمية بآفاق واسعة للبحث العلمي لدى الأندلسيين، وبفضل هذه الهجرة المتبادلة بين الأندلسيين والمشاركة تشكلت طبقة من العلماء والأدباء الأندلسيين بدلوا جهوداً عظيمة في سبيل النهوض بالعلم والالتيان بكل جديد.

- جمع الكتب وإقامة المكتبات :

مما لا شك فيه أنّ أهمّ روافد الحركة العلمية في هذا العصر جمع الكتب، وكان الخليفة المستنصر قدوة في ذلك إذ سعى للحصول على الكتب من كل مكان، وبذل في سبيل ذلك الأموال الطائلة، وكان له في القاهرة وبغداد ودمشق والإسكندرية عمال مكلفون باستنساخ كلّ الكتب القيّمة قديمة كانت أو حديثة، فكان قصره حافلاً بالكتب وأهلها⁴، ودخلت الأندلس أعداد هائلة من الكتب في شتى ميادين المعرفة، ككتاب الحساب الهندي المعروف عند العرب بالسند هند⁵، ومما يعكس حرص الأمراء واهتمامهم بالكتب وإبداعات العلماء، بعث الحكم مالاً وفيراً إلى أبي الفرج الأصفهاني مقابل نسخة

¹ ينظر المجتمع بالأندلسي في العصر الأموي، حسن دويدار، ص: 383.

² تذكرة الحفاظ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق عبدالرحمن بن يحيى، دار الكتب العلمية، لبنان 1998، ج 3، ص: 1080-1081.

³ تاريخ علماء الاندلس، ابن فرضي، ج 1، ص 350.

⁴ ينظر الحلة السيرة، ابن آبار، ج 1، ص 201.

⁵ ينظر التّقدم الفكري عند أهل الأندلس، عبد الجليل الراشد، مجلة المؤرخ العربي العدد: 13، ص: 135.

من كتابه الأغاني، فأرسلها إليه هذا الأخير قبل انتشارها بالعراق¹ وبدا شغفه بالكتب جلياً في كثرة جمعه لها، إذ جمع منها أيام أبيه ثم في مدة حكمه من بعده ما لم يجمعه غيره من الملوك في أزمان طويلة، وتحرك الناس في زمانه إلى قراءة كتب الأوائل، وتعلم مذاهبهم² وعليه فكثرة الكتب واطلاع الناس عليها، جعل العديد منهم يميل إلى اقتنائها، والرغبة في دراستها.

وأنشا الحكم مكتبة عظيمة عكست الازدهار العلمي والنشاط الفكري لهذه الفترة من حياة الأندلسيين احتوت نحو أربع مئة ألف مجلد حتى أنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها³، وفي هذا الصدد يقول ابن الحزم « أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع و أربعون فهرسه في كل فهرسه خمسون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط»⁴.

ولم يكن الاهتمام بالكتب وجمعها حكراً على الخلفاء فقط، بل اعتنى بها العديد من العلماء أيضاً، منهم العلامة أبو المطرف عبد الرحمن بن فطيس، وزير المنصور بن أبي عامر، الذي عرف بحبه للعلم وسعيه في اقتناء الكتب حتى اجتمع له بذلك خزانة ضخمة من غرر التصانيف، وبلغ من عنايته بذلك إذ سمع بكتاب عند أحدهم يبعث في شرائه، ويبالغ في ثمنه فإذا لم يبيعه صاحبه نسخه ورده عليه⁵، فكثرت الكتب عنده واختلفت أنواعها، وشملت مختلف مجالات المعرفة حتى قيل أنه لم يجمع أحد من أهل عصره في الأندلس ما جمعه، وحرصه الشديد على البحث والاطلاع جعله يخصص في

¹ ينظر نفع الطيب، المقري، ص 386.

² ينظر طبقات الأمم، أبو القاسم صاعد بن احمد الأندلسي، تحقيق لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1912، ص 88.

³ ينظر نفع الطيب المقري، ص 395.

⁴ المصدر نفسه، ص: 387.

⁵ ينظر الصلة، أبو قاسم خلف بن عبد الملك ابن شكوال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب، القاهرة، 1966،

منزله مجلساً ملاءه بدفاتر العلم و دواوين الكتب التي ينظر فيها ويخرج منها، متخذاً منه أنيساً يختلي فيه بنفسه،¹ وغيره من العلماء الذين اشتهروا بولعهم بالكتب وحرصهم على اقتنائها والعناية بها وبذل الأثمان في سبيل شراءها .

كما كان عامة الناس من أهل الأندلس أكثر عنايةً واهتماماً بالكتب، وصار ذلك عندهم من شروط التعيين والرئاسة حتى أن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحرص على أن تكون في بيته خزانة كتب كي يتباهى بها أمام أقرانه²، حتى الجاهل منهم الذي لم يوفق في العلم يحرص على أن تكون له مكتبته الخاصة يفخر بما تضمه من كتب³، وشاركهم في ذلك المسيحيون أيضاً، فكان أغلبهم يعرف لغة العرب وآدابهم ويطالع كتبهم بولع، ويجمعون مكتبات كبيرة من تلك الكتب بنفقات باهظة،⁴ ونستشف مما سبق أنّ المجتمع الأندلسي بلغ درجة كبيرة من الرقي والازدهار الحضاري آنذاك.

- مراكز العلم والثقافة:

ساهمت مراكز العلم والثقافة بشكل كبير في نهضة الحركة العلمية كالمساجد التي لم يقتصر دورها على العبادة فحسب بل كانت مركزاً لتلقي العلم وحلقة من حلقاته، فقد درسوا العلوم جميعها في المساجد⁵، وكانت قرطبة بمسجدها الكبير عاصمة العلم وحضارة الثقافة بدون منازع، يقصدها طلاب العلم والمعرفة من جميع الأنحاء للارتواء من

¹ تاريخ قضاة الأندلس، المرقبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا، النباهي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، ص: 89.

² ينظر نفح الطيب المقري، ج1 ص 462.

³ ينظر العلاقات بين المغرب والأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر 300هـ، ليلي أحمد نجار، جامعة أم القرى، 1982، ص: 272.

⁴ ينظر أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الإنسانية، روبرت بريفالت، ترجمة أبو النصر أحمد الحسيني، مطبعة عيسى البابي، القاهرة، 1957، ص: 145.

⁵ ينظر نفح الطيب المقري، ج1 ص 220.

مناهلها¹، إلى جانب جامع الزهراء الذي كثرت عليه الوفود من كل حدب وصوب للأخذ عن علمائه كل يوم خميس، ولم يكن جامع قرطبة والزهراء الوحيدان اللذان يقومان بهذا الدور، فأغلب المساجد اتخذت من أجل العبادة و تقديم دروس العلم وأسهمت في بناء حركة التطور العلمي بما قدمته من نشاطات، ولم يقتصر ذلك على المساجد فحسب بل كان في مجالس العلم أيضا، مما يعكس حرص الأندلسيين وتفانيهم في نشر العلم.

- صناعة الورق في الأندلس:

اشتهرت شاطبة بصناعة الورق الفاخر، وتصديره إلى كافة أرجاء الأندلس، «وهي مدينة كبيرة قديمة قد خرج منها خلق من الفضلاء، يعمل الكاغد الجيد فيها، ويحمل منها إلى سائر بلاد الأندلس»،² وعُرف عن وراقى الأندلس أنهم أمهر الوراقين وأحذقهم، ووصفت خطوطهم بالجودة والاتقان، نذكر منهم يوسف بن محمد الهمداني (ت383) الذي قام بنسخ تفسير وتاريخ الطبري، وتميز بروعة خطه وجماله³، وقد حرص العديد من العلماء على توظيف طائفة من الوراقين ليقوموا بنسخ ما يهمهم من التصانيف، وخصص الخليفة الحكم جناحا كبيرا في القصر ليؤدوا عملهم فيه⁴، كون النسخ وسيلة لحفظ العلوم وصيانتها من الضياع ونشرها بين الناس.

- أثر الفتنة في النهضة العلمية :

¹ ينظر تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقديمه، عبد الحليم منتصر، دار المعارف بمصر، الإسكندرية، ط.4، 1971، ص 54-55

² معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار صادر، بيروت، ط2، 1995، ج3، ص309.

³ ينظر تاريخ علماء الأندلس، ابن فرضي، ص:206.

⁴ نفع الطيب، المقرئ، ج1، ص:376.

قد هزّت الفتنة قواعد النهضة العلمية الأدبية التي ازدهرت على عهد المستنصر والمنصور، ولكن هذا لم يلبث طويلاً، بل استعاد الناس ثقتهم في أنفسهم وأقبلوا على الإنتاج، ومن الضّار النافع أن تكون الفتنة سبباً في بيع الكتب التي كانت بقرطبة وبخاصة ما كان منها في مكتبة الحكم، وكان بيعها سبباً في تسهيل انتشار العلوم، وفيها عثر طلاب العلم على كتب لم يكن الحصول عليها سهل المنال، فانتعشت الحركة العلمية، وعرضت مكتبات أخرى للبيع، منها مكتبة الإمام ابن فطيس، وكان قد جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس، وقيل أن كتبه بقيت تباع مدة عام كامل في مسجده وأن ثمنها بلغ أربعين ألف دينار قاسمية، وليس هذا كثيراً على رجل كان قد وظف ستة وراقين ينسخون له دائماً براتب مقرر¹.

ومن ثمّ، فكثرة المكتبات التي أنشئت في هذه الفترة، وحرص الأمويين على اقتناء الكتب وتشجيع الخلفاء للعلم والعلماء، وكثرة مجالس العلم والبعثات العلمية إلى خارج الأندلس ما هي إلا بذور أعطت ثمارها، وأكّدت عظمة ما حقّقه الأندلسيون من نشاط علمي كبير في هذه الفترة من الزمن.

وبعد الوقوف على أهم العوامل المساعدة في ازدهار الحركة العلمية، تجدر بنا الإشارة إلى أهم العلوم البارزة آنذاك، وقبل ذلك ينبغي علينا الوقوف على طريقة التعليم، وأبرز المعلمين وأهم مراكز التعليم بالأندلس.

2- التعليم :

للتعليم أهمية كبيرة في توجيه الإنسان، فهو وسيلة لفهم الدين ومعرفة شرائعه وتنظيم حياته، وقد عرفت الأندلس نوعاً من التعليم الراقى يسمى التأديب، وارتبط في البداية بالقصور، ثم غداً عاماً متاحاً للجميع، وخصوصاً في قرطبة، وكان أكثره تحت

¹ ينظر الصلة، ابن شكّوال، ص: 298.

إشراف السلطة، ولعلّ الأخذ بنظام التأديب كان احتذاءً بالنموذج المشرقي في قصور الأمراء والولاة، وتمثل في تعليم الأولاد القرآن الكريم، ثم تعليمهم النطق به نطقاً سليماً، إلى جانب اللغة العربية ورواية الشعر وتعليم الخط والكتابة¹، كي ينشئوا نشأة علمية سليمة وما يعكس اهتمامهم بالتعليم تهيئتهم لأبنائهم ما يحتاجون إليه من شؤونهم فأحضروا حذاق المعلمين ليأخذ الأولاد منهم التعليم المعادلة لأقذارهم كحب المنشأ والحديث الشريف والسنن والآداب فحصل أكثرهم من ذلك جملاً وافرة، وقد أفادهم هذا المنهج في ترسيخ المعارف المتنوعة لديهم، ويذكر بن خلدون إن العلامة أبا بكر بن العربي قد رسم منهجاً جديداً في طريقة التعليم وهو أن يقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم، وذلك لأن الشعر ديوان العرب، وفي تقديمه وتعليم العربية ضرورة لتقويم اللغة عند الطفل، ثم ينتقل منه إلى الحساب ليتمّ بما لا يصح أن يجهله منه، يلي ذلك دراسة القرآن الكريم، كما نصح بأن ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه فالجدل ثم الحديث وعلومه، وينتقد ابن العربي المنهج الذي يفتح بتعليم القرآن للصبي لعدم معرفته وفهمه لمسائله وقضاياها، كما نهى أن يجمع في التعليم بين علمين إلا أن يكون المتعلم على نصيب كبير من النباهة والقدرة على الاستيعاب.²

فابن خلدون يرى أن المنهج الذي رسمه ابن العربي أقرب إلى المنهج التعليمي الصحيح، فقد بدأ بما يقوم لغة الطفل ويكسبه البلاغة بقراءة الشعر ثم يدرس الحساب ويلم بمسائله حتى إذا أدرك ذلك يكون متهيئاً لحفظ القرآن وفهمه لما يتمتع به من ثروة لغوية، وفي هذا الصدد كتب العلامة عفيف بن عبد الله الأموي (348هـ-320هـ) كتاباً يقع في خمسة أجزاء يبين فيه مناهج التعليم السليم³، وأصبح التعليم عاماً يشمل الجنسين، وكثرت أماكنه ومؤسساته، وأصبحت اللغة العربية هي لغة العلم والثقافة بصورة

¹ ينظر الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، سعد بن عبد الله البشري، ص: 210.

² ينظر العبر وديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون، ج 2، ص 355.

³ ينظر الصلة، ابن شكوال، ج 1، ص: 38.

رئيسية، وتعلمها الكثير من الإسبان المسيحيين، ولذلك سماوا بالمستعربين¹، فأقبل أهل الأندلس على العلم والمعرفة إخلاصاً لهما وليس طلباً لجاه أو ثراء، والعالم فيهم يكون بارعاً لأنه طلب العلم برغبته وباعث في نفسه يحمله على الإنفاق من أجل العلم.²

3- المعلمون: حرص بنو أمية على تعليم اللغة العربية لأبنائهم فاختاروا خيرة المعلمين والمؤدبين المتقدمين فيها وفي آدابها، ومن طلائع أولئك المؤدبين لدى بني أمية "الغازي بن قيس" (ت 199هـ) فكان له الدور الكبير في تعليم الأمراء وتأديب أولادهم في اللغة عند دخول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس، ونال بذلك الاحترام والمكانة لديه، وأدرك من رجال اللغة الأصمعي ونظرائه، واستأدبه هشام والحكم لأبنائهما وأدب ولد عبد الرحمن بن معاوية³، ومن المعلمين أيضاً سوار بن طارق الذي درّس ولد هشام بن عبد الرحمن، وابن الحكم، وتولّى أبو الوليد الغافقي تأديب الأمير عبد الرحمن، وعلم الحكم⁴، وغيرهم من أهل العلم باللغة العربية.

وقد اتخذ هؤلاء المؤدبون أو المعلمون من التعليم حرفة يتكسّبون بها، وكان الواحد منهم يتقاضى جعلاً أو مكافأة كلما بلغ أحد تلاميذه مرحلة الإتقان والحدق، وعرفت هذه المكافأة باسم الحدقة⁵، أما مؤدبو أولاد الأمراء والخلفاء والخاصة، ارتقوا إلى مكانة عالية، وخصص لمعظمهم السكن اللائق، والأماكن المخصصة لإعطاء الدروس، ونذكر على سبيل المثال يحيى بن عبد السلام مؤدب المغيرة بن عبد الرحمن الناصر الذي حصل على أموال طائلة مقابل تعليمه للأمراء الأمويين⁶، وحصل العديد منهم على مناصب

¹ ينظر المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسين دويدار، ص: 397.

² ينظر نفع الطيب، المقرئ ص 220-221

³ ينظر طبقات النحويين، محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الزبيدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط1، ص: 255

⁴ ينظر المرجع نفسه، ص: 258، 284

⁵ ينظر المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسين دويدار، ص: 400

⁶ ينظر تاريخ علماء الأندلس، ابن فرضي، ج2، ص: 81

إدارية وقضائية في الإمارة الأندلسية كالمعلم جعفر بن عثمان المصحفي الذي تولى تأديب الحكم المستنصر منذ صغره، فأعلى الخليفة مرتبته، وولاه خطة الشرطة الوسطى بقرطبة¹، وحظي أغلبهم بالتقدير والاحترام ونيل الهدايا، واقتناء الحاجيات لهم «والعالم عندهم معظم في الخاصة والعامة يشار إليه ويحال عليه وينبه قدره وذكره عند الناس ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة وما أشبه ذلك»²، وتبوّء العلماء مكانة واهتماماً كبيرين من طرف خلفاء بني أمية حيث كانوا يتولون بأنفسهم الإشراف على المعلمين وتعيين أرزاقهم ومقادير أجورهم، وتطوّرت وظيفة التعليم حتى أمسى المؤدب الرسمي يعين بمرسوم خلافي، فقد قرّر الخليفة الحكم لمؤدبه الفقيه أحمد بن يوسف (ت361هـ) «الراتب والحملان والعلوفة وعهد بإقامة علوفة الأمير أبي الوليد، وكانت محدودة العدد موصوفة الأطعمة تقدم إليه وإلى من معه من صبيانه كلّ يوم بموضع حضوره ذلك»³، ومما رفع شأن التعليم اهتمام خلفاء بني أمية بالعلم وحرصهم على توفيره للرعية ونذكر منهم الحكم المستنصر الذي وقر العلم لعامة أبناء الأندلس حين أنشأ سبعة وعشرين مكتبا يلحق ثلاثة منها بالمسجد الجامع بقرطبة، والباقي فرقه على أرباض قرطبة اتخذت لتعليم الأطفال وأجزل العطايا على العلماء مقابل ذلك، كما عمل على جعل حوانيت السراجين بقرطبة تخصص لتدريس أولاد الضعفاء⁴، فكان العلم متاحا لكل أفراد الأندلس، ولم يقتصر على فئة معينة دون أخرى، مما أكسب الخليفة ودّ الرعية، وفخرهم وإشادتهم بصنيعه، وما دفع الأمراء الأموال الطائلة في سبيل التعلم إلا دليل على اهتمامهم الشديد بالتعليم إيماناً منهم أن العلم يبني بيوتا لا عماد لها .

¹ ينظر البيان المغرب، ابن عذارى، ج2، ص:254.

² ينظر نفح الطيب، المقرئ، ص:220-221.

³ المقتبس، ابن حيان، ص:76-77.

⁴ ينظر البيان المغرب، ابن عذارى، ج2، ص240-241.

4-مراكز التعليم: كان للمساجد دور مهم في التعليم عند الأندلسيين، فقد كانت تمثل مركزاً علمياً عند المسلمين عامة، يتلقون فيه العلوم والمعارف على يد العلماء، ولذلك اعتمد الأمويون على المسجد في حياتهم العلمية فكانوا يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة¹، وكان جامع قرطبة مركز طلاب العلم يدرسون فيه علوم الدين والأدب والتاريخ والجغرافيا والطب والفلك والرياضيات وغيرها من العلوم،² وأسهم في تطوير عجلة العلم والمعرفة لسنين عديدة لما ضمّه من حلقات علم ودرس، وقد أطلق عليه العديد من الكتّاب اسم الجامعة، فنجد عبد الكريم التواتي يصفه بوصف الجامعات الحديثة قائلاً: «وتتميّما للعمل العلمي أمد الحكم جامعة قرطبة بكل ما تتطلبه من إمكانيات بشرية ومالية وعين لها أخاه المنذر عميدا، ثم أخذ هو بنفسه يقضي جل أوقاته بين أبحاثها وأروقته يطالع ويقرأ»³، وكان المسجد بمثابة النور الذي أضاء للأندلسيين وغيرهم درهم فقد توافد عليه الطلاب من شتى أنحاء البلاد والعالم الإسلامي والمسيحي على حد سواء، وأدى دوراً هاماً من الجانب الديني والدنيوي، فكان مقراً للعلم وتعليم الناس ونشر المعارف .

ولم يقتصر التعليم على المساجد فحسب بل خصصت مجالس علمية في دور العلماء، ومنهم العلامة الطليطلي أحمد بن سعيد بن كوثر (ت403) الذي كان يقصده تلامذته في وقت الشتاء ضمن مجلس قد فرش ببسط الصوف مبطنات والحيطان باللبود ووسائد الصوف، وكان هناك كانون على قامة الإنسان مملوء فحما يتوسط المجلس فيأخذ دفأه كل من في المجلس، فإذا انتهى التدريس قدم لهم الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب، أو ثرائد اللبن بالسمن أو بالزبد⁴، ممّا يعكس حرص المعلم وتلامذته على

¹ ينظر نفع الطيب للمقري، ج1، ص220.

² ينظر تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقديمه، عبد الحليم منتصر، دار المعارف بمصر، الإسكندرية، 4، 1971، ص54-55.

³ مأساة انخيار الوجود العربي في الأندلس، عبد الكريم التواتي، مكتبة الإرشاد، المغرب، 1967، ص: 220-221.

⁴ ينظر تاريخ الأدب الأندلسي، إحسان عباس، ص38.

تحصيل العلم رغم قساوة الجو وكثرة البرد في فصل الشتاء، وقامت المكاتب بدور هام في التعليم، وكان الطلاب يتلقون فيها مبادئ العلوم إلى جانب حفظ القرآن الكريم، وقد كثرت هذه المكاتب في عهد الخليفة المستنصر، وأصبحت مكاتب رسمية تابعة للدولة بعدما كان المؤدبون يتخذونها في بيوتهم، وكانوا يعلمون أولاد الضعفاء القرآن في مكاتب حول المسجد الجامع وبكل ربح من أرباض قرطبة.¹

كما خصصت أجنحة خاصة لتعليم أبناء الأمراء داخل القصر تسمى بدار الأولاد أو دار الملك، وقرأوا فيها كافة مستلزمات الراحة لضمان التعليم²، ووجدت أماكن أخرى خصصت للتعليم اعتاد الطلبة التردد عليها .

5- أصناف العلوم المدرّسة في الفترة الأموية:

قبل الحديث عن أهم العلوم البارزة في هذه الفترة، تجدر بنا الإشارة إلى أن العصر مر بثلاث مراحل، مرحلة الإمارة ومرحلة الخلافة ومرحلة الحجابة، وسنحاول الوقوف على أبرز العلوم في هذه الفترات الثلاث، ولعل أعم العلوم البارزة آنذاك هي العلوم النقلية وخاصة العلوم الدينية لما لها من ارتباط بالقرآن الكريم والحديث الشريف، بالإضافة للعلوم التجريبية التي عكست براعة الأندلسيين وسعيهم إلى إثبات أنفسهم وإبراز مكانتهم بين الأقاليم .

1- العلوم الدينية: اهتم الأندلسيون بالعلوم الدينية بكثرة لارتباطها بالقرآن الكريم

فحرصوا على دراستها وأولوها عناية خاصة ومن هذه العلوم :

1-1- علم القراءات: اهتم الأندلسيون بعلم القراءات، واحتل علماءه مكانة

مرموقة في المجتمع لما كان لهم من دور بارز فيه، حيث عملوا على تعليم الناشئة القرآن

¹ ينظر المجتمع الأندلسي، حسين دويدار، ص397.

² ينظر المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، 12، ص:112.

بوجه سليم يضمن لهم الفهم الصائب والإدراك الصحيح لمعاني القرآن بعيدا عن التصحيف، فبرز عدة علماء في هذا المجال، وانتشرت قراءة نافع بينهم¹، ويعود الفضل في انتشار قراءة نافع بينهم إلى قيس بن الغازي الذي أدرك نافع بن أبي نعيم وقرأ عليه، وهو أول من أدخل قراءته إلى الأندلس²، وقد كان من المؤدبين، مما ساهم في سرعة انتشار هذه القراءة بين الأندلسيين.

ومن الذين اشتغلوا بالقراءات أيضا سليمان بن مسرور، المكنى بأبي الربيع، الذي كان إماما فيها، وكان حسن الصوت بالقرآن، من أهل طليطلة، رحل حاجا قبل التسعين من عمره، ثم استوطن مصر وتوفي بها³.

ومن أبرز القراء أحمد بن محمد بن عبد الله المقرئ الطلمنكي⁴ (340هـ - 429هـ) الذي احتل مكانة مرموقة لما تمتع به من معرفة واسعة بعلوم القرآن، قراءته وإعرابه وأحكامه وناسخه ومنسوخه ومعانيه، له فيها تصانيف تنم عن سعة علمه وعمق فهمه في هذا الميدان⁵، ارتحل إلى المشرق والتقى بعلماء القراءات فأفاد منهم وأخذ عنهم شيئا كثيرا، ومن أخذ عنهم علي بن محمد الأنطاكي، ومحمد بن علي الادموي، فعاد إلى الأندلس وهو أوفر حظا وأكثر علما، نسب إليه إدخال بعض القراءات إلى الأندلس⁶ اتصف بسعة علمه ومعرفته، اهتم بتدريس طلبة العلم، دون أجر يتبغي في ذلك وجه الله، فكان الناس يسارعون إلى حلقات درسه، وروي أنه خرج على تلاميذه، وهم

¹ ينظر أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي، دار الكتاب العلمية، لبنان، ط1، 2009، ص236

² ينظر طبقات النحويين، الزبيدي، ص:245

³ ينظر تاريخ علماء الأندلس، ابن فرضي، ص:158

* الطلمنكي: نسبة إلى طلمنكة، وهي مدينة بثمر الأندلس بينها وبين وادي الحجاره عشرون ميلا، الحميري، ص:128.

⁵ ينظر الصلة، ابن بشكوال، ج1، ص:45.

⁶ ينظر غاية النهاية في طبقات القراء، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع، ط1،

2017، ج1، ص120

يتدارسون القرآن ويتلقون القراءات عليه، فقال: اقرؤوا وأكثرُوا فإني لا أتجاوز هذا العام، توفي سنة 429هـ¹.

ومن المقرئين الذين تفتخر بهم الأندلس أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان القرطبي الداني، لم يكن أحد يضاهيه في حفظه وتحقيقه وعلمه الواسع بالقراءات ورواياتها ومعانيها،² عرف بنبوغه في هذا العلم، صنف فيه العديد من الكتب الدالة على فهمه، فنظم علوم القراءات في أرجوزة ليسهل على طلبة العلم حفظها،³ أخرج تصانيف علمية قيمة، تشهد له بعلو مكانته، ومن تصانيفه "جامع البيان في القراءات السبع"، يشتمل على نيف وخمسمائة رواية حتى قيل أنه جمع فيه كل ما يعلمه في هذا العلم، وهو من أعظم كتبه،⁴ ومن تصانيفه "التيسير في القراءات" و"طبقات القراء" في أربعة أسفار ضم فيه المقرئين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، من المخالفين إلى عصر مؤلفه على حروف المعجم⁵ فكانت له جهود عظيمة في هذا العلم، توفي سنة 444هـ⁶

ويتضح مما سبق أن القراء الأندلسيين عرفوا بجلال قدرهم، واهتمامهم بعلم القراءات، وإسهامهم الكبير في إثراء هذا العلم لما له من علاقة وطيدة بالقرآن الكريم .

1-2- علم التفسير: ازدهر علم التفسير بالأندلس، ونال عناية واهتمام كبيرين من

العلماء لارتباطه بالقرآن الكريم وتفسيره، فأقبلوا على هذا العلم مستفيدين من الدراسات التي سبقتهم، ويعود الفضل في ازدهاره ورقي دراسته إلى العلامة بقي بن مخلد

¹ ينظر تذكرة الحفاظ، الذهبي، ج3، ص1099.

² ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج2، ص:198.

³ ينظر جذوة المقتبس، الحميدي، ص305.

⁴ ينظر كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله، حاجي خليفة، تعليق وترتيب محمد شرف الدين يالتقيا، وزارة المعارف التركية، إسطنبول، 1943، ج1، ص:538.

⁵ ينظر فهرست مارواه عن شيوخه، ابن خير، ص:29.

⁶ ينظر جذوة المقتبس، الحميدي، ص305.

(201هـ-276هـ) الملقب بالمكنسة، فلم يترك شاردة أو واردة إلا وأولها اهتمامه، معروف بورعه، «فاضل وزاهد مجاب الدعوة من أئمة الدين والزهاد الصالحين، رحل إلى المشرق فروى عن الأئمة وأعلام السنة، رجع إلى الأندلس فملاها علما جمًّا، وألّف كتباً حسانا تدل على إكثاره¹» اتهم بالزندقة، وأوشك أن يحكم عليه بالموت وحاول البعض تحريض الخليفة محمد بن عبد الرحمن عليه، لكن الأخير عُرف عنه حُبُّه للعلم وإمامه به، استدعى بقيّ ومن خالفه إلى مجلسه، وتصفح الكتاب كله جزءاً جزءاً، حتى أتى على آخره، ثم قال لخازن الكتب: هذا كتاب لا تستغني خزانتنا عنه، فانظر في نسخه لنا، ثم قال لبقّي: انشر علمك، وازو ما عندك ونهاهم أن يتعرضوا له،² فقد ألّف مصنفاً قيماً في تفسير القرآن الكريم لقي رواجاً كبيراً في الأوساط العلمية، أشاد به بن حزم قائلاً: «هو الكتاب الذي اقطع قطعاً لا استثنى فيه أنه لم يؤلف في الإسلام مثله، ولا تفسير محمد بن جريرته الطبري ولا غيره³»، وهي شهادة قيّمة تعكس قيمة الكتاب وتألق صاحبه، ولا ريب أنه كان منهل العلماء المُفسرين بعده .

ومن الدراسات المهمة في ميدان التفسير، ما كانت للمفسر منذر بن سعيد البلوطي (265هـ-355هـ)، نسبة إلى منطقة قريبة من قرطبة، يقال لها فحص البلوط،⁴ كان إماماً وعالماً فصيحاً، وخطيباً بليغاً، وفقهياً محققاً، كثير الفضل، جامعاً لصنوف الخير والتقوى والزهد، لم تحفظ عليه قضية جور مدة ولايته، استسقى الله المطر أكثر من مرة، فأجيب دعواه،⁵ ذاع صيته يوم حادثة أبي علي القالي حينما كلّفه الخليفة المستنصر بالله، بإلقاء خطبة لاستقبال رسول الروم، ولما شاهد أبو علي الجمع العظيم

¹ جذوة المقتبس، الحميدي، ص: 251.

² ينظر سير أعلام النبلاء، الذهبي، ص: 289.

³ جذوة المقتبس، الحميدي، ص: 188.

⁴ ينظر سير أعلام النبلاء، الذهبي، ص: 174.

⁵ ينظر الأعلام، خير الدين الزركلي، ج7، ص: 294.

جبن فلم تحمله رجلاه، ولا ساعده لسانه، وفطن له منذر بن سعيد، فوثب في الحال، وقام مقامه، وارتحل خطبة بديعة أبهرت الحاضرين، يميل الى النظر والجدل في مذهبه، وله كتب في القرآن أهمها كتاب "الإنباه عن الأحكام من كتاب الله" و"كتاب" الإبانة عن حقائق أصول الديانة¹، وتعدّ مصنفاً نجوماً وضياءً في سماء الدراسات القرآنية، وإنجازاً يستحق الفخر والثناء.

وكانت لمهارة المقرئ عثمان بن سعيد بن عثمان الأندلسي أبو عمرو، المعروف بابن الصيرفي (372هـ-444هـ) أثر في اكتسابه معارف جمّة في ميدان التفسير، فقد تأدّب على يد علماء الأندلس ثم ارتحل إلى المشرق وتعلّم القراءات، ليعود إلى الأندلس فيتصدر هذا العلم، ويجيد تفسير القرآن الكريم ومعانيه وإعرابه، وجمع في ذلك تواليف حسانا مفيدة يطول تعدادها،² وتعظيماً لمكانته وسيرته الحسنة مشى السلطان أمام نعشه يوم جنازته، وكان الجمع غفيرا حينها³.

ومن العلماء الذين اهتموا بالعلوم الدينية عامة والتفسير خاصة، الإمام مكّي بن أبي طالب القيسي الأندلسي (355هـ-437هـ) وأصله من القيروان، سكن قرطبة وسمع من علماء مكة ومصر، وكان فقيهاً مقرئاً وأديباً من أهل التفسير، انتفع به الكثيرون، وعظّم اسمه، وله تصانيف كثيرة في علوم القرآن وغيرها، ومن مؤلفاته الإيضاح في الناسخ والمنسوخ، وكتاب الهداية في التفسير، وتفسير القرآن في خمسة عشرة مجلداً، الإبانة عن معاني لقراءة⁴.

¹ ينظر الأعلام، خير الدين الزركلي، ج7، ص: 294.

² ينظر معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، ت. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1993، ج1، ص: 510.

³ ينظر الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون، تحقيق محمد الأحمد، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، ط1، 2005، ج2، ص: 84.

⁴ ينظر سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج17، ص: 593.

ويتناول كتابه "تفسير القرآن" مشكلات القرآن الإعرابية، وتتمثل طريقته في التفسير بأنه يأخذ سور القرآن مع مراعاة ترتيبها في المصحف، فيقف على ما أشكل من الإعراب في كل سورة مراعيًا أيضاً نسق الآيات وترتيبها، وغايته عرض المشكلات الإعرابية فقط، وانتقد من سبقه في إطالتهم الإعراب والتفاتهم إلى السهل منه، وتركهم كثير من مشكلاته، لا يفقه كُنْه الكتاب إلا من كان عالماً بالنحو، ويذكر المؤلف رأيه في الإعراب فهو يعرض وجوهاً متعددة ومختلفة ثم يلجأ إلى انتقاده لها حسب ما يراه فيها بعبارة تدل على دقة واحتراف مع ذكر سبب الانتقاد، وقد يلجأ المؤلف إلى التفسير للاستعانة به في توضيح مسألة إعرابية، ولم يَقم بتفسير إعراب الآيات جميعها إنما ما أشكل في إعرابها، ونال الكتاب شهرة واسعة في وقته وحتى وقتنا هذا.

وغير هؤلاء كثير ممن برعوا في علم التفسير، وأثروا مكتبة الأدب الأندلسي، فلم يكتفوا بتقليد كتب المشاركة بل تركوا بصمة خاصة في هذا المجال، مما يعكس تعلقهم الشديد بالقرآن، وحرصهم على تفسير أحكامه، كما يبرز قدراتهم الفكرية وسعة اطلاعهم.

1-3-الفقه: عرف أهل الأندلس بحرصهم على التميز وطلب العلم وتعظيم الفقه والفقهاء، فعالم الفقه يحظى منهم بكل التقدير والإجلال، وكانوا يسمون الأمير العظيم منهم بالفقيه وينعتون النحوي واللغوي بالفقيه أيضاً، لأنها عندهم أرفع الصفات¹، وأتبع أهل الأندلس منذ الفتح وحتى عصر هشام بن عبد الرحمن الداخل مذهب الإمام الأوزاعي، وسار على هذا المذهب عدد من العلماء من أشهرهم تلميذه وناشر مذهبه أبو عبد الله صعصعة بن سلام الشامي (ت192هـ)²، ثم انتشر مذهب الإمام مالك وأصبح السائد في الأندلس فعمل الفقهاء على شرح قواعد مذهبهم، والعمل على تفسير المسائل

¹ ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج1، ص: 221

² ينظر المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسن دويدار ص: 411

الفقهية وفقاً لأراء الإمام مالك وينسب إدخاله إلى الفقيه الأندلسي زياد بن عبد الرحمن اللخمي (ت204هـ)، الملقب بشبطون والذي كان رجلاً صالحاً التقى بالإمام مالك وتعلم منه¹.

وتعدّ المدينة دار فقه التلاميذ يفدون إليها من كل فجّ حتى الأندلسيون منهم، وكان عبد الرحمن الداخل وابنه هشام يدفعان الطلاب للرحلة إلى مالك لأنه مغاضب للعباسيين منذ أن أفتى أهل المدينة بالتحلل من بيعه الخليفة المنصور، ومبايعة النفس الزكية محمد بن عبد الله سليل الحسن بن علي بن أبي طالب سنة 145هـ، إلا أن واليها جعفر بن سليمان دعا مالكا بعد القضاء على ثورة النفس الزكية سنة 146هـ وجرده وضربه عقاباً له على فتواه وهو ما جعل عبد الرحمن الداخل وابنه هشام يتشيعان للإمام مالك ومذهبه الفقهي نصرته له ضد العباسيين، وصاحبهم أبي حنيفة وتلاميذه، مما أشعل الحماسة في نفوس طلاب العلم الأندلسيين للتلمذة على يد مالك وحمل كتابه الموطأ إلى الأندلس فكان زياد اللخمي من هؤلاء الطلبة غير أن البعض يرى أن غازي بن قيس هو أول من أدخل موطأ مالك إلى الأندلس²، وكان عيسى بن دينار الغافقي (ت212هـ) من فقهاء الأندلس ومفتيها، وإمامها على مذهب الإمام مالك بن أنس، ارتحل ولزم ابن القاسم مدة، وعرّف عليه وكان كثير الإعجاب به فقال عنه: «تلوموني أن شيعت رجلاً لم يخلف بعده أفتقه منه؟»³، وعرّف بصلاحه وورعه، وإجابته الدعاء⁴، قال عنه محمد بن لبادة فقيه الأندلس عيسى بن دينار وعالمها عبد الملك بن حبيب وراويها يحيى بن يحيى⁵، كان على درجة عالية من الزهد والعبادة حيث يقال انه صلى أربعين سنة الصبح بوضوء العتمة

¹ ينظر جذوة المقتبس، الحميدي ص: 313

² ينظر تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط1، 1995، ج8، ص112

³ طبقات الفقهاء، أبو اسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، ط1، 1970، ج1، ص: 161.

⁴ ينظر سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج8، ص: 470.

⁵ ينظر جذوة المقتبس، الحميدي ص 433

كما كان يعجبه ترك الرأي والأخذ بالحديث، أجمع في آخر أيامه على أن يدع الفتوى بالرأي¹، قال عنه محمد بن عبد الملك «كان عيسى بن دينار عالماً متفناً مفتقاً وهو الذي علّم المسائل أهل مصرنا وفتقها، وكان أفقه من يحيى بن يحيى على جلاله قدر يحيى وعظمه²»، وله في الفقه المالكي كتاب يسمى كتاب الهدية كتب به إلى بعض الأمراء عشرة أجزاء³.

ومن الفقهاء البارزين على مذهب مالك يحيى بن يحيى الليثي (ت234هـ) بربري الأصل من قبيلة مصمودة دخل الأندلس وهو ابن ثمانٍ وعشرين سنة، تولى بني ليث فنسب إليهم، رحل إلى المدينة وسمع من الإمام مالك، وكان كثير الفتوى برأيه حتى سمّاه عاقل الأندلس، وكان سبب ذلك أنه كان في مجلس مالك مع جماعة أصحابه فقال قائل منهم قد خطر الفيل فخرجوا ولم يخرج فقال له مالك: مالك لم تخرج لتنظر الفيل وهو لا يكون في بلادك؟ فقال له لم أرحل لأبصر الفيل وإنما رحلت لأشاهدك، وأتعلم من علمك وهديك فأعجبه ذلك منه وسماه بعاقل الأندلس، فحمل الناس على الاهتمام بالمذهب المالكي ونشره في البلاد⁴، ثم عاد إلى الأندلس حاملاً معه علماً غزيراً.

قال عنه الفقيه الحافظ أبي محمد مذهباً انتشر في بدا أمرهما بالرئاسة والسلطان أحدهما مذهب مالك بن أنس عندنا فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاة، فكان لا يلي قاض في أقطارنا إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا والرئاسة فأقبلوا على ما يرجون

¹ ينظر مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان، تحقيق محمد علي شوابكة، دار عمار، بيروت، ط1 1983، ص:234.

² تاريخ علماء الأندلس، ابن فرضي، ص:299.

³ ينظر الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون، ج2، ص:64.

⁴ ينظر بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، أبو جعفر الضبي، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967، ص 510

بلوغ أغراضهم به، على أن يحيى بن يحيى لم يلبى قضاء قط ولا أجاب إليه وكان ذلك زائدا في جلالته عندهم وداعيا إلى قبول رأيه لديهم.¹

وخير ما يروى عنه في ورعه وزهده أنّ القاضي يحيى بن معن توفي في عهد الأمير عبد الرحمن، فبقي الناس بلا قاض طيلة ستّة أشهر، فقلق الناس لذلك فقال عبد الرحمن، إني لا أجد رجلا أَرْضاه غير واحد وهو لا يجيبني فأشار عليه أحد جلسائه أن يجبره على أن يدلّه على سواه، فألزمه أن يشير عليه فامتنع من الوجهين معا الولاية والدلالة، وقال: قد صدقت عن نفسي لمعرفتي بها، ولن أتقلد الدلالة على غيري فإنه إن جار شاركته في جوره، اشتهر بروايته للموطأ وكان قد رواه عن زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون².

وقد كان لهؤلاء العلماء دور بارز في نشر مذهب الإمام مالك وإرساء قواعده كما كان للأمرء يد في انتشار هذا المذهب وخاصة الأمير هشام بن عبد الرحمن الذي وصف الأمام مالك لزياد بن عبد الرحمن قائلا: ليت أن الله تعالى زين موسمنا بمثل هذا³.

وقد تمسك الأندلسيون بمذهب مالك فكفل لهم الوحدة المذهبية حتى وصف أهل قرطبة بأنهم أشد الناس محافظة على العمل بأقوال المالكية حتى إنهم اشتهروا على حكامهم القضاء به في حكمهم فكانوا لا يولّون حاكما إلا اشتهروا عليه ذلك.⁴

ومع كل هذا التمسك الشديد بالمذهب المذكور إلا أنّه ظهر علماء يتبعون مذاهب أخرى لكنهم قلّة كالمذهب الشافعي، ومن علمائه قاسم بن محمد بن سيار يقال له

¹ ينظر جدوة المقتبس، ابن حيان، ص: 360-361.

² ينظر نفح الطيب، المقرئ، ص: 9.

³ ينظر المصدر نفسه، ص: 337.

⁴ ينظر المصدر نفسه، ص: 216.

البياني (ت278هـ) كان فقيها على مذهب الإمام الشافعي، وله مؤلفات في الرد على مخالفين هذا المذهب منها كتابه الإيضاح في الرد على المقلدين¹.

ومن الفقهاء الذين ساروا على مذهب الإمام الشافعي عثمان بن سعيد الكناني (ت320هـ) وأسلم بن عبد العزيز (ت319هـ) وغيرهم² وظهرت فئة أخرى تتبّع المذهب الظاهري أمثال القاضي منذر بن سعيد البلوطي الذي عرف بمتانتة وشدة جزالته وحسن خلقه، وكثرة دعابته إلا أنه حادّ الطباع إذا ما تعلّق الأمر بأمور الدين، كما كان متفنناً في ضروب العلم وغلب عليه التفقه بمذهب الظاهر فكان يحتجّ بمقالاته، ويأخذ بها وإذا حكم يحكم بمذهب مالك بن أنس وأصحابه.³

وعمل ابن حزم علي بن أحمد بن سعيد (384هـ - 450هـ)، على حمل لواء هذا المذهب ونشره وإحياءه من جديد⁴، وكان زاهداً في الدنيا عالماً بالفقه عرف بذكائه وسرعة الحفظ، وكرم النفس، والتدين وله كتاب في الإحكام لأصول الأحكام، وكتاب الفصل في الملل والأهواء والمخن وكتاب في الإجماع مسائله.⁵

ولم تغب النساء عن الدراسات الفقهية فقد كان لهن دور بارز في هذا العصر، ومن النساء الفقيهات فاطمة بنت محمد يوسف المغامر (ت319هـ) وكانت فقيهة خيرة فاضلة عالمة ورعه، استوطنت قرطبة وبها توفيت⁶، أفادت الأندلس بدراساتها الفقهية.

وقد أغنى الفقهاء هذا العلم بجهودهم العلمية لكثرتهم، عرفت الأندلس جراه نشاطاً مزدهراً منقطع النظير.

¹ ينظر جذوه المقتبس، الحميدي، ص484.

² ينظر تاريخ علماء الاندلس، ابن فرضي، ص242-80.

³ ينظر تاريخ قضاة الاندلس، النباهي، ص: 73-74.

⁴ ينظر المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسين دويدار، ص415.

⁵ ينظر جذوة المقتبس، الحميدي، ص: 449.

⁶ ينظر بغية الملتبس، الضبي، ص: 449.

1-4-الحديث: اهتم الأندلسيون بدراسة علم الحديث وجمعه وترتيبه ويعود الفضل في ذلك للرحلات العلمية التي قام بها أغلب العلماء، ومن أبرزهم بقي بن مخلد الذي اهتم بدراسة الحديث وعلومه المختلفة، ولفت أنظار الأندلسيين إلى هذا العلم بعد أن غلب عليهم فقه مالك، فملاً الأندلس حديثاً ورواية، وترك أثراً واضحاً في رقي العلم بالأندلس حتى صارت دار حديث وإسناد¹، ومما ألفه في علم الحديث مصنف رتبه على أسماء الصحابة وروى فيه ألف وثلاثمائة منهم ورتب أحاديث كل منهم على أسماء الفقه وأبواب الأحكام، فهو مصنف ومسند قال فيه ابن حزم: «ولا أعلم هذه الرتبة لأحد قبله مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث وجودة شيوخه فإنه روى عن مائتي رجل وأربعة وثمانين رجلاً ليس فيهم عشرة ضعفاء و سائرهم أعلام مشاهير»²، ووصف بأنه كتاباً لا نظير له ولم يصنف مثله قطعا،³ أسهم في ازدهار علم الحديث وإسناده .

وكان المحدث محمد بن وضاح (190هـ-287هـ) نداً قوياً في هذا العصر، لبقني بن المخلد في ميدان الحديث ودراساته المختلفة واستطاع أن ينشر علومه في هذا الميدان.

ولم يقتصر النشاط العلمي على هذين العالمين بل كان هناك الكثير من المحدثين الذين قدّموا جهوداً موفقه في حقل الدراسات العلمية المتعلقة بالحديث وعلومه، ومن هؤلاء قاسم بن ثابت بن حزم (255هـ-302هـ) الذي صنف كتاباً في علم الحديث أسماه الدلائل بلغ فيه درجة رفيعة من الإتقان إلا أن المنية حالت دون أن يتمه فأكماله أبوه من بعده⁴.

¹ ينظر سير أعلام النبلاء، الذّهبي، ص: 288.

² بغية الملتمس، الضبي، ص: 230.

³ ينظر تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، ص: 92.

⁴ ينظر تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، ص: 360-361.

وقد لقي علماء الحديث مشاقاً كبيرة في طلب العلم، وفي سبيل البحث عن الأحاديث، وتطلب ذلك منهم جهداً وصبراً كبيرين في سبيل تحقيق ذلك .

وقد عرف عصر الخلافة نشاط كبيراً في ميدان علم الحديث فبرز العديد من المحدثين أسهموا في ازدهار هذا العلم، ونذكر منهم يحيى بن مالك بن عائذ (ت376هـ) الذي ارتحل إلى المشرق وقصد العراق وغيرها من البلدان، وسمع بها من سبعمئة عالم وأكثر، وظل في المشرق يتردد على حلقات العلم، ويلتقي بالشيوخ، ودامت رحلته عشرين عاماً عاد بعدها إلى الأندلس أوسع علماً وأكثر معرفة، فتسابق الناس إلى مجالسه العلمية وحلقات درسه، واتخذ له مكاناً في جامع قرطبة، وعين له يوم الجمعة في كل أسبوع للتدريس والإملاء، فكان مجلسه من أشهر المجالس العلمية في قرطبة، يكثر الطلاب الإقبال عليه.¹

ومن المحدثين البارزين محمد بن عبد الملك بن أيمن (ت330) الذي وصف بالبراعة التامة في علم الحديث والتّمكّن في علومه، وقد ألف كتاباً في السنن صنّفه على تراجم أبي داوود، وتميّز ذلك الكتاب بالدقة والإتقان، وكان رحل إلى المشرق بصحبة رفيقه المحدث قاسم ابن أصبغ فوصلا العراق، وكانا يعتزمان لقاء الحافظ المحدث أبي داوود، فأخذا عنه الحديث، وكان لكتائيهما منزلة رفيعة بين المحدثين، وأهل العلم لدقّتهما وجلالهما²، ومما يعكس علو همته والمرتبة الرفيعة التي كان يتميّز بها، تقدير أهل عصره له، وقد اثني عليه بن حزم قائلاً: «ومصنف ابن أيمن مصنف رفيع، احتوى من صحيح الحديث وغريبه ما ليس في كثير من المصنفات»³.

¹ ينظر جذوة المقتبس، الحميدي ص 379-380.

² ينظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، أبو الفلاح، تحقيق محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1، 1986، ج2، ص: 327.

³ جذوة المقتبس لحميدي، ص67.

ويجدر الحديث عن المحدث قاسم بن أصبغ البياني، (ت340هـ)، زميل ابن أيمن الذي يعدّ من كبار حفاظ الحديث، ومن ألمع ما أخرجته الأندلس في هذا الميدان، وقد سمع العلم من شيوخ وطنه، ثم رحل إلى القيروان ومصر ومكة والمدينة، والعراق ثم رجع إلى الأندلس فتهافت عليه طلاب العلم يأخذون عنه، ويسمعون منه العلوم والمعارف، فسمع منه الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم وإخوته وطال عمره حتى أخذ عنه الكبار ثم الصغار وعرف بسعة علمه في أكثر من علم كالحديث والفقهاء والأدب والنحو¹، وقربه الحكم المستنصر إبان ولايته وكلفه بتأليف كتاب في الحديث فألف كتاباً في السنن المسنده، اختصره من كتابه الكبير فجاء في سبعة أجزاء، وفيه من الحديث المسند ألفان وأربع مائة وأربعة وتسعون حديثاً²، سار فيه على نهج العالم المشرقي ابن الجارود صاحب كتاب المنتقى، وقد اعتبره ابن حزم خيراً منه انتقاءً، وأنقى حديثاً وأعلى سنداً وأكثر فائدة³، ومن كتبه في الحديث أيضاً الناسخ والمنسوخ، وكتاب غرائب حديث مالك بن أنس مما ليس في الموطأ، وتشهد هذه المؤلفات بسعة علمه، ومعرفته بالحديث، وبراعته في التصنيف.

وغير هؤلاء من المحدثين الذين انصرفوا إلى العلم بإخلاص وهمّة صادقة، تعكس نبوغهم وتفوقهم في علوم شتى كأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر التّمري (68هـ-463هـ) الذي أثرى علم الحديث بكتبه الكثيرة، فقد كان موفقاً في التأليف، معاناً عليه، ونافعاً به غيره، حيث ألف في الموطأ كتاباً مفيداً منها كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، فرّبه على أسماء شيوخ مالك وفق حروف المعجم، في سبعين جزءاً، قال فيه ابن حزم: لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله فكيف أحسن منه؟، ثم ألف كتاب الاستذكار لمذهب علماء الأمصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي

¹ ينظر بغية الملتبس، الضبي، ص447-448.

² ينظر شذرات الذهب، ابن عماد ج2، ص:327.

³ ينظر جذوة المقتبس، الحميدي، ص331.

والآثار، شرح فيه الموطأ على وجهه، وجمع كتابا جليلا مفيدا وهو الاستيعاب في أسماء الصحابة، وله كتاب جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي في روايته وحمله¹، وغيرها من المؤلفات، فنال بذلك مرتبة رفيعة، أشاد بها ابن السعيد قائلا «انظر إلى آثاره تغنك عن أخباره»².

فعلماء الحديث أثروا المكتبة الإسلامية بما قدموه من تصانيف في علم الحديث بكميات هائلة، وكثرة المحدثين في هذه الفترة تعكس تعلق الأندلسيين بالدين وعلومه.

واستند علماء الأندلس في اكتساب معارفهم على أهل المشرق الذين سبقوهم إلى طرق العلوم الدينية، إلا أنهم لم يقفوا عند هذا الحد، فبفضل ما بلغوه من علم ومعرفة ضاعفوا جهودهم فأبدعوا وأبرزوا براعتهم في ميدان الدراسات الدينية.

2- العلوم الإنسانية: برز العديد من العلماء في ميدان العلوم الإنسانية أسهموا في ازدهار هذه العلوم بما بذلوه من جهود وإبداعات في هذا المجال، إلا أن هذه العلوم ظهر الاهتمام بها متأخرا مقارنة بالعلوم الدينية، ومن أبرز هذه العلوم :

2-1- التاريخ:

لم يكن ظهور التاريخ في الأندلس منفصلا عن جذوره التي نشأ فيها وتطور عنها في المشرق نتيجة رحلات علمائها إلى هذا البلد، وأخذهم عن شيوخه، فظهر تأثير المدرسة المصرية جليًا في كتابات مؤرخي هذا العصر، واهتم الأندلسيون بعلم التاريخ حفاظا على تراث وطنهم من الضياع، وحرصا منهم على صحة الأحاديث، فلجأوا إلى تدوين تراجم الرواة ومعرفة سيرهم، وظهر الفقيه عبد الملك بن حبيب (238هـ)، كأول مؤرخ أندلسي، عاش بالبيرة وقرطبة أول أمره، ثم ارتحل إلى المشرق وتآدب على يد شيوخه، حتى صار ملما

¹ ينظر سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج18، ص: 156-158-159..

² المغرب في حلي المغرب، ابن سعيد، ج2، ص407-408.

بالتاريخ فألف كتابه التاريخ،¹تناول تاريخ العالم من ابتداء خلق الدنيا والسموات والبحار والجبال والجنة والنار وخلق آدم عليه السلام والأنبياء والرسل ثم الخلفاء الراشدون حتى يصل إلى الأندلس فيفيض في ذكر شأنها وما فيها من الكنوز، وأكثر فيه من الأساطير وحاكى فيه نهج ألف ليلة وليلة، كذكره مثلاً لما رآه طارق بن زياد في رؤياه، وحصار المسلمين لمناطق يعمرها الجن ويدافعون عنها، ويطيل في وصف مائدة سليمان، على أن هذه الأحداث جزء من التاريخ²، واستعان في تأليف كتابه ببعض شيوخه المصريين³، ويؤكد المؤرخ نفسه هذا الأمر قائلاً: "فهؤلاء المشايخ يحسبون أن الأندلس مجمع الأعاجيب ويتحدثون عنه على أنه بلد وجد في بحر الظلمات، تسكنه الجن وتقوم فيه القلاع المسحورة والأصنام وتعيش فيه الشياطين في قمام حبسها فيها النبي سليمان"⁴ وامتلاً الكتاب بهذا النوع من الروايات، حتى عدّه الكاتب أحمد أمين كتاباً لا يحمل قيمة تاريخية كبيرة⁵.

ويرى بعض النقاد أن تلامذته هم من أنخوا تأليف الكتاب، واستدلوا على ذلك بمضامين الكتاب فسلسلة أمراء الأندلس تصل إلى الأمير عبد الله بن محمد أي سنة 274هـ، إلا أن الكاتب توفي قبل ذلك بخمس وثلاثين سنة⁶، وعلى الرغم من قصور الكتاب وتركيزه على الخرافات يبقى أول محاولة في هذا المجال.

ومن المحاولات الأولى في علم التاريخ أيضاً كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن قوطية،* كان إماماً في العربية، عالماً بالنحو وحافظاً للغة ومتقدماً فيها على أهل عصره

¹ ينظر ظهر الإسلام أحمد أمين، ج3، ص:274.

² ينظر نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس، عبد الواحد ذنون طه، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ط1988، ص:8-9.

³ ينظر تاريخ الفكر الأندلسي، أنخل بالثيا، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط2، ص:195.

⁴ ينظر نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس، عبد الواحد ذنون طه، ص:9.

⁵ ينظر ظهر الإسلام، أحمد أمين، ج3، ص:274.

⁶ ينظر نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس، عبد الواحد ذنون طه، ص:9.

حافظا للحديث والفقہ والأخبار لا يلحق شأوه ولا يشق غباره، وكان مضطلعا بأخبار الأندلس ملماً برواية سير أمرائها وأحوال فقهاها وأدبائها وشعرائها¹، وفي كتابه تاريخ افتتاح الأندلس، يؤرخ للفترة التاريخية الممتدة من فتح بلاد الأندلس حتى عام 275هـ / 888م².

وبعد ظهور نخبة مثقفة حملت على عاتقها مسؤولية كتابة التاريخ الأندلسي، أتيح للمدرسة الأندلسية الاستقلال عن نظيرتها المشرقية وأشهرها أسرة الرازي التي تعدّ من الأسر العلمية التي حاولت وضع أسس لعلم التاريخ، وأبرز أفرادها أحمد بن محمد بن موسى الرازي (274-344) ولد بالأندلس وسمع من علمائها، وكان كثير الرواية، حافظاً للأخبار، وله مؤلفات كثيرة في أخبار أهل الأندلس وتواريخ دول الملوك³ وأخبار ملوك الأندلس وكتابهم وخططها، وكتاب في أنساب مشاهير أهل الأندلس، يقع في خمس مجلدات⁴، وُصف بقيمته العلمية الكبيرة وله كتاب ضخيم عن طرق الأندلس وموانئها ومدنها الرئيسية، وتجمعات جندها وخواص كل بلد منها وما فيه، سماه مسالك الأندلس ومراسيها وأمهاات أعيان مدنها وأجنادها الستة، وكتاب أعيان الموالي عن مشاهير الموالي في الأندلس⁵، فلم يترك حادثة من حوادث بلده إلا وتحدّث عنها، ولا ناحية من نواحيه إلا وأجاد الوصف فيها، وتتسم كتاباته بالدقة في المعلومات، ولا يكتفي بذكر الأحداث التاريخية بل يعتمد على التحليل وإبداء رأيه في أسباب الخلافات ونتائجها، ويكثر من

* الديباج المذهب، ابن فرحون، ج 2، ص: 217، 218.

² ينظر جذوة المقتبس، الحميدي، ص: 76.

³ ينظر تاريخ علماء الأندلس، ابن فرضي، ج 1، ص: 54.

⁴ ينظر جذوة المقتبس، الحميدي، ص: 104.

⁵ ينظر نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس، عبدالواحد ذنون طه، ص: 25-26.

إيراد المعلومات الخاصة بالعمران،¹ وكان لمؤلفاته دور في الارتقاء بعلم التاريخ إلى مرحلة النضوج، واعتمد العديد من العلماء عليها كمصادر أساسية لأعمالهم.

وورث عنه ابنه عيسى المهارة في كتابة التاريخ، كان أول تلاميذه أخذ عنه الكثير لكثرة ملازمته له أينما حلّ وارتحل²، وكان عالماً بالآداب ذاكرة للأخبار، ألف كتابين أحدهما الوزارة والوزراء، والآخر عن الحجاب للخلفاء بالأندلس، نزولا عند رغبة الخلفاء الأمويين الذين شجعوه على التأليف،³ وتميز بدقته وإلمامه بالحوادث ومعرفته لأحوال البلاد.

وتركت مدرسة الرازي التاريخية أثرا كبيرا في علم التاريخ، وأنتجت علما مترابطين ومستقلين خال من الخرافات والأساطير لاسيما أحمد بن محمد، الذي أدخل قاعدة التقديم للتاريخ بالجغرافيا، ودمج بين هذين العلمين، وسار على نهجه الكثير من المؤرخين.⁴

وأظهر الأندلسيون براعة في كتابة السير والتراجم، وكثر التأليف فيها، فتناولوا في كتبهم سير أعلام الأندلس، وعمد البعض إلى ترجمة طبقة معينة من العلماء، أو ترجمة شخصية معينة، وممن تخصص في سير التراجم ابن الفرضي عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي أبو الوليد (ت403هـ)*، مؤرخ حافظ وأديب،⁵ بارع ثقة معروف بسعة

¹ ينظر المرجع نفسه، ص: 43.

² ينظر المقتبس، ابن حيان، ص: 269.

³ ينظر التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، ج3، ص: 419.

⁴ ينظر نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس، عبد الواحد ذنون طه، ص: 45.

* ولد بقرطبة، وتولى قضاء بلنسية في دولة محمد المهدي المرواني. ورحل إلى المشرق سنة 382 هـ، فحج وعاد، فاستقر بقرطبة إلى أن قتله البربر يوم فتحها، شهيدا في داره (ينظر ينظر ظهر الاسلام، أحمد امين، ج3، ص: 275).

⁵ ينظر الأعلام، الزركلي، ج4، ص: 121.

الرّواية، وحفظ الحديث، ومعرفة الرّجال، والافتنان في العلوم والأدب¹، واتّسم أسلوبه بالجمال وعباراته بالجزالة²، من مصنّفاته تاريخ الأندلسيين، والمؤتلف والمختلف في الحديث، والمتشابه في أسماء رواة الحديث وكناهم، وأخبار شعراء الأندلس، وتاريخ علماء الأندلس³، ويعد هذا الأخير من أهم المصادر التاريخية في تلك الحقبة الزمنية والملاحظ عليه أنه اقتصر على تراجم علماء الحديث والفقهاء، دون التّطرق لعلماء الطّب والرياضيات، ما يدل على أن المجتمع الأندلسي مجتمع محافظ بامتياز.

ويعدّ حيان بن خلف القرطبي (377-467) أبرز مؤرخي الأندلس، تلقى علوم اللغة والأدب على يد كثير من العلماء، كما كان أديبا ماهرا⁴، من مؤلفاته كتاب المقتبس، ويقع في عشرة أجزاء يتناول فيه تاريخ الأندلس من الفتح إلى زمن المؤلف، والمتين يقع في ستين جزءا، لم يبق منه إلا فقرات في بعض الكتب ككتاب الذخيرة لابن بسام⁵.

وعُرف بصراحته وجرأته في الكتابة يذكر المحاسن ولا يتعفف عن ذكر المساويء، وإذا أراد اقتباس شيء حذف اسم المؤرخ واكتفى بالتّكنية عنه بفلان، ولم يسلم من لسانه أحد من الأمراء والخلفاء، فكان يشير إلى محاسنهم دون أن يغفل عن زلّاتهم ونقائصهم⁶، فمن أهم صفات المؤرخ الموضوعية في الكتابة وهذا ما تحلى به ابن حيان الذي تحرى الصدق في الحكم حتى تكون الرواية التاريخية حقيقية بعيدة عن التزييف، مما جعله محط ثناء العلماء.

¹ سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج 13، ص: 5

² ينظر ظهر الاسلام، أحمد أمين، ج 3، ص: 275.

³ ينظر الأعلام، الزركلي، ج 4، ص: 121.

⁴ ينظر وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج 2، ص: 218-219.

⁵ ينظر ظهر الاسلام، أحمد أمين، ج 3، ص: 275.

⁶ ينظر ظهر الاسلام، أحمد أمين، ج 3، ص: 275.

واتصل علم التاريخ بالأندلس بالأدب كون أغلب المؤرخين شعراء يربطهم ببلداتهم رابط قوي تتأجج ناره كلما سقطت بلدة في يد النصارى فيسارع أدباؤها إلى رثائها ومؤرخوها إلى تحليل وقائعها، ومن ثم فكثرة المؤرخين في هذا العصر وإبداعاتهم في هذا المجال خير دليل على نهضة الفكرية التي عرفتتها الأندلس، وتشهد لها بذلك كتب التاريخ التي أثرت المكتبات الإسلامية.

2-2- الجغرافيا: ارتبط ظهور علم الجغرافيا بعلم التاريخ، فهما علمان متلازمان عند العرب، فإلى جانب معرفة العربي للغة، وجب عليه معرفته نسبه وأخبار السابقيين وسيرته صلى الله عليه وسلم، كما ينبغي عليه معرفة بلاد المسلمين ومدائنهم والطرق إليها، وما تيسر من أحوال أهلها وصفاتهم وعاداتهم، فعسر الفصل بين المؤرخين والجغرافيين.¹

وقد أفاد الجغرافيون الأندلسيون من المؤلفات الإغريقية واللاتينية في الوصف العام لشبه الجزيرة الأندلسية وما اتصل بها وقرب منها من بلاد أوروبا وفي تحديد المواقع وتقدير المسافات، واعتمدوا في تأليفهم على أساسين مهمين هما البلدان أو المسالك والممالك والرحلات.²

وارتكز المؤلفون في كتاباتهم على وصف وطنهم مفصلين القول في خططه ومسالكه ومدنه وأنهاره وجباله وتقسيماته الإدارية، وحرصوا على ضبط الأسماء الأعجمية ومحاولة الرجوع إلى أصولها اللاتينية وأقام البعض منهم مناظرات على السنة

¹ ينظر تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، حسين مؤنس، مكتبة مدبولي، المنظمة العربية للتربية والثقافة، ط2، 1986، ص: 1-2.

² ينظر تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، حسين مؤنس، ص: 12.

المدن الأندلسية المختلفة تفخر كل منها بنفسها وتظهر أوصافها ومزاياها التي لا توجد في غيرها¹.

ويعدّ كتاب هروشيّش* أهم مصدر اعتمد عليه الجغرافيون الأندلسيون، وأخذوا عنه الآراء المتصلة بصفة شبه الجزيرة، وأضافوا ما تجمّع لهم من مادة جغرافية سليمة دقيقة مبنية على الخبرة والرحلة والمشاهدة²، وفي مقدمته الجغرافي الباحث أحمد بن محمد الرازي، الذي اعتبر الجغرافيا متممة للتاريخ، ومن أشهر مؤلفاته مسالك الأندلس ومراسيها وأمّهات أعيان مدنها وأجنادها الستة، الذي تناول فيه وصفا شاملا للأندلس ومسالكها، وذكر خواص كل بلد منها وما يميزه عن بقية البلدان الأخرى، واعتبر الكتاب من أهم المؤلفات في تلك الحقبة الزمنية كونه اشتمل على الكثير من المعلومات التي تفرّد بها عن غيره من كتب الجغرافيا الأندلسية³، حيث سلك منهجا خاصا به في كتاباته تجلّى في تحديده لموقع شبه الجزيرة العربية من الأقاليم الأخرى، ثم تحدث عن هيأتها، وتلاه بتحديد المواضع، وأفرد فصلا في الحديث عن مناخها، وعلل انقسامها إلى قسمين... مما يعكس فهمه العميق لطبيعة بلاده⁴. واعتماده على الخبرة الشخصية مبتعدا عن الالتزام بالفكر اليوناني والروماني الذي امتازت به المرحلة السابقة من الكتابة، واشتهر الرازي بكتاباته في أوروبا شهرة واسعة، وترجم مؤلفه إلى اللغة البرتغالية⁵.

¹ ينظر ظهر الإسلام، أحمد أمين، ج3، ص:289.

* كتاب هروشيّش كتاب يتحدث عن الأمم والملوك باللسان اللاتيني، فيه تاريخ للروم وأخبار الدهور، وفوائد عظيمة (ينظر تاريخ الإسلام، الذهبي، ج27، ص:213).

² ينظر تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، حسين مؤنس، ص:20.

³ ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص:160.

⁴ ينظر تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، حسين مؤنس، ص:59-60.

⁵ ينظر تاريخ الأدب الجغرافي العربي، كراتشكوفسكي اغناطيوس، ت. صلاح الدين عثمان هشام، ج1، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1957، ص:169.

ومن الجغرافيين البارزين محمد بن يوسف أبو عبد الله الوراق (292-363 هـ) مؤرخ وجغرافي، ولد بوادي الحجارة بالأندلس، ثم انتقل إلى القيروان وترعرع فيها، كان ذا حظوة كبيرة لدى المستنصر ثاني الخلفاء الأمويين في الأندلس، وقد ألف له كتاباً ضخماً في جغرافية المغرب أسماه «أفريقية وممالكها» وألف كتباً متعددة في أخبار ملوكها وحروبهم وفي أخبار تاهرت ووهران وتنس وسجلماسة وغيرها، وله أيضاً رسائل صغيرة ولكن عظيمة القيمة عن بعض بلاد أفريقيا احتفظ لنا بقطع منها المؤرخ ابن عذارى¹، وقد عمد الخليفة الحكم المستنصر إلى تقريبه منه وتشجيعه على التأليف في جغرافية إفريقيا وممالكها بغية الاستعانة بها لإحباط محاولة الفاطميين التوسع في بلاد المغرب.²

ومن الجغرافيين الأندلسيين من تميز بكثرة تنقله بين الأقاليم ووصفها وصفاً دقيقاً وشاملاً، والوقوف على تقاليد هذه الأمم، هو الرحالة الطرطوشي إبراهيم بن يعقوب من طرطوشة في الأندلس، عاش في القرن الرابع الهجري، لم يكن تاجراً يهودياً فحسب، بل كان من المحبين لاقتناء الكتب، شخص مثقف دقيق الملاحظة وخبير ماهر، جمع معلومات كثيرة عن مجموعة من الدول مثل فرنسا إسبانيا وألمانيا، شيكوسلوفاكيا وبولندا ويوغوسلافيا وغيرها من دول وسط أوروبا. وقد فقدت أخبار هذه الرحلة ولم تبق منها سوى مقاطع متفرقة اقتبسها بعض الجغرافيين العرب، أمثال أبو عبيد البكري في كتابه "المسالك والممالك"، والقزويني في كتابه "عجائب المخلوقات"، وغيرهما من الجغرافيين العرب.³

وبرز في أواخر العصر العالم أحمد بن عمر بن أنس العذري الدلائي (393 - 478 هـ) نسبة إلى إحدى القرى في الأندلس المسماة الدلاية، ولد بالمرية وارتحل مع

¹ ينظر، جذوة المقتبس، الحميدي، ص 97.

² ينظر تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، حسين مؤنس، ص: 73.

³ ينظر تاريخ الأدب الجغرافي العربي، كراتشكوفسكي، ج 1، ص: 192.

والده إلى مكة وتأدب على يد علمائها، استمر في البحث بعد عودته إلى الأندلس، ألف كتابا بعنوان نظام المرجان في المسالك والممالك، وتتميز كتاباته بالدقة والتفصيل، فقد تناول في كتابه مجاري المياه وعيونها والأنهار وفروعها فضلا عن طرق السقي.¹

وقد أسهم هؤلاء الجغرافيون وغيرهم في إثراء هذا العلم، واعتُبرت تصانيفهم مصادر ينهل منها من تلاهم من العلماء الجغرافيين في العصور اللاحقة، تعينهم على توسيع دائرة البحث في هذا المجال .

2-3- الفلسفة: كان الأندلسيون أبعد الناس عن الفلسفة ناقمين على الآراء الكلامية والفلسفية، يتهمون من يشتغل بها بالزندقة والكفر، كونها تعتمد على الاجتهاد العقلي الذي قد يفضي بصاحبه الى الابتعاد عن الإيمان بالله والوقوع في شرك الإلحاد، غير أن عبد الرحمن الأوسط الذي اتصف بحبه لها وشغفه الكبير بكتبها كان له الفضل في إدخالها إلى الأندلس وبيعت رجاله للبحث عن كتبها وتصانيف الفكر اليوناني والهندي والفارسي²، وعمل على ترجمتها.

ومن كانت لهم آراء فلسفية ابن مسرة محمد بن عبد الله القرطبي (269هـ-319هـ)، ولد بقرطبة و تأثر بوالده الذي كان على مذهب المعتزلة، فاتهم بالزندقة مما جعله يفر نحو المشرق³، لكنه عاد متخفيا برداء النسك والزهد وبدأ بممارسة نشاطه الفكري من جديد، ثم اعتزل الناس في جبل قرطبة⁴ ويعد أول من أدخل التصوف الفلسفي للأندلس ودعا بفكرة وحدة الوجود، وأنّ هناك مادة روحية تشترك فيها جميع الكائنات الحية ماعدا الذات الإلهية، و من مؤلفاته الاعتبار الذي يحاول فيه أن يثبت أن

¹ ينظر تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، حسين مؤنس، ص: 73-74.

² ينظر حضارة العرب في الأندلس، ليفي بروفنسال، ت: ذوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، ص 63.

³ ينظر جذوة المقتبس، الحميدي، ص: 53.

⁴ ينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان، ص: 433.

الاعتبار والوحي يؤدّيان إلى الحقائق اليقينية، فالاعتبار في نظره إنّما يتمثل في استعمال العقل لتبين إشارات الله والتسامي درجة فدرجة حتى إدراك التوحيد، فالعملية الفكرية التي يدعو إليها تختلف نوعياً عن نظر الفلاسفة، فهي عبارة عن جنس من التأمل يقود حسب رأيه إلى البصيرة، ومن ثمة معرفة الله الواحد، فبينما يتبع الاعتبار اتجاهًا ينطلق من العالم المتجلي ليلبغ العالم العلوي، فإنّ النبوة تصدر من الأعلى في اتجاه الأسفل فيلتقي كلاهما عند الغاية ذاتها¹، فظهرت المدرسة المسرية التي انتمى لها بعض المفكرين الأندلسيين أمثال محمد بن مفرج المعافري، وخليل بن عبد الملك القرطبي، وطريف الروطي وغيرهم، وأغلبهم تلاميذه .

فمن كانت كتاباته تحث على محاسن الأخلاق قوبلت بالاستحسان، ومن تعارضت أفكاره مع العقيدة تعرض لحملة شرسة من الفقهاء وعامة المجتمع .

ومن علماء الفلسفة البارزين أبو عبد الله محمد بن الحسن المعروف بابن الكتاني (420هـ) العالم بالطب والفلسفة والمنطق، المعروف بذكائه وسرعة فهمه، ألف العديد من الرسائل المشهورة المعروفة بجودتها ومنفعتها العظيمة.²

وممن اقتحم ميدان علم الكلام يحيى بن يحيى المعروف بابن السمين (ت315) ويكنى أبابكر، كان متصرفاً في ضروب العلم، متفنناً في الآداب، ورواية الأخبار، مشاركاً في الفقه والرواية وعقد الشروط، بصيراً بالاحتجاج والكلام، رحل إلى المشرق فكال إلى كتب الحجة، ومذاهب المتكلمين، فكانت له آراء تخالف كلام أهل السنة، وانصرف إلى الأندلس فأصابه النقرس فلازم منزله³.

¹ ينظر هل كان ابن مسرة القرطبي فيلسوفاً، بيلار غازيدو كليمني، دراسات استشرافية، العدد: 2021، 24، ص: 115.

² ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص175.

³ ينظر تاريخ علماء الأندلس، ابن فرضي ج2، ص185.

ويعدّ عبد الرحمن بن إسماعيل بن زيد المعروف بالاقليدي من علماء الفلسفة الحذقين، كان متقدماً في الهندسة، معتنياً بصناعة المنطق وله فيه تأليف، إلا أنه رحل إلى المشرق أيام المنصور بن أبي عامر، خوفاً على نفسه، وتوفي هناك¹.

وأسهم الفيلسوف سعيد بن فتحون (369هـ-444هـ)، المعروف بالحمار في إثراء علم الفلسفة، وأصله من طليطلة سافر إلى قرطبة، وكان بها إماماً في علم النحو واللغة، وعلم الهندسة والمنطق والموسيقى متصرفاً في سائر علوم الفلسفة، وله رسائل في الفلسفة رسالة في تعديل العلوم وكيف درجت إلى الوجود من انقسام الجوهر والعرض، ورسالة في المدخل إلى علوم الفلسفة سماها شجرة الحكمة، ونالته في أيام المنصور بن أبي عامر محنة شديدة مشهورة السبب أدته بعد انطلاقه من السجن إلى الخروج عن الأندلس نحو صقلية²، واحتل مكانة مرموقة بين أقرانه من العلماء حتى وصفه ابن حزم في رسالته قائلاً: «وأما الفلسفة فإني رأيت فيها رسائل مجموعة وعيونا مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطي المعروف بالحمار، دالة على تمكنه من هذه الصناعة»³.

وبرز في أواخر عصر الخلافة، فيلسوف له آراء وأقوال قيمة في هذا المجال، هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الأندلسي القرطبي، (384هـ-457هـ) عالم من أكبر علماء الإسلام في التصنيف والتأليف بعد الطبري، وهو حافظ وفقه ظاهري، أديب شاعر نسابة عالمٌ بسند الحديث النبوي، ناقد فيلسوف، وهو من أوائل العلماء الذين قالوا بكروية الأرض، كان ابن حزم الظاهري وزيراً سياسياً من وزراء بني أمية في الأندلس، درس المنطق على يد محمد بن الحسن القرطبي، قاسى ابن حزم نار الفتنة التي قامت في قرطبة في الفترة التي كان يكتب

¹ ينظر طبقات الأمم، البغدادي، ص 91.

² ينظر المصدر نفسه، ص: 92.

³ رسائل بن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، لبنان، ط 2، 1987، ج 2، ص: 185.

فيها كتابه طوق الحمامة في الألفة والألاف، ثم ترك ابن حزم قرطبة وهاجر إلى المرية، لقي عذاباً كبيراً بسبب انشغاله بالسياسة ونضاله من أجل إعادة بناء الدولة الأموية في الأندلس شرّد ونفي عن وطنه بعد العداء الذي نشب بينه وبين جماعة من المالكية، إلى أن سقطت الخلافة الأموية في الأندلس بشكل نهائي، وبعدها فرغ ابن حزم نفسه من أجل العلم والتأليف،¹ أفاد علم الفلسفة بشرح منطق أرسطو وأعاد صياغة الكثير من المفاهيم الفلسفية، وربما يعتبر أول من قال بالمذهب الاسمي في الفلسفة الذي يلغي مقولة الكليات الأرسطوية.

إنّ علم الفلسفة بالأندلس كان مرتبطاً بما يلائم الشريعة الإسلامية ويتوافق مع أحكامها، مما ضيق الخناق على العلماء وأعاقهم عن التعبير عن مختلف وجهات نظرهم في هذا المجال، ومع أن الظروف كانت صعبة إلا أن العلماء بذلوا جهداً يستحق التقدير والثناء، وخرجوا بنتائج علمية نالت إعجاب أغلب الباحثين.

2-4- علوم اللغة:

وكان لعلوم اللغة العربية والنحو على وجه الخصوص نصيب عظيم من اهتمام الأندلسيين وليس غريباً أن يلقي هذا العلم اهتماماً كبيراً عندهم، وذلك لصلته الوثيقة بمصدري التشريع الإسلامي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وخوفهم من تسرب مرض اللحن للغة العربية الفصحى، واقتراب الخطر من القرآن الكريم²، فكانوا يعلمون طلابهم النحو لنشر اللغة العربية، لأنّ المجتمع الاندلسي مزيج من الأجناس العربية

¹ ينظر سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج18، ص184-187.

² ينظر جهود نخبة الأندلس في تسيير النحو العربي، فادي صقر أحمد عصيد، جامعة النجاح الوطنية فلسطين، 2006، ص:7.

والاسبانية والبربرية، فأخذ العلماء من الكتب المشرقية يدرسونها لطلابهم، ثم ما لبثوا أن انتقلوا لشرح تلك الكتب أو التعليق عليها، وتصويب أخطائها إن وجدت، وبعد أن أحسّوا بقدرتهم على التأليف، انصرفوا إلى الدرس النحوي يألّفون ويدعون فيه.

ولم يكن عند علماء النحو معرفة كبيرة بهذا العلم، لأنّ المؤدّين كانوا يلقنون تلاميذهم العوامل وما شاكلها وتقريب المعاني لهم في ذلك ولم يأخذوا انفسهم بعلم دقائق العربية و غوامضها والاعتلال لمسائلها، ثم كانوا لا ينظرون في إمالة ولا ادغام ولا تصريف ولا أبنية ولا يجيئون في شيء منها¹، غير أنّ الكثير منهم كان ينزل منزلة احترام وتقدير في نفوس الناس لصّلاحهم، يجمعون بين الاخلاص في أداء الواجب الثقيفي والتقوى، مما أكسبهم ثقة الناس.²

وأكثر ما يميز التأليف اللغوي في هذه الفترة عدم انفصاله عن الحديث، ومن أبرز علمائه جودي بن عثمان (ت198هـ) الذي يعدّ أول نحوي رحل إلى المشرق وتلمذ على يد علمائها، وعاد إلى الأندلس ليعلم طلابه النحو³ وله تأليف في النحو، ومن أكبر علماء اللغة والنحو في الأندلس أيضا عبد الملك بن حبيب السلمي، وظلّت الدراسات النحوية على هذا الحال، يعتمد فيها علماؤها على الدراسات المشرقية، يدرّسونها ويُدّرّسونها لتلاميذهم⁴، ثم انتقلوا إلى مرحلة أخرى تمثلت في شرح الكتب والتعليق عليها، أمثال مفرج بن مالك النحوي (ت238هـ)⁵، عالم بالنحو واللغة ومعاني الشعر، معروف بصلاحه وعفافه، روى عن الحشني⁶، وله كتاب في شرح كتاب الكسائي.

¹ ينظر طبقات النحويين، الزبيدي، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ط1، القاهرة، ص: 336-337.

² ينظر المصدر نفسه، ص: 293.

³ ينظر طبقات النحويين، الزبيدي، ص: 256.

⁴ ينظر جهود نخاة الأندلس في تسيير النحو العربي، فادي صقر أحمد عصيد، ص: 10.

⁵ المعروف بالبغل ويكنى أبا الحسن، من أهل قرطبة (تاريخ علماء الأندلس، ابن فرضي، ج2، ص140).

⁶ ينظر تاريخ علماء الأندلس، ابن فرضي، ج2، ص: 140.

وبدأت حركة التأليف تزدهر وتتنوع نتيجة تشجيع الخلفاء للعلماء وحرصهم الشديد على تطوير بلادهم، فشهد العصر ميلاد عدد من النحاة الأندلسيين أمثال ابن قوطية (376هـ)، العالم بالنحو والحافظ للغة العربية، المتقدم فيها على أهل عصره، لم يكتف بعلم واحد بل كان يأخذ من علوم أخرى، كحفظ الحديث والفقهاء والخبر والنوادر والاضطلاع على آثار الناس وأخبار الأندلس وسير أمرائها، وأحوال فقهاءها وشعرائها، يحفظ عن ظهر قلب، تقرأ عليه كتب اللغة، وتتؤخذ عنه¹، وعُرف عنه كثرة تنسكه وعبادته وورعِهِ، غير مباليِّ بملبسه²، كسب قلوب الناس، ونال احترام طلابه وشهد له علماء عصره بالتقدم فكان القالي يبالغ في تعظيمه، ولما سأله الحكم من أنبل من رأيت ببلدنا في اللغة قال: محمد بن قوطية حتى وُصِف بالإمام في العربية، من أهم مؤلفاته اللغوية المقصور والممدود وقد جمع فيه مالا يجد ولا يوصف³، ولقد أعجز من يأتي بعده وفاق مَنْ تقدّمه، وكتاب الأفعال ويسمى في بعض المراجع تصاريف الأفعال وموضوعه البحث عن صيغتي فعل وأفعال سواء اتفقتا في المعنى أو اختلفتا، وحين يرد للعرب إلا إحداهما، شرح رسالة أدب الكتاب⁴ وكانت غايته وغاية غيره من علماء الأندلس التيسير على طلابهم في أخذ هذا العلم.

ويعدّ الزبيدي⁵ (ت 379هـ) أيضاً أحد العلماء الذين ألفوا في النحو، إذ كان واحد عصره في علم النحو، وحفظ اللغة⁶، وأخبر أهل زمانه بالإعراب والمعاني والنوادر، ولم يكن بالأندلس من يضاهيه في زمانه⁷، ومن مؤلفاته الواضح، كما اختصر معجم العين، وجمع

¹ ينظر المصدر نفسه، ص: 354-355.

² ينظر الديباج المذهب، ابن فرحون، ص 262

³ ينظر وفيات الاعيان وأنباء ابناء الزمان، ابن خلكان، ج 4، ص: 367.

⁴ ينظر فهرست مارواه عن شيوخه، ابن خير، بيروت 1963، ص 366-355.

⁵ أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذحج بن محمد بن عبد الله بن بشر الزبيدي الإشبيلي نزيل قرطبة. *

⁶ ينظر وفيات الاعيان وأنباء ابناء الزمان، ابن خلكان، ج 4، ص: 372.

⁷ ينظر سير أعلام النبلاء، الذهبي، ص: 418.

كتاباً في بناء الأسماء والأفعال سماه الأبنية في النحو يستدرك به على كتاب سيبويه، وله كتاب لحن العامة، وكتاب في أخبار النحويين سماه طبقات النحويين واللغويين بالمشرق والأندلس، وكتاب استدراك الغلط الواقع في كتاب العين¹، وغيرها من الكتب النفيسة التي دفعت بعجلة التطور والازدهار في هذا العصر.

ورأى بعض العلماء أن يواكبوا أوضاع العصر ويعيدوا الحياة لقواعد النحو الجافة، فقررروا نظمه شعراً يسهل حفظه وفهمه واسترجاعه عند الحاجة، ومن أشهر نحاة الأندلس الذين نظموا النحو شعراً قلفاط بن محمد بن يحيى² (302 هـ) الذي فكر في الإجابة عن الأسئلة النحوية التي طرحت عليه شعراً³، وساهمت هذه المنظومات الشعرية في رواجه وفهم جزئياته لما تتميز به من بساطة وسهولة.

وهذه النماذج تومئ إلى ظهور دارسين متخصصين في اللغة ببلاد تبعد آلاف الأميال عن الموطن الأصلي للنحو، أبدوا قدرة عظيمة في فهم علم النحو، ودقائقه، وخفائاه.

3- العلوم العقلية: لم يبد العلماء الأندلسيون اهتماماً بالعلوم العقلية ولم تشهد إقبالا كبيرا من طرفهم خاصة في عصر الإمارة، ومن هذه العلوم:

3-1- التنجيم والفلك:

¹ ينظر الأعلام، الزركلي، ج6، ص: 82.

* محمد بن يحيى بن زكريا أبو عبد الله النحوي الأندلسي المعروف بالقلفاط، كان حافظاً للغة بصيراً بها، وشاعراً مجوّداً مطبوعاً (ينظر إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1982، ج3، ص: 231).

³ ينظر طبقات النحويين اللغويين، الزبيدي، ص: 278.

ربط البعض حركة النجوم والكواكب بمعرفة المستقبل، واصطلحوا عليه بعلم التنجيم، واهتم بعض الخلفاء بعلم التنجيم ومنهم الأمير هشام بن عبد الرحمن الذي أرسل في طلب أحد المنجمين ويدعى الضبي الذي عرف ببراعته في الفلك فكان في علم النجوم والمعرفة بالحركات العلوية بطليموس زمانه حذقا وإصابه، فقد أخبر الأمير بأنه سيحكم وسيستقر بها حكمه، إلا أنه يدوم ثمانية أعوام فقط، فتأثر الأمير بهذا الخبر وقال: لو أن هذه المدة كانت في سجدته لكانت قليلة ثم مال إلى الزهد والصلاح¹.

وأظهر الخليفة الحكم اهتمامه بهذا العلم وتشجيعه لعلمائه، فاستجلب أهم الكتب الأساسية فيه قديمها وحديثها فبرز العديد من الفلكيين تخصصوا في مراقبة حركات النجوم واستخدام آلات المرصد وصححوا الجداول الفلكية وقاموا بتحسينها.

ومن العلماء البارزين في الفلك أبو عبيدة مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة (295هـ) المعروف بصاحب القبلة وقد عرف بهذا الاسم لأنه كان مولعا بالتشريق في قبلته مفتونا بذلك، وكان مهتما بالفلك راصدا لحركات الكواكب وتأثيرها على الأرض وما ينتج عن ذلك، مشيرا إلى كروية الأرض واختلاف الفصول باختلاف الموقع الجغرافي للأرض².

وعباس بن فرناس (ت274هـ)* الذي كان بارعا في الفلك إلى جانب الهندسة، وكان فيلسوفاً حاذقاً عالماً بالتنجيم، صنع آلة لمعرفة الوقت وأسمائها المنقانة، وأحكم صنعها ونقش عليها أبياتا شعرية، وهي ساعة تعمل بالطاقة المائية، تمّ تصميمها لمعرفة الوقت بدقة، إذ تعمل على مبدأ تدفق المياه بشكل رئيسي³، كما كان كثير الاختراع والتوليد

¹ ينظر نفح الطيب، المقرئ، ج1، ص335.

² ينظر تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي ج2، ص:126-127.

* أبو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس التاكريني، ولد في تاكرنا من أعمال رندة، نشأ في قرطبة ودرس بها وبرع في الفلسفة، الكيمياء والفلك وعاصر الامراء الحكم بن هشام وابنه عبد الرحمن وحفيده محمد، وكان مقربا منهم، حتى أن الحكم اتخذه معلما له ولقب بحكيم الأندلس (ينظر نفح الطيب، المقرئ، ج3، ص374).

³ ينظر المقتبس، ابن حيان، ص:282-283.

وَأَسْعَ الْحَيْلَ حَتَّى نَسَبَ إِلَيْهِ السَّحْرَ وَعَمَلَ الْكِيمِيَاءَ وَكَثُرَ عَلَيْهِ الطَّعْنُ فِي دِينِهِ¹ فَصَنَعَ آلَةَ تُسَمَّى الْأَسْطِرْلَابَ الْكُرْوِيَّ وَهِيَ نُمُودَجٌ لِلْعَالَمِ السَّمَاوِيِّ مَبْنِيَّةٌ مِنْ حَلَقَاتٍ وَأَطْوَاقٍ تَمَثَّلُ خَطَّ الْإِسْتَوَاءِ وَالْمَنَاطِقِ الْمَدَارِيَّةِ، وَالِدَوَائِرِ السَّمَاوِيَّةِ الْآخَرَى حَيْثُ تُسْتَحْدَمُ لِإِجْرَاءِ الْعَمَلِيَّاتِ الْحِسَابِيَّةِ، وَالْمَمْلَاحِظَاتِ الْفَلَكَيَّةِ التَّقْرِيْبِيَّةِ، عَنْ طَرِيقِ تَحْرِيكِ حَلَقَاتِ الْآلَةِ وَفَقًّا لِمَسْتَوَى الْحَلَقَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَيُشَارُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْآلَةَ قَادِرَةٌ عَلَى الدُّورَانِ حَوْلَ مَحْوَرِهَا²، وَاعْتَبِرَ الْمَخْتَرِعَ الْأَوَّلَ لِلْقُبَّةِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي مَثَلَتِ السَّمَاءَ بِكُلِّ مَا تَحْتَوِيهِ مِنْ مَظَاهِرِ إِبْدَاعٍ فِي مَنْزِلِهِ، وَجَعَلَ فِي أَعْلَاهَا نَجُومًا، وَغَيْوَمًا، وَبُرُوقًا، وَرَعُودًا، وَشَمْسًا، وَقَمَرًا، وَكَوَاكِبًا، وَمَدَارَاتٍ، وَغَيْرَ ذَلِكَ³، كَمَا نَسَبَتْ إِلَيْهِ مَحَاوَلَتَهُ لِلطَّيْرَانِ بِتَقْلِيدِ الطَّائِرِ، بِصُنْعِ آلَتِهِ لِلانْتِطَاقِ فِي أَوَّلِ رِحْلَةِ طَيْرَانٍ مَبْنِيَّةٍ عَلَى أُسُسٍ عِلْمِيَّةٍ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ، فَصَنَعَ أَجْنَحَةً مِنَ الرِّيشِ، وَكَانَ عَمْرُهُ آنَذَاكَ سَبْعِينَ عَامًا، ثُمَّ انْتَلَقَ فِي أَوَّلِ مَحَاوَلَةِ طَيْرَانٍ نَاجِحَةٍ أَمَامَ جَمْعٍ مِنَ النَّاسِ، غَيْرَ أَنَّهُ وَاجِهٌ صَعُوبَةٍ فِي الْهَبُوطِ كَانَ سَبَبُهَا عَدَمُ التَّفَاتِهِ إِلَى ضَرُورَةِ صِنَاعَةِ ذَيْلٍ يُسَاعِدُهُ عَلَى هَبُوطِ آمِنٍ، مِمَّا تَسَبَّبَ فِي سَقُوطِهِ، وَإِصَابَتِهِ بِبَعْضِ الْكَسُورِ، وَالْجُرُوحِ⁴، فَكَانَتْ مَحَاوَلَتُهُ فَاشِلَةً غَيْرَ أَنَّهَا أَهْمَتِ الْمَفْكَرِينَ بَعْدَهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا إِلَى صِنَاعَةِ الطَّائِرَةِ.

وَمِنْ كَانَتْ لَهُ عَنَاءٌ كَبِيرَةٌ بِرِصْدِ الْكَوَاكِبِ وَتَتَبِعِ حَرَكَاتِ النُّجُومِ، أَبُو الْقَاسِمِ مُسْلِمَةُ الْمَجْرِيطِيِّ (338هـ-398هـ)⁵، الَّذِي عَرَفَ بِتَعَمُّقِهِ فِي هَذَا الْعِلْمِ وَسَاعَدَهُ عَلَى ذَلِكَ تَرْجُمَتُهُ لِكِتَابِ بَطْلِيمُوسَ، وَأَلَّفَ مَجْمُوعَةً مِنَ الْكُتُبِ فِيهَا الْمَجَالُ أَهْمُهَا، كِتَابُ اخْتِصَرِ فِيهِ زَيْجُ الْبَتَّانِيِّ، وَكِتَابُ رَتْبَةِ الْحَكِيمِ، وَغَايَةِ الْحَكِيمِ، وَكِتَابُ الْأَحْجَارِ وَرُوضَةِ الْحَدَائِقِ، كَمَا

¹ ينظر المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، ج2، ص:333.

² ينظر الموسوعة العربية، ج2، ص:275.

³ ينظر نفع الطيب المقرئ، ج3، ص:234.

⁴ ينظر الوافي بالوفيات، الصفدي، ج16، ص:370-371.

⁵ ولد مسلمة بن أحمد بن قاسم المجريطي في مجريط (مدريد حاليا)

عمل على استبدال التقويم الشمسي الفارسي المستخدم في جداول الخوارزمي بالتقويم الهجري الإسلامي، وتكييف بعض الجداول التي كانت خاصة بالمراقبين مع الإحداثيات الجغرافية لقرطبة،¹ اهتم بآلة الأسطرلاب وتطويرها وكتب مؤلفات عنها، منها كتاب حول بناء وتركيب الأسطرلاب²، وهذا ما يعكس سعة نشاطه وشغفه بالعلوم التي أفاد بها المسلمين والعالم بأسره .

واهتم القاسم بن أصبغ بن السمع القرطبي (361هـ-426هـ) بهذا العلم اهتماما بالغاً، ويظهر ذلك من إسهاماته في هذا المجال كتابان في الآلة المُسمَّاة بالإسطرلاب أحدهما في التَّعْرِيفِ بِصُورَةِ صَنَعَتِهَا وَهُوَ مَقْسُومٌ عَلَى مَقَالَتَيْنِ، وَالْآخَرُ فِي الْعَمَلِ بِهَا والتعريف بجوامع ثمرتها وهو مقسم على مائة وثلاثين باباً، ومنها أيضاً زيجه الذي ألفه على أحد مذاهب الهند المعروف بالسند هند وهو كتاب كبير مقسم على جزأين أحدهما في الجداول والآخر في رسائل الجداول³ والجدير ذكره أن زيجه ابن السمع بقي من المراجع الضرورية للباحثين في علم الفلك، لما يحتوي عليه من معلومات نظرية وتطبيقية.

وقد فرّق الاندلسيون بين التنجيم وعلم الفلك، ونفوا تأثير الكواكب على مستقبل الإنسان وأن يكون لها دخل في حياته التعيسة أو المليئة بالحظ، وبرع الكثير منهم في هذا العلم بانجازاتهم القيّمة وصعّب التفريق بينه وبين الرياضيات خاصة أن علماء الفلك أغلبهم رياضيون.

3-2- الرياضيات :

¹ ينظر الأعلام، الزركلي، ج7، ص:224.

² ينظر طبقات الأمم، صاعد ال، ص:69.

³ ينظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، ص:483

لم يتخصص أهل الأندلس في علم دون الآخر إذ تجد العالم منهم رياضيا وفلكيا وكيميائيا، وحتى فقيها في بعض الأحيان، فأبو القاسم مسلمة المجريطي فلكي وفي الوقت ذاته إمام الرياضيين تخرج على يده العديد من الطلاب¹، ألف كتابا في علم العدد معروف بالمعاملات².

وخلفه مجموعة من التلاميذ النجباء أمثال القاسم بن أصبغ بن السمح القرطبي (361هـ-426هـ) الذي برع في الحساب والهندسة³ وله عدة مؤلفات في ميدان علم الحساب تتميز بأهميتها الكبيرة، وتعتبر من أهم المصادر لما تحويه من أفكار جديدة، منها المدخل إلى الهندسة، شرح فيه كتاب اقليدس، وكتاب طبيعة العدد، وكتاب في علم الهندسة تقصى فيه أجزاء من الخط المستقيم والمقوس والمنحنى⁴.

ومن العلماء المعروفين في ميدان الحساب أبو الحسن علي بن سُلَيْمَانَ الزهراوي، الذي كَانَ عَالِمًا بِالْعَدَدِ وَالْهَنْدَسَةِ مَعْتَنِيًا بِهُمَا، وَهُوَ كِتَابُ شَرِيفٍ فِي الْمُعَامَلَاتِ عَلَى طَرِيقِ الْبُرْهَانِ وَهُوَ الْكِتَابُ الْمُسَمَّى بِكِتَابِ الْأَرْكَانِ، وَيَعَدُّ أَحَدَ تَلَامِذَةِ أَبِي الْقَاسِمِ مُسَلِّمَةَ ابْنِ أَحْمَدَ الْمَجْرِطِيِّ، صَحَبَهُ مُدَّةً، وَأَخَذَ كَثِيرًا مِنَ الْعُلُومِ الرِّيَاضِيَةِ عَنْهُ.⁵

وتخرج من مدرسة المجريطي من أهل قرطبة أبو الحكم عمرو بن أحمد بن علي الكرماني (ت458)، أحد الراسخين في علم العدد والهندسة، قال عنه تلميذه الحسين بن محمد بن الحسين بن يحيى المهندس المنجم أنه ما لقي أحدا يجاربه في علم الهندسة، ولا يشق غباره في فك غامضها، وتبين مشكلها واستيفاء أجزائها، رحل إلى ديار المشرق

¹ ينظر الأعلام للزركلي، ج7، ص:224.

² ينظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، ص:483.

³ ينظر طبقات الأمم، صاعد البغدادي، ص:93.

⁴ ينظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، ص:483.

⁵ ينظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، ص:484.

وانتهى مِنْهَا إِلَى حِرَانٍ مِنْ بِلَادِ الْجَزِيرَةِ وَعِنِي هُنَاكَ بِطَلَبِ الْهَنْدَسَةِ وَالطَّبِّ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَاسْتَوطنَ مَدِينَةَ سَرَقِسطَةَ،¹ وَكَانَتْ مَوْلَفَاتِهِ فِي الرِّيَاضِيَّاتِ خَيْرَ مَعِينٍ لِلْعُلَمَاءِ بَعْدَهُ.

وَارْتَبَطَ عِلْمُ الرِّيَاضِيَّاتِ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِالْفَلَكِ، فَكَانَ أَغْلَبُ الْفَلَائِكِيِّينَ رِيَاضِيِّينَ أَسَهَمُوا بِانْجَازَاتِهِمْ فِي دَفْعِ عَجَلَةِ التَّطَوُّرِ وَالازْدِهَارِ وَنَفَعُوا الْبَشَرِيَّةَ بِأَعْمَالِهِمْ وَخَلَدُوا الْحَضَارَةَ الْعَرَبِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الْعَظِيمَةَ بِمَنْجَزَاتِهَا فِي كِتَابِ التَّارِيخِ.

3-3-الكيمياء:

تَطَوَّرَ عِلْمُ الْكِيمِيَاءِ وَازْدَهَرَ عَلَى يَدِ الْعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَسَاهَمَ الْأَنْدَلُسِيُّونَ أَيْضًا فِي وَضْعِ نَظَرِيَّاتٍ وَقَوَاعِدٍ لِهَذَا الْعِلْمِ بِأَبْحَاثِهِمْ وَدِرَاسَاتِهِمْ الْمَعْمَقَةَ، وَأَشْهَرُ هَؤُلَاءِ عَبَّاسُ بْنُ فَرْنَسٍ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اسْتَنْبَطَ بِالْأَنْدَلُسِ صِنَاعَةَ الرِّجَاجِ مِنَ الْحِجَارَةِ²، وَكَثِيرًا مَا كَانَ الدِّخَانُ يَخْرُجُ مِنْ مَنْزِلِهِ لِكثَرَةِ تِجَارَتِهِ، فَتَعَجَّبَ النَّاسُ مِنْهُ وَاتَّهَمُوهُ بِالسَّحْرِ وَالشَّعُودَةِ³، وَرَغْمَ ذَلِكَ نَجَّاهُ مِنْ تَأْمِرِهِمْ ضِدَّهُ.

وَبَرَعَ فِي عِلْمِ الْكِيمِيَاءِ الْعَالِمُ أَبُو الْقَاسِمِ مُسْلِمَةُ الْمَجْرِيطِيُّ، الَّذِي قَامَ بِالْعَدِيدِ مِنَ التَّجَارِبِ فِي هَذَا الْمَجَالِ، فَالَّفَ كِتَابَهُ رَتْبَةَ الْحَكِيمِ، يَتَنَاوَلُ فِيهِ أَهْمِيَّةَ دِرَاسَةٍ مَا كَتَبَهُ الْأَقْدَمُونَ مِنْ عِلْمِ الْأَعْدَادِ وَالْحِسَابِ، وَالرِّيَاضِيَّاتِ الَّتِي هِيَ أُمُّ الْعُلُومِ بِصِفَةِ عَامَّةٍ، وَيُوصِي الْكَاتِبُ بِمَعْرِفَةِ الْمَعَادِنِ وَكَيْفِيَّةِ تَكْوِينِهَا فِي الْأَرْضِ، وَيَعْرُضُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِعِلْمِ الْكِيمِيَاءِ مِنْ حَيْثُ صِنَاعَةُ الْمَعَادِنِ، وَتَحْوِيلُهَا إِلَى صُورَةٍ أُخْرَى، وَعَدَمُ اسْتِعَادَتِهَا صُورَتِهَا الْأُولَى، وَالْأَدْوَاتِ

¹ ينظر تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، لبنان، ج 30، ص: 450.

² ينظر المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ج 2، ص: 333.

³ ينظر ماذا قدّم المسلمون للعالم؟، إسهامات المسلمين في الحضارة الإسلامية، راغب السرجاني، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط 2010، ج 4، ص: 559.

البسيطة المستخدمة، وأركان قيام هذه الصناعة، ويشرح التفاعل بين عناصر الطبيعة، ثم يشرح عمليات الفصل الكيميائي بين نواتج التفاعلات وما يترسب من المواد، ومحافظتها على أوزانها، واعتمد في نتائجه على التجربة والملاحظة الدقيقة في الكشف عن الحقائق العلمية، غير أن أغلب الباحثين قد شككوا في صحة نسبة هذا الكتاب إليه.¹

ولانغفل جهود الفقيه محمد بن حارث الحشني، الذي كان يبيع الأذهان²، فقد أضاف مزيداً من العطاء لهذا العلم.

هؤلاء العلماء وغيرهم ساهموا في تطور الدراسات الكيميائية بجهودهم المضنية، وسعة علمهم وإطلاعهم الواسع على أسسه، وشغفهم بالاكشاف عن طريق التجربة والملاحظة والاستنتاج، ورغبتهم الشديدة في اشباع فضولهم، فجزّبوا وأبدعوا وتركوا بصمة خالدة .

3-4-الطب:

اهتم الأندلسيون بعلم الطب نتيجة حرص الأمراء على صحتهم البدنية فكان نشاط الأطباء محصوراً على القصور تقريباً، وكان غاية أكثرهم دراسة بعض فروعهِ وشيئاً من وجوه الطب والتداوي رغبة في الجاه والمنزلة ونيل رضا الحكام، واعتمدوا في كتاباتهم على كتاب للنصارى مترجم يدعى الابریشم³، واكتفى لأطباء في بداية الأمر بوصف الأدوية والأغذية المفيدة للأمراء ومع مرور الأيام تعمقوا في دراسة الطب دراسة وافية .

ومن برع في الطبّ في هذا العصر يونس بن أحمد الحراني الذي احتل مكانة مرموقة لدى الأمير عبد الرحمن الأوسط بعدما تأكّد من وفائه وإخلاصه له، ومما يحكى عنه أن

¹ ينظر الرسالة الجامعة، الجريطي، تحقيق جميل صليبا، الجمع العلمي العربي، مطبعة الترقى، 1949، دمشق، ج1، ص: 4-5-6.

² ينظر سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج16، ص: 166.

³ ينظر طبقات الأمم، صاعد الطليطلي، ص104، 103.

نصر الخصي خادم طروب أقدم على محاولة قتل الأمير عبد الرحمن¹، فأغرى الحراني بمنصب كبير لقاء قبوله إعداد شراب يحوي سما للأمير عبد الرحمن، وكان من عادة الأمير أن يصيبه فتور فيشرب دواء يسكن ألمه، أخبر الطبيب جارية الأمير قبل أن ينفذ نصر خطته، وعندما أحضر نصر الدواء تظاهر الأمير بعدم رغبته في شربه وطلب من نصر شربه بدلا منه، لكن نصر تردد في ذلك فأكرهه الأمير على شربه، فسارع نصر إلى الطبيب يسأله عن علاج يبطل مفعول السم فأشار عليه بلبن الماعز ولكن السم كان أسرع مفعولا فمات نصر قبل حصول ذلك²، فالوفاء كان أولى الصفات التي يتحراها الأمراء في أطبائهم، لأنهم مؤمنون على حياتهم، وقد بذل الحراني جهودا معتبرة في ميدان الطب فصنع دواءً لعلاج الأوجاع الباطنية وما يتعلق بها³، فتهافت الناس على اقتنائه، واشترى هذا الدواء مجموعة من الأطباء وعمدوا على فحصه⁴، فعرفوا أهمية هذا الدواء ونجاعته في شفاء الأمراض، وتساءلوا عن تركيبته وكيفية إعداده، فعلمهم ذلك، فانتشر بينهم وتفشت طريقة تركيبه وإعداده في ذلك العصر.⁵

وممن اهتم بالجراحة الطبيب أبو الحكم عمرو بن أحمد بن عليّ الكرماني، وأفاد علم الطب باستعانتة في علاج مرضاه بالكي والقطع والشق والبط وغير ذلك من أعمال الصنّاعة الطبية⁶.

¹ ينظر موسوعة تاريخ الأندلس، حسين مونس، ج 1، ص 95.

² ينظر تاريخ افتتاح الأندلس، ابن قوطية، ص: 91.

³ ينظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أصبعية، ص: 487.

⁴ ينظر طبقات الأطباء والحكماء، ابن جليل، تحقيق فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 2، 1975، ص: 94.

⁵ ينظر عبقرية العرب في العلم و الفلسفة، عمر فروخ، ص 125.

⁶ ينظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصبعية، ص: 485.

ومن ينكر فضل محمد بن عبدون الجبلي على الطب الإسلامي، فلم تعرف الأندلس نظيراً له في أيامه في نظر العلماء¹، لمهارته فلا يجاريه في ضبطها وحسن دربته فيها وإحكامه لغوامضها أحد، أُلّف في هذا العلم كتاباً سماه التفسير².

ومن أطباء قرطبة عبد الرحمن بن إسحاق بن الهيثم، ويعد من خيرة أطباء الأندلس وفضلائها نفع علم الطب بغزارة انتاجه، وكُتِبَ في الخواصّ والسموم والعقاقير من أجلّ الكتب وأنفعها³، منها كتاب الكمال والتمام في الأدوية المسهلة والمقيئة، وكتاب الإقتصار والإيجاد في خطأ ابن الجزار في الإعتقاد، كتاب الإكتفاء بالدواء من خواص الأَشْيَاء صنفه للحاجب القائد أبي عامر محمد بن أبي عامر، وكتاب السمائم⁴.

وفخرت الأندلس بالطبيب أبو داؤد سُلَيْمَان بن حسان المعروف بابن جليل (332-377هـ)،⁵ من أطباء قصر الخليفة هشام المؤيد بالله، وكان على دراية بالأدوية المفردة وقد فسر أسماءها وعول في ذلك على كتاب ديسقوريدس العين زري*، بترجمة ألفاظه المعجمة وشرح ماجاء فيه، بعدما ترجمه (اصطفن بن بسيل)، غير أنه ترك بعض المفردات بلغتها اليونانية حينما تعدّر عليه ترجمتها، اتكالا منه على أن يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسره باللّسان العربيّ إذ التسمية لا تكون بالتواطؤ⁶، من أهم مؤلفاته

¹ ينظر طبقات الأطباء والحكماء، ابن جليل، ص: 115.

² ينظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، ص: 493.

³ ينظر رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981، ج3، ص: 185.

⁴ ينظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، ص: 493.

⁵ ينظر طبقات الأطباء والحكماء، ابن جليل، ص: د.

* هو العشاب اليوناني الشهير بدانيوس ديسقوريدس العين زري نسبةً إلى عين زرية الموجودة الآن بجنوب تركيا، وأثناء خدمته العسكرية في صفوف الجيش الروماني، ارتحل إلى أصقاع كثيرة، وعندما أنهى عمله العسكري واستقر جمع مختلف مشاهداته وملاحظاته العلمية في كتاب جليل في الأدوية المفردة سمّاه الحشائش (ينظر الشامل في الصناعة الطبية، الأدوية والأغذية، علاء الدين ابن النفيس علي بن أبي الحزم القرشي، تحقيق يوسف زيدان، المجمع الثقافي، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2000، ج1، ص: 229).

⁶ ينظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، ص: 394.

كتاب تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس، مقالة في ذكر الأدوية التي لم يذكرها ديسقوريدس في كتابه مما يستعمل في صناعة الطب وينتفع به وما لا يستعمل لكيلا يغفل ذكره، وجمع كتاباً في طبقات الأطباء والحكماء والفلاسفة القدماء والإسلاميين¹، ورسالة التبيين فيما غلط فيه بعض المتطبيين، كتاب يتضمن ذكر شيء من أخبار الأطباء والفلاسفة².

ومن الأطباء الخبراء بالأدوية المفردة والمركبة مجيد للعلاج خلف بن عباس الزهراوي، وله تصانيف مشهورة في صناعة الطب وأفضلها كتابه الكبير المعروف بكتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، وهو أكبر تصانيفه وأشهرها وهو كتاب تام في معناه³، تضمن ثلاثين مقالاً في مختلف فروع الطب، من طب الفم والأسنان، وسائر أعضاء الجسم فكان أول جراح عرفته البشرية اهتم بعلم التشريح ودراسته، ووضع الأسس الأولى لهذا العلم، فضلاً عن اختراعه للأدوات الجراحية⁴، بينما كان علم التشريح محتقراً من قبله.

ومن الأطباء أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد بن السيّد الغافقي، إمام فاضل وحكيم عالم، يعد من الأكابر في الأندلس، وكان أعرف أهل زمانه بقوى الأدوية المفردة ومنافعها وخواصها وأعيانها ومعرفة أسمائها، وكتابه في الأدوية المفردة لا نظير له في الجودة ولا شبيه له في معناه، قد استقصى فيه ما ذكره ديسقوريدس والفاضل جالينوس بأوجز لفظ وأتم معنى ثم ذكر بعد قوليهما ما تجدد للمتأخرين من الكلام في الأدوية المفردة أو ما ألم به واحد واحد منهم وعرفه فيما بعد.

¹ الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2012، ج2، ص:60.

² ينظر الأعلام، خير الدين الزركلي، ج3، ص:123.

³ ينظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، ص:395.

⁴ ينظر الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، محمد كامل حسين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ليبيا، 1900، ص:407-408.

وتتصل بالطب الصيدلة وتركيب الأدوية، واشتهر في هذا المجال حمدين بن أبان وكان طبيبا بارعا في تركيب الأدوية والعلاج، وكان صهر الطبيب النصراني خالد بن يزيد بن رومان الماهر في تركيب الأدوية يجيد العلاج يستند في علاجه إلى التجارب الطبية.¹

في الوقت الذي ازدهرت فيه الجراحة لدى الأندلسيين، وأصبحت مدرسة قائمة بذاتها مكتملة النضج مهنيا، تعج بأساتذة كبار أمثال الزهراوي، كان واقع الجراحة في الغرب لا يزال مزرية، حيث كانت تمارس بطرق بدائية وبشعة تثير الاشمئزاز تقتصر على البتر، وكان يتعاطاها الجزائريون والخطابون بأدواتهم المعهودة كالفأس والساطور وغيرها.²

إن عصر الإمارة كان فترة خصبة بدأت فيها جهود الأندلسيين في هذه الدراسات لتعطي ثمارها فيما بعد- في مرحلة الخلافة- وتزدهر ازدهارا حقيقيا بلغ الأندلسيون فيه درجة رفيعة من التطور الحضاري والرقى العلمي، وبرهنوا فيه عن قدراتهم العلمية المتوفرة

قد خرج الأندلسيون من دائرة التقليد إلى محيط الإبداع العلمي، وبدأت الحركة العلمية الأندلسية تتخذ قالبها جديدا وشكلا مغايرا لما سبق، ساعية إلى إثبات وجودها والاستقلال عن المشرق، فكانت المكتبة الأندلسية تزخر بالعديد من التصانيف والمؤلفات التي خلدت مجد الأندلس وصنعت تاريخها³، فحق له تزكية نفسها، ومفاخرة المشاركة ومنافستهم بما لقدرتها على صنع حضارة أشعت على العالم بمعارفها وعلومها.

و يشهد لهذا النبوغ الفكري والحضارة العلمية الرفيعة ابن حزم قائلا: « وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم، ونأيه عن محلة العلماء فقد ذكرنا من تأليف أهله ما أن طلب

¹ ينظر طبقات الأطباء والحكماء، ابن جليل، ص 93.

² ينظر الجراحة الطبية عند المسلمين في القرون الوسطى ممارسة وتأليفا، شرقي الرزقي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2014، ص: 206.

³ ينظر تاريخ الأدب الأندلسي، احسان عباس، ص 79.

مثلها بفارس والأهواز وديار مصر وديار ربيعة واليمن والشام أعوز وجود ذلك على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ومراد المعارف وأربابها¹، وهو يقربنا تجاههم العلمي النفيس، ويشيد بفضل علمائها الذين أسهموا في دفع عجلة التطور والازدهار، غير أن الكاتب عبد الكريم التواتي يعارضه في قوله هذا واصفا الحركة العلمية بالأندلس مجرد انعكاس للثقافة المشرقية قائلا: «وهذا ما يجعلنا نعتقد أن دراسة الحياة الفكرية في الشرق قد تغني إلى أبعد الحدود عن دراستها في الأندلس العربية»²، والحق أنّ الحركة العلمية بالأندلس نشطت نشاطا منقطع النظير فنافست قرطبة حواضر العالم الإسلامي والأوربي، ولم تكن حكراً على عنصر دون آخر بل شاركت فيها شتى عناصر المجتمع حتى النساء، فكانت قرطبة أعظم علما وأكثر فضلا بالنظر إلى غيرها من البلدان .

¹ نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص188.

² مأساة انخيار الوجود العربي في الأندلس، عبد الكريم تواتي، ص688



الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالاندلس.

- أولاً: الشعر: 1- الغزل 2- الزهد 3- المدح
4- الوصف 5- الشكوى 6- الهجاء
7- الرثاء 8- الفخر 9- الحكمة
10- الموشحات

ثانياً: النثر :

1- الرسائل

1-1- الرسائل الديوانية. 1-2- الرسائل الإخوانية 1-3- الرسائل الأدبية.

2- التوقيعات.

3- الخطابة : 3-1- الخطبة السياسية. 3-2- الخطبة الدينية:

4- الوصايا.

للأدب الأندلسي في العهد الأموي خصوصيته وبريقه، فهو يحمل عقب فترة مهمة من فترات تاريخنا العربي، ويشهد بعظمة حضارة عافت ركوب الجمل، وأبت أن تعيش في نصب البداوة، فأدخلت الماء العذب في أنابيب الرصاص إلى القصور والحمامات، وفجّرت من ثغور التّمائيل المموهة بالذهب والفضّة الخالصة، واتّخذت الثريات المشرقة في المساجد والقصور، وأبدعت في شتى فنون العلم والمعرفة، وكان لطبيعة البلاد السّاحرة الفضل في توفّد ذهن الأدباء، وكثرة نشاطهم وإقبالهم على الحياة، كما أسهمت في تكوين ملكاتهم الأدبية، وتفجير قرائحهم الشعرية، فتعددت مذاهبهم وتنوعت موضوعاتهم .

أولاً: الشعر:

عرف الشعر الأندلسي وفرة غزيرة في هذا العصر، فلم يقتصر على طبقة اجتماعية دون أخرى، بل تعدى إلى الحكام والحجاب والوزراء والعلماء والنساء، وغيرهم من فئات المجتمع، وعبر عن نواحي الحياة المختلفة، فقد جال الشعراء في كل شيء وقع عليه نظرهم ومرّ بخاطرهم، ووصفوا العواطف والأهواء والجد والهزل والمجون والجمال... فتنوعت الأغراض الشعرية في أشعارهم، من مدح وفخر وحماسة وثناء وهجاء ووصف وغزل ونسيب وعتاب وحكمة، وتباينت موضوعاتهم وعرفت أشياء جديدة وكثرت عددهم، وصار من الصعب إحصاؤهم، والإلمام بأشعارهم، فحظي شعرهم بتقدير الحكام ومحبة الناس، وزخرت كتب التراجم بتفصيل حياتهم، وتخليد آثارهم .

1- الغزل:

يعد الغزل من أهم الموضوعات التي عني بها شعراء الأندلس، ولم يكن حكراً عليهم بل تعداهم إلى الأمراء و الكتّاب والفلاسفة، حتى أهل النحو واللغة، وهيأت له طبيعة الحياة آنذاك المعروفة بجمالها المنقطع النظير، تزيد من رغبة الشعراء في إلقاء أجمل وأروع أبيات الغزل الجميل، ولم تكن الطبيعة فقط هي السبب في انتشار الشعر الغزلي بل

فَرَاغَ حَوَاطِرِ النَّاسِ مِنْ مَشَاغِلِ الْحَيَاةِ، وَمِمَّا يُكَدِّرُ صَفْوَ الذَّهْنِ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ وَالْعَمَّ، فَخَلَّفُوا وَرَاءَهُمْ سَيِّلاً مِنَ الْأَشْعَارِ الْعَزَلِيَّةِ الَّتِي صَوَّرَتْ مَشَاعِرَهُمْ اتِّجَاهَ مَحَبُّوْبَاتِهِمْ، فَجَاءَ شِعْرُهُمْ فِي الْعَزَلِ صَادِقًا يَشْفُ عَنْ عَاطِفَةٍ قَوِيَّةٍ، مُدَبَّجًا بِحُسْنِ الصُّورَةِ وَاللَّفْظِ وَالْأَسْلُوبِ¹.

واستطاعوا التخلص إلى حد ما من الطريقة التقليدية في الغزل، والتخفيف من نغمة البكاء على الأطلال، وأقلّ الشعراء من ترديد الأوصاف التقليدية²، وانقسموا بين شعراء عفيفين طاهرين وآخرون ماجنون، كما جرت العادة عند الشعراء العرب.

ويظهر في الغزل العفيف طُهرُ المِجَبِّ، ونقاء قلبه، وصفاء رُوحه، وتقديسه لمحُبوبته، فلا ينظرُ إليها نظرة شهوة، بل نظرة عاشقٍ أَنهَكَه الحُبُّ وأهْلَكَه الهوى، وكان له حضور في شعر الفارس والقائد سعيد بن سليمان بن جودي (284هـ)* الذي أحبَّ جارية سمَّعها بقرطبة تغني للأمير عبد الله بن مُحَمَّدٍ وَذَلِكَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ الْأَمِيرِ مُحَمَّدٍ، فَهَامَ بِهَا وَاشْتَرَى جَارِيَةَ سَمَّأَهَا بِاسْمِهَا جِيحَانٍ فَلَمْ يَسْلُهُ ذَلِكَ عَنْهَا وَهَامَ بِهَا دَهْرًا:

| | |
|---|--|
| سَمِعِي أَبِي أَنْ يَكُونِ الرُّوحُ فِي بَدَنِي | فَاعْتَاضَ قَلْبِي مِنْهُ لَوْعَةَ الْحَزَنِ |
| أَعْطَيْتِ جِيحَانَ رُوحِي عَنْ تَذَكُّرِهَا | هَذَا وَلَمْ أَرْهَأْ يَوْمًا وَلَمْ تَرْنِي |
| كَأَنْتِي وَاسْمُهَا وَالذَّمْعُ مِنْسَكِبِ | مِنْ مُقَلَّتِي رَاهِبٍ صَلَّى إِلَى وَثْنِ ³ |

ويصور الشاعر جذوة الحب المتوهجة في أعماقه، وما أحدثه الحب في نفسه، فقد أصابه النحول وكادت روحه تهرق، ويأمل بنظرة تروي ظمأه وتخفف عذابه، فكلما تَرَدَّدَ ذِكْرُ اسْمِهَا فَقَدَ السَّيْطَرَةَ عَنْ مَشَاعِرِهِ، كَرَاهِبٍ ذَرَفَ الدَّمُوعَ عِنْدَ تَأْدِيَةِ طَقُوسِ الْعِبَادَةِ.

¹ ينظر تاريخ الادب العربي شوقي ضيف، ج8، ص:256.

² ينظر الأدب الأندلسي (النثر-الشعر-الموشحات) فوزي عيسى، دار المعرفة الجامعية، مصر 2015، ص:7.

* سعيد بن سليمان بن جودي بن إسباط ابن إدريس السعدي، من هوازن، أمير تاجر في الأندلس، يعد من أدباء الملوك، كان شجاعاً بطلاً، جواداً، خطيباً، شاعراً. (ينظر الأعلام، الزركلي، ج3، ص:95).

³ الحلة السيرة، ابن ابار، ج1، ص:157-158.

ولأن الشعراء نشأوا في بيئة رقيقة تحفها الجنان والرياض من كل جانب، كانوا ينتقون ألفاظهم بعناية عند نظم الغزل، فجاء شعرهم رقيقاً رقة نسيم جيان، صافياً صفاء مياه الأندلس وينابيعها، ومن ذلك ما قاله ابن عبد ربّه (246هـ-328هـ)*، يصف قلبه الذي بات أسيراً للحبّ فيقول:¹

| | |
|--------------------------|-----------------------------------|
| أَعْطَيْتُهُ مَا سَأَلَا | حَكَّمْتُهُ لَوْ عَدَلَا |
| وَهَبْتُهُ رُوحِي فَمَا | أَدْرِي بِهِ مَا فَعَلَا |
| أَسَلَّمْتُهُ فِي يَدِهِ | عَيْشَهُ أَمْ قَاتَلَا |
| قَلْبِي بِهِ فِي شُغْلِي | لَا مَلَّ ذَاكَ الشُّغْلَا |
| قَيْدَهُ الْحُبُّ كَمَا | قَيْدَ رَاعٍ جَمَلَا ² |

وأجمل ما في الأبيات قدرة الشاعر على اختيار الألفاظ الرقيقة العذبة القريبة من روح العصر، فهو حين يُخاطبها يختار لذلك لفظاً رقيقاً يأسر القلب، ويدغدغ المشاعر ليظفر بها، وكثيراً ما تسيطر عليه المشاعر الحزينة، فيصِفُ شِدَّةَ شَوْقِهِ، وَلَهَيْبَ وَجْدِهِ، وَعَذَابَ قَلْبِهِ، فنجد محمد بن مطرف بن شخيص³، يقول:

ومعتلة الأجفان ما زلت مُشْفِقاً
عليها، وألكتي ألدَّ اعتلالها⁴*

* أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم، أبو عمر الأديب الإمام صاحب العقد الفريد، من أهل قرطبة، كان جده الأعلى (سالم) مولى لهثام بن عبد الرحمن بن معاوية، فغلب عليه الاشتغال في أخبار الأدب وجمعها، له شعر كثير، وكانت له في عصره شهرة ذائعة، وهو أحد الذين أثروا بأدبهم بعد الفقر، ومن أشهر كتبه العقد الفريد وأصيب بالفالج قبل وفاته بأيام (ينظر الأعلام للزركلي، ج1، ص207).

¹ ينظر ملامح الشعر الأندلسي، عمر الدقاق، بيروت: دار الشرق، ص: 254

² العقد افريد، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983، ج6، ص: 307

* محمد بن مطرف بن شخيص أبو عبد الله، كان من أهل الأدب المشهورين ومن أعيان الشعراء المقدمين متصرفاً في القول سالكاً في أساليب الجد والهزل قال على لسان رجل يعرف بأبي الغوث أشعاراً مشهورة في أنواع الهزل أغناه بما بعد فقر، ورفعته بعد خمول، مات قبل الأربعمئة وشعره كثير مشهور (ينظر بغية الملتبس، الضبي، ص129).

* معتلة الأجفان: ناعسة العينين/ ألدَّ اعتلالها: أجد لذة في نعس عينيها.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

جُفونَ آجالَ الحُسنِ فيهنَّ فترةٌ
فهل من شفيعٍ عند ليلى إلى الكرى
يقولون لي: صبرا على مطل وعدها
وما كان ذنبي غير حظي عهودها
فلَّ عُرَى الآجالِ مُنذَ آجالها^{1*}
لعلِّي إذا ما نمت ألقى خيالها
وما وعدت ليلى فأشكو مطالها^{2*}
وطيّي هواها واحتمالي دلالها

فكثرة الدلال من طرفها جعلت النوم يفارق جفونه والأرق يسيطر عليه، وبالرغم من معاناته إلا أنه يتلذذ بعذابه بحجة حفظه للعهد، ويميل في بعض الأحيان إلى المبالغة والغلو في تغزله .

ويسعى ابن عبد ربّه إلى كسب استعطاف المتلقي وإبراز نفسه بدور الضحية محاولاً تصويرها - محبوبته - على أنّها الجلّاد، مستعينا بالاستفهام و الشرط، وهو يسأل الحبيبة عن ظلمها وهجرها له وجور حكمها، ذلك الحكم الذي كان على قلبه أشهى من العدل، واصفاً الأسى والحزن الذي أصبح إليه حاله بقوله :

أثقلني ظلماً وتجدني قتلي
أطلاب دحلي ليس بي غير شادين
أغار على قلبي فلما أتيتهُ
بنفسي التي ضنت برد سلامها
إذا جئتُها صدت حياءً بوجهها
وإن حكمت جارت علي بحكمها
وقد قام من عينيك لي شاهدا عدل
بعينيه سحر فاطلبوا عنده دحلي
أطالبه فيه أغار على عقلي
ولو سألت قتلي وهبت لها قتلي
فتهجرني هجراً ألد من الوصل
ولكن ذاك الجور أشهى من العدل³

* آجال: جعل/فترة: نعسا/حل عرى: قصر آجال الناس.

*مطل، مطال، مماطلة/ طي /إخفاء.

³ديوان ابن عبد ربّه، ص: 132

ولم يتناول الشاعر صفات المحبوبة الحسيّة، وإنما يصف جوانب من الغزل العفيف حيث يصور نفسه شهيداً في سبيل حبه، مستعداً للتضحية في سبيلها يتعذب لقسوتها، لكنه يتجرع مرارة الغيظ أملاً في وصلها:

| | |
|--------------------------------|---|
| كمثّ الهوى جهمدي فجرده الأسي | بماء البكا هذا يخطّ وذا يُملي |
| وأحببت فيها العذل حُباً لذكرها | فلاشيء أشهى في فؤادي من العذل |
| أقول لقلبي كلما ضامه الأسي | إذا ما أبيت العز فاصبر على الدلّ |
| برأيك لا رأيي تعرّضت للهوى | وأمرّك لا أمري وفعلك لا فعلي |
| وجذت الهوى نصلاً لموتي مُغمداً | فجرّدته ثمّ اتكيت على النصل |
| فإن كنت مقتولاً على غير ريبه | فأنت الذي عرّضت نفسك للقتل ¹ |

ويؤاسي الشاعر نفسه بالصبر على الأسي، ولوعة الحب، ويعاتب قلبه الذي اختار لنفسه الدلّ، ويحمّله مسؤولية اغتياله فهو الذي انقاد لهواه.

وقد شارك الخلفاء والأمراء في هذا النوع من الغزل، فالحكم الرضي (154هـ-206) كان له جوار عددتهنّ خمساً، استخلصهن لنفسه، فذهب يوماً إلى الدّخول عليهن، فأبينّ ذلك، وأعرضن عنه، وكان لا يطيق الصبر عنهنّ، فلجأ الأمير إلى الشعر معبراً عن تلك المشاعر العظيمة التي تضطرب في داخله²، فهو متردد بين الوصل والهجر، والحب والصد، تتراوح مشاعره بين حزنٍ وفرحٍ وخوفٍ، وما إلى ذلك من صراعات داخلية، فكان الشعر خير معين له في البوح بأسراره، قائلاً:

¹المصدر نفسه، ص: 133

²ينظرالخصائص الأسلوبية في الشعر الرومانسي عند الأندلسيين، بوعلام رزّيق، منشورات جامعة محمد بوضياف المسيلة، الجزائر، ص: 13

قُضِبَ مِنَ الْبَانِ مَاسْتِ فَوْقَ كَثْبَانِ
أَعْرَضْنَ عَنِّي وَقَدْ أَرَمَعْنَ هِجْرَانِي¹
نَاشِدْتِهِنَّ بِحَتِي فَأَعْتَرَمْنَ عَلِي
الهِجْرَانِ حَتَّى خَلَا مِنْهُنَّ هَيْمَانِي
مَلَكْنِي مَلِكٌ مَن ذَلْتُ عَزِيمَتُهُ
لِلْحَبِّ ذُلٌّ أَسِيرٌ مَوْثِقٌ عَانِي²
مَنْ لِي بِمُعْتَصَبَاتِ الرُّوحِ مِنْ بَدْنِي
عَصَبَنِي فِي الْهَوَى عَزِي وَسُلْطَانِي³

فيشتكي قساوتهم وإعراضهم عنه، غير أنّ هذا الجفاء لا يبعده عنهم بل يخضع لهم ويجعل نفسه رهن إشارتهم، وقد تسبّب حبه لهم في كسر غروره وكبريائه، لكن سرعان ما يعود له رشده وتملاً البشاشة تحيّه بعدما قررت الجواري وصله :

نَلْتُ كُلَّ الْوَصَالِ بَعْدَ الْبِعَادِ
فَكَأَنِّي مَلَكْتُ كُلَّ الْعِبَادِ
وَتَنَاهَى السُّرُورَ إِذْ نَلْتُ مَا لَمْ
يُعْنِ فِيهِ تَكَاشُفُ الْأَجْنَادِ⁴

فلم يخطأ من قال إنّ الهوى مطيّة الهوان، فالخليفة بهيبته وونفوذ حصر سعادته في حوار لاحول ولاقوة لهم، يرضى برضاها ويسخط لاجمامها، فجباورة العالم خضعوا لإمرأة.

وتردد في غزل الأمراء ذكر أسماء الجواري، فالأمير عبد الرحمن الأوسط (176هـ-238هـ) أكثر التّعزّل بجارية كان يُحِبُّهَا حُبًّا جَمًّا، واسمها طروب، فلم يكف عن التفكير فيها حتى وهو في غزوة ببلاد جليقية إذ أنشأ يقول:

فَقَدْتُ الْهَوَى مُدًّا فَقَدْتُ الْحَبِيَا
فَمَا أَقَطَعُ اللَّيْلَ إِلَّا نَحِيَا
وَأَمَّا بَدْتُ لِي شَمْسُ النَّهَا
رِ طَالِعَةً ذَكَرْتُني طَرُوبَا
فِيَا طَوْلَ شَوْقِي إِلَى وَجْهِهَا
وَيَا كَيْدًا أَوْرَثْتُهَا نُدُوبَا

*القضيبي: كناية عن القامة الجميلة/ البان: شجر أغصانه تامة الاستقامة. ماس: تمايل./الكثيب: تلة الرمل، كناية عن عجيبة المرأة أو رديها/ أزمع: قصد.

*العاني: الذليل الأسير/ موثق: مقيد.

³البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج2، ص:79.

⁴المصدر نفسه، ج2، ص:79.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

ويا أَحْسَنَ الخَلْقِ في مُقَلَّتِي وأَوْفَرَهُم في فُؤادِي نَصيبا
لِئِنْ حالَ دُونِكَ بَعْدُ السَّـمَرا رِ من بَعْدِ أَنْ كُنْتُ مِنِّي قَريباً
لقد أَوْرَثَ الشُّوقُ جِسمِي الضَّنِي وأَضْرَمَ في القَلْبِ مِنِّي لَهيباً¹

والأبيات صورة من صور التفاني والمعاناة في الحبّ فالشاعر يعاني من السهر والعذاب، ويقضي ليله في التحيب جراء بعده عنها بعدما ألف رؤيتها، يتذكرها لكل طلوع شمس فصورتها الجميلة لا تفارق مخيلته، وهذه المعاناة تزيده رغبة فيها .

وكان الخليفة المستظهر (391هـ-414هـ) يستعين بالطبيعة في التعبير عن مشاعره، وهو القائل في ابنة عمّه أم الحكم بنت سليمان أيام خطبتها :

حمامة بيت العَبْشَمِيِّين رفِرت فطَرْتُ إليها من سَرَاتهم صَقراً²*
تقل الثريا أن تكون لها يــــداً ويرجو الصباح أن يكون لها نحراً
وإني لطعان إذا الخيل أقبلت جوانبها حتى تُرى جُونها شَمُراً³
ومكرم ضيفي حين ينزل ساحتي وجاعل وفري عند سائله وفراً⁴

فقد تراءت له حمامة ترفرف في أعالي السماء تتباهى بجمالها ليكون هو الصّقر الذي سيظفر بها، ولا زال يبالغ في وصف سحرها جاعلاً الطبيعة تنصاع لأوامرها، وتنقاد لها خاضعة راغبة.

وكثيراً ما تمتزج صورة المرأة بالطبيعة حتى يلتبس على القارئ أيهما المقصود، فيستمد معانيه منها، ويتخذ منها رموزاً للتعبير عن شوقه وحنينه، ومن أمثلة ذلك قول الشاعر الطّليق (352هـ-400هـ):

¹ ينظر الحلة السبراء، ابن آبار، ج1، ص:114.

*العَبْشَمِيُّون: بنو عبد شمس.

³ الجُون: جمع الجُون: الأسود أو الأبيض، وهو من الأضداد، وقيل: هو الأسود تخالطه حمرة.

⁴ بغية الملتمس، الضبي، ج1، ص31.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

وَدَعْتُ مَنْ أَهْوَى أَصِيلاً لَيْتَ نِي
فَوَجَدْتُ حَتَّى الشَّمْسِ تَشْكُو وَجَسَدَهُ
وَعَلَى الْأَصَائِلِ رُقَّةٌ مِنْ بُعْدِهِ
وَعَدَا النَّوَسِيمُ مَبْلِغاً مَا بَيْنَنَا
مَا الرُّوضُ قَدْ مُزِجَتْ بِهِ أَنْسَادُوهُ
وَالزَّهْرُ مَبْسُومُهُ وَتَكَهَّنُهُ الصَّبَا
فَلذَاكَ أَوْلَعُ بِالرِّيَاضِ لِأَنَّهَا
ذُقْتُ الحِمَامَ وَلَا أذوقُ نَوَاهُ
وَالورقُ تَنْدُبُ شَجْوَهَا بِهَوَاهُ
فَكَأَنَّهَا تَلَقَى الَّذِي أَلْقَاهُ
فَلذَاكَ رَقٌّ هَوَى وَطَابَ شَذَاهُ
سِحْرًا بِأَطْيَبِ مَنْ شَذَا ذَكَرَاهُ
وَالورْدُ أَخْضَلَهُ النَّدى خَدَاهُ
أَبْدَأُ تَذَكُرُنِي بِمَنْ أَهْوَاهُ¹

يُظهر الشاعر ولعه وشدة شوقه لها، فالموت أهون من فراقها وماخفف عنه المعاناة أنه ليس الوحيد ضحيتها، فالشمس أيضا تقاسمه المعاناة وكذلك الأوراق والروض والزهر، فقد احتضنت الطبيعة حبهما وشاركتهما الأفراح والأحزان .

وقد نهج فريق آخر من الشعراء نهج التَهْتِكِ والانحلال جاء نتيجة تحرر البيئات، حيث عبّر فيه الشاعر عن غرائزه وأحاسيسه إزاء المرأة تعبيرا صريحا، ويصفها وصفا حسيا لا تحفظ ولا احتشام نتيجة انتشار الحانات ودور اللهو، ومنه قَوْلُ أَبِي عامِرِ بنِ شُهَيْدٍ (382-426)*، شاعرٍ قُرْطُبَةَ وصاحبِ المغامراتِ العاطفيّة:

ولمّا تَمَلَّأ مِنْ سُكْرِهِ
دَنَوْتُ إِلَيْهِ عَلَى بُغْدِهِ
أَدَبْتُ إِلَيْهِ دَيْبَ الكَرِيِّ
أَقْبَلُ مِنْهُ بِيَاضَ الطَّلِيِّ
فَنَامَ وَنَامَتْ عُيُونُ العَسَسِ
دُتُّو رَفِيقِي دَنَا مَا التَّمَسَسِ
وَأَسْمُو إِلَيْهِ سُمُو النَّفَسِ
وَأَرْشُفُ مِنْهُ سَوَادَ اللِّعَسِ

¹ نفح الطيب، المقري، ج3، ص: 587.

*أبي مروان عبد الملك بن مروان بن ذي الوزارتين الأعلى أحمد بن عبد الملك ابن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد أشجعي النسب، ولم ير لنفسه في البلاغة أحداً يجاربه، ويساجله في جميع العلوم ويباريه، وأما الكرم فلا يقاربه فيه أحد من أهل بلده ولا يدانيه (ينظر نفح الطيب، المقري، ج1، ص: 620).

وَبْتُ بِهِ لَيْلَتِي نَاعِمًا إِلَى أَنْ تَبَسَّمَ تَغَرُّ الْغَالَتَسِ¹

وتعكس الأبيات انزلاق الشاعر في العبت، وجرأته في الوصف غير مبال بالدّين أو العرف، واصفا ليلة قضاها في أحضان خليلته.

وكثيرا ما يصف الشاعر الحبيبة معبرا عن أحاسيسه الماديّة، ومشاغره الغريزيّة، بدافع اللّهو والعبت، فيذكر محاسنها ومفاتها الحسيّة من نهد وقرطٍ وناقٍ ولذّة، مازجا تلك الألفاظ بألفاظ الموت بقوله :

| | |
|---|--|
| تَنَقَّدُ عَنْ نَهْدِهَا قِرَاطُهَا | بَيْضَاءُ مَضْمُومَةٌ مُقَرَّطَةٌ |
| فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ مَنْ يَعَانِقُهَا | كَأَنَّهَا بَاتَتْ نَاعِمًا جَذَلًا |
| نَالَتْهُ مَعْشُوقَةٌ وَعَاشِقُهَا | وَأَيُّ شَيْءٍ أَلَدُّ مِنْ أَمَلٍ |
| تَعَلَّقُ نَفْسِي بِهَا عَلَائِقُهَا | دَغْنِي أُمَّتٌ فِي هَوَى مُخَدَّرَةٍ |
| الموتُ كَأَنَّهَا وَالْمَرْءُ ذَائِقُهَا ² | مَنْ لَمْ يَمُتْ عِبْطَةً يَمِتْ هَرْمًا |

وتفرد الشاعر يحيى بن الحكم البكري الجبالي (156هـ - 250هـ) الشهير بلقب يحيى الغزال* بطريقته في الغزل إذ تغلب عليه روح الفكاهة والدّعابة وحقّة الظل، فبعد أن ظفر بإعجاب الإمبراطورة " تيودورا " البيزنطية، أصبح كثير التردد إليها، وسألته مرة عن سنّه فأجابها أنه ابن العشرين، ولكنها تعجبت من جوابه لما رأته منه من شيب شعره، فمازحها أن المهر يولد أشهب، وفي ذلك يقول :

¹المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية، ص: 163

²ديوان ابن عبد ربه، ص: 132.

* شاعر أندلسي عاصر خمس أمراء للدولة الأموية في الأندلس، وبرع في شعر الغزل والحكمة، وقد سمي بالغزال لجماله وظهره وتأنقه وقيل إن الغزال لقبّ لزمه، حين دخل على الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط فاستقبله مرة بشطر من الشعر، فقال: جاء الغزال بحسنه وجماله، وأدرك يحيى بن حكم في حياته إمارة خمسة من حكام الأندلس الأمويين: عبد الرحمن الداخل (ت 172) وهشام ابن عبد الرحمن (ت 180) والحكم بن هشام (ت 206) وعبد الرحمن الأوسط ابن الحكم (ت 238) ومحمد بن عبد الرحمن (ت 273هـ). (ينظر جذوة المقتبس، الحميدي، ص: 597).

كلفت يا قلبي هوىً مُتعمياً
إني تعلقت مـجوسيةً
أقصى بلادِ الله في حيث لا
يا تودُ يا رودَ الشبَابِ الـتـي
يا بـأبي الشـخـص الذي لا أرى
أن قلت يوماً إن عيني رأت
قالت أرى فوديه قد تورا
قلت لها ما بالله إنّه
فاستضحكت عجباً بقولي لها
غالبت منه الضيغَمَ الأغلبا
تأبى لشمسِ الحُسنِ أن تغزبا
يلفي إليه ذاهبٌ مذهباً
تطلع من أزراها الكواكبا
أحلى على قلبي ولا أعدبا
مُشبهه لم أعد أن أكذبا
دعابةً توجب أن أدعبا
قد يُتبخ المهرُ كذا أشهباً
وإنما قلتُ لكي تعجباً¹

وفي الأبيات إشارة إلى نضجه العقلي نتيجة تجاربه في الحياة، وإن كان الشيب ونحس رأسه فلا زال قادراً على الحب، وجاءته ذات مرة بخمر، وطلبت إليه أن يشربها، فأبى لأن ذلك لا يجوز في دينه ثم أدركته ندامة فقال معبراً عن ذلك:

فقلت حماقة مني ونوكا
فأية غرة سبحان ربي
فديتك لست من أهل الشمول
لو أني كنت من أهل العقول²

ويمزج السخرية بالغزل، ويستهزئ بإحداهن عندما باحت له بحبها، غير مبال بكسر خاطرها، مُشككا في صدق عواطفها، فيقول:

قالت: أحبك قلتُ كاذبة
هذا كلام لست أقبله
سيان قولك ذا وقولك
أو أن تقولني النار باردة
غري بذا من ليس ينتقد
الشيخ ليس يحبه أحد
إن الریح نعدها فتتعقد
أو أن تقولني الماء يتقد¹

¹ نفع الطيب، المقرئ، ج2، ص: 257-258.

² المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ج2، ص58.

واستطاعت المرأة الأندلسية أن تقتحم مجال الغزل، وتصور مشاعرها تجاه من تحب وتتشوق وت تذكر وتتمنى غير أن البوح بذلك لم يكن مستحباً عند العرب، إذ اعتبرته افتضاحاً لها، ولهذا مُنع زواج العشاق².

وتعدّ حفصة بنت حمدون الحجازية (نسبة إلى مولدها بوادي الحجارة) الرائدة لشعر الغزل في الأندلس إذ طرقت هذا الباب، ومهدت السبيل لمن جاء بعدها من النساء كي يقتحمن ساحة الغزل، بأساليب متباينة وعميقة، أحببت شخصاً تكتيه بابتهاج جميل، وأعجبت بدمائة خلّقه وجمال خلّقه إعجاباً وانبهاراً تغلغل إلى أعماق نفسها، فعبّرت عنه شعراً عذّباً جميلاً، حيث قالت:

رأى ابن جميل أن يرى الدهر مجملاً
له خلق كالخمر بعد امتزاجها
بوجه كمثل الشمس يدعو ببشره
فكل الورى قد عمهم سيب نعمته
وحسن فما أحلاه من حين خلّقه
عيوناً ويعشياً بإفراط هيئته³

ولم يمنعها حبّها الشديد له وتعلقها به من الاعتداد بنفسها والمحافظة على كبريائها وعزّة نفسها، فهي على يقين تام أنه سيّتيه بدونها في حال فكّرت في هجره، كما تأبى الخضوع والتذلّل له، مذكرة إياه بمقامها، إذ تقول:

لي حبيب لا ينثني لعتاب
قال لي هل رأيت لي من شبيهه
إذا ما تركته زاد تيباً
قلت أيضاً وهل ترى لي شبيهاً⁴

ومن الغزل ماتعنت به أنس القلوب جارية المنصور بن أبي عامر، التي عشقت الوزير الكاتب بن أبي المغيرة بن حزم، واستطاعت فيه الشاعرة أن تنغزل بحبيبتها علناً،

¹ نفع الطيب، المقرئ، ج2، ص: 257.

² ينظر شاعرات الأندلس من عصر الإمارة إلى نهاية عصر الموحدين، سهيلة عبريق، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر 2008، ص: 93.

³ نفع الطيب، المقرئ، ج4، ص: 285.

⁴ المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ج2، ص: 38.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

وتكسر بحبها الحواجز الاجتماعية، وكانت هي والوزير يعثان برسائل الحب الشعرية أمام المنصور، بطريقة مشفرة، يفهماها هما فقط، فقالت:

| | |
|--------------------------|------------------------------------|
| قدم الليل عند سير النهار | وبد البدر مثل نصف سوار |
| فكأنّ النهار صفحة خدّ | وكأنّ الظلام خطّ عذار |
| وكأنّ المؤوس جامد ماء | وكأنّ المدام ذائب نار |
| نظري قد جنى عليّ ذنوباً | كيف مما جنته عيناى اعـتـذارى؟ |
| يا لقومي تعجبوا من غزال | جائر في محبّتي وهو جاري |
| ليت لو كان لي إليه سبيلٌ | فأقضي من حبّـه أوطاري ¹ |

فلما أكملت غناءها السلس المتأثر بالطبيعة ردّ عليها ابن المغيرة، وكان قد تفاعل مع أدائها العذب²، قائلاً:

| | |
|--------------------------|--|
| كيف الوصول للأقار | بين سمر القنا وبيض الشّفار |
| لو علمنا بأن حبك حقّ | لطلبنا الحياة منك بثأر |
| وإذا ما الكرام هموا بشيء | خاطروا بالنفوس في الأخطار ³ . |

ويكشف هذا الحوار الغزلي عن اختلاف طبيعة الغزل لديهما، فأنس القلوب لم تصرّح بمشاعرها إنّما بعثت رسالتها الغزلية رمزاً—ربما خوفاً من سيدها—وظلّ ما تصبو إليه أمنية، أما ابن المغيرة فغزله ارتبطت بالشجاعة والإقدام في سبيلها، حتى ولو لم يسمها، وقد يرجع اختلاف أسلوبهما إلى الظروف الاجتماعية المحيطة بهما، فهي مجرد جارية، أمّا هو فوزير⁴.

¹ نفع الطيب المقرئ، ج1، ص:617.

² ينظر شاعرات الأندلس من عصر الإمارة إلى نهاية عصر الموحدين، سهيلة عبريق، ص:94.

³ نفع الطيب المقرئ، ج1، ص:617.

⁴ ينظر شاعرات الأندلس من عصر الإمارة إلى نهاية عصر الموحدين، سهيلة عبريق، ص:95.

فالأندلس عرفت بروزاً لافتاً للشاعرات تماشياً مع المكانة التي أصبحت تحتلها المرأة، مما جعل شعرها يتّسم بالجرأة والصّراحة في تعبيرها عن أحاسيسها وعواطفها.

وبالرغم من قوّة الوازع الديني في النفوس الذي حال دون أن يستفحل المجون على عهد الدولة الأموية في الأندلس، إلا أن بعضهم بلغ درجة من الجرأة والاستهتار مع بداية زوال حكم الأمويين، ضاربين بمبادئ وتعاليم الدين الحنيف عرض الحائط متغزّلين بالغلمان متشبّين بهم، ومن مظاهر هذه الحياة اللاهية، اختلاط الشعراء بالمسيحيين، كما صنع الرمادي (ت403)* مع غلام مسيحي، فقد كان كثير التردّد على الكنائس مصاحباً القساوسة، فيقول:

قَبَلْتَهُ أَمَامَ قَسِيْسِهِ شَرِبْتُ كَاسَاتٍ بِتَقْدِيْسِهِ
يَقْرَعُ قَلْبِي عِنْدَ ذِكْرِي لَهُ مِنْ فَرَطِ شَوْقِي قِرْعَ نَاقُوسِهِ¹.

وفي هذين البيتين يصوّر الشاعر علاقته المماجنة بشيء من الصراحة، واصفاً شدة شغفه بالغلام، وحالة قلبه عند لقائه.

ومما سبق يظهر أنّ الشاعر الأندلسي قد نظر إلى المرأة نظرةً جديدةً خاصّةً فرضتها عليه الحياة الجديدة وما سيطر عليها من جمال، حيث كانت الطبيعة مسرحاً لغرام العشاق يلتقون بمعشوقاتهم في المتنزهات وعلى ضفاف الأنهار، فكان الشاعر الأندلسي عاشقاً للجمال، مفتوناً بجمال الطبيعة والحبيبة، مستمتعاً بحياة الترف، تغلب عليه رهافة الحسّ وحسن التصوير وجودة التعبير.

* يوسف بن هارون الرمادي القرطبي المعروف بأبي جنيش، وكنيته أبو عمر، نشأ في قرطبة وتأدب على يد علمائها، كان من أشهر شعراء الأندلس في وقته، واشتهر بالأخص بشعره الهجائي، وكان سريع البديهة مشهوراً عند العامة والخاصة، لسلكه في فنون مختلفة من المنظوم، ومدح الرمادي الحكم المستنصر، وتوفي فقيراً معدماً أيام الفتنة (ينظر ينظر وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج2، ص: 542).

¹ مطمح الأنفس، ابن خاقان، ص: 83.

2- الزهد :

عرفت الأندلس الكثير من الزهاد في هذا العصر، على اختلاف طبقاتهم، فكان منهم الحكّام والعبّاد والشعراء وأكثرهم الفقهاء والقضاة، وولد شعر الزهد في أحضان الثورة على الحكم الرضوي إذ كان الأتقياء ينظمون أشعار الزهد، ويتغنون بها في الليل ويضمنونها التعريض به،¹ كأن يقولوا «أيها المسرف المتماذي في طغيانه، المصّر على كبره، المتهاون بأمر ربه، أفق من سكرتك، وتنبه من غفلتك... وما لنا هذا النحو، فكان هذا من جملة ما هاجه وأوغر صدره عليهم»²، وكان سبب هذه الفتنة الفقهاء الذين كانوا يجرّضون العامة ضدّه، وساهمت هذه الثورة في انتقال الزهد من وعظ النفس والتفكير في النجاة من العذاب، إلى وعظ الناس ومحاربة الفساد.

كما عرف المجتمع الأندلسي مظاهر الترف والبذخ، وما صاحبهما من صرف الأموال الطائلة على الأبنية والقصور، حياة اللهو والجون والغناء وانتشار الموسيقى، وفي ظلّ هذه الأوضاع من الطبيعي أن تتفجر قريحة الشعراء الغيورين على الدّين ليتخذوا من أشعارهم وسيلة للدعوة والترغيب في الآخرة والترهيب من الدنيا وملذّاتها.

ومن الشعراء الأتقياء من نشأوا تنشئة دينية صحيحة فكانت أنفسهم مهياًة لتقبل حياة الزهد على حياة اللهو والاستمتاع، فتخصصوا في هذا النوع من الشعر كقاضي الجماعة في قرطبة يونس بن عبد الله بن محمّد المعروف بابن الصّفّار (338هـ-429هـ)* الذي جعل معظم أشعاره في الزّهد، ومن أشعاره في الزّهد :

فررتُ إليك من ظلمي لنفسي وأوحشني العبادة فأنت أنسي

¹ تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، إحسان عباس، ص: 73

² المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المراكشي، ص: 25.

* يونس بن عبد الله بن محمد بن مغيث أبو الوليد، قاضي الجماعة بقرطبة، يعرف بابن الصّفّار، من أعيان أهل العلم كان زاهداً، فاضلاً، يميل إلى التحقيق في التصوف، من مؤلفاته كتاب المنقطعين إلى الله عز وجل وكتاب المتجهدين وكتاب التسبيب والتقريب.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

رضاك هو المني وبه افتخاري
قصدت إليك منقطعاً غريباً
وللعظمى من الحاجات عندي
وذكرتك في الدجى قمري وشمسي
لتؤنس وحدتي في قعر رمسي
قصدت وأنت تعلم سراً نفسي¹

يفرُّ الشاعر إلى الله سبحانه وتعالى ويطمح في رضاه عنه أكثر من الذكر ليلاً نهاراً وهو مقرر بذنوبه، ويحس نفسه غريباً في عالم البشر ورأى أن القرب من الله أحسن أنيس لوحشته.

ومن المواضيع التي خاض فيها الشعراء الإيمان بالقضاء والقدر وعدم الخوف من الموت والتسليم له، فهم على يقين بجميته كما فعل غريب الطليطلي*، مبدياً عدم خوفه من الأمير الحكم بن هشام:

يهدني بمخلوق ضعيف
وليس إليه محيا ذي حياة
له أجل ولي أجل وكل
وما ندري لعل الموت منه
لعمرك ما يرد الموت حصن
لعمرك إن محياي وموتى
إلى ملك يدوخ كل ملك
يهاب من المنية ما أهاب
وليس إليه مهلك من يصاب
سيبلغ حيث يبلغه الكتاب
قريب أيننا قبل المصاب
إذا اتاب الملوك ولا حجاب
إلى ملك تذل له الصعاب
وتخضع من مهابته الرقاب²

¹ جذوة المقتبس، الحميدي، ص: 385.

* وكان غريب الشاعر حكيماً داهية فكان أهل بلده يلجأون إلى رأيه، وظلت طليطلة ممتعة على أمراء بني أمية طوال حياة غريب، وهذا يعني أن غريباً من أوائل الشعراء في الأندلس وأن وفاته تمت قبل عام 200هـ (ينظر التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، أبو عبد الله محمد بن الحسن الكتاني، تحقيق، إحسان عباس، دار الشروق، بيروت، ط 2، 1981، ص: 306)

² جذوة المقتبس، الحميدي، ص: 326.

فهو على يقين بأن كل نفس ذائقة الموت ولكل أجل كتاب، فلن تموت نفس قبل أن يحين أجلها، وهذا ما جعله راضياً بقضائه وقدره غير خائف من التهديدات، وما كان له أن يفكر بذلك لولا شجاعته وقوة إيمانه .

ومن الشعراء من بدأ حياته باللهو والمجون إلا أنه أقلع عن ذلك في آخر حياته، وبادر إلى التوبة والاستغفار، وجنح إلى التقوى والزهد في الحياة، وسماه النقاد بزهد الشيخوخة «ويصدر عن الخوف من الموت وما بعده فيدعو إلى التقوى والمبادرة إلى الندم والإقلاع عن الذنوب وهذا شيء طبيعي مركز في النفوس يستوي فيه الأندلسي وغيره»¹.

ويعدّ الغزال أحد هؤلاء الشعراء الذين أقبلوا على اللهو ثم أقلعوا عنه في آخر أيامهم، انقيادا لداعي التقوى في النفس أيام الشيخوخة، فقد اتجه إلى الزهد قولاً وعملاً، وابتعد عن المملدات وفي قصيدة له ينفي عن نفسه شرب الخمر أو الانصياع للمملدات:

| | |
|---|--|
| لَقَمَرِي مَا مَلَكَتْ مِقْوَدِي الصِّبَا | فَأَمْطَو لِّلذَاتِ فِي السَّهْلِ وَالْوَعْرِ |
| وَلَا أَنَا مِمَّنْ يُؤَثِّرُ اللَّهْوَ قَلْبُهُ | فَأَمْسِي فِي سُكْرِ وَأَصْبِحُ فِي سُكْرِ |
| كَأَنِّي لَمْ أَسْمَعْ كِتَابَ مُحَمَّدٍ | وَمَا جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ فِيهِ مِنَ الزَّجْرِ |
| كَفَانِي مِنْ كُلِّ الَّذِي أُعْجِبُوا بِهِ | قَلِيلَةٌ مَاءٌ تُسْتَقَى لِي مِنَ النَّهْرِ |
| فَفِيهَا شَرَابِي إِنْ عَطَشْتُ وَكُلَّمَا | يُرِيدُ عِيَالِي لِلْعَاجِينَ وَاللَّقَدْرِ |
| بِخُبْزٍ وَبِقَلِّ لَيْسَ لِحْمًا وَإِنِّي | عَلَيْهِ كَثِيرُ الْحَمْدِ لِلَّهِ وَالشُّكْرِ |
| فِيَا صَاحِبَ اللَّحْمَانِ وَالْحَمْرِ هَلْ تَرَى | بَوَجْهِي إِذَا عَايَنْتَ وَجْهِي مِنْ ضَرْ |
| وَبِاللَّهِ لَوْ عُثِرْتُ تَسْعِينَ حَبَّةً | إِلَى مِثْلِهَا مَا اسْتَقْتُ فِيهَا إِلَى حَمْرٍ ² |

¹ شعر بني أمية في الأندلس حتى القرن الخامس هجري، أحمد عمارة، مكتبة المتنبي، ط2، 2001، ص:149.

² العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، ج6، ص:199.

فقد فضل شربة ماء وخبز وبقل بدون لحم على شرب الخمر، ويؤكد على عدم استسلامه لها حتى ولو جاوز التسعين من العمر، خوفاً من الله ورهبة من آيات الذكر الحكيم.

ويبدو أن الشيخوخة فعلت فعلها في نفس الغزال ومزجت نظرته إلى الحياة بمرارة شديدة وبعد أن كانت سخريته تريجه، ثقلت عليه وطأة السنين، واتجه اتجاهها زهدياً فأخذ يرثي نفسه ويستشعر الغربة بين أجيال لا تعرفه،¹ بل ربما حسدته على طول عمره:

| | |
|--------------------------------|---|
| أصبحت والله محسوداً على أمد | من الحياة قصير غير ممتد |
| حتى بقيت بحمد الله في خلف | كأنتي بينهم من خشية وحدي |
| وما أفارق يوماً من أفارقه | إلا حسبت فراقى آخر العهد |
| أنظر إلي إذا أدرجت في كفن | وانظر إلي إذا أدرجت في اللحد |
| واقعد قليلاً وعاین من يقيم معي | من يشيع نعشي من ذوي ودي |
| هيات كلهم في شأنه لعب | يرمي التراب ويحشوه على خدي ² |

فالزمن يؤثر في الإنسان ويجعله يبلى مع تقدم العمر، وتتبدل خلقته وتتحار قواه، ويفارق أقرانه «وتحتاج معرفة هذه الحقيقة إلى صراع مستمر مع الدنيا وأحداثها فلا يدركها الجاهل المتغافل إلا بعد موقف معين يتعرّض له أو حادثة ما تجلب له هذه الحقيقة»³، وأدرك الغزال هذه الحقيقة وأخذ يشتكى من تقدّم العُمُر، وعن البلى الذي أخذ يدبُّ في كلِّ شيء، فلم يبق منه شيء سوى اسمه ولسانه، ولو كانت الأسماء تبلى هي كذلك لبلى اسمه لطول الزمان:

¹ ينظر تاريخ الأدب الأندلسي، إحسان عباس، ص: 121.

² جذوة المقتبس، الحميدي، ص: 103.

³ الزهد في الشعر الأندلسي حتى أواخر القرن الثالث هجري، ناجية ناحي دخيل الله سعيدي، أطروحة ماجستير، جامعة أم القرى السعودية، ص: 95.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

ولو كانت الأسماء يدخلها البلى
وما لي لا أبلى لسبعين حجة
إذا عن لي شخص تخيل دونه
لقد بلي اسمي لامتداد زماني
وسبع أتت من بعدها سنتان
شبيه ضباب أو شبيه دخان¹

واستنّ الشاعر ابن عبد ربه مذهباً جديداً في الشعر أطلق عليه (المحصات) وهي قصائد يعارض فيها قصائده التي قالها أيام لهوه يلتزم فيها الوزن والقافية نفسيهما ولكنه يناقض نزعتة المتساهلة في باب الغزل²، وكثرت الألفاظ القرآنية والمصطلحات الفقهية فيها، ويبدو أثر الاقتباس القرآني وما فيه من دقة الوصف واضحاً في قوله يصف جهنم قائلاً:

هَلَا ابْتَكَّرْتَ لَبِينٍ أَنْتَ مُبْتَكِّرُ
يا عاجزاً ليس يعفو حين يقتدرُ
عَيْنُ بَقْلِكَ إِنَّ الْعَيْنَ غَافِلَةٌ
سوداء تزفر من غيظٍ إذا سوعرتُ
إِنَّ الدِّينَ اشْتَرَوْا دُنْيَا بِآخِرَةٍ
يا مَنْ تَلَهَّى وَشَيْبُ الرِّأْسِ يَنْدُبُهُ
لو لم يكن لك غير الموتِ مَوْعِظَةٌ
أَنْتَ المَقُولُ لَهُ مَا قُلْتُ مُبْتَكِّدِيئاً
هَيْهَاتَ يَا بِي عَلَيْكَ اللهُ وَالْقَدَرُ
ولا يقضى له من عيشه وطرُ
عَنِ الحَقِيقَةِ وَاعْلَمْ أَنَّهَا سَقَرُ
للظالمينَ فما تُسبقي ولا تَدْرُ
وَشِقْوَةٌ بِتَعِيمٍ سَاءَ مَا تَجْرُوا
ماذا الذي بعدَ شَيْبِ الرِّأْسِ تَنْتَظِرُ
لَكَانَ فِيهِ عَنِ اللِّدَاتِ مُزْدَجِرُ
هَلَا ابْتَكَّرْتَ لَبِينٍ أَنْتَ مُبْتَكِّرُ³

فالشاعر يبدي تخوفه من أيام الشيخوخة، وتقدم سنوات عمره، ويرهب من جهنم ويدكر بصوتها المزعج وهي تغيض من الكافرين، ويبين خسران من اشترى الدنيا ونسي الآخرة، وأدركه المشيب ولم يتعظ من الموت هادم اللذات

¹ جذوة المقتبس، الحميدي، ص: 103.

² ينظر الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد هيكل، ص: 231.

³ نفح الطيب، المقرئ، ج 3، ص: 447.

وقد حاول الشاعر أن ينقح قصيدة نظمها أيام لهوه حين عزمت محبوبته على الرحيل، لكن السماء أتت بمطر غزير حال بينها وبين السفر قائلاً:

هَلَّا ابْتَكَّرْتَ لَبِينٍ أَنْتَ مُبْتَكِّرٌ
مَا زِلْتُ أَبْكِي حِذَارَ الْبَيْنِ مُلْتَهَفًا
يَا بَرْدَهُ مِنْ حَيَا مُزْنٍ عَلَى كَبِيدٍ
أَلَيْتُ أَلَا أَرَى شِمْسًا وَلَا قَمْرًا
هَيْهَاتَ يَا أَبَى عَلِيكَ اللَّهُ وَالْقَدَرُ
حَتَّى رَأَيْتُ لِي فِيكَ الرِّيحَ وَالْمَطْرُ
نِيرَانَهَا بِغَلِيلِ الشُّوقِ تَسْتَعْرِزُ
حَتَّى أَرَاكَ فَأَنْتَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ¹

وتعكس هذه الأبيات عتب الشاعر على محبوبته التي همت بالرحيل والابتعاد عنه، لكن الله والقدر رفضا ذلك، وسلط عليها الريح والمطر لينتقم له منها شرّ انتقام، ولكن الشاعر حينما كبر حاول التكفير عن ذنبه بتنقيح هذه القصيدة بأخرى أكثر تهذيباً ووقاراً.

ولم يقتصر الزهد على الشعراء فقط بل شمل حتى الأمراء منهم، فالأمير الأموي عبدالله سلك سبيل المهتمدين، ولم تمنعه الفتن من العمل ليوم فاقتة وحلول رسمه حيث عُرف بكثرة إقباله على الخيرات، وإعراضه عن المنكرات، حتى عدّ من أصلح خلفاء بني أمية بالأندلس²، وكشف عن حقيقة الدنيا التي يقضيها الإنسان في صراع مع الأحداث وكل شيء فيها مآله إلى الزوال، غير أن الإنسان كثيرا ما يقع فريسة لها، فيقول:

أَرَى الدُّنْيَا تَصِيرُ إِلَى فِتَاءٍ
فَبَادِرِ بِالْإِنَابَةِ غَيْرِ وَإِنْ
كَأَنَّكَ قَدْ حُمِلْتَ عَلَى سَرِيرٍ
فَتَنَافِسْ فِي التُّقَى وَاجْنَحْ إِلَيْهِ
وَمَا فِيهَا لَشَيْءٍ مِنْ بَقَاءٍ
عَلَى شَيْءٍ يَصِيرُ إِلَى فِتَاءٍ
وَعُيْبٍ حُسْنٌ وَجَمْهِكُ فِي الثَّرَاءِ
لَعَلَّكَ تُرَضِيَنَّ رَبَّ السَّمَاءِ³

¹ نفح المصدر نفسه، ج 7، ص: 53.

² ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج 2، ص: 155-156.

³ المصدر نفسه، ص: 155.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

وتدعو الأبيات إلى التوبة إلى الله، والحرص على نيل مرضاته باتباع سبيل التقوى، وأن يخاف المرء من الموت وكأنه سيموت غدا، فمصير الخلائق كلها الفناء، ونجده يقول أيضا:

| | |
|----------------------------|------------------------------------|
| يا من يُراوِغُه الأَجَل | حَتَّامٌ يُلْهِيكُ الأَمَلَ |
| حَتَّامٌ لا تَخْشَى الردى | وكانه بِكَ قد نَزَلَ |
| أَعْفَلتَ عن طَلِبِ النجاة | ولا نِجاةً لِمَن عَقَلَ |
| هِيئات يَشْغَلُكَ الرجاء | ولا يدومُ لك الشُّغْل ¹ |

فهو يحذر الإنسان العاقل من الدنيا والتعلق بها، والرغبة في تحقيق الأماني، ناسيا الموت التي تأتي على حين غفلة، ويذكره بضرورة تحضير الزاد للدار الآخرة.

وكان الزهد في غالب الأحيان يقوم على النصح والموعظة الحسنة، ودارت موضوعاته حول التنفير من الدنيا، والتحذير من مغرياتها وزيفها، والتنبيه من المعاصي والذنوب والدعوة إلى التحلي بمكارم الأخلاق، والترغيب في الآخرة ونعيمها والترهيب من جهنم وعقابها، بتذكر الموت كل حين ومعرفة أن الانسان مآله الأخير حفرة غبراء موحشة يحمله إليها شرع، ولم يغفل الشعراء عن أمر مهم تمثل في ايمانهم القوي بالقضاء والقدر وحتمية التسليم به، مع التوبة والإنابة إلى الله عز وجل قبل فوات الأوان .

3-المدح:

طبيعي أن يأخذ شعراء المديح في الظهور منذ تأسيس الدولة الأموية بقرطبة، فهذا النوع من الشعر كان يقتصر على الأمراء والخلفاء والحكماء، إذ كان الشاعر يقترب من أصحاب المناصب وولاة الدول، من خلال مدحهم وتصوير جوانب من حياتهم والتي

¹الحلّة السيرة، ابن الأبار، ج1، ص:122.

تحمل صفات الشجاعة والوفاء والكرم، ويمتدح الشاعر الممدوح فيذكر انتصاراته ويصف معاركه الحربيّة، وتميزت هذه القصائد بالجزالة والأسلوب السلس الذي يحمل الفخامة والرقة في صوره ومعانيه.

وتميز المدح بكثرة شعرائه المحافظين على الأسلوب القديم كاعتنائهم بالاستهلال وحسن التخلص وإحكام البناء، والتزامهم بالغزل أو وصف الخمر أو الطيّبة أو البلد الذي نشأ فيه الشّاعر، فإذا استهل الواحد منهم القصيدة دون توطئة عاب الناس عليه ذلك¹.

ومن هؤلاء الشعراء المحافظين أبو المخشي* الذي مدح عبد الرحمن الداخل في قصيدة سار فيها على منهج الأقدمين من تعدّد المواضيع، واستخدام البحر الفخم، وصور مستوحاة من البادية، ولم يعتمد الشّاعر إلى صور فنية بعيدة وأفكار عميقة، بل يعتمد على الأساليب المباشرة، ويلجأ إلى بعض التشبيهات، وقليلًا ما كان يستعمل الاستعارات²، حيث يقول :

| | |
|-------------------------|---------------------------------------|
| امتطيئها سياتا بُدنا | فتركناها نضاءً بالعنا |
| وذريني قد تجاوزت بها | مهمًا قفرا إلى أهل التدى |
| قاصداً خير منافٍ كلِّها | ومنافٍ خيرٍ من فوق الثرى ³ |

يستهل الشاعر قصيدته بوصف الرحلة التي ساقته إلى الخليفة ابتداءً بركوب دابته التي كان قد سمّنها لغرض الرّحلة فبدت ممتلئة الشّحم واللّحم، ولكن عناء السفر أخذ

¹ ينظر أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، بطرس البستاني، دارنظير عبود، لبنان، ص: 40

* هو أبو يحيى عاصم بن زيد بن يحيى بن حنظلة بن علقمة بن عديّ بن زيد التميمي العبادي المعروف بأبي المخشي، دخل أبوه إلى الأندلس مع جند الشام، ثم نزل بقرية شوش، ولد سنة 123 في الأندلس، نشأه أبوه على قول الشعر، فشبّ شاعرا (ينظر الوافي بالوفيات، الصفدي، ج 16، ص: 323).

² ينظر ملامح الشعر الأندلسي، عمر دقاق، ص: 52-53.

³ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

امتلاءها، وصيرتها الرحلة الشاقّة نحيلة متعبة، مبينا غرضه من الرحلة وهو لقاء أهل الفضائل أشرف الأقبام قبيلة مناف وبالأخص أميرهم.

ولكثرة الغزوات في هذه الفترة، كثر الحديث عنها في الشعر الذي مزج بين المدح ووصف المعارك والإشادة بالانتصارات وتبرير الانكسارات، فعباس بن فرناس يشيد بفضائل الأمير محمد في غزوة وادي سليط، وهي من أمهات الوقائع في عهده:

| | |
|-----------------------------|---|
| ومختلف الأصوات مؤتلف الزحف | لهوم الفلا عبل القنابل ملتف ¹ |
| إذا أومضت فيه الصوارم خلتها | بروقا تراءى في الجهام وتستخفي ² |
| كأن ذرى الأعلام في ميلانه | قراير في يمّ عجزن عن القذف * |
| وإن طحنت أرحاؤها كان قطبها | حجا ملك ندب شمائله عف ³ |
| سمي ختام الأنبياء محمد | إذا وصف الأملاك جلّ عن الوصف |
| بكي جبلا وادي سليط فأعولا | على النفر العبدان و العصبه الغلف ⁴ * |

يصور الشاعر المعركة وارتفاع الاصوات فيها نتيجة تقارع الأسلحة، يسير الجيش فيها بانتظام، والخيول فيها متقاربة من بعضها البعض، تقطع مسافات شاسعة كأنها سفن متزاحمة في البحر تعجز عن الابحار، وإذا بدأت المعركة ظهر الرجل العفيف العاقل الحازم، الذي سمي باسم خير البشرية فأخذ الكثير من شمائله، وأبكى الأعداء بكاءً مريراً.

مختلف الأصوات (جيش) متعدّد أنواع السلاح / مؤتلف الزحف: موحد السير. لهوم: أكل. الفلا: الأرض الواسعة. عبل: مكتنز،

¹ شديد العضلات. القنابل: جماعات الخيل. ملتفّ: متقارب، موحد، منظم

² الصوارم جمع صارم: سيف. خلتها: ظنتها. الجهام: السحاب الذي لا مطر فيه.

* الذرى جمع ذروة (بالكسر أو الضمّ): الرأس. القمّة (بالكسر) / الأعلام جمع علم: الجبل / القرقور (بالضمّ): السفينة الطويلة العظيمة / اليّم: البحر. / القذف: الاندفاع و السير.

³ القطب: المحور القائم الثابت في الطبقة الأسفل من الرحي يدور عليه الطبقة الأعلى. القطب (هنا) سيّد القوم، القائد. / الحجى: العقل. ندب: ماض حازم في الأمور، عاقل. شمائله: أخلاقه. صفاته. العفّ: العفيف عن الاعتداء

⁴ أعول: رفع صوته بالبكاء. العبدان: العبيد. الأغلف: الذي لم يختتن *

وعظم العتيبي (ت255هـ)¹، هذا الفتح في قصيدته مادحا الأمير محمدا، مثنيا على عظيم أعماله:

سَائِلٌ عَنِ الثُّغْرِ الصَّوَارِمِ تَصْدُقُ
تَرَكَتْ وَقَائِعَ فِي الثُّغُورِ وَقَدْ عَدَّتْ
وَأَدَاخَ أَرْضِ الْمُشْرِكِينَ بِوَقْعَةٍ
جَادَتْ عَلَيْهِمْ حَرْبُهُ بِصَوَاعِقِ
وَاسْتَنْطِقِ السُّمَرَ الْعَوَالِي تَنْطِقِ
مَثَلًا بِكَلِّ مُغْرِبٍ وَمُشْرِقِ
تَرَكَتَهُمْ مِثْلَ الْأَشْيَاءِ الْمُحْرِقِ
تَرَكَتَهُمْ مِثْلَ الرَّمَادِ الْأَزْرَقِ²

فانتصارات الأمير زلزلت مغرب الأرض ومشرقها، وبشت في قلوب الأعداء الرعب والحزني والهوان، فلم تترك حجرا فوق حجر، وكانت بمثابة صعقة رعدية أحالتهم رمادا منثورا.

وتباينت أساليب الشعراء في نظمهم لقصيدة المديح، فبعضهم آثر نهج الأقدمين، وبدأ بمقدمة طللية أو غزل، لينتقل إلى المدح بعدها، كما صنع يحيى الغزال في مدحه للخليفة، فيقول:

بَعْضُ تَصَابِيكَ عَلَى زَيْنِبِ
إِلَى أَنْ يَقُولَ:

من مبلغ عني إمام الهدى
إني إذا أطنب مداحه
لا فك عني الله إن لم تكن
وأصبح المشرق من شوقه
منبره يهتف من شوقه
الوارث المجد أبا عن أب
قصدت في القول فلم أطنب
أذكرتنا من عمر الطيب
إليك قد حن إلى المغرب
إليك بالسهل وبالمرحب

¹ محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عتبة بن حميد بن عتبة أندلسي فقيه يعرف بالعتيبي، منسوب إلى ولاء عتبة بن أبي سفيان (ينظر جذوة المقتبس، الحميدي، ص39).

² البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج2، ص:113.

أطربه الوقت الذي قد دنا
هفا الوجد فلو منبر
إلى جميل الوجه ذي هيبة
لا يمكن الناظر من رؤية
وكان من قبلك لم يطرب
طار لوافي خطفة الكوكب
ليست لحامي الغابة المغضب
إلا التماح الخائف المذنب¹

ينصح الشاعر نفسه بأن لا يندفع نحو الحب لأن الصّباة إن كانت تلائم الشباب، فهي لا تفيد الشيوخ، ثم ينتقل للتعبير عن شوقه وحنينه إلى الخليفة مثنياً على صفاته الحسنة كالاستقامة وخير قدوة للغير، وأصالة نسبه، وهو يباليغ في وصف فرحة المنبر الذي طار إليه فكان أسرع من الكوكب، كما يثني على جمال وجهه وشجاعته، التي تبث في النفس هيبَةً ووقاراً، راسماً لذلك صورة تمثلت في صورة النظرة المحتشمة للخائف المذنب الذي يخشى وقوع العقوبة، طمعاً في عفوهِ ونيل مرضاته.

وتتجلى في مدائح ابن عبد ربه شاعرية بارعة، كأنما نُحلق للمديح أو مدّاحاً، حيث بدأ مديحه مبكراً، فكان يتغنى ببطولات الأمراء واحد تلو الآخر ويمجّد انتصاراتهم وفتوحاتهم الضخمة، منها قصيدة في بدر الحاجب قائد الأمير عبد الرحمن الناصر فيها يقول:

ألا إنيّ فتح يقرُّ له الفتح
سرى القائد الميمون خير سرية
ألم تره أزدى بإستجة العدى
فلا عهد للمراق من بعد هذه
تولوا عباديداً بكلّ ثنية
فأوله سعد وأخزه نُجج
تقدّمها نصرّاً وتابعها فتح
فلاقوا عذاباً كان موعده الصبح
يتم لهم عند الإمام ولا صلح
وقد مسّهم قرح وما مسّنا قرح²

¹المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية، ص: 134.

²شعر ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد، مكتبة العبيكان للنشر، ص: 101.

ويشيد في هذه الأبيات بالفتح العظيم المكلّل بالنصر، مثنيا على صنيع القائد الذي رفض الصلح مع الأعداء، بعد أن أدمى قلوبهم، وتركهم في حالة المزرية .

ولجأ بعض الشعراء إلى ذكر مناقب الممدوح مباشرة دون مقدمات طلبية¹، كقول أبي عثمان عبيد الله بن يحيى بن إدريس (ت352هـ)* في الناصر لدين الله، وقد غزا الروم في شهر رمضان، وأدركه الفطر في بلاد العدو، فلم يتورع، وصد إلى لقياهم، وقد اجتمعوا:

| | |
|---|----------------------------|
| لله مسعاه وللإسلام | بهنا الخلافة سعي خير إمام |
| كتمكن الأرواح في الأجسام | ملك تمكن في المكارم والعلی |
| لشفاء غلة سيفه الصمصام | عزم الرّحيل مصمماً في عيده |
| في الحل يحكمه وفي الإبرام | يصل الترحل بالترحل دائباً |
| ويذب عن حرم الهدى ويحام | ليعز دين الله في كنف العلی |
| في شيعة الإشرار والإحرام ² . | مستنجزاً وعد الإله بنصره |

فالشاعر يفخر من خلال الأبيات بصنيع الخليفة الذي أيّده الله بنصره على الأعداء، ويهنّئه على شجاعته وإقدامه وتحديّ الصّعاب في سبيل تحقيق هدفه وشفاء غليله من النصارى، وقوله أيضاً حين نزل الناصر بجيوشه طليطلة، وخاف الجلالقة منه:

على أي فتح تقدما أتت لك فتوح الثغر فذاً وتووما

¹ ينظر صورة المرأة في الشعر الأندلسي، في عصري الطوائف وبنو الأحمر، عائشة إبراهيم موسى سلامة محسن، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية، جامعة أم درمان، 2007، ص: 47.

* بيد الله بن يحيى بن إدريس من أهل قرطبة؛ يكنى: أبا عثمان، كان متفنناً في ضروب العلم، وكان الشعر أشهر أدواته لم يتقدمه فيه أحد في وقته مع معرفته بالآثار، وجمعه السنن، وحفظه للغريب والمثل، وكان عالماً متواضعاً، شريفاً بنفسه وبسلفه، ولي أحكام الشرطة ثم ولي الوزارة فما زادت هذه الخطط الرفيعة إلا تواضعاً وفضلاً، وكان يؤذن في مسجده وهو وزير (ينظر تاريخ علماء الأندلس، ابن فرضي، ص: 294).

² دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان، ج1، ص: 697.

تباشر تترى من فتوح توات

رت كما تابع النثر الجمان المنظما¹

فهو يشيد بانتصارات الخليفة المتتابعة واحدا تلو الآخر، مشبها إياها بانتظام حبات اللؤلؤ المتناثرة .

ومن الشعراء الذين وثبوا على المدح من أول وهلة، أبو الحسن جعفر بن عثمان* (ت352هـ) المصحفي، إذ كان همّه ذكر مفاخر الخليفة والإعلاء من شأنه، فنظم قصيدة وقت انتقال الناصر عن سرقسطة فيها يقول:

| | |
|--------------------------------|--|
| على أيمن الأوقات كان ارتحالك | وفي أيمن الساعات كان احتلالكا |
| تنقلت عن دار الشقاق مظفراً | وقد صال بالمخدول فيها صيالكا |
| وحاربت ذا السيف العريض بميته | أرت مستجيش الشرك كيف اغتيالكا |
| وأقلت عنهم والمنايا صوايب | تسيل بها في ساحاتهم سجالكا |
| إذا ما القرى رام اغتلاق جفونهم | فخطفه بالخوف عنها خيالكا |
| وإن ذهبوا للسير في الأرض مذهبا | ترأى لهم في كل أفق مثالكا |
| هل الأجل المرهوب إلا صيالكا | أم الأمل المرغوب إلا نوالكا |
| بقيت أمير المؤمنين مملكا | فما الروضة الزهراء إلا جلالكا ² |

فشجاعة الخليفة أرهبت الأعداء وبنّت الرعب في نفوسهم ، وجعلتهم يهدون به ليل نهار، يتراءى لهم شبحة في كل ركن وزاوية.

ويجنى الشاعر يحيى بن هذيل إلى المبالغة في شعره، مصورا الحقائق الواقعية بشيء من المبالغة اللطيفة التي تكسب المعنى قوة وجمالا حتى يستميل المتلقي ويؤثر فيه، فيقول:

¹المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

*ويكنى أبو عثمان مَنَّان في ضروب العلم، شاعر عالم بالآثار، وجامع للسنن، وحافظ للغريب والمثل متواضع، شريف بنفسه وبسلفه، وُلِّي أحكام الشرطة ثم وُلِّي الوزارة، كاتب الحكم بن الناصر (ينظر تاريخ علماء الأندلس، ابن فرضي، ج1، ص: 294).
²ينظر دولة الاسلام في الاندلس، محمد عنان، ص: 697.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

سيقوا إليك فلو سُقت قلوبُهُمُ لا سود ظنُّك من إفراط ما ستروا
يرومُ اخطبُهُم تـأليفٌ واحدة كأنما بين فكِّي نُطقُهُ حـجـرٌ¹

صوّر الشاعر أسرى الحرب بين يدي الحاكم يرتجفون من الخوف الذي أحرق قلوبهم، ومن شدة كتمهم له حوّلها رماداً، يعجز حتى خطبائهم عن التعبير في تلك اللحظة، وكان أفواههم سدّت بحجر.

والبعض الآخر من الشعراء تأثر في مدائحه بنزعة عقلية خاصة، كان سببها الامتزاج الحضاري بين الثقافات آنذاك، فتسبّب مدحه في تعكير صفو حياته كالشاعر أبو القاسم محمد بن هانيء (326 هـ)، الذي أظهر منذ حداثة براءة شعره، ولكنه اتهم بالكفر والزندقة، فغادر الأندلس، ولحق بالبلاط الفاطمي بالمهدية، والخليفة المعز لدين الله، فأغدق عليه المعز عطفه ورعايته، وقد شُبه بالمتنبي في رصانة شعره، وروعة اقتنائه،² ومن أشهر قصائده تلك التي يصف فيها الخليفة:

| | | | |
|------------------------------|--------|--------------|----------------------|
| هذا الشفيح لأمة يأتي بها | وجدوده | لجدودها | الشفعاء |
| هذا أمين الله بين عباده | وبلاده | إن عدت | الأمناء |
| هذا الأغر الأزهر المتألق الم | تدفق | المتبلج | الوضاء |
| فعلية من سيم النبي دلالة | وعليه | من نور الإله | ضياء |
| ورث المقيم يثير فالمنبر ال | أعلى | له والترعة | العلياء ³ |

¹ ماوصل إلينا من شعر ابن هذيل، ص: 159.

² ينظر المرجع نفسه، ص: 699.

³ ديوان ابن هانيء، ص: 13.

فالشاعر لا يتعامل مع ممدوحه على أنه حاكم فقط وإنما يتباهى به إلى حدّ المبالغة فيشبهه بالنبي الأعظم في الشبه، والخلافة، والشفاعة، وهنا تظهر عقيدة الشيعة بشكل واضح، فهي التي تقُدس الإمام وتجعله ينتمي إلى بيت النبوة¹.

في كثير من قصائده يظهر أثر التشييع جلياً، وهو يمدح المعزّ، مسبغاً عليه صفات تنحو به أحياناً منحىً غير طبيعي، فهو يرى أنّ ممدوحه:

إمام رأيت الدين مرتبطاً به فطاعته فوزّ وعصيانه خُسْرُ
أرى مدحه كالمُدح لله أنه قنوت وتسبيح يحطّ به الوزرُ
ويا رازقاً من كفه نشأ الحيا وإلا فمن أسرارها نبع البحرُ

فالشاعر ينسب للخليفة صفات تنسب في الأصل إلى الله سبحانه وتعالى، إذ جعل الدين مرتبطاً به، فمن أطاعه فاز ومن عصاه خسر، وطاعته كالطاعة لله فالإمام كما يراه سبب الحياة، ومنبع كلّ شيء حيّ، ومدحه يُكفّر الذنوب شأن التسبيح والذكر، وهو بذلك تجاوز كل الحدود.

وعلى العموم فإنّ الفكرة التي يدور حولها شعر المديح عند ابن هانيء، جعل الممدوح يبلغ الصفات الإلهية، بصورة تبدو مبالغاً فيها، اتّحد فيها الخيال مع الواقع، والعاطفة مع الموضوع، عاكسة جوهر عقيدته و رصانة شعره.

كما أن هناك صنفاً آخر من شعراء المديح، يلجؤون إلى وصف الطبيعة قبل الثناء على الممدوح، ومنهم ابن دراج القسطلي الذي وصف الورد في قصيدة قبل مدحه للخليفة ومطلعها:

ضحك الزمان لنا فهاك وهاته أو ما رأيت الورد في شجراته

¹ ينظر تجليات الفكر الشيعي في الشعر العبيدي، نورة قطوش، اطروحة دكتوراه، جامعة محمد بوضياف المسيلة، 2019، ص: 75.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

وقد جاء بالتأريخ من أغصانه وبخجلة المعشوق من وجناته

إلى أن يقول :

إِنْ كَانَ أَبْدَعَ وَاصْفَ فِي وَصْفِهِ
كَمَدِيحِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الأَعْلَى الَّذِي
مَلِكٌ يُنِيرُ الجُودَ فِي لَحَظَاتِهِ
وَحَيَاتِهِ إِنْ كَانَ أَبْقَى حَاجَةً
فَلَقَدْ تَقَاصَرَ عَنِ بَدِيعِ صِفَاتِهِ
أَغْيَا فَأَغْيَا فِي مَدَى غَايَاتِهِ
وَالْيَمْنُ وَالإِيمَانُ فِي عَزَمَاتِهِ
لِمَنْ ارْتَجَاهُ غَيْرَ طَوِيلِ حَيَاتِهِ¹.

ويشير الشاعر إلى رائحة الورد العطرة التي تفوح من أغصان شجيراته، ويشبه لونه بحمرة خد الإنسان المعشوق ساعة الخجل، مبينا عجز الشعراء عن وصف جماله، كما عجزوا عن الثناء على الخليفة وذكر صفاته الفاضلة.

وظهر المديح الحربي الذي يختص بالتغني بالبطولات والأمجاد التي حققتها الحكام وإذلالهم لأعدائهم، غايته التعبير عن الإعجاب بصفات الممدوح دون الرغبة في التكبس، وبرز ابن دراج في هذا النوع من المدح، فكان يُوالي مدائحه في الخليفة المنصور مع انتصاراته المتعاقبة، منها مدحة بديعة كان يحق أهلها لها وجديراً بها، عندما مثل ملك نبرة خانعاً بين يديه مُعلنًا ولاءه، مع عرض عسكري مهيب أُقيم لاستقباله²، في قصيدة تتكون من خمسين بيتاً منها قوله:

وَاللَّهِ يَا مَنْصُورُ أَرَأَيْكَ
وَهَذَا عَظِيمُ الشَّرِكِ قَدْ جَاءَ خَاضِعاً
سَلِيلُ مَلُوكِ الكُفْرِ فِي ذُرُورَةِ السَّنَا
تَوَسَّطَ أَنَسَابِ القِيَاصِرِ فَاتَمَى
بَنِيَتْ بِهَا نَحْوَ الكَوَاكِبِ سُـلْمًا
وَأَلْقَى بِـكُفْمِهِ إِلَيْكَ مُحَكِّمًا
وَوَارِثُ مَلِكِ الرُّومِ أَقْدَمَ أَقْدَمًا
مِنَ الصَّيْدِ وَالْأَمْلَاكِ أَقْرَبَ مُنْتَمَى

¹ البديع في وصف الربيع ، الحميري، ص: 34.

² ينظر تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، ص: 191.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

ولما تقاضى عَزْبُ سيفك نَفْسَهُ وحاطتْ لَهُ الأقدارُ مُخْتَقَنَ الدِّمَا
وَلَمْ يَسْتَطِعْ نَحْوَ الحِياةِ تَأخُّرا بِفَوْتٍ ولا نَحْوَ النَّجاةِ تَقَدُّما
تداركُهُ المقدارُ في قبضةِ الرِّدى وخاطبُهُ حنًّا عَـلَيْهِ فَأفْهَمًا¹

فالخليفة صعد سلم النجاح وسما في قدره سمو الكواكب، وقف أمامه الأعداء صاغرين، ولا يترك ابن دراج مناسبة إلا ويهنته فيها، ويمدح خصاله، مثنياً على عظيم أعماله.

ومن الشعراء من اختار اتجاهها آخر في المدح، يسمى بالمديح الشاكي، وأخذت الشكوى عندهم حظها من القصيدة، فعبروا عما يجول في خاطرهم من ألم ومعاناة وإحباط، ومن نماذج ذلك ما قاله ابن شهيد في المنصور حين أحسنّ بدنو أجله:

هذا كِتابي وكُفِّ المِـؤتِ تَزْعِـجُني عن الحِياةِ وفي قَلْبِي لِمَ ذَكَر
إِنْ أَقْصِمُكُمْ حَقُّكُمْ مِنْ قِـلَّةِ عُمُرِي إني إلى اللـهِ لا حَقُّ ولا عُمُرُ
لَهْفِي على نِـيَّاتٍ ما صـدَعَتْ بِها إلا وأظلمَ من أضوائِها القَمُرُ
فاقر السَّلام على المَنصُورِ أَفْضَلِ مِنْ سعى لثأرِ بَنِي الإِسلامِ فانتصروا
واعطِفْ بِها عَظْمَةً تَهْتَرُّ مِنْ كـَـرْمِ على المُظفَّرِ فهو القَلْبُجُ وَالظَّفَرُ²

وتمتاز أبيات ابن الشهيد بدقّة الوصف ورقّة التعبير، فهو يستهل قصيدته بالشكوى والتبرّم من حاله، ثم ينتقل إلى ذكر مناقب الخليفة المتمثلة في نصره دين الإسلام، وجوده وكرمه، وعطفه على الآخرين.

ولم تغب النساء عن ساحة الشعر، فقد تألقت المرأة الأندلسية في قصيدة المدح، ومدحت الأمراء والأعيان، فكانت حسّانة التميمية¹ (ولدت 140هـ) أول من خاض

¹ ديوان ابن دراج القسطلي، تحقيق محمود علي مكي، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ط1، 1961، ص: 395..

² ديوان ابن شهيد، ص: 29.

التجربة، ولما توفي أبوها كتبت حُسَّانة إلى الحُكْم تمدحه وتشكو ما آلت إليه حالها بعد فقدان أبيها، غير أنها مزجت مدحها للخليفة برثاء والدها قائلة:

| | |
|---------------------------------|---|
| إني إليك أبا العاصي مـوجعة | أبا الحسين سقته الواكف الديم |
| قد كنت أتع في نعماء عاكفة | فاليوم آوي إلى نعامك يا حكم |
| أنت الإمام الذي إقاد الأنام له | وملكته مقاليد النهى الأمم |
| لا شيء أخشى إذا ما كنت لي كنفاً | آوي إليه ولا يعرفوني العدم |
| لا زلت بالعزة القساء مُرتدياً | حتى تذلل إليك العرب والعجم ² |

جعلت الشاعرة الخليفة أبا لها بعد والدها وجعلته الإمام الذي ملك مقاليد الأمم، ذلت له الشعوب كلها من عرب وعجم، مما يجعلها مطمئنة في حضرته، فأعجب الخليفة بكلامها ورق لحالها، وصرف لها راتباً³.

وقد تمتعت الشاعرة بجرأة أدبية لا نجدها عند كثير من الرجال، فبعد وفاة الخليفة أوقف عامله جابر بن ليبيد والي (البيرة) عنها الراتب، فوفدت على ابنه عبد الرحمن بشكواها، بعد أن تلطفت مع بعض نساءه حتى أوصلتها إليه، فانتسبت إليه فعرّفها وعرف أباه، وحكت له جميع أمرها، فرّق لها، وأخذ خط أبيه فقبّله ووضع على عينيه وقال: تعدى ابن ليبيد طوره حتى رام نقض رأي الحكم، وحسبنا أن نسلك سبيله بعده ونحفظ

* حسانة بنت عاصم (ابو المخشي) بن زيد بن يحيى بن حنظلة بن علقمة بن عُدي بن زيد بن حمّاد بن أيوب العبّادي التميمي، كان أبوها من أهل الأندلس وكان والده (جدها) من جند الشام، اتجه أبي المخشي إلى مجال الشعر ونبع فيه حتى أصبح لامعاً، ولدت في أواخر حُكم عبد الرحمن الأول، وتعتبر من أقدم الشاعرات العربيات في الأندلس (ينظر شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بشير يموت، ص: 213).

² شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بشير يموت، المكتبة الأهلية، بيروت، ط1، 1934، ص: 213.

³ ينظر نفع الطيب المقرئ، ج5، ص: 100.

بعد موته عهده، انصرفي يا حسّانة فقد عزلته لك¹، ووقع لها بمثل توقيع أبيه الحكم، فقبلت يده وأمر لها بجائزة، فانصرفت وبعثت إليه بقصيدة منها:

| | |
|-------------------------------|---------------------------------------|
| ابن الهشامين خير الناس مائـرة | وخير منتج يوماً لرواد |
| إن هز يوم الوغى أثناء صعـدته | روى أنابيها من صرف فرصاد |
| قل للأمام أيا خير الوري نسباً | مقابلاً بين آباء وأجداد |
| جودت طبعي ولم ترض الظلامه لي | فهاك فضل ثناء رائـح غاد |
| فإن أقتت ففي نعاك عاكـفة | وإن رحلت فقد زودتني زادي ² |

والأبيات عبارة عن شكر وامتنان وعرفان للممدوح وما صنعه معها وذكر لمحاسنه وخصاله الفاضلة من كرم وعراقة نسب وشجاعة منقطعة النظير.

ومدحت الشاعرة الأندلسية عائشة بنت أحمد القرطبية (400هـ) المظفر بن المنصور، وكان ساعتها حاملاً ابنة قائلة:

| | |
|----------------------------|------------------------------------|
| أراك الله فيه ما تريـدُ | ولا برحت معـاليه تزيـدُ |
| فقد دلت مـخـايـله على ما | تؤمله وطـالعه السـعيـدُ |
| تشوّقت الجـيـاد له وهز الـ | حسام هوى وأشـرقت البنودُ |
| وكيف يخيبُ شـبل قد نمته | إلى العـليا ضـراغمة أسودُ |
| فسوف تراه بدرأ في سماء | من العـليا كواكبـه الجـنودُ |
| فأنتم آل عامر خير آل | زكا الأبناء منكم والجـدودُ |
| وليـدكم لدى رأي كـشـيخ | وشـيخكم لدى حرب وليدُ ³ |

¹ ينظر المصدر نفسه، ص 111.

² المصدر نفسه، ص: 101

³ شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بشير يموت، ص: 20.

وتدعو الشاعرة للممدوح بطول عمر ابنه، مسبغة عليها مجموعة من الخصال الحميدة من شجاعة وحكمة وعلو همّة، وتتجلى قدرتها الابداعية في عرضها المرتجل دون سابق تحضير.

تناول شعر المديح الصفات التقليدية التي يطيب للعربي أن يوصفَ بها، كصفات المروءة والوفاء والكرم والشجاعة والنّجدة والجمال وعلو همّة... كما عبّر عن انتصارات الممدوحين ووصف جيوشهم ومعاركهم، وكتب الشعراء في هذا الفن دون مقدماتٍ، ومنهم من استهل قصيدته بأغراض أخرى كالغزل أو وصف الطبيعة أو الشكوى، وتنوعت أساليب الشعراء بين متانة وعدوبة في الفم ولذاذة في السّمع، وصور مستوحاة من البادية وأخرى تتميز بدقّة الوصف ورقة التعبير، حتى أن بعض القصائد أوغلت في المدح لدرجة الشرك بالله.

4- الوصف:

لاشكّ في أنّ الوصف من أبهى مظاهر الشعر الأندلسي، لجمال البيئة الطبيعيّة في الأندلس وتنوّع مظاهرها، وقد ألهبت هذه الطّبيعة الخالّابة مشاعر الشعراء، وأدّكت عواطفهم، وأرقت ألفاظهم وأساليبهم، وأثارت دواخِل قلوبهم، ورققت طباعهم، ومن ينكر جمال الأندلس فهي أجمل بلاد الله منظرًا، وأبدعها صنعًا.

وتحفل مصادر الأدب ودواوين الشعراء بأشعار الوصف، غير أن مواضيعه تختلف من شاعر إلى آخر، مع تباين في الأساليب، فيحي الغزال حتى في شعر الوصف لم تغب روح الدّعابة عنه، فقد مزج بين روحه المرحة وشدة خوفه من الموت في أعماق البحر

حينما أوشكت السفينة على الغرق في يوم عاصفٍ، فخطب زميله في الرحلة يسمى يحيى بن الحبيب¹ قائلاً:

| | |
|--------------------------------|---|
| قَالَ لِي يَحْيَى وَصِرْنَا | بَيْنَ مَوْجِ كَالْجِبَالِ |
| وَتَوَلَّتْنَا رِيَّاحٌ | مِنْ دَبُورٍ وَشَمَالِ |
| شَقَّتِ الْقَلْعِينَ وَانْبَت | تَتْ عُرَى تِلْكَ الْجِبَالِ |
| وَتَمَطَّى مَلَكُ الْمَوِّ | تِ إِلَيْنَا عَنِ حِيَالِ |
| فَرَأَيْنَا الْمَوْتَ زَائِيًا | عَيْنِ حَالًا بَعْدَ حَالِ |
| لَمْ يَكُنْ لِلْقَوْمِ فِينَا | يَا زَفِيْقِي رَأْسَ مَالِ ² |

والملاحظ على الشاعر في أبياته هذه أنه يميل إلى القصص الشعري أكثر من التركيز على الوصف، يؤثر الطبع ويتعد عن التكلف، يميل إلى الجانب التحليلي أكثر من ميله إلى التركيز مما يعكس عمق تجربته³، ونجد ذلك أيضا في مقطوعة شعرية يخير فيها الفتاة بين غني وفقير فيقول:

| | |
|--|--|
| وَحَيْرَهَا أَبُوهَا بَيْنَ شَيْخٍ | كَثِيرِ الْمَالِ أَوْ حَدَثِ فَقِيرٍ |
| فَقَالَتْ حُطَّتَا حَسْفٍ وَمَا إِنْ | أَرَى مِنْ حُطْوَةٍ لِّلْمُسْتَخِيرِ |
| وَلَكِنْ إِنْ عَزَمْتَ فَكُلُّ شَيْءٍ | أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِ الْكَبِيرِ |
| لِأَنَّ الْمَرْءَ بَعْدَ الْفَقْرِ يَهْرِي | وَهَذَا لَا يَعُودُ إِلَى صَغِيرِ ⁴ |

¹ جذوة المقتبس، الحميدي، ص 375.

² نظر ديوان يحيى الغزال، ص: 12.

³ ينظر تاريخ الأدب الأندلسي، احسان عباس، ص: 119.

⁴ جذوة المقتبس، الحميدي، ص: 375.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

فالفاتة في حيرة من أمرها بين شاب فقير أو شيخ غني، ولكن إن كان بد من الاختيار فالشاب أولى بقلبها من الشيخ، فالفقر قد يزول لكن الشباب لن يعو، ويظهر الشاعر في أبياته هذه بعيداً عن الصنعة اللفظية التي كثيراً ما تقترن مع الوصف.

وأهملت الطَّيِّعَةَ برونقها الشُّعراء وأسرتهم إلى حدِّ الافتتان، كما فعلت مع ابن شخيص الذي صوّر مفاتن الطبيعة ليرسم لوحة فنية جميلة في حديثه عن الورد قائلاً:

كَأَنَّ انْتِثَارَ الطَّلِّ فِي الْوَرْدِ أَدْمَعٌ تَبَدَّى عَلَى زَهْرِ الْخُدُودِ انْتِثَارُهَا
كَأَنَّ جَنِّي الْأَقْحَوَانِ¹ بِرُوضِهَا ثَغُورُ² الْعِذَارَى حِينَ رَاقَ انْتِغَارُهَا³

وقد خيّل للشاعر أن تنثر الندى على الورود شبيهه بسيلان الدموع على الخدين، ورائحة ثغور العذارى أطيّب رائحةً من جني الأقحوان، قصد المبالغة وإظهار مواطن الجمال.

واستطاع الشاعر أن يدب الحركة في الجماد بفضل ملكة خياله الخصبية، وكذا تطور إحساساته بالطبيعة، فغدت صورها في شعره تشيع حيويةً ونشاطاً حين جعل الروض يجنّ، قائلاً:

أَطْرُقُ جَنَّانَ الْخَلَادِ جُنُتٌ صَبَابَةٌ إِلَيْهِ فِدَارْتُ حِينَ طَالَ انْتِظَارُهَا
إِذَا ابْتَهَلَ الْحُجَّاجُ بِاللُّثَمِ مِنْ مَنَى وَقَدْ حَانَ عَنِ رَمِي الْجَمَارِ انْحِدَارُهَا
حَكَ هَزَجَ الْأَطْيَارِ لِيلاً عَجِيْبُهَا وَمَسْتَرَّ الثَّوَارِ صُبْحاً جَمَارُهَا⁴

¹ نبات أوراق زهره مفلحة صغيرة يشبهون بها الأسنان
² الثغر: هو مقدم الإنسان، وقد يطلق على الفم جميعاً،
³ التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، الكتاني، ص: 82.
⁴ التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، الكتاني، ص: 82.

تعود هذه الصورة الشعرية الثرة مرة أخرى في وصفه السحاب والمطر والرعد، حين قابل الشاعر بين صورة السحاب في تراكمه وتتابعه، ومشهد الإبل التي ربطت بعضها إلى بعض وصفت في قافلة:

فكأنَّ السحابَ في الأفقِ ركبٌ زَمَّ أحداجه وصفَ قطارة¹*
يُذكرُ الغيثُ والرَّعودُ حجيجاً عَجَّ أصواته وبثَّ جِماره²

ولعلَّ الشاعر استمدَّ هذه الصورة من إحدى مشاهد الحج، حين كان الناس يتوجهون لأداء الفريضة برّاً في القوافل، وبالرغم من تباعد الصورتين واختلافها البين، إلا أنَّ الشاعر استطاع أن يجد روابط تجمع بين هذه الأطراف المتباعدة (تراكم السحب وصفوف الإبل)، فأخرجها في صورة متكاملة ممكنة الوقوع في الذهن بعد أن كانت غير قابلة حتى للتصور.

ولما شكَّ الناس في شكل الجنَّة وجهلوا صورتها ووصفها، أنشأ هو في الأرض شيها لها، فوصفها في لوحة شعرية أخاذة قائلاً

ولما امترى في جنة الخلد بعضهم أقام لأبصار الجميع مثالها
فللعين أنوار البساتين حولها وللسمع تفجير المياه خلالها
كان يواقيتا أذيت فأشربت سطوح المباني صبغها وصقالها
كان حناياها الأهلة وافقت سعود المجاري فاستردت كمالها³

فالشاعر وصف الجنَّة كثيرة البساتين يملؤها الزهر، وتتفجر خلالها المياه الجارية، وانعكاس لون الزهر على السطوح يشبه صورة صقل الأسطح بالأحجار الكريمة المذابة.

* الاحداج: جمع حدج وهو الجمل عليه هودج، والقطار: قافلة الإبل.

²المصدر نفسه، ص: 45

³التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، الكتاني، ص: 81

كما أبدع الشاعر في وصف ما تفننت فيه الأيدي الماهرة من مظاهر حضارية، دلّ معظمها على الرّخاء المادّي الذي عرفته الأندلس بعد نموّها الحضاري، وتغنى بجمالها وما تمتاز به من حُسن كمدينة الزهراء التي اختطّها الخليفة عبد الرحمن الناصر وعَمِلها متنزهاً له تماثيل على هيئة أسود تقذف الماء من أفواهها، فيقول:

| | |
|--------------------------------|---|
| هذي مباني أمير المؤمنين غدت | يُزري بها آخر الدنيا على الأول |
| كذا الدراري وجدنا الشمس أعظمها | قدراً وإن قصرت في العلو عن زحل |
| لقد جلا مصنع الزهراء عن أثر | مؤحد القدر عن مثل وعن مثل |
| فاتت محاسنها مجهود واصفها | فالتول كالكسكت والإيجاز كالخطل |
| بل فضلها في مباني الأرض أجمعها | كفضل دولة بانيها على الدول |
| كادت قسي الحنايا أن تضارعها | أهلة السعد لولا وصمة الأفل ¹ |

إنّ جمال الأندلس في ربوعها كان له التأثير البالغ في نفوس أهلها، ممّا جعل الشعراء يهتفون بجمالها، ويتسابقون إلى وصف مواطنه، ولانتشار مجالس اللّهو، جمع الشعراء بين وصف الطبيعة ووصف الخمر، فانتشر ما يسمّى بشعر الخمريات، من خلاله يصف الشعراء سمات الخمرة وألوانها وآنيتها وسقاتها، وكل ما يتعلق بها في أحضان الطبيعة كونها مسرحاً لجلسات أنسهم، وفي ذلك يقول يحيى بن هذيل (305هـ-386هـ)*، مشبهاً صفرة الخمر بصفرة الخيري:

| | |
|---------------------------|--------------------------|
| من بنات الكروم ليس لها خم | س ليالٍ بكر من الأبرار |
| يتغنى نثيشها في الرواق | د فئسسيك نعمة الأوتار |
| واستهلت رفقا كما يقع الطل | على الورد في دجى الأسجار |

¹المصدر نفسه، ص: 76.

*أبو بكر يحيى بن هذيل بن عبد الملك بن هذيل بن اسماعيل بن نوييرة التميمي الأندلسي ديبّ شاعرٌ فقيهٌ محدّثٌ لغويٌّ، غلب عليه الشّعُر فكان من أبرز شعراء قرطبة في عصره، (ينظر جذوة المقتبس، الحميدي، ص: 381).

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

تَبَدَّى من خُبِّهَا وهي صَفْرًا كَبَدَّو الخَيْرِيَّ في الاَصْفَرَارِ
ثُمَّ سَلَسَلْتُهَا إلى جَسَدِ مِي تِ فَاحِيَتُهُ فَاعْتَبِرْ بِاعْتِبَارِي¹

ويتحدث الشاعر عن الخمر المعصورة حديثاً، مشبهاً صفرتها بصفرة الخيري، مبينا تأثيرها عليه، فقد أنسته جمال اللحن وتعب البدن.

ويرسم الشاعر لوحة بديعية للطبيعة الأندلسية موظفاً عنصر التشخيص، مشاركاً الرِّيح خلجات وجدانه، وكأنه خبر معاناتها، فيقول:

وَدَكَّتْ في هُبُوبِهَا مَشِيَّةَ النَّش وَاِنْ حَيْرَانَ بِالمِدَامِ الشَّمُولِ
لَصَقَتْ بِالثَّرَى كَمَا يَخْضَعُ العَا شَقُّ ذُلًّا إلى الحَيْبِ المَطُولِ
وَلَقَدْ خَلَّتْ أَنْ بَيْنَهَا عَشِش قَا فَصَارَا لِلضَّمِّ والتَّقْبِيلِ
وَاخْتَفَّتْ عَن فَوَاطِنِ المَخْلِقِ حَتَّى شَبَّهَهَا ضَالَّةً بِنَحُولِ²

وخيل للشاعر أن الرِّيح مُتَعَبَةٌ متناقلة، شبيهة بالمخمور في مشيته، كما تراءت له انسان عاشق ذليل مُتَمِيمٌ بمحبوبته لا يقوى على فراقها فيكثر لها العناق والتقبيل، مما أكسب الشاعر القدرة على نقل مظاهر الطبيعة في صور تشبيهية تتحرك أمام ناظري القارئ، وتجعله يقاسم عناصر الطبيعة المعاناة.

كما مال الشعراء إلى تشخيص عناصر الطبيعة، بإبرازها في صورة شخص و كائنات حية، يصدر عنها كل ما يصدر عن هذه الكائنات من أفعال ومشاعر وأحاسيس وانطباعات، جعلت من النص الشعري أكثر وقعاً على نفس المتلقي، ولعلَّ أبيات ابن عبد ربّه في وصف إحدى رياض الأندلس خير دليل على ذلك:

وَرَوْضَةٌ عَقَدَتْ أَيْدِي الرِّيعِ بِهَا نُورًا يَنْوِرُ وَتُرُوجًا بِتُرُوجِ

¹ التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، الكتاني، ص: 95.

² ماوصل إلينا من شعر يحيى ابن هذيل، حمدي منصور، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، المجلد 77، الجزء 3، ص: 479.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

بِمُلْتَحٍ مِنْ سَوَارِيهَا وَمُلْحَقَةٍ
تَوْشَحَتْ بِمُلَاةٍ غَيْرِ مُلْحَمَةٍ
وَأَلْبَسَتْ حُلَّ الْمَوْشِيِّ زَهْرَتَهَا
وَنَاتِجٍ مِنْ عَوَادِيهَا وَمَنْشُوجٍ
مِنْ تَوْرَهَا وَرِدَاءٍ غَيْرِ مَنْشُوجٍ
وَجَلَّتْهَا بِأَنْسَابِ الدِّيَابِيجِ¹

فجمال الصورة عنده نابع من قدرته على بث الحياة والحركة في الطبيعة جاعلا الروضة والربيع يتزاوجان ويتشابكان بالأيدي، محاولا إضفاء الحياة عليهما.

ولعل أهم المواضيع التي طرقها غرض الوصف شعر النوريات، وهو الشعر الذي يُقال في الزهر، ونحوه من أنواع النور، فقد سجلت الزهور حضورا بارزا في القصيدة الأندلسية سواء كان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، لأن الحدايق الأندلسية ازدهرت بالأزهار، وكذلك شرفات البيوت والقصور فكانت الزهور تزيّن قصورهم، وحدايقهم ومجالسهم تتألق فيها باقات النرجس والبنفسج والسوسن²، حتى أنّ الخليفة المنصور بن أبي عامر (327هـ-392هـ) سمّا بناته بأسماء الزهور نرجس وبنفسج وبهار... ونظم الشعراء قصائد تُبين فضيلة كل نوع منها.

وأكثر شعراء الأندلس من القول في الأزهار، فوصفوا الآس والريحان والنرجس والبنفسج والخيري والورد³، ويقول يحيى بن هذيل في وصف سوسنة، راسما لها صورة غريبة تُنم عن شغفه بها :

وَرُبَّ سَوْسَنَةٍ قَبْلَ تَهْتِكِهَا كَلْفًا
مُصْفَرَّةٍ الْوَسْطِ مَبْيَاضٍ جَوَانِبِهَا
وَمَالَهَا غَيْرُ نَشْرِ الْمِسْكِ مَنْشُوقٍ
كَأَنَّهَا عَاشِقٌ فِي جِجْرِ مَعْشُوقٍ⁴

¹ ديوان ابن عبد ربه، محمد رضوان الداية الشركة المتحدة للتوزيع والنشر، بيروت، ص: 37

² ينظر الأدب الأندلسي، النثر-الشعر-الموشحات، فوزي عيسى، ص: 45-46.

³ ينظر تاريخ الأدب الأندلسي، إحسان عباس، ص: 85

⁴ ماوصل إلينا من شعر يحيى ابن هذيل، الجزء 3، ص: 472.

وتعكس الأبيات خيال الشاعر الواسع الذي صوّر زهرة السوسن الصفراء ذات الجوانب البيضاء بصورة عاشق في حجر معشوقته، تفوح منها رائحة زكية كرائحة المسك حينما تملأ الأرجاء.

ولم تكد مدينة من مدن الأندلس تخلو من المتنزهات الجميلة التي سحرت الشعراء فأفاضوا في وصف أزهارها، كقول ابن قوطية في الرّيحان:

| | |
|--------------------------|------------------------------------|
| أما ترى الرّيحان أوراقه | تلتف تجعيدا ولا تنبسط |
| دقيقة اللّامات في رؤوسها | كأنه أسود جعد قَطَط |
| وقد غدا تنويره جوهرًا | ففي المِوامي والربا يلتقط |
| حتى إذا ما مل من مكثه | في عوده المشرق فيه سقط |
| منكشفًا عن ثمر أسود | كأنه من نفض حبر نَقَط ¹ |

ويرسم الشاعر صور فنيّة مجازية جميلة في حديثه عن الرّيحان، مشبها حدّة أطرافه بسواد الشعر الملتوي، ملّت أوراقه فتساقطت لتكشف عن ثمر أسود يشبه نفض نقاط الحبر عن الشيء .

ومما يلفت النظر إعلاءهم من شأن النرجس بين الأزهار، فأحمد بن محمد بن أحمد بن بُرد* يصفه قائلاً:

| | |
|------------------------------|---|
| تنبّه فقد شقّ البهّار مغلسًا | كأتمّه عن نُوره الحُضل الرّدي |
| مداهنٌ يبرّ في أنامل فضّة | على أذرعٍ مخروطةٍ من زبرجد ² |

¹البديع في وصف الربيع، إسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب الحميري، ص: 25.
*أحمد بن محمد بن أحمد بن بُرد، مولى أبي عامر بن شهيد المبدع في التشبيه والتمثيل، والبارع في المحاكاة والتنخيل، من أهل بيت جليل، له رسالة في السيف والقلم والمفاخرة بينهما، وهو أول من سبق إلى القول في ذلك بالأندلس (ينظر المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية، ص: 127).

²المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية، ص: 127.

ربط الشاعر بين بياض النرجس واصفراره بالفضّة والذهب، فمن صفاته التفاف أوراقه على بعضها البعض لتظهر كأصابع فضيّة في آخرها ذهب في شكل دائري يستدير ويستدقّ كلما ارتفع.

كما عبّر ابن دراج القسطلي عن الورد أحسن تعبيراً رابطاً ذلك بمقطوعة شعرية يمدح فيها الخليفة ومطلعها:

ضحك الزمان لنا فهاك وهاته
وقد جاء بالتأرجح من أغصانه
أو ما رأيت الورد في شجراته
وبخجلة المعشوق من وجناته¹

ويتغنّى الشاعر برائحة الورد العطرة التي تفوح من أغصان شجيراته، ويشبه لونه بحمرة خد الإنسان المعشوق ساعة الخجل .

وتتميز الشعراء بخيالهم الخصب في وصف الأزهار، فها هو هارون الرمادي يصف الخيري النمام الذي لا تفوح رائحته إلا ليلاً قائلاً:

انظر غرائب للخيري ظاهرة
كانه سارق طيباً تفرّق في الظ
عند الظلام وعند الصبح تستتر
ظلماء فهو بيمّ الريح مشتهر²

ويبدو الشاعر مستغرباً من خصائصه، مشبهاً إياه بسارق الطيب تفرّق في الظلام فضحته رائحته التي تنثرها الرياح، ويشاركه عبادة بن السماء الصورة نفسها قائلاً:

كان الخيري في كئمه الطيب
يظهر الزهد بالنهار ويمسي
فقيه مغرى بطول رياء
فاتكأ ليله مع الظرفاء³

¹البديع في وصف الربيع ، الحميري،ص:34.

²البديع في وصف الربيع ، الحميري،ص:85-86.

³المصدر نفسه،ص:30.

فقد تراءى للشاعر فقيه مرآة يُخفي عكس ما يُظهر زاهد نهاراً، وليله يقضيه في لهوٍ واستهتارٍ، وهو يقصد في قوله خاصيته المشهورة في نشر رائحته العطرة ليلاً وحبسها نهاراً.

إن شعر الوصف في الأندلس عبّر عن افتتاح الشعراء بمظاهر تلك الطبيعة الخلابة الجديرة بامتلاك القلوب، التي تجعل المتلقي مذهولاً أمامها، وتنم أشعارهم عن تعلقهم ببلادهم وعمق انتمائهم للأرض وتشبثهم بالمكان والبقاء به.

5- الشكوى :

شغلت الشكوى حيزاً كبيراً في الشعر الأندلسي، لما أصاب الشعراء من ظلم وتشتت وتشرد وضياع، فرفعوا لواء الشكوى معبرين عن مأساتهم وبوار سلعتهم وحرمانهم، وما سيطر عليهم من تناقض وإحباط وقنوط جراء مواقف يصادفونها كظلم لا يُقدرون على رده أو حسرة على شباب ولى وذهب .

فوجد الشاعر أبو المخشي يتبرّم من واقعه الذي يعيشه بعدما فُتعت عيناه وقُطع لسانه ليجد نفسه بين عشية وضحاها أعمى أخرس، ضحية ظلم واستبداد كلفاه الحبيبتين، فيقول:

| | |
|------------------------|--------------------------------------|
| خضعت أم بناتي للعدى | إن قضى الله قضاء فمضى |
| ورأت أعمى ضريراً إنّما | مشيه بالأرض لمس بالعصا |
| فبكت وجداً وقالت قولة | وهي حرى بلغت منى المدى |
| ففؤادي قرح من قولها | ما من الأدواء داء كالعمى |
| وإذا نال العمى ذا بصر | كان حياً مثل ميت قد ثوى ¹ |

¹الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ج 4، ص: 197.

تبكي الزوجة محنة زوجها وبؤس حاله، بعد أن أحاله الأمير ضريرا تُعيله بعدما كان يعيّلها، وتستعظم مصابه فأصعب بلاءٍ يُبتلى به الإنسان العمى، يقتل في صاحبه التعلّق بالحياة، والشاعر في هذه الأبيات يشتكي الألم الممين مُصابه الجلل، وحال زوجته بعد الحادثة.

ومن الشعراء من اتخذ شعره وسيلة لتصوير حاله والتعبير عن معاناته وتنفيس

كربه، كما صنع أبو مروان مؤمن بن سعيد بن إبراهيم بن قيس (ت 267 هـ)*، فيقول:

| | |
|-------------------------------------|-------------------------|
| لست من بابة أهل البلد ¹ | إنما أزرى بقدري أنني |
| لذوي الألباب أو ذي حسد ² | ليس منهم غير ذي مقليّة |
| يتحامون لقاء الأسد | يتحامون لقاءي مثلما |
| وعلى أنفسهم من أحد ³ | طلعتي أثقل في أعينهم |
| أحد يأخذ منهم بيدي ⁴ | لو رأوني قعر بحر لم يكن |

ويحسّ الشاعر باغتراب رهيب بين أبناء جلدته، أناس يسيطر عليهم الحقد والكراهة والحسد، يُشبهه نظرهم إليه واستثقالهم له بجبل أحد، وتحاميتهم لقاءه بخوفهم من لقاء الأسد، تبلغ بهم الأنانية درجة تركه يغرق لو أبصروه في قاع بحر .

وقد طبقت على جم غفير من الشعراء عقوبة السجن، وربّما لم يكن هذا وليد جور، وإنما لاشتراكهم في الصراع السياسي، ومواجهته لتقلباته¹، فلمّا هجا يوسف بن

* رحل أبو مروان مؤمن بن سعيد بن إبراهيم بن قيس إلى المشرق فلقى أبا تمام وروى عنه شعره، فلمّا عاد إلى الأندلس جعل الناس يقرؤون عليه شعر أبي تمام، وكان مؤدّباً لأولاد أمراء قرطبة، وكذلك اتّصل بهاشم بن عبد العزيز و غيره من رجال الدولة، ولكنّ فلتات لسانه أوقعت الوحشة بينه و بين هؤلاء (ينظر نفح الطيب، المقري، ج 3، ص: 538).

¹ أزرى به الشيء: نقص من قدره، عابه. البابة: النوع، المستوى

² مقليّة: بغض، كره

³ أحد: جبل أحد.

⁴ اليتيمة الدهر، الثعالي، ج 1، ص: 372.

هارون الرمادي القرطبي(ت403هـ) الخليفة الحكم المستنصر، أمر باعتقاله مع باقي الشعراء المهجائين، حماية للناس من ألسنتهم، فكتب شعرا يستعطف فيه الخليفة ويشكو فيه نحول جسمه وصبابته جراء سجنه:

| | |
|-----------------------------|---------------------------------------|
| أومى لتقبيل البساط خنوعاً | فوضعت خذي في التراب خضوعاً |
| ما كان مذهبه الخنوع لعبده | إلا زيادة قلبه تقطيعاً |
| قولوا لمن أخذ الفؤاد مسلماً | يمن على برده مصدوعاً |
| العبد قد يعصي، وأحلف أنني | ما كنت إلا سامعاً |
| مولاي يحيي في حياة كاسمه | وأنا أموت صباباً وولوعاً |
| لا تنكروا غيث الدموع فكل ما | ينحل من جسمي يكون دموعاً ² |

فالشاعر يتقطع قلبه لخنوعه أمام الخليفة، ويشتكى شدة شوقه، متسائلاً عن سرّ جفائه نحوه، فلطالما أبدى له الولاء والطاعة.

وتسيطر على الشاعر صدق العاطفة وقربه من الموضوع الذي يعايشه، وتتقلب أشعاره بين اليأس والأمل منها قوله في ذلك :

| | |
|--------------------------------|--|
| صبرت على الأيام لما توتت | وألزم نفسي صبرها فاستمرت |
| فوا عجباً للقلب كيف اعترافه | وللتفيس بعد العز كيف استدلّت |
| وما النفس إلا حيث يجعلها القتي | فإن طمعت تأقت وإلا تسلّت |
| وكانت على الأيام نفسي عزيزة | فلما رأيت صبري على الدلّ دلّت |
| فقلّت لها يا نفس موتي كريمة | فقد كانت الدنيا لنا ثم ولّت ³ |

¹ ينظر تاريخ الادب الاندلسي، احسان عباس، ص: 78.

² نفع الطيب، المقرئ، ج4، ص35.

³ مطمح الأنفس، ابن خاقان، تحقيق محمد علي شوابكة، دار عمار - مؤسسة الرسالة، ط1، 1983، ص: 157.

بعد أن أغرق الشاعر في الشكوى والأنين، راح يحض نفسه على الصبر والموت بعزة وشرف، ويتعجب من حاله كيف سمح لنفسه أن يطالها الدل بعد عز، فلم يفلح البكاء ولا التّحيب والاستعطاف في خلاصه من السجن، فلاذ إلى الصبر.

كما أمر الأمير المنذر بن محمد بحبس هاشم بن عبد العزيز¹ (ت273هـ) بعد أن كان الحاجب المفضل في زمان أبيه، الذي أدخل السجن وصفد بالحديد، وضرب وهدمت داره، فنظم شعرا أرسل به إلى جاريته عاج:

| | |
|--|---|
| وَابَّ مَنِيْعٌ بِالْحَدِيدِ مُضَبَّبٌ | وَإِنِّي عَدَانِي أَنْ أُزَوِّدَ مَطْبَقٌ |
| فَقِي رَيْبِ هَذَا الدَّهْرِ مَا يُتَعَجَّبُ | فَإِنْ تَعَجَّبِي يَا عَاجُ مِمَّا أَصَابَنِي |
| عَلَيْهِ فَلَا قِيْتُ الَّذِي كُنْتُ أَرْهَبُ | تَرَكَتُ رَشَادَ الْأَمْرِ إِذْ كُنْتُ قَادِرًا |
| فَقِي الْأَرْضِ عَنْهُمْ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ | وَكَمْ قَائِلٍ قَالَ: أَنْجِ وَيْحَكَ سَالِمًا |
| وَتَقْسِي عَلَى الْأَسْوَاءِ أَحْلَى وَأَطْيَبُ | فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ الْفِرَارَ مَذْلَةٌ |
| وَمَا مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَهْرَبُ | سَأَرْضِي بِحُكْمِ اللَّهِ فِيمَا يُؤْوِي |
| سَيَهْلُ فِي كَاسِي وَشِيكَا وَيَشْرَبُ ² | فَمَنْ يَكُ أَمْسَى شَامِتًا بِي فَإِنَّهُ |

وقد خالف الشاعر غيره من الشعراء، الذين قاسموه المعاناة، حين مال أغلبهم إلى استعطاف ودّ الأمير أو الخليفة، وطمعاً في عفوه ورضاه، فهو يخاطب جاريته عاج من وراء القضبان، شاكياً إليها حاله، ومعاتبا الزمن الذي صيّره على هذا الحال، معتزلاً بنفسه وكرامته التي تأبى الدل والانكسار، راضياً بقضاء الله وقدره، مذكراً الشامتين أن نهايتهم لن تكون خيرا من نهايته.

¹ أبو خالد هاشم بن عبد العزيز، قائد عسكري ووزير، تولى الحجابة زمن عبدالرحمن الأوسط، وقربه عنده محمد بن عبدالرحمن، وكان يأخذ بمشورته، وولاه كورة جيان، ثم ثبته ابنه المنذر على الحجابة، غير أنه أمر بقتله بعد فترة (ينظر الحلة السيرة، ابن الأبار، ص:137)

² البيان المغرب، ابن عذاري، ج2، ص:116.

وهي نفس الحالة عند يحيى بن هذيل (305هـ-389هـ) الذي يرمي فيها بسخطه وشكواه على الدهر، فهو لا يجروء على اظهار شكواه من الأمير، جاعلا من الدهر الظالم الوحيد بينهم، فيقول وهو في السجن:

| | |
|-----------------------------|-------------------------------------|
| كأنّي في غاب اللّيوث مسالم | يروعني منه الغداة وثوب |
| تحكم فيها الدهر والعقل حاضر | بكل قياس والأديب أديب |
| ولو مال بالجهال ميلته بنا | لجاء بعذر إن ذا لعجيب |
| رفيق بما لا ينثني عن جرمة | بطوش بمن ما أوقته ذنوب ¹ |

فكثيرا ما ينال الدهر من العظماء من أمثاله، ويغدر بهم، يرفق بالجهال تاركاً إياهم يستمتعون، ويرفع أقواما ليدلّ آخرين، فالشاعر لا يستطيع أن يشتكى من الأمير ولي نعمته الذي بيده حرّيته، فيتضجرّ من الدهر وأفعاله.

وفي غالب الأحيان يلجأ الشاعر إلى الله عندما تشتد محنته وتعظم نكبته، شاكيا حاله، مناجياً ربّه طالباً الرّحمة، ونلمس ذلك في قوله:

| | |
|--------------------------------|---|
| دعوتك ربي والدعاء ضراعة | وأنت تناجي بالدعاء فتجيب |
| لئن كان عقبى الصبر فوزاً وغبطة | فإني على الصبر الجميل دؤوب ² |

ونلاحظ تغير واقع الشعراء، واشتداد مآسيهم، في أماكن عرفوا فيها أشد تضيق وأسوأ معاملة، وأبعدوا عن الحياة التي كانت مُقبلة عليهم، فأرهف هذا الواقع عواطفهم وعكفوا على أنفسهم يستخرجون ما بأغوارها من حزن وأسى، فنجد عبد الملك بن إدريس الجزيري (ت394هـ) كاتب المنصور بن أبي عامر يصور معاناته النفسية وقسوة البيئة المحيطة به، وهو في السجن قائلاً:

¹نفع الطيب، المقرئ، ج8، ص:9.

²المصدر نفسه، ج8، ص:9.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

أَلْوَى بِعِزِّمِ تَجَلْدِي وَتَصْبُرِي
شَحَطَ الْمَزَارُ فَلَا مَزَارَ وَنَافَسَتْ
وَقُصِرَتْ عَنْهُمْ فَاقْتَصَرْتُ عَلَى جَوِي
أَزْرَى بِصَبْرِي وَهَوَّ مَشْدُودُ الْقَوَى
وَطَوَى سُورِي كُـلَّهُ وَتَلْدُذِي
نَأْيُ الْأَجْبَةِ وَاعْتِيَادُ تَذْكُرِي
عَيْنِي الْهُجُودَ فَلَا حَيَالٌ يَعْتَرِي
لَمْ يُدْعَ بِالْوَانِي وَلَا بِالْمُقْتَصِرِ
وَالآنَ عُودِي وَهَوَّ صَلْبُ الْمَكْسِرِ
بِالْعَيْشِ طِي صَحِيفَةٌ لَمْ تَنْشُرْ¹

فالشاعر يشتكي نفاذ صبره، وذهاب نومه، وما حَزَّ في نفسه ضعفه ونقص حيلته بعد قوة عُرف بها، وبلغ درجة من اليأس فقد فيها لذة العيش، وفارق قلبه الفرح والسرور.

ولما انتزع المنصور ابن أبي عامر الحجابة من جعفر المصحفي ندم الشاعر على ما فعله ندماً شديداً، صاحبته مرارة الحسرة، فعبر عن معاناته وشكواه في أبياته هذه:

تندمت والمغرور من قد تندما
غرست قضيباً خلته عود كرمه
أكرمه دهري فيزداد خسة
وهل ينفع الإنسان أن يتندما
وكنت عليه في الحوادث قيا
ولو كان من عود كريم تكرماً²

وهذا حال السّجين الذي لم يمتلك الجرأة ليشتكى من الخليفة وسوء فعله، فعبر عن تلك الحسرة بلوم نفسه، معلقاً سبب معاناته بالغرور .

ومن أشد اللحظات وطأة في حياة الإنسان، لحظة فقدان الحرية والمكوث خلف القضبان، لتهدم الأحلام والأمني أمام صاحبها، ويُجرم متعة الحياة ورونقها، كيف إذا كان عمره ست عشرة سنة، فمروان بن عبد الرحمن الملقب بالطليق، كان يهوى جارية تربي

¹ يتيمة الدهر، الثعالي، ج1، ص: 117.

² الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، ج7، ص: 70.

معها، وكانت هي تصبو إليه أيضا، غير أن أباه استأثر بها، فاشتدت غيرته، وقتل والده، فمكث في السجن ست عشرة سنة،¹ ومن شعره قوله:

أَلَا إِنَّ دَهْرًا هَادِمًا كُلُّ مَا نَبْنِي
وَمَا الْقَوْرُ فِي الدُّنْيَا هُوَ الْقَوْرُ إِنَّمَا
يُجَازِي بِبُؤْسٍ عَن لَذِيذِ نَعِيمِهَا
وَلَا شَكَّ أَنَّ الْحَزْنَ يَجْرِي لِغَايَةِ
وَمَا طَوَّلُ سَجْنِي عَائِبٌ لِي فَإِنَّهُ
سَيَبْلِي كَمَا يُبْلَى وَيَفْنِي كَمَا يَفْنِي
يَفُوزُ الْقَتَى بِالرَّيْحِ فِيهَا مَعَ الْغَمِّ بِن
وَيَجْنِي الرِّدَى مِمَّا غَدَت كَفُّهُ تَجْنِي
وَلَكِنَّ نَفْسَ الْمَرْءِ سَيِّئَةُ الظَّنِّ
مَسَّنٌ لِأَلْبَابِ صَدْنِ بِلَا سِنِّ²

والمفارقة شديدة بين ماضٍ مشرقٍ وحاضرٍ مظلمٍ جعلت الشاعر يلقي اللوم على الدهر الغادر، والحظ البائس اللذان حولاً حياته بؤساً بعد رغد عيشٍ، غير أنه متفائل بما حلَّ له، فعسى أن يكره الإنسان شيئاً وهو خير له.

ويتأفف ابن دراج القسطلي من حظه العثر، فقد عايش الفتنة ورزئ بويلاتها، مما أوقعه في الأسر لدى الخليفة ابن عبد الجبار، فيجهر بشكواه قائلاً:

فَاغْلِبْ وَلَا تَزَلْ الْخِلَافَةَ وَالْهَدَى
وَاشْرَبْ بِأَكْوَابِ السُّرُورِ وَسَقِّهَا
وَأَنَا الشَّرِيدُ وَظَلُّ عِزِّكَ مَوْتَلِي
أَدَبْتُ أَضَاءَ الْمَشْرِقَيْنِ وَتَحْتَهُ
مَنْ سَعِدَ جَدِّكَ فِي سِلَاحِ شَاكٍ
رَفُّهَا مَدَى الْأَيَّامِ هَاتِ وَهَاتِ
وَأَنَا الْأَسِيرُ وَفِي يَدَيْكَ فِكَائِي
حَظٌّ يَنْبَغُ إِلَيْكَ أَنَّهُ شَاكٍ³

فبعد مدحه للخليفة يبدأ شكواه بإبراز حالته المزرية فهو شريد بدون مأوى، بائس فقير يطلب العون والمساعدة، يسيطر عليه الجوع عسى أن يرأف بحاله، كما يشتكي قلة

¹ ينظر الحلة السيرة، ابن الأبار، ص: 127.

² المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ ديوان ابن دراج القسطلي، ص: 134.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

اكتراث الناس له بالرغم من جودة شعره، وهذه الظروف تركت آثاراً على حياته فأصبح الترحال وعدم الاستقرار سمة لحياته وأحاطت به الهموم وأصبح الاستقرار حلمه.¹

كما كان للشاعرة الأندلسية نصيب من الشكوى، فعبرت عنها أحسن تعبير كونها كتلة المشاعر الجياشة والحس المرهف، إذ تشتكي حفصة بنت حمدون فراق الأحبة، حائرة في ليل مؤرق:

يا وحشتي لأحبتني
يا ليلة ودعتهم
يا وحشة متأدية
ياليلة هي ماهية²

وتخفف الشاعرة عن نفسها، متخذة الشعر وسيلة للتنفيس عن كربها وضيقها، وابتعاد الأحبة عنها.

وكل هذا يشير إلى صورة حزينة، قلقة باكية، ارتبطت بشعر الشكوى، وعبرت عن الحزن العميق الذي انتاب الشعراء، والحيرة التي لزمتهم، والصبر الذي صحبهم مع استشفاع وتذلل في كثير الحالات.³

فشكوى الشاعر نابعة من نفس بائسة، تنفرد بالمعاناة، وتعيش واقعاً مريراً يحكمه الانتظار، وحالة من التهديد، صاحبها خوف من المستقبل المجهول، وما شعره إلا وسيلة للتنفيس عن معاناته، وعزائه في مُصابه، غلب عليه اللين والرقّة حيناً، واللوم والتوبيخ أحياناً أخرى.

6- الهجاء:

¹ ينظر الشكوى في الشعر الأندلسي، من 399هـ-422هـ، صالح علي حسين الجميلي، مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية، المجلد 16، العدد 2009، 1، ص: 90.

² نفع الطيب، المقرئ، ج 6، ص: 22.

³ تاريخ الادب الأندلسي، احسان عباس، ص: 82.

و يُعدّ الهجاء من الأغراض الشعريّة القديمة التي عرفها العرب قديماً، ولم يحسنوا الاستغناء عنه كونه يعكس جانباً من شخصيتهم المائلة للانتقاد، ويصوّر عاطفة الغضب أو الاحتقار أو الاستهزاء لديهم، أمّا الهجاء في الأندلس فلم يكن له سوق رائجة ولا سيما الهجاء السياسي، لقلة الأحزاب السياسية، ولم يكن للشعوبية شأن في الأندلس فينبغ منهم شعراء يهاجون العرب¹، ولم يتعرض في معظمه للأنساب، بل غلبت عليه خفة الروح والنكتة اللاذعة، وكان يميل إلى العقّة وعدم الإغراق في الفحش، واستعمال بذيء الألفاظ، بمنأى عن ذكر العورات، إلا في القليل النادر مخالفاً في هذا كله ما درج عليه شعراء العصر العباسي².

ولم ينهض الهجاء السياسي في هذه الفترة كما هو معروف في المشرق، ولكن وُجدت له عدة نماذج، كانت أشبه بالنقد السياسي، اختصّ فيها الهجاء بنقد الأمراء، وإبداء رأيهم اتجاههم، دون خوف من بطشهم وعقابهم، وكان يوسف بن هارون الرمادي من أبرز الشعراء الذين تناولوا ظلم الحكّام وجورهم، فبعد لأن لحقته فاقة وشدة، قال أشعاراً في دولة الخليفة وأهلها، أوغرت عليه الصّدور، فحبسه الخليفة الحكم في سجن مدينة الزهراء مع رفاقه من الشعراء الذين أقدعوا فيه، ومن شعره:

يُولِي وَيَعزِلُ مِنْ يَوْمِهِ فَلَ ذَا يَمِّمْ وَلَا ذَا يَمِّمْ³

¹ أدباء العرب في الأندلس وعصر الإنبيعات، بطرس البستاني، ص: 58.

² شعر المرأة الأندلسية من الفتح إلى نهاية عهد الموحدين 92 – 635 هـ، واقدة يوسف كريم، ص: 30.

³ الأعلام، الزركلي، ج 8، ص: 255.

ومع قيام دولة بني أمية بالأندلس خمدت العصبية القبلية، وتأصلت النزعة الأندلسية الأصيلة في النفوس وطغى الإحساس بالانتماء إلى الوطن، غير أن هذا لم يمنع من ظهور بعض الفتن في سبيل الظفر بالخلافة¹، ففي عهد المستنصر بالله خرج حسن بن قنون القرشي عن الدعوة وزعم بأحقّيته في الخلافة لانتسابه لقريش، فهجاه محمد بن شخيص شاعر المستنصر قائلاً:

| | |
|-------------------------------|---|
| عصابة تدّعي في هاشم نَسبا | وما يصح لها في معشر نسب |
| عمي البصائر لم يسلس معاطفها | إلى مساعي التقى دين ولا حسب |
| وزادها في عماها أن أولها | ألقى العصا حيث لا علم ولا أدب |
| نشت مع الوحش في دهماء ليس لها | في غير حسو الحسى رأي ولا أرب |
| ولو غدت من قريش في ذوائبها | لأوجبت نفيها الأحداث والريب |
| وكل ملتهب يطفأ وشرهم | من بعد عثمان يطفأ ثم يلتهب |
| إذا غدا حسن في الآل من حسن | رأسا فيا ليت شعري أيما الذنب ² |

ويبدو أن الشاعر استهل قصيدته بمدح الخليفة وتهنئته بعيد الفطر المبارك لينتقل إلى هجاء الأعداء والتقليل من شأنهم والتشكيك في نسبهم.

وكان الشاعر يسلط لسانه على جميع أفراد المجتمع بغرض التسلية، فلم يسلم منه فاجر ولا بار، يكثر من السخرية من اجل اللهو وإضحاك الآخرين، ويظهر هزل الشاعر وتهكمه في هجائه جلياً حين يسخر من صاحب لحية طويلة مخضبة:

| | |
|------------------------|-----------------------------------|
| حدثوا عنك قد خضبت فألب | ست البّيبال التلوين والتحنينا |
| إن للثغر حواره كل صبح | جولة إذ تخاله عرجونا ³ |

¹الهجاء في الأدب الأندلسي، فوزي عيسى، ص: 59-60.

²المرجع نفسه، ص: 61.

³التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، الكتاني، ص: 251.

ويقلل الشاعر من شأن الرجل الملتحي، راسماً صورة ساحرة له، فقد تراءت له لحيته الطويلة المخضبة بالحناء، عذق نخل يابس يحوم حوله صغير الطير حتى يحط فوقه.

وكان الشاعر يضمّر حقداً دفيناً على المجتمع الذي لم يقدر شعره، وخيب أمله، فبعد أن طمح بنوال شيء يسير منهم -الناس- عاد فارغ الوفاض، فصوّب سهمه نحوهم قائلاً:

| | |
|---------------------------|--------------------------------------|
| قست بالشعر معشراً فإذا هم | صورُ الإنس في طباع الحمير |
| كلما جتّهم لأنشد شعري | طمعاً من نواهم باليسير |
| فكأنني وضعت فلكة بوق | في في أو ضغطت أنبوب كير ¹ |

ويبدو الشاعر متحاملاً على الناس، مشبهاً طباعهم بطباع الحمير، كونهم لم يقدرّو شعره، وشبّه صورة نفورهم منه بصورة من شمّ رائحة الكير القبيحة.

والملاحظ على شعراء الهجاء استحضار الحيوانات في شعرهم، ليضيفوا على القصيدة شيئاً من الطرافة وروح الدّعابة، فمؤمن بن سعيد يرسم صورة ساحرة لنفسه مشبّهاً لحيته بلحية التيس الهرم:

| | |
|-----------------------------|---|
| فها أنا ذا قد جيت أحمل لحية | إليك لها خطب وشأن من الشان |
| كأنني تيس قد تطاول عمره | وأفنى فنونا من تيوس وجديان ² |

ولازالت صورة الحيوان حاضرة، والغاية منها التّغيير من المهجو فيحي الغزال هو الآخر شبّه الرجل الذي تولّى أحباس قرطبة بالدّب، فعندما تولّى معاذ بن عثمان القضاء، قلّد رجلاً ظن فيه خيراً منصب صاحب الأحباس، لكنّه خان الأمانة ونهبها، فهجاه يحي الغزال في قصيدته:

| | |
|-----------------------------------|--|
| يقول لي القاضي مُعَاذٌ مُشَاوِراً | وَوَلَّى امِراً فَمَا يَرَى مِنْ ذَوِي الْعَدْلِ |
|-----------------------------------|--|

¹المصدر نفسه، ص: 242.

²المصدر نفسه، ص: 251.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

فَدَيْتُكَ مَاذَا تَحْسَبُ الْمَرْءَ صَانِعاً
فَقُلْتُ وَمَاذَا يَفْعَلُ الدُّبُّ فِي النَّحْلِ
يَدُقُّ خَلَايَاهَا وَيَأْكُلُ شَهْدَهَا
وَيَتْرُكُ لِلذَّبَابِ مَا كَانَ مِنْ فَضْلِ¹

تهكّم الشاعر بالقاضي وصاحب الأحباس، ولم يلجأ إلى الشتم المباشر بل رسم صورة تشبيهية دالة على السخرية، حيث شبه لهفة الرجل على المال بلهفة الدب على العسل، يلعبه كله تاركاً للذباب-ويقصد بهم الرعية-بقايا الشهد يقتتلون حوله، وما زال يحي يسخر من القضاة، ونجده في موضع آخر يشكك في كفاءة القاضي يخامر بن عثمان الشعباني لشغل المنصب، محاولاً اذلاله، فيقول:

لَقَدْ سَمِعْتُ عَجِيباً
قَرَأَ عَلَيْهِ غُلَامٌ
قَالَ مَنْ قَالَ هَذَا
أَرَدْتُ صَفْعَ قَفَاهُ
أَتَيْتُ يَوْمًا بَتَيْسٍ
فَقُلْتُ قَوْمُوا إِذْ بَجَوْهُ
مِنْ آيَاتِ يُخَامِرِ
طَةَ وَسُورَةَ غَافِرِ
هَذَا لِعَمْرِي شَاعِرِ
فَخِفْتُ صَوْلَةَ جَائِرِ
مُسْتَعْبِراً مَتَّحِاسِرِ
فَقَالَ إِنِّي يُخَامِرِ²

يبدو الشاعر متحاملاً على القاضي متهمكاً به، فهو يرى أنه لا يفرق بين القرآن والشعر، مما جعله يفكر في صفع قفاه، كما رسم له صورة مخزية مضحكة مشبهاً إياه بالتيس يريد البكاء، فلما أراد ذبحه نطق مَعْرِفاً بنفسه على أنه القاضي يخامر، الذي «لم يكن أهلاً للقضاء، ولا راجح الوزن، ولا حاضر اليقين»³، فالتقت خيبة القاضي بسلطة لسان الشاعر، لتولد هجاءً مذقعا.

¹ قضاة قرطبة، الحشني، ص: 56.

² ديوان يحي بن الحكم الغزال، ص: 51.

³ المقتبس، ابن حيان، ص: 64.

ومعروف عن الغزال ميله إلى السخرية والتّهكم، مما جعل الهجاء وسيلته للتعبير عن نظرتة الساخرة للمجتمع وعاداته، منها ذمّه للبخل وأصحابه:

قَصَدْتُ بِمَدْحِي جَاهِدًا نَحْوَ خَالِدٍ أَوْمَلُ مِنْ جَدَوَاهُ فَوْقَ مُنَائِي
فَلَمْ يُعْطِنِي مِنْ مَالِهِ غَيْرَ دِرْهَمٍ تَكَلَّفَهُ بَعْدَ انْقِطَاعِ رَجَائِي
كَمَا انْقَلَعَ الْحِجَامُ ضَرَسًا صَحِيحَةً إِذَا اسْتُخْرِجَتْ مِنْ شِدَّةٍ بِبِنَاءٍ¹

فهو يركز على شدة شحّ الرجل مبينا التعب الذي طاله في مقابل تحصيل مبلغ زهيد منه، يضاهي ألمه ألم من انتزع ضرسا.

وكثيرا ما يتخذ الشعراء الشعر وسيلة لنقد التصرفات الجبانة المتفشية في المجتمع كنهب الممتلكات وتحصيل الثروة بطرق مشبوهة، فيكاد شعرهم يودي بحياتهم، فيحي القلفاط²، أنحى بالهجاء على أهل بلده قرطبة، وأفحش في ذكر كبرائها وعظماء دولتها، فتوجس منه إبراهيم بن حجاج، ريبة ولم يرق في عينه لأنه ذم أهل قرطبة، وصرفه دون نوال، فعاد إلى قرطبة محنقا وأخذ يهجو:

أبغى نوال الأكرمين معا ولا أبغى نوال البومة البكماء³

وكان ميله إلى العبث سببا في مآزق كادت تودي بحياته، حيث كان يؤثر التّهكم بالآخرين كثير العبث بهم، وله قصة مشهورة مع رجل يدعى حرقوص، لم يسكت القلفاط عن هجائه، فضاق حرقوص به ذرعا، وحاول قتله، إلا أنه سلم منها¹.

¹ التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ابن الكتاني، ص: 240.

² محمد بن يحيى بن زكريا أبو عبد الله النحويّ الأندلسيّ المعروف بالقلفاط، كان بارعا في علم العربية، حافظا لها، مقدّما فيها، ولم يكن أحد يقارب الحكيم النحويّ الأندلسيّ في علمه غيره، وكان القلفاط هذا حافظا للغة بصيرا بها، وكان شاعرا مجوّدا مطبوعا، وإذا قصّد أطلال وأحسن (إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، ج 3، ص: 231).

³ المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المراكشي، ج 1، ص: 111.

ومّا يعكس كثرة عبثه ودعابته، وتهكّمه بالآخرين - حتى أقرب الناس إليه - قصّته مع الحكيم، فقد سهر القلّفاط عند الحكيم القرطبي ليلة ثمّ بات عنده، وطال نومه حتّى كادت الشّمس تشرق، فانتبه القلّفاط فقال يخاطبه :

يا ديك، ما لك لم تصرخ فتنبهنا
يا آكلا للقدى، يا سالحا عبثاً
لقد أسأت بنا ديك الدجاجات
على الحصر بهيمي البيهات

فأجابه الحكيم القرطبي²: (251هـ-331هـ)

لقد صرخت مرارا جمّة عددا
لكن علمتك توّاما و ذا كسل
قبل الصباح، وبعد الصبح، تارات
قليلُ ذكّرٍ لجبّار السماوات³

يسخر منه فيسمّيه ديكا لا يجيد سوى الصّياح وأكل الأوساخ، ثمّ يعاتبه لأنّه لم يصح في الوقت المناسب حتى ينهض لصلاة الصّبح، فالشاعر لم يراع مشاعر صديقه وأخذ يهجوّه دون حياء، غير أن الحكيم ثأر لنفسه، وقلل من شأن القلّفاط، ووجد له عيوباً تمثلت في الكسل وحبّ النّوم واللامبالاة بالصّلاة، وقلة الذّكر.

وكان للهجاء سلطته وتأثيره في المجتمع فأبيات الشاعر ابن عبد ربه تسببت في ترحيل العالم الفلكي، أبي عبيده مسلم بن أحمد البلسي، عن قرطبة والأندلس، وكان الفلكي وصحبه قد أثبتوا كروية الأرض بشكل منطقي، لكن الشاعر كونه مقرب من الأمراء اعتبر علومهم تنجيماً وحرّض عليهم بالأبيات التالية:

¹ ينظر طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي ص: 280.

² هو أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل المعروف بالحكيم القرطبيّ كان مولده في قرطبة و الحكيم القرطبيّ كان مؤدّباً للحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر. كما كان صديقا للشاعر القلّفاط ، بارعا في اللغة و النحو و الحساب و المنطق ينعم النظر في كلّ شيء، فإذا بحث في أمر أثار معانيه الدقيقة (ينظر تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ج4، ص: 222).

³ البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق محمد المصري، جمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت، ط1، 1407هـ، ص: 256-257.

أبا عُبيدة ما المسؤولُ عن خَبرٍ
أبيتَ إلا اعتراضاً عن جماعتنا
كذلك القيلةُ الأولى مُبدلةٌ
زعمتَ بهرامَ أو بيدختَ يرزقنا
وقلتَ إنَّ جميعَ الخلقِ في فلكِ
والأرضِ كوربةٍ حَفَّ السماءُ بها
إلى أن يقول :

بلغ معاويةَ المصغي لقولها
أني كفرتُ بما قالوا وما فـ_____علا¹

فالشاعر يهاجم علماء الفلك غير مصدق لاكتشافاتهم، معتبرا أي جديد تدليس وتضليل، بطريقة يغلب عليها التهكم خاصة من فكرة كروية الأرض.

وقد يكون الهجاء نابعاً عن دوافع ذاتية حركت الشاعر للثأر من خصمه، ربّما يكون الباعث لها الحسد أو الغيرة، كما صنع ابن الشهيد مع أحد الوزراء عندما امتنع عن رأيته قائلا:

أتيناك لا عن حاجة عرضت لنا
ولكننا زرنا بفضل حلومنا
إليك ولا قلب مشوق
حمارا تلقى برّنا بعقوق²

وينكر الشاعر حاجته للوزير، محاولا الثأر لكرامته بالمجوم عليه ونعته بصفات قبيحة بغية التقليل من شأنه.

¹ شعر ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد، ص: 254.

² الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، ج2، ص: 295.

ونلاحظ في شعر ابن الشهيد هجوماً على أهل الذمة، ونقد لاذع لهم، وذم لمعتقداتهم وشرائعهم الدينية وتسفيه لها، حيث نجده يسخر من دار الكنيسة والقساوسة وبعض الطقوس المسيحية، قائلاً:

| | |
|--------------------------------------|-----------------------------|
| أبصرت فيثاً في مغار ينهب | وكنيسة أخذ البلى منها كما |
| منا بريء والأمانى تكذب | أهوى إليها بالمطي تخيل |
| كل بها متحير متعجب | فتواقف الركبان في عرصاتها |
| | إلى أن يقول: |
| بجائل ألقى بهن ترهب | كم صاد إبليس بها من تائب |
| من جوذر وبدا عليه يخطب | وكم ابتى القسيس فيها منبراً |
| فيها كريم بالملاح معذب | سقياً لها من دار غي لم يزل |
| فيها بأفواه الندامى تغرب | كلاً وما زالت نجوم مدامة |
| فيه ولكن كان نعم المشرب ¹ | بئس المصلى إن أردت تعبداً |

فلم يترك الشاعر وصفاً قبيحاً إلا وألحقه بهم، فقبّح الكنيسة وشكلها الذي يبعث في النفس غمماً، واعتبرها أبأس مكان يمكن أن يتعبّد فيه المرء، لا تصلح إلا لأن تكون خماراً، كما قلل من شأن الرهبان، وشبّههم بالشيطان لشدة ظلمهم وجورهم لأبناء جلدتهم، يفترسون ضحاياهم التائبين، متخذين الدين ذريعة لتحقيق مآربهم الشخصية.

ونتيجة ظلم الحكّام واستبداد الأمراء في الأندلس وخاصة في فترة الحجابة، مال الشعراء إلى التعبير عن الفساد في سياستهم وانغماسهم في الترف، وتشبّثهم بكرسي الخلافة على حساب الرعية، كما فضحوا الوضع السياسي الغامض وملاحه غير الواضحة، إذ يوجد خليفة شرعي مهامه معطلة، إلى جانب حاجب مستبد بالحكم، وصل

¹ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، ج2، ص682-683.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

إليه عن طريق نفوذ الأم (صبح)، وأظهروا حنقهم، وتفجرت أشعارهم سخطاً وتبرماً من الوضع، فيقول أحدهم:

اقترب الوعد وحان الهلاك
خليفة يحضر في مكتب
وكل ما تكرهه قد أتاك
وأمه حبل وقاض...^{1*}

وفي الأبيات سباب مباشر، وفحش ظاهر، فالشاعر يهجو المنصور بن عامر، ويصفه بالفساد ويقذفه بأقبح التهم بعد توليه الخلافة، ويتفق معه ابراهيم الحسن الذي يتساءل عن سبب قبول الرعية للوضع دون ممانعة، وكان بني أمية لم يبق بهم رجل حكيم يتولى زمام أمورهم، فيقول:

فيما أرى عجب لمن يعجب
إني لأكذب مقلتي فيما أرى
جلت مُصيبتنا وضاق المذهب
أيكون حياً من أمية واحد
حتى أقول غلطت فيما أحسب
تمشي عساكرهم حوالي هودج
ويسوس ضمخ الملك هذا الأحذب
أعواده فيهن قرد أشهب
منكم وما لوجوها تتغيب²

نعت الشاعر الحاجب بصفات قبيحة مشبها إياه بالقرد، مقارنا بينه وبين خلفاء بني أمية ذووا الشأن والهمة العالية، فشتان ما بين الثرى والثريا في نظره، وخاصة أن الخلفاء اهتموا بالشعراء وأعلوا من شأنهم، وأغدقوا عليهم المال والعطايا، على عكسه.

كما عبر شعر الهجاء عن نفسية الشعراء، وما تحمله من ضغينة وشحناء فالحاجب المنصور بن أبي عامر مرّ بتجربة مريرة مع جعفر المصحفي سابقاً، ولما دارت عليه الدنيا

^{1*} كلمة فاحشة، نفح الطيب، المقرئ، ج2، ص: 280.

² الحلة السيرة، ابن الأبار، ج1، ص: 227.

بدواثرها، أرسل إليه هذا الأخير أبياتاً يستعطفه فيها، فما زاده ذلك إلا حنقاً وحقداً، وتذكراً للإساءة، فنقم عليه ولم يضيع فرصة الانتقام منه فكتب إليه:

الآن يا جاهلاً زلت بك القدم
أغربت بي ملكاً لولا تثبته
فياأس من العيش إذ قد صرت في طبقي
تفسي إذا سخطت ليست براجة
تبغي التكرم لَمَا فاتك الكرم
ما جاز لي عنده نطق ولا كلم
إن الملوك إذا ما استنقموا نقموا
ولو تشفع فيك العرب والعجم¹

يعاتب الشاعر جعفر على ما كاده له من مكائد سابقاً ساعة كان في السلطة، ويذكره بأنه اغترّ بطيب العيش، ناسياً أن الدنيا تدور، ويحذره نفسه ومكره، وينبئه باستحالة نسيان فعاله، ولن يرض عنه مهما بلغ التشفع له.

ولأن الخلفاء في فترة الفتنة تركوا الجهاد وأوغلوا في المجون وانغمسوا في الملذات، وانتهكوا الحرمات، فگر بعض الشعراء في فضح خيبتهم، ومنهم هشام بن عبد الجبار الذي كان لا يفيق من سكره، فقال فيه أحدهم:

أمير الناس سخنة كل عين
يجم ذاً ويلثم خد هذا
لقد ولوا خلافتهم سفياً
بيت الليل بين مـخـتئين
ويسكر كل يوم سكرتين
ضعيف العقل شيئاً غير زين²

¹ الحلة السيرة، ابن الأبار، ج 1، ص: 267.

² البيان المغرب، ابن عذاري، ج 2، ص: 79-80.

عادات الخليفة أثارت سخط الشاعر فعبر عن احتقاره لشخصه وتساءل كيف أمكنهم أن يولّوا أمرهم سكيراً فاجراً، وما يزيد غمّه أن حكّام بني أمية الأوائل كانوا على درجة كبيرة من العلم والتقوى والورع.

ولم تتورع المرأة الأندلسية أن تقحم نفسها في هذه الحرب الكلامية، ومن أشجعهن عائشة بنت أحمد القرطبية (ت400هـ)* التي عزفت عن الزواج، وبعد أن خطبها أحد الشعراء فكتبت إليه هاجية:

أنا لبوة لكنني لا أرْتَضِي نفسي مناخاً طول دهري من أحد
ولو اتّي اختارُ ذلك لم أجب كلباً وكم غلّقت سمعي عن أسد¹

والبيتان مزيج من الفخر والاعتداد بالنفس، وهجاء للخاطب الذي قبّحته، فهي تحاول الرفع من سعرها برفضها لمن كان في هيئة أسد، فكيف لها أن ترضى من هو أعرّ منه زوجاً لها.

وانزعجت الشاعرة حفصة بنت حمدون من عبيدها، فعبرت عن حنقها منهم شاكية من سلوكهم، قائلة:

يا ربّ إنّي من عبيدي على جمر الغضا ما فيهم من نجيب
إما جهول أبله متعب أو فطن من كيده لا يجيب²

* عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم. أديبة، شاعرة، من أهل قرطبة. لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يعادلها فهماً وعلماً وأدباً وفضاحة وشعراً كانت تمدح ملوك الأندلس وتخطبهم بما يعرض لها من حاجة، ولا ترد لها شفاعة عندهم، وكانت حسنة الخط، تكتب المصاحف، وعנית بجمع الكتب، فكانت لها خزانة كبيرة وماتت عذراء لم تتزوج (ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج2، ص:26)

¹ نفع الطيب، المقرئ، ج2، ص:26

² المصدر نفسه، ج6، ص:22.

وما قهر الشاعر أن الواحد منهم أسوأ من الآخر، إِمَّا أن يغصّها بجهله وسداجته وكسله، أو يقتلها بفطنته وكيده.

ونستنتج مما سبق أن شعر الهجاء انتشر في هذه الفترة واحترفه مجموعة من الشعراء بغية تسليط الضوء على المجتمع وأحواله، من ظلم الحكام واستبدادهم، واستئثار أهل المناصب، وتفشي بعض السلوكات القبيحة بغية الوقوف على مواطن القصور والنقص، وفضح الوضع ورغبة في التغيير، ومنه ما كان شخصياً غاية تصفية حسابات، أو سخط على المجتمع، وكثير منه هدفه التسلية والإضحاك والترفيه، وتميّز هذا النوع من الشعر باستحضار صورة الحيوانات بكثرة وغلبت عليه السخرية والتّهمك والهزل، غير أنّه وصل إلى مرحلة الفحش والبذاءة لدى بعض الشعراء، وقلّما كتبت فيه القصائد الطّوال، فكان في أغلب الأحيان مقطوعات شعرية قصيرة، ومن الشعراء من تَخَصَّصَ به، فلا تُجيد قريحته إلا هجاءً، ومنهم من طالته المعاناة والظلم جراءً، خصوصاً أن الحكّام كانوا يرتعون خوفاً من هجائهم لهم، الأمر الذي جعلهم يتقربون منهم لكسب رضاهم، أو سجنهم ليأمنوا شرّهم.

7- الرثاء:

تأثر الشعراء الأندلسيون كغيرهم من الشعراء بفقد الأهل والأحبّة والخلان، فنقّسوا عن كربهم في قصائدهم الشعرية وعبروا عن آهاتهم وأحزانهم، وكثيراً ما نأحوا على موتاهم من ذوى الرّحم، ذاكرين فضائلهم مُبينين خسارة المجتمع فيهم، مصورين الموت على أنه سنّة من سنن الكون لا مفر منه ولا نجاة¹، صابرين على ما أصابهم، مُسلمين أمرهم لله، فكان الرثاء الغرض الوحيد القادر على تصوير هذه المآسي، وهو فنّ عرفه العرب

¹ ينظر تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، ج8، ص:323.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

قديمًا، ولا يختلف هذا الفن عند الأندلسيين عن غيرهم من الشعراء في معانيه وأساليبه عدا أنه يتميز بالإكثار من التفجع والتّهويل والأحزان.¹

ومثل هذه المآسي جعلنا نلمح الجانب الأدبي في شخصية عبد الرحمن الداخل، الذي تأثر بفراق الجندي حيوة بن ملامس الحضرمي* وكانت له منه منزلة لطيفة في أول ملكه، فراح ينعاها في مقطوعة شعرية يقول فيها:

ولا خير في الدنيا ولا في نعيمها
أخو السيف يقرى الضيف حقاً يراه
إذا غاب عنها حيوة بن الملامس
ما عليه وينفي الضيم عن كل يأس²

وحزّ في نفس الأمير فقدانه لحيوة، فوفاة جندي فحلّ مثله، شجاع كريم نصير للضعفاء أحال الحياة صعبة، لا نكهة لها ولا طعم.

وتناول بعض الشعراء موضوع الموت وحتميته، وكيف أنه لا يعرف حدوداً طبقية حيث يتساوى فيها البشر، قبل الخوض في رثاء موتاهم، كما صنع عبد الله بن بكر بن سابق الكلاعي³، في رثائه للأمير راسماً صورة محزنة لفقدانه، قائلاً:

لا إن في الدهر للمبصرين
تسور الـمنايا فما من عزيز
عجائب تهر أنظارها
يدافع بالـعزّ تسوارها
وكان بالأمس سراج العـلا
يسوس البلاد وأقـطارها
على حين أحكم ريب الدهور
وعرف الأمور وإنكارها

¹ ينظر اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث هجري، نافع محمود، ص: 175.

* من ناقلة حمص، وكان من أهل الفل الذين سلموا من عسكر كلثوم بن عياض المعنق، وهو أحد نفر الثمانين الذين قاموا بأمر عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، حين دخل الأندلس، وتعصبوا معه حتى خلاص له الأمر (ينظر بغية الملتمس، الضبي، ج1، ص: 273).

² الحلة السيرة، ابن الأبار، ج1، ص: 37.

* أبو محمّد عبد الله بن بكر بن سابق الكلاعي وقيل البكري المعروف بالنذل، وكان مؤدباً بالنحو عالماً باللسان مبرزاً في الشعر أديبا بليغاً، أدب أولاد الأمير عبد الرحمن بن الحكم (ينظر المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المراكشي، ج1، ص: 113).

أَتَتْهُ مِنْيْتَهُ بَغْتَةً وَقَدْ كَانَ فِي الْأَرْضِ جَبَّارَهَا
فوسد بعد وثير الحشايا خلال المقابر أحجارها
وخلّاه أنصاره مفرداً وقد كان بالأمس أنصارها
فلله ما استودعت في النخيل أكف الرجال ومن زارها¹

وتُبين الأبيات مكانة الأمير وعلو همّته، غير أن هادم اللذات كسر قوّته وجبروته، وأحال فراشه الناعم ووسائل الحرير حفرة غرباء يتوسد فيها الحجر، تركه أنصاره وحيدا بعدما كان نصيرا لهم، فالشاعر يتحسّر على خسارة البريّة رجلاً مثله.

ولم يقتصر الرثاء على الملوك والأمراء فقد تألم الشعراء لفقد الأحبة، وصبوا جمّ غضبهم على الموت الذي افتكّ منهم ذويهم وبث فيهم حالة من التّعاسة، ونرى كثيرا منهم يلتاع لوعة شديدة، تعكس في شعرهم صدق العاطفة وحرارة الانفعال وعمق التفجّع من مرارة الفقد، ومنها رثاء ابن عبد ربه لابنه قائلا:

بليث عظامك والأسى يتجدد والصبرُ ينفد والبكا لا ينفد
يا غائبا لا يزجى لإيا به ولقائه حتى القيامة موعدا
ما كان أحسن ملحدا ضمّته لو كان ضمّ أباك ذاك الملحد
باليأس أسلو عنك لا بتجلدي هيهات أين من الحزين تجلّد²

يعبر الشاعر عن شدّة حزنه ونفاذ صبره لفقد ابنه، فدموعه لا تنجس من فراقه وطول غيابه، كما يتمنى لو أنّ الموت أخذه بدلاً منه، بلغ اليأس مبلغه، فلا يوجد فقد أتعس من فقد فلذة الكبد، وفي ذلك يقول ابن هانئ الأندلسي، يرثي ابنا لبراهيم بن جعفر بن علي:

يا أبا أحمد والحكمة في قول من قال إلى الله المرّد

¹المقتبس من أنباء الأندلس، ابن حيان، ص: 231.

²يتيمة الدهر، الثعالبي، ج2، ص: 88.

لا ملوم أنت في بعض الأسي
وإذا ما جهشت نفس الفتى
لو يزد الحزن ميثاً هالكاً
واكتست أعظم كسرى لحمها
غير أن الحر أولى بالجـلد
كان في عسكره الصبر مدد
زد قطناً وأدبـن أدد
وسعى لقبان أو طار لبـد¹

وهو بهذا يأتين شاباً افترسه الموت تاركاً خلفه أبا يتلظى في صورة فنية جميلة، يدعو فيها المخاطب إلى ضرورة الصبر والاحتساب، فلا مردّ لقضاء الله، والمؤمن مبتلى وجب عليه الثبات، ومع ذلك لا أحد يقدر على لومه فمصابه جلل، ويحاول أن يواسيه بأنّ الحزن لا يردّ الأحبة، فلو كان ذلك ممكناً لعاد عظماء العرب القدامى.

ويرثي سعيد بن الجودي أحدهم، ذاكراً محاسنه، ويتأسى على فقدته قائلاً:

أُمتنصراً بالصبر قد دُفن الصبر
فيا عجباً للقبر منه يضئ
وما مات ذلك الماخذ القرم وحده
وإن يكن الشيطان زين خيرة
فشمس الضحى ترجو لفقدان نوره
مع الحسن المأمول إذ ضمّ القبر
وقد كان سهل الأرض يخشاه والوعز
بلي الجود والإقدام والبأس والصبر
لقاتله في الكفر بل دونه الكفر
وبدر الدجى يبكيه والأنجم الزهر²

يتعجب الشاعر كيف ضمّ القبر ذلك الوجه الحسن الشجاع الذي خشيته سهل الأرض ووعرها، ذو الكرم والجود، ويبالغ في رسم الصورة المحزنة لفقدته، جاعلاً الكواكب تبكيه من هول المصيبة.

ويسقط قادة المعارك صرعى في المعارك والحروب، فيتأسى الشاعر لفقدتهم ويبكيهم شعراً معدداً مناقبهم، وأعمالهم الجليلة، فقد رثى الأسدي سعيد بن جودي قائلاً:

¹ ديوان ابن هانئ، تحقيق كرم البستاني، دار بيروت للطباعة، لبنان، ص: 120.

² الحلة السيرة، ابن الأبار، ج 1، ص: 85.

لا ساغت الراح لي من كف ساقها
وأن أرى الخيل تردي في أعنتها
يا قاسم بن عياض دعوة فلقت
أبلغ ربيعة والحين من مضر
وآل سعد فقد أضحت وليس لها
حتى تقرب نفسي من تمنّيها
لثأر من كان قبل اليوم يرضيها
صم الصخور فلم يسمع منادّيها
وآل عك إذا أحللت وادّيها
راع يحيط فضاًها بعد راعيها¹

ولم يتقبّل الشاعر فكرة وفاة القائد المغوار الذي حمى الدّمار وأذلّ الأعداء، فراح يحاول إثارة عواطف القوم، والاستغاثة بهم للثأر من أعدائهم، ونبرة التّهديد بادية في شعره، فلن يهدأ له بال ولن يغمض جفن حتّى ينتقم لسيدّهم، فقد أصبحوا دونه كغنم دون راعيها.

ومّا يلفت الانتباه أنّ الشعراء في هذه الفترة لم يهتموا برثاء النّساء كثيراً، فجاء الحديث عنها ضئيلاً في الشعر، منه قصيدة لابن دراج القسطلّي يرثي فيها أم الخليفة هشام المؤيد، ويعزي ابنها داعياً له بطول العمر، فيقول:

هُوَ الْمَوْتُ يَصَدَعُ شَمْلَ الْجَمِيعِ
يَبُزُّ الْحَيَاةَ بِطُشٍّ شَدِيدِ
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ اسْتَبَاحَتْ يَدَاهُ
وَوَافِي بَسْـيِدَةِ السَّيِّدَا
هُوَ الرُّزُّ أَلْوَى بَعْزِ الْقُلُوبِ
فَمَا فِي الْعَوِيلِ لَهُ مِنْ كَفْيٍ
فَهِيَ سَاتٌ فِيهِ عَنَاءُ الزَّفِيرِ
وَيَكْسُو الرُّبُوعَ ثِيَابَ الْعَفَاءِ
وَيَلْقَى النُّفُوسَ بَدَاءَ عِيَاءِ
كَرِيمِ الْمَلُوكِ وَعَلَقَ السَّنَاءِ
بِ مَأْوَى الْبَلَى وَمُنَاحِ الْفَنَاءِ
مُصَابَاً وَأُودَى بِحُسْنِ الْعَزَاءِ
وَلَا فِي الدُّمُوعِ لَهُ مِنْ شِفَاءِ
وَهِيَاةٍ مِنْهُ انْتِصَارُ الْبُكَاءِ²

¹ تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، إحسان عباس، ص: 89-90.

² ديوان ابن دراج القسطلّي، ص: 212.

لا يلبث أن يأتي الموت ليفرق الشَّمْل، يفترس الإنسان على حين غفلة، تاركاً غصّة بأهله، فالشاعر مزج مرثيته للمرأة بتأملات عميقة في الموت، الذي تعجز كل الخلائق عن ردّه أو التّخلص منه، امتد سلطانه ليحرم هشاماً من نبع الحنان أمّه خير النساء، فلم يمنعه مال ولا جاه، ولم ينفع معه بكاء أو عويل، فالكل كان ولا زال يشرب من كأس المنون ولن يُعفى منها أحد.

ويعدّ الرثاء وسيلةً لتكريم الميّت، وتخليد ذكراه، فهو تأبين وندب للفقيد، وتصوير لعظم المصيبة التي حلّت بأهله، ولم يفث الشاعر أن يكون أوّل المعزّين في وفاة المنذر بن يحيى ليمضي سريعاً في تعداد محاسن المتوفي متحسراً على فقدانه :

| | |
|----------------------------|--------------------------------------|
| لا في سرور العيد نحن مهنوه | ولا في سرير الملك نحن محيوه |
| لهفي عليه والكمامة تهابه | ولهفي عليه والملوك مطيعوه |
| ولهفي عليه والوعى تستخفه | ولهفي عليه والكتائب تقفوه |
| ولهفي عليه والضيوف تزوره | ولهفي عليه والركائب تنحوه |
| ولهفي عليه والأمانى تؤمه | ولهفي عليه والخلائق ترجوه |
| ولهفي عليه والمصاحف حوله | يخط كتاب الله فيها ويتلوه |
| ولهفي عليه حاضراً كل مسجد | وداعوه أشياع له ومصلوله ¹ |

غاب من كان أهلاً للفضائل والنهى، فلمن ستلقى التّحية وتهاني العيد، ومن سيزور الضيوف، ومن سيتلو كتاب الله بعده...، وكأنّ المصالح كلها تعطلت بوفاة المغفور له.

وببالغ الحزن والأسى تلقى الشاعر نبأ وفاة ابن صغير ليحيى بن المنذر، فعبر في قصيدته عن غصّة الفقد داعياً للأب بطول العمر وابنه بالرحمة:

فُزْ يَا مُطْفَرِّمٍ مِمَّنْ شَجَاكَ بِأَكْرَمِ دُخْرِ وَأَزْكِي شَفِيعِ

¹المصدر نفسه، ص: 348.

تُصَافِحُهُ عِنْدَ بَابِ الْجِنَانِ
وَفِي ذِمَّةِ اللَّهِ أَضَلُّ كَرِيمٌ
وَتَعْلُو بِهِ فِي السَّمَحَلِّ الرَّفِيعِ
يُسْكِرُنُ مِنْ فَقْدِ بَعْضِ الْفُرُوعِ
وَصَفْوِ حَيَاةٍ تَقِي بِالْجَمِيعِ¹

ويواسي المخاطب في هذه الأبيات بتذكيره أن الفقيه سيشفع له يوم القيامة، وينتظره بباب الجنة حتى يدخلها معها، وما عليه إلا التحلي بالصبر، فبتذكره يهيج الدمع، وينفطر القلب، ويلدغ الكبد الحزن والأسى، وتعلو المرارة الوجه، وتسيطر على النفس قتامة فتزهده في متاع الحياة، وهذا ما قاساه عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر بعد وفاة ابنه، فرثاه ابن دراج قائلاً:

عَمْرِي لَقَدْ أَعْدَرَ الدَّمْعُ الَّذِي وَكَفَا
وَمَا عَنَاءُ دُمُوعِ الْعَيْنِ عَنْ كَيْدِ
أَوْ اشْتَفَى مِنْ تَبَارِيحِ الْأَسَى وَشَتَى
حَزَى وَنَضْوِ يَقَاسِي اللَّيْلِ مُلْتَهَمَا
يَا ابْنَ الدِّينِ لِأَيْدِيهِمْ وَأُمُورِهِمْ
أَلْقَى الزَّمَانَ قِيَادَ الدَّلِّ مُعْتَرِفَا
بِبَاسِيهِمْ قَامَ دِينُ اللَّهِ مَنْتَصِرَا
مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْأَعْدَاءِ مُنْتَصِرَا
أَعَزُّ عَلَى الدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَأَهْلِهَا
خَطَبٌ سَمَا فَارْتَقَى مِنْ عَزْمِكَ شَرَفَا²

وبعدما فرغ الشاعر من التفجع والندب على فقد الابن، والتأكيد على عظم المصيبة، وإبراز معاناة الوالد ليلاً، ومدى حزنه عليه، راح يمدحه، ويثني على نسبه وعظيم صنائعه.

ومن الروائع الأدبية في الرثاء رثائية ابن الشهيد للقاضي ابن ذكوان، سار فيها على نهج القدامى في استهلالها بالتفجع والتعبير عن هول المصيبة، وشدة المعاناة، تمتزج فيها روعة التعبير مع صدق المشاعر فيقول:

¹ ديوان ابن دراج القسطلي، ص: 669.

² ديوان ابن دراج القسطلي، ص: 452..

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

إذا لم تجد إلا الأسي لك صاحباً
هوت بأبي العباس شمس من التقى
فلا تمنعن الدمع ينهل ساكب
وأمسى شهاب الحق في الغرب غارياً¹

لم يجد الشاعر إلا الحزن رفيقا بعد وفاة رفيقه القاضي الجليل ابن ذكوان، ويعزي نفسه بالتخاذ البكاء وسيلة للتخفيف عن مأساته، مشبها تقوى الرجل وورعه وحرصه على الحق بالشهاب والشمس، بوفاته غابت شمس التقوى وأفل نجم الحق، ولازال الشاعر غير مصدق للخبر منكر له، لصعوبة تقبله، فيقول:

ظننا الذي نادى مُحِقًّا بِمَوْتِهِ
وخلنا الصّباح الطلق ليلاً وإنّما
شكّلنا الدنا لما استقلّ وإنّما
وما ذهبَتْ إذ حصّل القبرُ نفسه
ولما أبسى إلا التّحمّل رائحاً
يسيرُ به النّفسُ الأعزّ وحوله
لعظم الذي أنحى من الرزء كاذباً
حبطنا خدارياً من الحزن كارياً
فقدناك يا خير البرية ناعباً
ولكنّا الإسلام أذبـرَ ذاهباً
منخناه أغساق الكرام زكائياً
أباعد راحوا للمصاب أقرارياً²

ولما أفل نجم العلم صيرّ النهار ليلاً، وأدجت ظلمة الجهل، ومن باب المبالغة والتفخيم يجعل الشاعر وفاته نهاية مسلسل الإسلام بالأندلس، فرجل بهذه المكانة الجليلة منقطع التّظير، صعب أن يخلف مقامه عالم آخر، ولازال الشاعر يُعلي من شأنه مصوراً مشهد تشييع جنازته التي حضرها القريب والبعيد، ساعة حمل أشرف المجتمع نعشه على أكتافهم، وهو يرسم لوحة فنية متعددة المشاهد، تتلون أمام ناظري المتلقي وكأنه حضر الجنازة ونخبر ويلات الفاجعة :

عليه خفيف للملائك أقبـلـت
نخلُ لنيفّ الناس حـولَ ضريحه
نصافح شيخاً ذاكر الله تائباً
خليطاً قطاً وافي الشريعة هارباً

¹ ديوان ابن الشهيد، ص: 50.

² المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

إذا ما امتَرُوا سُحْبَ الدَّمْعِ تَفَرَّعَتْ
فَنَ دَا لِفَضْلِ الْقَوْلِ يَنْسَطِعُ نُورُهُ
وَمَنْ ذَا رَيْعِ الْمُسْلِمِينَ يَفُوتُهُمْ
فُرُوعُ الْبُكَاءِ عَنْ بَارِقِ الْحُزْنِ لَاهِبًا
إِذَا نَحْنُ نَاوَأْنَا الْأَلْدَ الْمَنَاوِيَا
إِذَا النَّاسُ شَامُوهَا بَرْوَقًا كَوَاذِبًا¹

فعالم بهذه المكانة ورجل دين ورع حق للبشرية جمعاء أن تنعاه وليس الشاعر فقط، فقد انهار ركن من أركانهم وعلم من أعلامهم، ولاخير في أمة أهملت علماءها، ولأن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم، تحيلهم الشاعر ملتفين حول القبر يتسابقون لمصافحته-الميت-وتقبيله ليسبع عليه شيئاً من القدسية، وكما صور كذلك ضجة الناس حوله متزاحمين، تتهاطل دموعهم أمطاراً فجرها الحزن، لينتقل بعدها إلى تعداد مناقب الرجل، ودوره في المجتمع وفضائله، وعن عدله ونصرتة للحق والقول الفصل، وما لبث أن عاد الشاعر لينوح على فقده:

فِيَا لَهْفَ قَلْبِي آه ذَابَتْ حُشَاشَتِي
وَمَاتَ الَّذِي غَابَ السُّرُورُ لِمَوْتِهِ
وَكَانَ عَظِيمًا يُطْرِقُ الْجَمْعُ عِنْدَهُ
وَإِذَا مَقُولِ عَضْبِ الْغَرَارَيْنِ صَارِمِ
أَبَا حَاتِمِ صَبْرِ الْأَدِيبِ فَإِنِّي
وَمَا زِلْتُ فِينَا تَرْهَبُ الدَّهْرَ سَطْوَةً
سَأَسْتَعْتِبُ الْأَيَّامَ فِيكَ لَعَلَّهَا
لِيْنُ أَفَلَتْ شَمْسُ الْمَكَارِمِ عَنْكُمْ
مَضَى شَيْخُنَا الدَّفَاعُ عَنَّا النَّوَابِيَا
فَلَيْسَ وَإِنْ طَالَ السُّرَى مِنْهُ آيِيَا
وَيَعْنُو لَهُ رَبُّ الْكَيْسِبَةِ هَائِبِيَا
يُرْوَحُ بِهِ عَنِ حَوْمَةِ الدِّينِ ضَارِبِيَا
رَأَيْتُ جَمِيلَ الصَّبْرِ أَحْلَى عَوَاقِبِيَا
وَصَعْبًا بِهِ نَعِي الْحُطُوبِ الْمَصَاعِبِيَا
لِصِحَّةِ ذَاكَ الْجِسْمِ تَطْلُبُ طَالِبِيَا
لَقَدْ أَسَارَتْ بَدْرًا لَهَا وَكَوَاكِبِيَا²

أشاد الشاعر بخصال الميت للتأكيد على أن موته خسارة للدين والعلم، واستغل الفرصة للشناء على أخيه حاتم طالباً منه الصبر الجميل عسى الله أن يعوضه خيراً، ولئن أفلتت شمس العلم تركت خلفها ذرية تكون خير خلفٍ لخير سلفٍ، وابن شهيد في هذه

¹ديوان ابن الشهيد، ص:50.

²الديوان، ابن الشهيد، ص:50-51.

الرثائية تجاوز محدودية الفكر، وضآلة الرؤية إلى أفق رحب، يصل حدّ المبالغة، فبرثائه للميت رثى معه القيم والفضائل التي زالت بزواله، وهو بذلك يعكس براعته في التصوير وإجادته للأسلوب المنمّق.

وبرعت الشاعرة الأندلسية في هذا الغرض، واتّسم شعرها بحقيقة التجربة وصدق العاطفة وحسن النية، وذلك لأن المرأة أدق حسّاً وأرق شعوراً، وأشد من الرجل حزناً ولوعة¹، فتستثار عاطفتها أمام صدمة الموت، وهذه حسانة التميمية ترثي زوجها قائلة :

| | |
|--------------------------------|--------------------------------------|
| إني وإن عرضت أشياء تضحكني | لموج القلب مطوي على الحزن |
| إذا دجا الليل أحيالي تذكّرة | وزادني الصبح أشجاناً على شجني |
| كيف ترقد عين صار مؤنسها | بين التراب وبين القبر والكفن |
| أبلي الثرى وتراب الأرض جدته | كأن صورته الحسناء لم تكن |
| أبكي عليه حيناً حين أذكّره | حين والهة حنت إلى وطن |
| بكي على من حنت ظهري مصيبتته | وطيرّ النوم عن عيني وأرقني |
| والله لا أنس حيي الدهر ما سجعت | حمامة أو بكى طير على فن ² |

وتملأ جوف الشاعرة الحسرة والحزن، فوفاة خليلها تسببت بأرقها كل ليلة، وحزّ في نفسها ذهاب بهائه وجمال صورته، تبكيه وتحنّ إليه حين الغريب إلى وطنه، فتقسم على الوفاء له وتذكّره أبد الدهر، ويظهر صدق التجربة الشعورية لدى الشاعرة فهي تفقد عزيزاً لن يعود.

فقصيدة الرثاء تميزت بالوحدة الموضوعية تكاد تنعدم فيها الأغراض الشعريّة الأخرى، وتراوحت بين القصائد الطوال والمقطوعات الشعريّة، وفضل الشعراء البحر

¹ شعر المرأة الأندلسية من الفتح إلى نهاية عهد الموحدين 92 - 635 هـ، جمع، دراسة، تحقيق، واقدة يوسف كريم، ص: 27.

² شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بشير يموت، ج 1، ص: 207.

الطويل لأنه يتناسب مع حالة الحزن والتأمل والصبر، وآثر آخرون البحور الخفيفة، ويعود السبب في ذلك إلى درجة حزن الشاعر، فثمة حزن هادئ وآخر ثائر، وبالتالي تتنوع درجات الهدوء والثورة¹، وغرض الرثاء باق لا يفنى مادام الإنسان كائن اجتماعي، يعيش في خضم الحياة، ويعاني متاعبها، ويفجع بمصائبها، ومادام هناك موت وفناء يعقبان الحياة، ويصدمان الموجودات.²

فالبكاء لا يُغني ولا العويل على فقد الميت ولا يعيد عزيزاً رحل، لكنّه يخفف لوعة الشوق ووطأة السهر، وينفّس كرباً ويواسي قلباً موجوعاً، وفؤاداً فارغاً وكبداً يتحرق، إلى أن ينزل الله سكينته ورحمته بالإنسان المبتلى.

8- الفخر:

يعدّ الفخرُ من الأغراض الشعرية القديمة، يُنطوي على الزهو والاعتزاز بالنفس والقبيلة، والتغني بالأجداد، ويكون عادةً بادعاءً أشياء ليست في مُتناول الجميع³، ومنهم من يعتبره نوعاً من المدح، لأنّ المُفتخِرَ يمدح نفسه أو قومه⁴.

وظل الشعراء يتغنّون به طوال العصور الإسلامية مجسّدين فيه أخلاقهم المثالية من وفاء و مروءة وعزة وكرامة وغير ذلك من الشيم الرفيعة، كما يتغنّون بعصبياتهم القبلية والقومية وبأسهم، وشجاعتهم واقتحامهم المعارك دون خوف، وسحقهم الأعداء⁵.

وعرف شعراء الأندلس هذا الغرض -خاصة الأمراء منهم- وكثيراً ما افتخروا بشجاعتهم وقهرهم الأعداء، وأشادوا بما حقّقه من انتصارات وفتوحات في سبيل رفع

¹التفسير النفسي للأدب، عز الدين اسماعيل، مكتبة غريب، القاهرة، ط4، ص:73.

²الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، محمد مجيد السعيد، ص294

³في تاريخ الشعر الجاهلي، علي الجندي، ص:364.

⁴العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن الرشيقي، ج2، ص:143.

⁵تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، ج8، ص:210.

راية الإسلام، فحاضوا المعارك وتحملوا مسؤولية الدفاع عن الزمار، وأولهم الأمير عبد الرحمن الداخل الذي خلّد أعماله الجليلة في مقطوعة شعرية يذكر فيها حنكته في الحكم، وحسن تدبيره للأمور، وعُلو همته، ونبل غايته، فكتب إلى بعض من وفد عليه من قومه لما سأله الزيادة في رزقه واستقل ما قابله به وذكره بحقه، وهو أصدق من غيره فيه لأنه فخر بشيء أبدع فيه يقول:

| | |
|------------------------------------|---|
| شَتَّانَ مَنْ قَامَ ذَا امْتِعَاضٍ | فَشَالَ مَا قَلَّ وَاضْمَحَلًّا |
| وَمَنْ عَدَا مُضِلَّتَا لِعَزْمٍ | مُجَرِّدًا لِلْعُدَاةِ نَضْلًا |
| فَجَابَ قَفْرًا وَشَقَّ بَحْرًا | وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنَامِ كَلًّا |
| فَشَادَ مُلْكًا وَشَادَ عِزًّا | وَمِنْبَرًا لِلخِطَابِ فَضْلًا |
| وَجَنَّدَ الْجُنْدَ حِينَ أُوْدَى | وَمَصَّرَ الْمَصْرَ حِينَ أَجْلَى |
| ثُمَّ دَعَا أَهْلَهُ جَمِيعًا | حَيْثُ انْتَأَوْا أَنْ هَلُمَّ أَهْلًا ¹ |

فالأمير عبدالرحمن يعقد مقارنة بينه وبين خصمه، ليذكره بمناقبه وكيف جاب البحر والبر وحشد الجيوش، ووحّد الصفوف، وعمّر البلاد ورحب بالأصحاب، وأين هو من كل هذا؟.

وظلّ الأمير محافظاً على روح الشعر العربي القديم في فخره بنفسه، فاستعان بالألفاظ الرّاقية ليعبر بها عن ولعه بالانتصار، وشغفه بالجهاد في سبيل الله، حين بلغه أحدهم بوجود غرانيق بجوار المعسكر، إن كان يريد صيدها:

| | |
|--------------------------|--------------------------|
| دعني وصيد وقع الغرانيق | فإن همي في اصطياد المارق |
| في نفق إن كان أو في حالق | إذا التظت لواخ الضوائق |
| كان لفاعي ظل بند خافق | غنيت عن روض وقصر شاهق |

¹نفح الطيب، المقرئ، ج3، ص: 43-44.

بالقفر والإيطان بالسرادق

فقل لمن نام على التّـمارق

إنّ العلا شدت بهم طارق

فأركب إليـها ثبج المضائق¹

وتعكس الأبيات جرأة الشاعر وحرصه على اغتيال الأعداء، وتضحيته في سبيل الحق، فقد آثر لذات الملوك من الفراش الناعم ووسائل الحرير وكثرة خدم وحشم، وجلسة أنس وطرب، ليسكن الجبال والكهوف بحثاً عن العجم ليلحق بهم شرّ هزيمة، ويقدم نصيحة في كيفية تحقيق المعالي، وتكون باقتحام المخاطر .

ويلجأ الأمراء إلى الافتخار بأنفسهم، وبلائهم في الحروب وفتحهم الحصون، لإحساسهم بالعظمة والتفوق على من ينافسهم، ولردّ على خصومهم، وبثّ الرعب في نفوسهم، كالحكم الربضي الذي استطاع بحزمه وغلظته وبطشه، وسفكه الدماء أن يقضي قضاء مبرما على ثورة أهل الرّيض بقرطبة، مما جعله ينشد وكلّه تيةً وعريدة بعد تلك الواقعة:

وقدماً لأمت الشّعب مذ كنت يافعا
أبادرها منتضي السّيف دارعا
كأقاف منثور الهبيد لوامعا
بوانٍ وقدماً كنت بالسّيف قارعا
فوافوا مناباً قدّرت ومصارعا
مهاداً ولم أترك عـليها منازعا²

رأيت صدوع الأرض بالسّيف راقعاً
فسائل ثغوري هل بها اليوم ثغرة
وشافه على الأرض الفضاء جاجماً
تبيـك أنّي لم أكن في قراعهم
وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم
فهاك سلاحي إنّي قد تركتها

يتباهى الشاعر في هذه الأبيات بدفاعه عن ملكه وحمایته لسلطانه، وتحقيق الأمن لثغوره، وتنكيله بأعدائه، وهو أمر تعوّده منذ صغره، ويقدم الدليل على ذلك مرئياً تتمثل في

¹الحلّة السیراء، ابن الأبار، ج1، ص:41.

²الوابي بالوفيات، الصقدي، ج13، ص:74.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

الجماحم المتناثرة تلمع ليلاً، ويفتخر أيضاً بإخماده نار الفتنة وعدم تهاونه في حماية ذماره دون خوف أو هواده، ونشر السلم والأمان به، وخلو أرضه من النزاعات.

ويفخر المنصور بن أبي عامر بقوته، ورباطة جأشه في القتال، وكأنه حقق النصر وحده، متخذاً سلاحه أعزّ صديق وأنيس له في الرزايا، فيقول:

| | |
|---|---|
| رَمَيْتُ بِنَفْسِي هَوْلَ كُلِّ كَرِيهَةٍ | وَحَاطَرْتُ وَالْحُرَّ الْكَرِيمُ مُخَاطِرُ |
| وَمَا صَاحِبِي إِلَّا جَنَانٌ مُسْتَعِيجٌ | وَأَسْمُرُ خَطِيئِي وَأَبْيَضُ بَاتِرُ |
| وَإِنِّي لَرَجَاءُ الْجِيوشِ إِلَى الْوَعَى | أَسْوَدٌ تُسْلِقِيهَا أَسْوَدٌ خَوَادِرُ |
| لَسُدَّتْ بِنَفْسِي أَهْلَ كُلِّ سِيَادَةٍ | وَكَاثَرْتُ حَتَّى لَمْ أَجِدْ مَنْ أَكَايِرُ |
| وَمَا شِدْتُ بُيَانًا وَلَا كُنْ زِيَادَةٍ | عَلَى مَا بَنَى عَبْدُ الْمَلِكِ وَعَامِرُ |
| رَفَعْنَا الْمَعَالِي بِالْعَوَالِي حَدِيثَةً | وَأَوْرَثْنَا فِي الْقَدِيمِ مَعَاوِرُ ¹ |

ويذكر الشاعر قوته وشجاعته في ساحة القتال لا يتراجع حتى يذيق أعداءه الموت فهو يخاطر بنفسه، لا لهوانها عليه بل لأنه حر كريم طالب للمعالي حتى تمت له السيادة بجد المنصل ولم ينازعه فيها احد ، وتقضيله القتال -رغم مافيه من مشاق -على الراحة.

ولم يقتصر الفخر على الأمراء فقط بل وجدنا قادة المعارك والجيوش يبدعون فيه، وهم يمتجدون صنائعهم وأبرزهم سعيد الجودي الذي نذر حياته في سبيل الجهاد وخوض المعارك ،جاعلا النصر مرامه:

| | |
|---------------------------------------|---|
| الْدِرْعُ قَدْ صَارَتْ شِعَارِي فَمَا | أَبْسَطُ حَاشَاهَا لِتَهْجَاعِ |
| وَالسَّيْفُ إِن قَصْرَهُ صَائِعٌ | طَوَّلَهُ يَوْمَ الْوَعَى بَاعِي |
| وَمَا كُنْتُ لِي بِمُسْتَقْصِرٍ | إِذَا دَعَانِي لِلْقَادِعِ |
| هَذَا الَّذِي أَسْعَى لَهُ جَاهِدًا | كُلُّ إِمْرِي فِي شَأْنِهِ سَاعِ ¹ |

¹البيان المغرب، ابن عذارى، ج2، ص:274.

إنَّ شدَّته وقوَّته جعلتانه يسمو بنفسه وكأنَّه يملك الكون، شأنه شأن أكثر المحاربين، فهو يستمتع بأدوات القتال ويفضِّلها عن كلِّ الملذَّات، لأنَّها كفلت له النَّصر وأعانته على تحقيق هدفه.

ويفخر الشاعر ابن هذيل بصبره ورزاقته في حالة الأناة وطيشه في حالة الغضب، فيقول:

رَوْحِي عَادِلِي فَقَلْتُ لَهُ مَه لَا تَزِدْنِي عَلَى الَّذِي أَجْدُ
أَمَا تَرَى النَّارَ وَهِيَ خَامِدَةٌ عِنْدَ هَبُوبِ الرِّيحِ تَتَقَدُّ²

ويعدُّ الشاعر ابن شهيد من أكثر الشعراء اعتدادا بنفسه، وفخرا بعلمه، وعزّة نفسه:

وَمَا أَلَانَ قَنَاتِي غَمْرُ حَادِثَةٍ وَلَا اسْتَحَفَّ بِجَلْمِي قَطُّ إِنْسَانُ
أَمْضِي عَلَى الْهَوْلِ قَدَمَا لَا يَنْهِنِي وَأَنْثِي لِسْفِيهِمِي وَهُوَ حَزَانُ
وَلَا أَقَارِضُ جُهْمَالًا بِجَهْلِهِمْ وَالْأَمْرُ أَمْرِي وَالْأَيَّامُ أَعْوَانُ
أَهْيَبُ بِالصَّبْرِ وَالشَّخْنَاءِ ثَائِرَةٍ وَأَكْظِمُ الْغَيْظَ وَالْأَخْقَادَ نِيرَانُ
وَمَا لِسَانِي عِنْدَ الْقَوْمِ ذُو مَلَقٍ وَلَا مَقَالِي إِذَا مَا قَلَّتْ إِذْهَانُ
وَلَا أَفْوَهُ بِغَيْرِ الْحَقِّ خَوْفَ أَخِي وَإِنْ تَأَخَّرَ عَنِي وَهُوَ غَضَبَانُ
وَلَا أَمِيلُ عَلَى خَلِي فَأَكَلَهُ إِذَا غَرِثَتْ وَبَغَضَ النَّاسِ ذُؤَابَانُ³

وينفي الشاعر عن نفسه قبيح الفضائل، ويتجنّب الرّد على حمق بحمق، ويتحلى بالصبر، ويكظم الغيظ، لا ينطق إلا حقّاً ولا يتملق، ويفضل موتاً جوعاً على أن يأكل حقّ غيره دون تبرم أو ضيق.

¹الحلة السيرة، ابن الأبار، ج1، ص:157.

²الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، ج8، ص:595.

³بغية الملتمس، الضبي، ص:192.

وعندما يشمت الحاقدون الذين في قلبهم مرض بالشاعر كلما حلت به رزية، يستعين بشعره للردّ عليهم، ومروان الطليق يخاطب عدوله وهو يحذّره من الشّماتة لما حلّ به، لأنها أيام تتداول بين الناس :

لا تُشِمِّتِ الحَسَادَ شِدَّةَ حَالَتِي فَأَيُّ جَوَادٍ لَا يَشُدُّ عَنَانَهُ
وَمَا أَصَقْتُ بِالْأَرْضِ خَدِي إِدَالَةً وَلَكِنِّي كَالرَّمْحِ سُنٌّ سَنَانُهُ¹

فكثيرا ما يدلّ أعزّة القوم نتيجة نوائب الدهر وتقلّباته، غير أنّ هذا لا ينفي حقيقة أنّه فارس شجاع يضاهي الجواد في جماعه، والرمح في حدّته.

وتبدو ثقة الشّاعر ابن عبد ربّه بنفسه زائدة وهو يعتزّ ببراعته في نظم الشعر :

هنا تَفَنَّى قَوافي الشِّعْرِ رِ فِي هَذَا الرُّوِي
قَوافي أَلْبَسْتُ حَلِيًّا مِنْ الحُسْنِ البَدِي
تَعَالَتْ عَنْ جَرِيرٍ بَلُّ زَهِيرٍ بَلِّ عَدِي²

وكان الشاعر يرد على من اتّهم الشعراء الأندلسيين بأنهم مقلّدون، إذ يحاول تفنيد عبارة "بضاعتنا ردّت إلينا" فيرى أنّ الشعر انتهى بنظمه له من شدّة حسنه، فاق فيه فحول شعراء العرب من جرير وزهير وغيرهما كثير، ولن يقدر أحد أن يناظر شاعريته، فهو يبالغ في فخره بشاعريته بغية الدّفاع عن نفسه، وقد أشار إلى ذلك في كتابه العقد الفريد.

ويؤيّد ابن حزم في الفكرة ذاتها، ويتباهى بمكانته العلمية مفاخر أهل المشرق:

سَمَوْتُ بِنَفْسِي لَا بِمَجْدِ هَوْتِ بِهِ مِنْ الزَّمَنِ العَدَاءِ آلَاةُ الحُدْبِ
عَلَى أَنِّي لَوْ شِئْتُ قُلْتُ مُصَدَّقًا وَأَفْبِحُ قَوْلٍ مَا أَلَمَّ بِهِ الكَذْبِ

¹، ابن الكتاني، ص: 277. كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس

² ديوان ابن عبد ربّه، ص: 311.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

فَإِنْ شِئْتَ فِي عِلْمِ الدِّيَانَةِ تَلَقِّنِي
وَأَمَّا أَقَانِينُ الْحَدِيثِ فَأِنِّنِي
وَقَيَّدتْ مِنْ فُتْيَا ذَوِي الْفِقْهِ ضَابِطاً
وَإِنْ تُذَكِّرِ الْأَشْعَارُ لَمْ يَكْ خَارِجاً
وَأَمَّا تُسَائِلُ بِاللُّغَاتِ وَنَحْوَهَا
وَإِنْ شِئْتَ أَخْبَارَ الدُّهُورِ فَأِنِّنِي
وَإِنْ تُذَكِّرِ الْأَنْسَابُ كُنْتُ نَقِيْبَهَا
نَقَاباً لَهُ لَمْ يَخْفَ عَنِّي لَهُ نَقَب
أَنَا بَحْرَهَا الطَّامِي وَيُنْبُوعُهَا السَّكْبُ
يَحْفِظُنِي مَا طَالَتْ بِهِ قَبْلَهَا الْحِقْبُ
أَمَامِي جَرِيرٌ فِي الرَّهَانِ وَلَا كَعْبُ
فَمَا غَابَ عَنِّي مِنْهُ سَهْلٌ وَلَا صَعْبُ
أَنَا جَامِعُ التَّارِيخِ مُذْ تَبَّتْ الْهَضْبُ
وَلَمْ يَخْفَ عَن ذِكْرَائِي حَيٌّ وَلَا شِعْبُ¹

حق للشاعر أن يفخر بنفسه، فقد أخذ من كل روض زهرة، ولم يترك مجالاً إلا وطرقه، فكان عالماً بالفقه وأحكامه، وصحيح الحديث من ضعيفه، ومؤدباً الفتيان، وشاعراً مجيداً فاق جهابذة العرب من جرير وكعب، عالماً باللغة وغريبها، جامعاً للتاريخ، متبعاً أخبار السابقين محققاً في نسبهم.

وبالرغم من طرقه لهذه العلوم كلها، إلا أن الدهر لم ينصفه، فيقول:

أَنَا الشَّمْسُ فِي جَوِّ الْعُلُومِ مُنِيرَةٌ
وَلَوْ أَنَّهُ مِنْ جَانِبِ الشَّرْقِ طَالَعٌ
وَلَكِنَّ عَيْبِي أَنَّ مَطْلَعِي الْغَرْبُ
لَجَدُّ عَلَى مَا ضَاعَ مِنْ ذِكْرِي النَّهْبُ²

فقد كان حقاً شمسا منيرة في العلوم، ولم يُعِبْهُ طُلُوعُ شَمْسِهِ مِنَ الْمَغْرِبِ، فَقَدْ أَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَشْرِقِ، وَلَا تَزَالُ تَضِيءُ مَا بَيْنَهُمَا إِلَى الْيَوْمِ.

وتشيد المرأة الأندلسية بحريتها في المجتمع الأندلسي الذي منحها كافة الصلاحيات لتحاكي رفيقها الرجل، فوجدناها خطاطة تتباهى بجودة خطها وسحر يديها، إذ تقول
صفية بنت عبد الله الربيعي، لإمرأة عابت خطها:

¹ ديوان ابن حزم الظاهري، تحقيق صبحي رشاد عبد الكريم، دار الصحابة للتراث، مصر، ط1، 1999، ص: 77.

² ديوان ابن حزم، ص: 77.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

وعائبة خطي فقلت لها اقصري
وناديت كفى كي تجود بخطها
فحطت بأبيات ثلاث نظمتها
فسوف أريك الدر في نظم اسطري
وقربت اقلامي ورقي ومحبري
ليبدو لها خطي وقلت لها انظري¹

فخطها يضاهي الجوهر في نفاسته، وتمنحها الدليل على ذلك ماخطته أمامها معدة العدة لذلك من ورق ذو جودة عالية وقلم مبري ومحبرة .

ولم يقتصر الشعر على حرائر الأندلس بل سطع نجم الجواري منهن، كقمر البغدادية التي سمع الوالي الأندلسي إبراهيم بن حجاج اللخمي (238 هـ - 298 هـ) بمهارتها وثقافتها، فوجّه بأموال عظيمة إلى المشرق في ابتياعها إلى أن استقرت بدار مملكته إشبيلية، وكانت كالبدر المنير ذات بيان وفصاحة ومعرفة بالألحان والغناء، ومن قولها ترد على من عاتبها:

قالوا أتت "قَمَرٌ" في زِيِّ أَطْمَارِ
تُسي على وَحَلٍ تغدو على سُبُلِ
لا حُرَّةٌ هِيَ من أحرار مَوْضِعِهَا
لو يعقلون لَمَا عَابُوا غَرِيبتَهُمْ
ما لابن آدمَ فخرٌ غيرَ هُمُوتِهِ
من بَعْدِما هَتَكَتْ قَلْباً بِأشْفَارِ
تَشُقُّ أمصارَ أرضٍ بعدَ أمصارِ
وَلَا لَهَا غَيْرُ ترسيلِ وأشعارِ
لله من أمةٍ تُزري بأحرارِ!
بَعْدَ الدِّيَانَةِ والإِخْلَاصِ للباري²

وتردّ الشاعرة على من انتقدها بأنها مجرد جارية، أن المرء يقاس بفعاله لا بحسبه ونسبه، وحقّ لها أن تفخر بديانيتها وهمتها وإخلاصها لله تعالى .

* صافية بنت عبد الله الربي. شاعرة شابة رقيقة لم تعش طويلا ودعت الحياة وهي ما تزال في ربيع شبابها وحيوتها ونضارتها وذكرأها

¹ اتصفت بحسن الخط واشتهرت في نقل المخطوطات(ينظر جذوة المقتبس، ابن حيان، ص:388)

² المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، عبد الله بن عفيفي الباجوري، مكتبة الثقافة، المملكة العربية السعودية، ط1932، ج2، ج3،

ويقل العثور على شعر الفخر في الشعر الأندلسي في هذه الفترة، إلا ما كان في قصائد الأمراء والخلفاء، أو فخر الشعراء بشعره، أو بصره على نواب الأيام، ويعود السبب في ذلك إلى طباع الشعراء الذين اتسموا بالتواضع، والبعد عن التكبر، وربما يرجع لضياع الأشعار التي قيلت في هذا الغرض .

9-الحكمة :

أي أمة من الأمم زالت أم لم تزل قائمة إلى اليوم، إلا وفيها حكماء خلّد التاريخ أقوالهم في قصائد شعرية، حُفرت في الذاكرة وتوارثها الناس جيلاً بعد جيل، وهذه الحكم وليدة حوادث الدهر وتجاربه، تصدر عن أصحاب العقول الراجحة، تفجرت قريحتهم الشعرية نظماً يُجسّد فلسفتهم في الحياة، ويدعم المثل العليا ويحث على التمسك بها والعمل بمضمونها، والتّحلي بالأخلاق الفاضلة، وقد برع الأندلسيون في هذا الفنّ، وزادوا فيه من محاسن الشعر بما وصلوا إليه من سُمُوّ الخيال وقوة التصوير وبراعة الابتكار، فهو يعكس مزاجهم الفكري، ونظرتهم إلى الحياة.

وعرف أمراء بني أمية وخلفاؤها الحكمة، وأبدعوا فيها، لأن أغلبهم كانوا على درجة كبيرة من العلم والورع والتّقوى، فهاهو عبدالرحمن الداخل يرد على من منّ عليه بالملك قائلاً:

| | |
|--|------------------------------|
| نجم يطالعنا ونجم آفلُ | إنّ الملوك مع الزّمان كواكبُ |
| أيروم تدبير البرية غافلُ؟! | والحزم كل الحزم ألا يففلوا |
| خير السعادة ما حياها العاقل ¹ | ويقول قوم سعده لاعتقله |

¹الوابي بالوفيات، الصفدي، ج18، ص:168.

سنة الله في الكون اقتضت زوال الموجودات، فالشاعر يشبه صورة الملوك وتوالي حكمهم وعدم استقراره، بصورة توالي النجوم وظهور نجم وأفول آخر، فلا بقاء لملك ولا استقرار لكوكب، ولكن ليس من السهل أن تكون ملكاً، وتسوس الرعيّة إلا إذا كنت فطناً.

كما توصل الأمير عبد الرحمن الأوسط من خلال تجربته في الحكم إلى حكمة مفادها:

أرى المرء بعد العزل يرجع عقله
فتكفيه جهّم الوجه ما كان والياً
وقد كان في سلطانه ليس يعقل
ويسهل منه ذاك ساعة يُعزل¹

فالمرء كلما أكرمه الله ونعمه، ومنّ عليه بمنصب يلهث خلف متاع الدنيا وشهوات نفسه، مكثراً التفكير بها عابساً لعدم اقتناعه بما عنده، أما إذا ابتلاه وقدر عليه رزقه، كأن يعزل من منصبه، يتقرب إلى الله ويعود له عقله ويتعد عن هموم ومطامع الملك التي طمست على فكره وعقله، ويكون لئّن الجانب سمحاً سهل الأخلاق، كأنّ الشاعر يريد تأكيد حقيقة أن المال فتنة ووسيلة للطغيان والتّجبر.

ولأن الخليفة عبدالرحمن الناصر تحلّى برجاحة العقل وحسن الرأي تفضن إلى أن الملك زائل لكن المواقف ثابتة وخالدة :

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها
أو ما ترى الهرمين كم بقيا
لئن البناء إذا تعاضم قدره
من بعدهم فيألسن البنيان
وكم ملوك محاه حوادث الأمان
أضحى يدلّ على عظيم الشأن²

¹الأدب العربي في الاندلس، عبدالعزيز عتيق، ص: 66.

²نفح الطيب، المقرئ، ج 1، ص: 521.

فالمخلائق كلّها مصيرها الفناء، لكنّ المرء يخلد بأعماله، وتلك المنجزات المادية التي تركها الخليفة خلفه خلّدت اسمه، ولازلنا نتباهى بصنيعه ليومنا هذا، فالهمم والفضائل لا ترى بعد وفاة صاحبها لكن المدينة تشهد له بذلك.

وقد تكون الحكمة نتيجة تجربة شخصية عاشها أحد الشعراء، كما هو الشأن مع المصحفي، عندما تقلّب به الزمن وسجن بعدما كان حاجباً للخليفة:

| | |
|---------------------------|------------------------------------|
| لا تأمن من الزمان تقلباً | إن الزمان بأهله يتقلبُ |
| ولقد أراني والليوث تهابني | وأخافي من بعد ذاك الثعلبُ |
| حسبُ الكريم مهانة ومذلة | الأيزال إلى لئيم يطلب ¹ |

توصّل الشاعر إلى حقيقة البشر القائمة على الخيانة والغدر، وأن مواقفهم-البشر- غير ثابتة، فمن كان يُبدي لك الولاء والطّاعة اليوم، يمكن أن يصبح سيّدك غداً، ويتعجب من الحالة التي آل إليها، فبعد أن كانت الليوث تهابه جعلته الدّنيا يهاب الثّعالب، ومما حزّ في نفسه أن مصيره معلق بين يدي هذا الثعلب، هذه هي حقيقة الحياة يوم لك ويوم عليك.

وقد يكون شعر الحكمة نتاج مرحلة عمرية للشاعر بعد سلسلة من التجارب في الحياة تتراوح بين فشل وخيبات أمل حيناً، وانتصار ونجاح حيناً آخر، ونجد ابن عبد ربه الذي تخرج من مدرسة الحياة بباعٍ كبير يقول:

| | |
|-------------------------------|---------------------------------------|
| ألا إنّما الدّنيا نضارة أيكّة | إذا اخضرتّ منها جانب جفّ جانب |
| هي الدّار ما الآمال إلا فجائع | عليها، ولا اللّذات إلا مصائب |
| فكم سخنت بالأمس عين فريرة | وقرت عيونٌ دمعها اليوم ساكبُ |
| فلا تكتحل عيناك فيها بعبرة | على ذاهبٍ منها فإنك ذاهب ¹ |

¹الحلة السيرة، ابن الأبار، ص: 267

ويرسم الشاعر في هذه الأبيات صورة لحقيقة الحياة وتعلق الإنسان بها وانغماسه في ملذاتها، فهي فانية وغير مستقرة، مثل الشجرة الكثيفة جزء أخضر وجزء آخر مصفر، فالإنسان بالرغم من اقباله على الدنيا وفرح نفسه بها إلا أنه يذنب ثم يؤوب ويستغفر، فلا أحد ينكر أنها متقلبة تُفرح من كان باكياً، وتُبكي من كان فرحاً، فلاحاجة لأن يغرّ بطيب العيش إنسانٌ فلن يخلد فيها أحد .

كما ينصح الشاعر بضرورة اختيار الصديق المناسب، فسوء الاختيار سيكلفك الثمن باهضاً:

دَعْ وَدَّ مَنْ لَا يَزْعَوِي إِذَا غَضِبَ وَمَنْ إِذَا عَاتَبْتَهُ يَوْمًا عَتَبَ
إِنَّكَ لَا تَجْنِي مِنَ الشُّوكِ الْعَتَبُ²

فالإنسان السفيه الذي يفجر عند الغضب إنسان غير مسؤول ولا يتحمل خطأه، وستصيبك منه خيبة أمل، وهو بذلك يشبه صورة انزعاجك من حدة الشوك الذي يزيدك جرحاً وإيلاماً واستحالة أن يعطيك ثمراً.

ولما بلغ الشاعر من الكبر عتياً فهم الحياة والكون، وتفظن إلى أن الشباب فتنة:

وَلَى الشَّبَابِ وَكُنْتَ تَسْكُنُ ظِلَّهُ فَانظُرْ لِنَفْسِكَ أَيَّ ظِلٍّ تَسْكُنُ
وَنَهَى الْمَشِيبُ عَنِ الصِّبَا لَوْ أَنَّهُ يُدْلِي بِجُجَّتِهِ إِلَى مَنْ يَلْقَى³

فأجل مرحلة عمرية للإنسان الشباب فهو بمثابة شجرة تحتمي بها من وهج نوائب الدهر، لكن اذا أدركك المشيب أي ظل سيقك حرارة صروف الحياة، وهذه الحكمة فيها

¹ديوان ابن عبد ربه، ص: 21-22.

²المصدر نفسه، ص: 29.

³ديوان ابن عبد ربه، ص: 170.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

دعوة إلى إعمال العقل والتعلم من دروس الحياة قبل فوات الأوان، كما تفتن الشاعر أيضا لاستحالة وجود دواء لعلّة الهوى وعذابه، فهو أبدي ودائم:

مَنْ ذَا يُدَاوِي الْقَلْبَ مِنْ دَاءِ الْهَوَى إِذْ لَا دَوَاءَ لِلْهَوَى مَوْجُودٌ¹

وإذا اندمجت فلسفة الشاعر وتحكيمة للمنطق ومخاطبته للعقل مع رهافة حسه، ولدت قانوناً من قوانين الوجود في أبهى حلّة، ومثال على ذلك مانظمه الشاعر ابن هانئ معبراً عن الحياة:

فكأنما يومٌ ليومٍ طارِدٌ وكأنما دهرٌ لدهرٍ آكلٍ
أعلى الشّبَابِ أم الخليلِ تَلُدُّني هذا يفارقني وذاك يُزِيلُ
في كلِّ يومٍ أُستزِيدُ تجارِباً كم عالمٍ بالشيءِ وهو يُسَائِلُ²

فاليوم يطارد اليوم وكأنه ينهش نهشاً، والزمن في مضيه وتسارعه أشبه بالحيوانات المفترسة يأكل بعضها بعضاً، والحياة مدرسة كل يوم فيها يلقّنك درسا جديداً، يجعلك تحس وكأنك لم تتعلم شيئاً ولو بلغت أرقى الرتب والمناصب.

وقد تكون الحكم مجموعة نصائح تُعلم الإنسان أنه إذا أراد السمو بنفسه عن الدنيا، عليه بالعلم، مثلما وجدنا الجزيري يقول:

اعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ أَرْفَعُ رَتَبَةً وَأَجَلٌ مُكْتَسَبٌ وَأَسْنَى مَفْخَرٍ
فَاسْأَلْكَ سَبِيلَ الْمُفْتَنِينَ لَهُ تَسُدُّ إِنَّ السِّيَادَةَ تُفْتَنِي بِالْذَفْرِ
وَالْعَالِمِ الْمَدْعُوِّ حَبْرًا إِنَّمَا سَمَاءَهُ بِاسْمِ الْحَبْرِ حَمْلُ الْمِحْبَرِ
وَبِضْمِرِ الْأَقْلَامِ يَتَلَعُّ أَهْلَهَا مَا لَيْسَ يُتَلَعُّ بِالْحِيَادِ الضَّمْرُ¹

¹المصدر نفسه، ص: 60

²ديوان ابن هانئ، ص: 292.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

فالعلم يرفع قدر الإنسان ويجعله مفخرة، ويخلد اسمه حتى بعد مماته، ويوصله إلى السؤدد، فهو أساس بناء الحضارات والأمم، كما أن العقل سرّ شقاء الإنسان وكثيراً ما تجد الجاهل في الشقاوة ينعم:

أو ما رأيت غبيّ قومٍ موسراً
وليبهم يشقى بحال المعسر
ليس الحريص بزائد في حرصه
بأتم حيلته هشيمة إذخر²

وكان الشاعر سعيد بن الجودي فارساً مغواراً، وسياسياً مقنعاً، وأديباً حكيماً تجلت حكمته في صبره على الشدائد، ليقينه أن كثيراً من الشر خيرٌ :

خَلِيْلِي صَبْرًا رَاحَةً الحَرِّ فِي الصَّبْرِ
وَلَا شَيْءٍ مِثْلَ الصَّبْرِ فِي الكَرْبِ لِلحَرِّ
فَلَا تَيَاسًا مِنْ فَرَحَةٍ بَعْدَ تَرَحَةٍ
وَأَنْ تَبَايَا بِالْيُسْرِ مِنْ بَعْدِ مَا عُسِرِ
فَكَمْ مِنْ أَسِيرٍ كَانِ فِي القَيْدِ موْتِقًا
فَأَطْلَقَهُ الرُّحْمَانُ مِنْ حَلْقِ الأَسْرِ³

والأبيات نموذج من الحكم الدينية تعكس قوّة إيمان الشاعر الذي يدعو المخاطب إلى الصبر على البلاء فهو في امتحان ولا بدّ له أن ينجح، وسيعوّضه الله فرحاً ويجبر كسره من حيث لا يحتسب.

وأهم من مثل غرض الحكمة يحيي الغزال المعروف بشاعريته الفدّة وحكمته، وطول خبرته في الحياة خاصة وأنّه عمّر مايقارب القرن ومن بديع ما حُفظ له، حديثه عن المشيب وفضله:

¹ جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، السعودية، ط1، 1994، ج2، ص:227.

² يتيمة الدهر، النعالي، ج2، ص:118.

³ الحلة السيرة، ابن الأبار، ج1، ص159.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

ما الشيبُ عندي والخضابُ لوصف
تخفى قليلاً ثم يقشعها الصبا
لا تذكيري وضح المشيبِ فأنما
إلا كشمسٍ جُلَّت بِضبابٍ
فَيَصِيرُ ما سَتَرَتْ بِهِ لِذَهَابِ
هُوَ زَهْرَةُ الأَفْهَامِ وَالْأَلْبَابِ¹

ولا يتحرّج الشاعر من شبيهه بل على العكس يعتبره دلالة الهيبة والوقار، وإنما حاله حال الضباب حول الشمس إلا وسيأتي حينٌ وينقشع ليضيء نور جماله على الآخرين. وتظهر نظرتَه للمجتمع من حوله نظرة تشاؤمية، فالنفس تأبى أن تطيع صاحبها وتتمرد في أغلب الأحيان، فلا وجود لإنسان خال من العيوب:

إذا أخبرت عن رجل بريء
فسلهم عنه هل هو آدي
ولكن بعضنا أهل استتار
ومن إنعام خالقنا علينا
فلو فاحت لأصبحنا هروبا
من الآفات ظاهرة صحيح
فإن قالوا نعم، فالقول ريح
وعند الله أجمعنا جريح
بأن ذنوبنا ليست تفوح
فرادى بالفلا ما نستريح²

فهو ينكر حقيقة أن يخلو الإنسان من العيوب فمن المستحيل ذلك، غير أنّ بعضنا يغض الطرف عنها مع أنها ظاهرة، ولولا فضل الله علينا لكانت العيوب للمرء فاضحة، فلو فاحت لضاقت البلاد برائحة الذنوب والخطايا، وبالأخص أهل الرياء والنفاق ممن يدعون صلاح الحال .

وتلتقي فلسفته الشكّية الجانحة إلى التشاؤم وسوء الظن، مع روحه الساخرة، لينقد المجتمع من حوله، فتجربته الطويلة في الحياة جعلته يقول:

لا وَمَنْ أَعْمَلَ الْمَطَايَا إِلَيْهِ
كُلُّ مَنْ يَرْتَجِي إِلَيْهِ نَصِيْبًا

¹ المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية، ص: 146

² ديوان يحيى الغزال، ص: 46-47.

ما أرى ههنا من الناس إلا
أو شبيهاً بالقطّ ألقى بعيني
ثعلباً يطلبُ الدجاجَ وذيباً
هِ إلى فأزة يُريدُ الوثوباً¹

ويشبهه الشاعر الناس بالذئب تارة والقطط تارة أخرى فمنهم الطامع ومنهم الطامح، وأوجه الشبه بينهم تمثلت في المكر والخداع وعدم الوفاء والتّصنّع، وهذه الرؤية كانت نتيجة احتكاكه بالناس من حوله ورؤيتهم يأكلون بعضهم بعضاً .

وقد كانت الجوارى في هذه الفترة على قدر كبير من العلم والشّعر والغناء والخطّ والحكمة، وهي من أكثر السجاياء التي ترفع من أقدارهن، لدى أسيادهن كقمر البغدادية التي نطقت حكمة أجمت بها أفواه الحرائر من النساء:

لو يعقلون لما عابوا غريبتهم لله من أمة تُزري بأحرار!
ما لابن آدم فخرٌ غير همتِه بعد الديانة والإخلاص للباري!²

فهي تتساءل عن سر حسدهنّ لها وغيبتهن، فكونهن حرائر لا يعطينهن الحقّ للتقليل من شأنها، فميزان التّفصيل عند الله سبحانه وتعالى الأخلاق والورع والتقى لا الحسب والنسب.

وقد عبّرت هذه الحكم عن تجارب الشعراء في الحياة، توصلوا إليها بعد معاناة طويلة مع الدّهر ونوائبه، غير أنّ أغلبها أتت في طيّات القصائد الشعرية ممزوجاً بالأغراض الأخرى، أو نُظمت في مقطوعات شعرية قصيرة، وندر إيجاد قصيدة طويلة أفردت لهذا الغرض.

10-الموشحات :

¹نفع الطيب، المقرئ، ج6، ص:

²المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، عبد الله بن عفيفي الباجوري، ج3، ص:51.

تعدّ الموشحات فنّاً جديدا عرفه الشعر الأندلسي، وهي «كلام منظوم على وزن مخصوص»¹، سمي بالموشح لما فيه من ترصيع وتزين فكأنّه شبه بوشاح المرأة المرصع باللؤلؤ والجواهر، ويعرفه ابن دحية قائلًا: «هي زبدة الشعر وخلاصة جوهره وصفوته، وهي من الفنون التي أغربت بها أهل المغرب على أهل المشرق، وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضيء المشرق»².

وكانت نشأة هذا الفن «استجابة لحاجة فنية أولاً، ونتيجة لظاهرة اجتماعية ثانياً»³، فلمّا ازداد احتكاك العنصر العربي بالعنصر الإسباني، نتج عن هذا الازدواج العنصري ازدواج لغوي، عرف فيه الشعب الأندلسي العامية اللاتينية كما عرف العامية العربية⁴، وحينما ازدهرت الموسيقى وشاع الغناء وكثر المغنّون والمغنيات⁵، منذ أن قدم عليهم المغني زرياب⁶ الذي وضع حجر الأساس لمدرسة الغناء في الأندلس، وصار المغنّون يحذون حذوه «فكان كل من افتتح الغناء يبدأ بالنشيد أول شذوه، بأي نقر كان، ويأتي إثره بالبسيط، ويختتم بالمحركات والأهزاج تبعاً لمراسم زرياب»⁷، أحسن الشعراء بأنّ الشعر بأوزانه التقليدي وقوافيه لم يعد قادراً على مواكبة طبيعة الغناء⁸، وأنهم في حاجة ماسة إلى لون

¹ دار الطراز في عمل الموشحات، أبو القاسم هبة الله بن جعفر بن سناء الملك، تحقيق جودت الركابي، دار الفكر، ط1949، ص:320.

² المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية، ص:204.

³ تاريخ الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد هيكال، ص:156.

⁴ المرجع نفسه، ص:143-144.

⁵ ينظر الأدب الأندلسي، فوزي عيسى، ص:247.

⁶ هو أبو الحسن علي بن نافع مولى المهدي الخليفة العبّاسي، لقب بزرياب، ويعني اسم طير أسود اللون عذب الصوت، توجّه إلى الأندلس، واستأذن الخليفة عبدالرحمن في الدخول، فسمح له، وبعدما سمع غناؤه شغف به وقربه إليه وأصبح من حاشيته، وذاع صيته في الأندلس، وتمركز بها وبدأ نشاطه للغناء والموسيقى يضم أبناءه الثمانية وابنتيه، وجماعة من المغنين، وتعدّ أول مدرسة أسست لتعليم علم الموسيقى والغناء وأساليها وقواعدها (ينظر زرياب أبو الحسن علي بن نافع موسيقار الأندلس، محمود أحمد الحفني، الدار المصرية للتأليف والنشر، مصر، ص:9).

⁷ نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص:128.

⁸ ينظر الأدب الأندلسي، فوزي عيسى، ص:247.

جديد من الشعر يواكب الموسيقى والغناء في تنوعهما واختلاف ألحانهما، فظهر هذا الفن الشعري الغنائي الذي تنوع فيه الأوزان وتتعدد القوافي¹، فالقصيدة الموحدة قاصرة إزاء الألحان المنوعة، والشعر التقليدي الصّارم، جامد أمام النّغم التّجديدي المرن²، وأول من سنّ هذا الشعر رجل اسمه المقدم بن معافى القبري، من شعراء الأمير عبدالله³، وقد جاء في كتاب الذخيرة لابن بسام أن مخترع الموشحات رجل ضير من قبرة اسمه محمد بن محمود، فقال: «وأول من صنع هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتهما - فيما بلغني - محمد بن محمود القبري الضير»⁴، فابن بسام لم يجزم حين ذكر هذا الأخير، وإنما ولعل كون الشاعرين من قبرة جعل ابن بسام يضع اسما محل اسم، فكأنه قد بلغه أن الشاعر القبري فلانا قد اخترع الموشحات، فذكر محمد بن محمود ونسى اسم مقدم⁵، وقد نسبت أول موشحة إلى هذا الشاعر الأندلسي في كثير من المصادر الموثوق بها، غير أنهم لم ينقلوا شيئا من أخباره سوى أنه المخترع لها في القرن الثالث الهجري⁶.

ويتميز الموشح بتحرره من رتبة القافية الموحدة، إذ يتغير فيه الوزن، وتتعدد القوافي، مع التزام التّقابل في الأجزاء المتماثلة⁷، ويتكون من المطلع وهو المجموعة الأولى من الأجزاء - هي كل شطر ينتهي بروي - وأقلها اثنان، وأكثرها ثمانية أجزاء⁸، وليس بضروري الوجود، فقد يحذف من الموشح ويسمى عند ذلك بالأقرع، ويوجد القفل وهو الجزء المؤلف الذي يجب أن يكون كل قفل منه متفقا مع بقية الأفعال، في وزنه وقوافيه وعدد أجزائه⁹.

¹ الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة،: 143

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ ينظر الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم، حنا فاحوري، دار الجيل، لبنان، ط1، 1986، ص: 952.

⁴ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، ج2، ص: 1.

⁵ تاريخ الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد هيكل، ص: 144-145.

⁶ ينظر الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم، حنا فاحوري، ص: 953.

⁷ ينظر تاريخ الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد هيكل، ص: 139.

⁸ ينظر الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم، حنا فاحوري، ص: 948.

⁹ دار الطراز في عمل الموشحات، ابن سناء الملك، ص: 33.

وكذلك الأبيات وهي أجزاء مؤلفة مفردة أو مركبة يلزم في كل بيت منها أن يكون متفقاً مع بقية أبيات الموشح في وزنها، وعدد أجزائها لا في قوافيها، بل يحسن أن تكون قوافي كل بيت منها مخالفة لقوافي البيت¹، وبعضهم يسميه الدور، ويسمى كل جزء أو شطر من أشطر البيت سمطاً، أما الغصن فهو كل جزء أو شطر من أشطر القفل، والقفل الأخير في الموشح هو الخرجة²، أما مضامينه فلم تكد تخرج عن مواضيع وأغراض الشعر القديمة التي عرفها العرب، كوصف الطبيعة والخمر والغزل وغير ذلك من المواضيع الغنائية .

ومن أشهر الوشّاحين عبادة بن ماء السماء (ت419هـ)* الذي نهج لأهل الأندلس طريقة نظم الموشحات، ووضح حقيقتها، وقوم ميلها، وكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه، واشتهر بها اشتهاً³، وله موشحة في الغزل منها قوله:

من ولي في أمة أمراً ولم يعدل * يعدل * إلا لحاظ الرشأ الأكل
جرت في حكمك في قتلي يا مسرف
فانصف فواجب أن ينصف المنصف
وارأف فإن هذا الشوق لا يرأف
علل قلبي بذاك البارد السلسل * ينجل * ما بفؤادي من جوي مشعل
إنما تبرز كي توقد نار الفن
صنما مصوراً من كل شيء حسن
إن رمى لم يخط من دون القلوب الجن
كيف لي تخلص من سهمك المرسل * فصل * واستبني حيا ولا تقئل⁴

¹ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

² ينظر تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، احيان عباس، ص: 235.

* هو عبادة بن عبد الله الأنصاري من ذرية سعد بن عبادة، شيخ الصناعة، وإمام الجمعة، سلك إلى الشعر مسلماً سهلاً، فقالت له غرائبه مرحباً وأهلاً (ينظر الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، ج2، ص: 469).

³ ينظر الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، ج2، ص: 469.

⁴ فوات الوفيات، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1974، ج2، ص: 151.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

وفي هذه الأبيات يصف الشاعر حالة المُحِبِّ المعذَّب لإثارة شفقة الحبيب الظالم القاسي المتمنِّع، عسى أن يرأف بحاله، ويعاتب حبيبه متوسلاً إليه طالبا الرحمة بالوصول ساعياً إلى التأثير العميق فيه حتى يلين، وفي موشحة أخرى من الغزل الصريح يقول:

حب المها عباده ... من كل بسام السراري
قمر يطـلع ... من حسن آفاق الكمال حسنه الأبدع
لله ذات حسن ... مليحة المحيا
لها قوام غصن ... وشفها الثريا
والشعر حب مزن ... رضابه الحميا
من رشفه سعادته ... كأنه صرف العقار
جوهـر رصع ... يسقيك من حلو الزلال طيب المشرع
رشيقة المعاطف ... كالغصن في القوام
شهدية المراشف ... كالدر في نظام
دعصية الروادف ... والخصر ذو انضمام
جوالاة القـلاده ... محلولة عقد الإزار
حسنها أبـدع ... من حسن ذياك الغزال أكحل المدمع
إلى أن يقول:

حبي لها عباده ... أعوذ من ذاك الفخار
برشاً يرتع ... في روض أزهار الجمال كلما أبتع
عفيفة الزيول ... تقسية الثياب
سلافة العقول ... أرق من شراب
أضحى بها نحولي ... في الحب من عذابي
في النوم لي شراده... أو حكمها حكم اقتدار
كلـما أمتنع ... منها فإن طيف الخيال زارني أهجع¹

¹فوات الوفيات، محمد بن شاكر، ج2، ص: 152-153

ويرسم الشاعر في موشحته الغزلية صور فنية مجازية يعبر فيها عن جمال المحبوبة بكل جرأة، ويجعل من عشقها عبادة، فصورة مياها الفائق الجمال كالقمر مكتمل الحسن، وقوامها الرشيق، وخصرها النحيف وأردافها الممتلئة، وريقها الحلو كالشهد سلبه عقله، وتألؤ قرطها كالثرثرا، وعنقها الذي تجول عليه قلادة، أجمل من الغزال الذي اكتحلت مدامعه، فجماها سر عذابه، وضعف جسمه، وأرقه.

لم يكن الشعر الأندلسي حكراً على الشعراء وحدهم، بل شارك فيه مختلف شرائح المجتمع على اختلاف أعمالهم وثقافتهم، وما دفعهم إلى ذلك محبتهم للشعر، وتعلقهم باللغة العربية، فنظموا في جميع فنون الشعر العربي، يجازون فيه شعراء المشرق، وإن اختلفت طريقة التعبير فيه عندهم في بعض أجزائه، وزادوا عليها بعض الفنون التي اقتضتها بيئتهم وأوضاع مجتمعهم، وطبيعة بلادهم الجميلة التي توجيش العواطف وتستثير الخيال.

وهذه النماذج التي تناولناها بالدراسة ما هي إلا ومضات من أبحر هؤلاء الشعراء الأجلاء، ولا زال في جعبة الشعر الأندلسي الكثير منها على الرغم من ضياع أغلبه.

ثانياً: النشر:

يعدّ النشر مظهراً من مظاهر الرقي الفكري، ودليل من دلائل الاهتمام باللغة وجودة العبارة وسلاسة الأسلوب، وجمال المضمون حتى يبلغ الغاية المنشودة وهي النفع والإمتاع¹، اتسع مجال النشر في الأندلس ليشمل الموضوعات المعروفة لدى المشاركة من خطب ورسائل تتضمن عظات تدعو الناس إلى القيام بفرائض الدين، وأقوال تلهب حماس المجاهدين في سبيل نشر الدين، وتدعو إلى الوحدة واجتنب العصبية، ورسائل يتبادلها الحكّام والعمّال يتنافسون فيها اظهار رونقها وبراعتها،² غير أن الأندلسيين

¹ ينظر الأدب الأندلسي، التطور والتحديد، ص: 571.

² ينظر الجامع في تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، ص: 902.

ابتكروا مواضيع جديدة ملائمة لطبيعة حياتهم¹، كالطبيعة الجميلة، وامتزاج الأجناس في المجتمع الواحد ليولد ثقافة جديدة ومختلفة لها خصوصيتها.

وتميّز النثر في هذه الفترة بكونه نثراً عربياً خالصاً يتّسم بالإيجاز، وعدم الاستطرد، فضلاً عن تأثره بالمفاهيم الإسلامية، وغلبت عليه السهولة في الأسلوب، والجزالة في الألفاظ، ومتانتها، واعتمد على الجمل القصيرة، والتقسيم في العبارات، والتقابل بينها، واستخدام المترادفات، والمحسنات البديعية باعتدال دون تكلف في ذلك².

ومع ازدهار الحركة العلمية بالأندلس، وكثرة المدارس صار للنثر مقام سام لدى الأمراء والخلفاء، وأصبح الأدباء يتفننون فيه ويطمحون بلقب الأديب شأنه شأن الشاعر، واشتهر فيه كتاب مجيدون³، وكانت أهم فنونه الخطابة والترسل والوصايا .

1- الرسائل:

تعدّ الرسائل من أهم الفنون النثرية انتشاراً في الأندلس لحاجة المسلمين لها، للتواصل فيما بينهم أو الترفيه عن أنفسهم وإبراز براعتهم الأدبية، ولاعتماد الحكام عليها بغية انهاء معاملاتهم الإدارية، فاختلقت باختلاف موضوعاتها، فكان منها:

1-1- الرسائل الديوانية: هي ما يصدر عن الأمراء في تصريف شؤون الدولة وأمورها⁴، ووقد عرفت الأندلس كثرة كتّاب الرسائل الديوانية، فلمّا استقرت الأحوال بها أسندت لهم المهام الإدارية، واشترط فيهم أن يكونوا على قدر موفور من الثقافة والعلم والمعلومات التي تؤهلهم لشغل المنصب، وتسيير الشؤون المناسبة له، وتميّزت هذه الرسائل

¹ ينظر الأدب الأندلسي، التطور والتجديد، ص: 571.

² ينظر الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد هيكل، ص: 110.

³ ينظر الجامع في تاريخ الأدب العربي، حتّا الفاخوري، ص: 902.

⁴ ينظر الأدب الأندلسي، التطور والتجديد، ص: 572.

بتفضيل الإيجاز والقصد في التعبير وإيثار المعنى، قريبة في شكلها من التوقيعات¹، وتعرف أيضاً باسم الرسائل السلطانية.

وقد تفاوتت هذه الرسائل من حيث الحجم، فقد لا تتجاوز الصفحة الواحدة ومن أمثلتها ما أملاه عبدالرحمن الداخل على كاتبه يرسلها إلى سليمان بن الأعرابي: «أما بعد، فدعني من معاريض المعاذير والتّعسف عن جادة الطريق، لتمدّن يداً إلى الطاعة والاعتصام بجبل الجماعة أو لألقينّ بناهما على رصف²* المعصية نكالاً بما قدّمت يداك، وما الله بظلام للعبيد»³ والملاحظ على هذه الرسالة أنها كتبت بلغة فصيحة، وتصدّرت بأمّا بعد دون مقدّمة، وقد يرجع السبب إلى الرغبة في طرح الموضوع مباشرة لأهميته، أو لصرامة الأمير وصراحته، ويؤيد ذلك نموذج آخر كتبه أمية بن زيد كاتب عبد الرحمن إلى بعض عماله يستقصره فيما فرط من عمله، فأكثر وأطال الكتابة، فانزعج الأمير وأمر بقطعه وكتب بخطّ يده «أمّا بعد فإن يكن التّقصير لك مقدماً فعّدّ الاكتفاء يكون لك مؤخّراً، وقد علمت بما قدّمت، فاعتمد على أيّهما أحببت»⁴، وقد اقتضت مثل هذه المناسبات هذا الإيجاز والإيماء والقصد في القول والحدّة في الخطاب⁵

ومنها رسائل داخلية تبادلها الأمراء والقادة في مختلف أرجاء الدولة تتضمن أحكاماً تطول بعضهم جراء تقصير أو استبداد منها رسالة الأمير ردّاً على مولاه بدر الذي صحبه عجب وامتنان بعد استقرار الدولة، فأرسل رسالة للأمير فيها يقول: «أما كان جزائي في قطع البحر وجوب القفر، والإقدام على تشيت نظام مملكة وإقامة أخرى غير الهجر، الذي أهانني في عيون أكفائي وأشمت بي أعدائي، وأضعف أمري ونهبي عند من

¹ ينظر في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، لبنان، ط2000، 1، ص:215.

* رصف: حجارة محمّاة.

³ البيان المغرب، ابن عذارى، ج2، ص:76.

⁴ المصدر نفسه، ص:58.

⁵ تاريخ الأدب الأندلسي، احسان عباس، ص:269.

يلوذ بي، وبتر مطامع من كان يكرمني ويحفدني على الطمع والرجاء، وأظن أعداءنا بني العباس لو حصلت بأيديهم ما بلغوا بي أكثر من هذا، فإننا لله وإنا إليه راجعون»¹، تتضمن الرسالة لوماً وعتباً على الأمير الذي لم يقدر في نظره جهود المبدولة في سبيل اعمار الدولة، فقد انتظر منه تكريماً وإعلاءً مقابل كل صنائعه .

غير أن الأمير عبد الرحمن عندما بلغته رسالته اشتد غيظه، وأرسل له رسالة يبلغه فيها بقراره «وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك وسوء خطابك ودناءة أدبك ولئيم معتقدك، والعجب أنك متى أردت أن تبني لنفسك عندنا متاتاً أتيت بما يهدم كل متات مشيد مما تمن به، مما قد أضجر الأسماع تكراره، وقدحت في النفوس إعادته، مما استخرنا الله تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مالك، وزدنا في هجرك وإبعادك، وهضنا جناح إدلالك، فلعل ذلك يجمع منك ويردعك حتى نبلغ منك ما نريد إن شاء الله تعالى، فنحن أولى بتأديبك من كل أحد، إذ شرك مكتوب في مثالبنا، وخيرك معدود في مناقبنا»²، والملاحظ على الرسالة أنها تضمنت عقاباً بعدما كان الرجل يأمل في الجزاء، كما تميّزت بخلوها من المقدمات والمحسنات البديعية، وهي سمة بارزة في رسائله يعود سببها لشخصيته الحازمة البعيدة عن المماطلة، وتميل إلى الأسلوب المباشر.

والأمر ذاته في رسالة الأمير عبد الله بن محمد إلى بعض عمّاله يقول «أما بعد، فلو كان نظرك فيما خصصناك به، واهتبالك به، على حسب مواترتك بالكتب واشتغالك بذلك عن مهم أمرك لكنت من أحسن رجالنا غناء وأتمهم نظراً، وأفضلهم حزماً، فأقلل الكتب فيما لا وجه له، ولا نفع فيه، واصرف همّتك وفكرك وعنايتك إلى ما يبدو فيه اكتفاؤك، ويظهر فيه غناؤك، إن شاء الله»³، وغلب على الرسالة الأسلوب المرسل، ووضوح

¹ نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص:40.

² المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ البيان المغرب، ابن عذارى، ج2، ص:154.

العبارة، وجلاء الفكرة، وألفاظ منتقاة ملائمة للمعنى، توقع صدى في النفس، لأن الغاية منها التوبيخ، ولفصاحة لسان الأمير،¹ غير أن ذلك لم يكن سمة عامة في هذا العصر.

ويتّضح ممّا سبق أنّ الرسائل الديوانية ظلت بسيطة لا تحلية فيها يأتي السجع فيها عفويا دون تعمد،² ونلاحظ في رسالة ليزيد بن طلحة³ اختلافاً طفيفاً، حيث يبدأها مسجوعة ثم ما يلبث أن يكملها دون سجع، كتبها إلى أهل قرمونة يحضهم فيها على الطاعة ونبذ الخلاف، لما في ذلك من مصلحة للأمة وحقن دماء المسلمين، قائلاً: «إنّ أحق ما رجع إليه الغالون وألحق به التالون وآثره المؤمنون وتعاطاه بينهم المسلمون مما ساء وسرّ، ونفع وضرّ، ما أصبح به الشّمل ملتتماً، والأمر منتظماً، والسيف مغموداً، ورواق الأمن ممدوداً»⁴، وقد سلكت هذه الرسالة سبيل الملاطفة والترغيب في مخاطبة الثائرين على الدولة بأسلوب مسجوع.

وتختلف الرسائل الديوانية الصادرة من الأمراء عن الرسائل المكتوبة بخط عمّاهم، حيث نجد أغلبها يستهل بالبسملة ثم الدعاء للمرسل إليه، ويليهما الدعاء للخليفة كلما أراد الإشارة إليه، وهذا ما نجده في رسالة أنشأها الحكم لما كان ولياً للعهد بأمر من أبيه الناصر إلى المشاور أبي إبراهيم حين تخلف عن حضور الإعذار الذي صنعه لأولاده، وافتقد مكانه لارتفاع منزلته، وقد جاء فيها «بسم الله الرحمن الرحيم حفظك الله وتولاك وسددك ورعاك لما امتحن أمير المؤمنين، مولاي وسيدي -أبقاه الله - الأولياء الذين يستعد بهم وجدك متقدماً في الولاية متأخراً عن الصلة، على أنّه قد أندرک -أبقاه

¹ ينظر في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، ص: 217.

² تاريخ الأدب الأندلسي، احسان عباس، ص: 270.

³ زيد بن طلحة العبسي، من أهل إشبيلية؛ يُكنّى: أبا خالد، من أجلة فقهاء إشبيلية، وكان: بصيراً باللغة، والنحو، والشعر، موصوفاً بالبلاغة، والخطابة، ومشهوراً بالفصاحة، كان أبو محمد عبد الله بن محمد بن عليّ يُثني عليه ويصفه بالعلم وجلالة القدر (ينظر الأعلام، الزركلي، ج8، ص: 184).

⁴ طبقات النحويين، الزبيدي، 294.

الله، خصوصاً للمشاركة في السرور الذي كان عنده، لا اعدمه الله توالي المسرة، ثم أنذرت من قبل إبلاغاً في التكرمة، فكان منك على ذلك كله من التخلف ما ضاقت عليك فيه المعذرة، واستبلغ أمير المؤمنين في إنكاره ومعاتبتك عليه فأعيت عليك الحجة، فعرفني أكرمك الله ما العذر الذي أوجب توقفك؟¹، وتحمل الرسالة عتياً كبيراً على الرجل، فما حرّك الخليفة محبته لابراهيم وقربه منه كونه أحد الأعلام الأجلاء، وقد أحسن أن غيابه قلّة اكرثت به، ومع أنّها موجّهة من الخليفة إلى تابعه إلا أنّها لم تخل من الدعاء له.

غير أنّ أبا إبراهيم قرأ رسالته، وبرّر فعله بقوله «قرأت -أبقى الله الأمير سيدي- هذا الكتاب وفهمته ولم يكن توقّفي لنفسي، إنّما كان لأمير المؤمنين سيدنا، أبقى الله سلطانه، لعلمي بمذهبه وسكوني إلى تقواه واقتفائه لأثر أسلافه رضوان الله عليهم فأنهم يستبقون من هذه الطبقة بقية لا يمتنونها بما يشينها ولا بما يغض منها ويترك إلى تنقيصها، يستعدون بها لدينهم ويتزينون بها عند رعاياهم ومن يفد عليهم من فصادهم فلهذا تختلف ولعلمي بمذهبه توقفت إن شاء الله تعالى»²، وتتسم هذه الرسالة بالدعاء للأمير كلّما أراد ذكره، وورد الرد فيها مبتوراً دون مقدمة، قد تكون الغاية منه التركيز على هدف الرسالة.

وبعض الرسائل الديوانية لا تكون الغاية منها الإخبار بل تتعدى ذلك إلى إلزامية الإمتثال لهذا القرار واطهار الخضوع والطاعة، ومنها ما أصدره عبد الرحمن الناصر كمنشور للخلافة بصيغة رسالة وجهها إلى صاحب الصلاة بقرطبة يلزمه فيها بقراءته يوم الجمعة، مستهل شهر ذي الحجّة، ووجهت إلى جميع عمّاله في الولايات، ومما جاء فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمّا بعد فأنا أحقّ من استوفى حقّه، وأجدر من استكمل حظه، ولبس من كرامة الله ما ألبسه، للذي فضلنا الله به، وأظهر أثرتنا فيه، ورفع سلطاننا

¹ نفع الطيب، المقرئ، ج1، ص:376..

² المصدر نفسه، ص:376..

إليه، ويسر على أيدينا دركه، وسهّل بدولتنا طرقة، (. . .)، وقد رأينا أن تكون الدّعوة لنا بأمر المؤمنين، وخروج الكتب عنّا وورودها علينا بذلك، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له، ودخيل فيه ومتسم بما لا يستحقه، (. . .)، فأمر الخطيب أن يقول به، وأجر مخاطبتك لنا عليه، إن شاء الله، والله المستعان»¹، وامتازت هذه الرسالة بشيء من التّطويل، يستهلّها بالبسملة ولا تختلف عن سابقاتها سوى في براعة اختيار المعاني وبساطة العبارة دون تكلف في الصّنع، مع توازن في العبارات ودقّة في إدراج الألفاظ.²

وقد تكون الغاية من الرّسالة أموراً ادارية كتصويب عامل أو عزل آخر كما جاء على لسان الخليفة الناصر عندما فتح حصن بيشتر: «ثمّ قلّنا أمر بيشتر والكون فيها... الوزير سعيد بن منذر القرشي لما عرفناه من كفايته فيما يتولّاه... ورجونا من الله تعالى على جميع ما باشرناه من ذلك، وكابدناه وقاسيناه وتجمّسناه الجزاء الجميل»³ فقد تضمّنت الرسالة قرار تقليد سعيد بن منذر ضابطا لها، لما عهد منه من تحمّل للمسؤولية، وختمها بالإفصاح عن نيّته الحسنة في القرارات التي يتّخذها.

ويكون التّوبيخ مصير المقصّرين من العمّال، وهذا ماتضمنته رسالة كتبها الجزيري عن المنصور يعاقب فيها جنده لنكوصهم عن المحاربة وخوفهم من العدو في بعض غزواته «وكثيرا ما فرط من قولكم أنكم تجهلون قتال المعادل والحصون وتشتاقون ملاقات الفحول، فحين جاءكم شانجه الأمنية، وقتلكم بالشريطة أنظرتم ما عرفتم، ونافرتم ما ألفتم، حتى فررتم فرار اليعافير من آساد الغيل، وأجفتم إجمال الرئال من المقتنصين، ولولا رجال منكم رخصوا عنكم العار، وحرروا رقابكم من الدّل لبرئت من جماعتكم وشملت بالموجدة كافتكم...»⁴، وتهدف الرسالة إلى تقرير الجنود، وحثهم على الاستبسال

¹ البيان المغرب، ابن عذاري، ج2، ص: 198-199.

² ينظر في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، ص: 219.

³ المقتبس، ابن حيان، ج5، ص: 234-235.

⁴ أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، لسان الدّين بن الخطيب، ص: 72.

ليستفيقوا من تخاذلهم، وغلب على هذه الرسالة الاهتمام بالصنعة وغلبة السجع، مع تنميق في اللفظ وحوك للعبارة .

وتضمنت أيضا قرار تولية العهد، ليس استخلاقا ولا وصية، بل تنازلاً كما صنع هشام المؤيد عندما قبل تولية عبد الرحمن بن أبي عامر الحاجب منصب خليفة المؤمنين، الذي طمع في أن يكون رسم الخلافة أيضا له فأجبره على أن يجعله وليا للعهد، وقد كتب ابن برد الأكبر هذه الوثيقة في ربيع الأول من سنة 398هـ: «هذا ما عهد به هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامة، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة (. . .) . بعد أن أنعم النظر و أطال الاستخارة وأهمه ما جعله الله إليه من الإمامة (. . .) و اتقى حلول القدر بما لا يصرف، وخشي إن هجم محتوم ذلك عليه ونزل مقدوره به، ولم يرفع لهذه الأمة علما تأوي إليه أن يلقي ربه تبارك وتعالى مفرطاً ساهياً عن أداء الحق إليها، و تقصى عند ذلك من أحياء قريش و غيرها من يستحق أن يسند هذا الأمر إليه، ويعول في القيام عليه، مما يستوجه بدينه و أمانته و هديه وصيانتته بعد اطراح الهوى، والتحري للحق، والتزلف إلى الله جلّ جلاله بما يرضيه- و بعد أن قطع الأواصر وأسخط الأقارب - فلم يجد أحدا هو أجدر أن يولّيه عهده ويفوض إليه الخلافة بعده، لفضل نفسه وكرم خيمه وشرف مرتبته وعلو منصبه، مع تقاه وعفافه ومعرفته وحزمه، من المأمون الغيب الناصح الجيب أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر، ووقه الله (...). ومن كان المنصور أباه والمظفر أخاه، فلا غرو أن يبلغ من سبيل البرّ مداه ويجوي من خلال الخير ما حواه...»¹ وتضمّ الرسالة في طياتها إقراراً من الخليفة بأحقية الحاجب بالخلافة بعد معاينة فعالة الجليلة واستشارة غيره، وانعدام شبيه له في نسل بني أمية، وأيضا لأنه ابن القائد الأعظم المنصور، وكل هذه الأسباب مجتمعة جعلت الحاجب عبد الرحمن أحقّ بالخلافة منه، وتميّزت بأسلوب سلس وتوظيف للسجع دون اغراق فيه، مع استعانة

¹ نفع الطيب، المقرئ، ج 1، ص: 424-425

بوسائل الإقناع .

والملاحظ على الرسائل الديوانية أنّها بدأت تخرج من ثوب البساطة والعفوية إلى بلاغة العبارة وتنميق اللفظ في أواخر هذا العصر .

1-2- الرسائل الإخوانية: وهي رسائل يكتبها الناس لبعضهم البعض في موضوعات إخوانية كالتعزية والبشارة والتّهنية، والعتاب، وغيرها من أمور الحياة للتعبير عن عواطفهم ومشاعرهم،¹ وتسمى الرسائل الشخصية، لأنها تتناول أموراً شخصية وتتعلق بشأن من شؤونه في علاقاته مع الأهل والأصدقاء.

ومن نماذجها رسالة شكوى واستعطاف من الأمير المنذر بن عبد الرحمن الأوسط بعدما عاقبه والده بنفيه يخبره فيها بحاله فيقول «إني قد توحشت في هذا الموضوع توحشاً ما عليه من مزيد، وعدمت فيه من كنت آنس إليه، وأصبحت مسلوب العز فقيد الأمر والنهي، فإن كان ذلك عقاباً لذنب كبير ارتكبته وعلمه مولاي ولم أعلمه فإني صابر على تأديبه، ضارع إليه في عفوه وصفحته:

وإنّ أمير المؤمنين وفعله ... لكالدهر، لا عارٌ بما فعل الدهر»²، ويشتكى الأمير في رسالته وطأة البعد عن الأهل ومرارة فقد النعمة، ويستجدي عفوه والصفح عمّا بدر منه وأنّه قد تعلمّ الدرس، وأنّه موقن بأنّ مايفعله والده هو الصّواب .

ومن أشهر الرسائل الإخوانية أيضاً، رسالة يثني فيها ابن دراج القسطلي على المنذر بن يحيى صاحب سرقسطة قائلاً: «حيّاك بتحية الملك من أحيا بك دعوة الحق، ردّاك رداء الإعظام من أعلى بك لواء الإسلام، مجري الأقدار بإعلاء قدرك ومصرف الليل والنهار بإعزاز نصرك، ومظهر من أطاعك على من عصاك، ومدّمّر من عاداك بسيوف من

¹ ينظر الأدب الأندلسي، التطور والتجديد، ص: 572.

² نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص: 575.

والاك، قد جعل الله أوّل أسمائك أولى بأعدائك و أقرب اعتزائك صفوا لأوليائك ، ثمّ سما بك حاجب الشمس نورا وأنسا لهذا الإنس ونفس حياة لكلّ نفس...»¹ وقد استهل الكاتب رسالته بمقطوعة نثرية يشيد فيها ويثني على صنيع أعماله، ثم انتقل إلى مدحه في أبيات شعرية ختم بها رسالته، كما استعان بالمحسنات البديعية كالطباق والسجع وهو ما أحدث ايقاعا في النصّ يشدّ إليه المتلقي.

وعرفت الرسائل الإخوانية نمطاً مختلفاً ارتبط بالأزهار، كأن يكون المرسل زهرة معيّنة كرسالة ابن دراج إلى المنصور محمد بن أبي عامر، تضمّنت مدحاً له، وفي المقابل وصف للزهور، يقول فيها: «إذا تدافعت الخصوم-أيّد الله مولانا المنصور- في مذاهبها، وتنافرت في مفاخرها فأليك مفرعها، وأنت المقنع في فصل القضية بينها، لاستيلائك على المفاخر بأسرها، وعلمك بسرّها وجهرها، وقد ذهب البهار والنجس في وصف محاسنهما، والفخر بمشاهبهما كل مذهب ،وما منهما إلّا ذو فضيلة، غير أنّ فضلي عليهما أوضح من الشّمس التي تعلونا ،وأعذب من الغمام الذي يسقينا ... مع أنّي أعطر منهما عطراً، وأحمد خيراً، وأكرم إمتاعاً شاهداً وغالباً...»²، وجاءت الرسالة على لسان البنفسج الذي احتكم للمنصور كقاضي للفصل بينه وبين النرجس والبهار، استهلّها بمدحه للخليفة، عاقداً مفاضلة بينه وبينهما ،مفتخراً بنفسه، وتظهر الرسالة تفضيل الكاتب للبنفسج على النرجس والبهار من خلال ذكر محاسنه، وكأن الكاتب ككان يريد برسالته التّودد واستعطاف الخليفة متّخذاً من البنفسج كاتب رسالته التي تعبّر عن حاله، ومال فيها الى استعمال المحسنات البديعية من سجع وجناس ومقابلة، حتى يضفي عليها جمالا يستميل السّامع ويأسر القلب، وكثير استخدام هذه الرسائل لأغراض مختلفة.

وتندرج تحت الرسائل الإخوانية أيضا الشكايات التي رفعها عامة النّاس للحكّام

¹ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ،ابن بسام، ج1، ص:64.

² البديع في وصف الرّبيع، الحميري، ص:80.

مبدين تظلمهم من حيف قد لحقهم، أو نازلة ألمت بهم، يكثرون فيها الثناء على الحاكم طمعا في نصرته لهم ومن أمثلتها رسالة ابن دراج القسطلي، وفيها يقول «يا سيدي ومن أبقاه الله كوكب سعد في سماء مجد، وطائر يمن في أفناء أمن، مرجوا لدفع الأسواء مؤملا في اللأواء، وكنت قد نشأت في معقل من الأمن والوفر، محدقا بسور من الأمن والستّر، حتى أرسل الي سلطان الفقر رسولا من نوب الدهر يريد استنزالي إليه وخضوعي بين يديه»¹، وقد رفع الشاعر شكواه إلى الخليفة، مستعظفا إياه بكل السبل المتاحة، معبرا عن الحال التي آل إليها فقد ألمّ به الجوع والفقر، ولم يجد حلاّ سوى هذه الرسالة، فكان في أسلوبه خارجا عن المألوف العام من الأساليب في الأندلس، يميل إلى الاسترسال والإكثار من السجع والتنميق اللفظي، خاصة أنه في حالة من الضعف والاستكانة .

والملاحظ على الرسائل في هذه الفترة تأثرها بطريقة ابن العميد في الكتابة، وميلها إلى الإطناب، والإكثار من المحسنات البديعية كالسجع والطباق، والإستعانة بالأمثال والتلميحات الثقافية، وتدعيم النثر بالشعر².

1-3- الرسائل الأدبية: وهي قطعة نثرية رفيعة المستوى، تصدر عن الأدباء، وتحمل

أفكارهم، وتعبر عن وجهة نظرهم، يستخرون فيها مواهبهم الأدبية، ويصورون عواطف الناس في حياتهم العامة والخاصة، وهي غير موجهة لشخص بعينه بل لعامة الناس³.

وقد أظهر أدباء الأندلس براعة في تناول موضوعاتها منها رسالة ابن الشهيد "التوابع والزوابع" وكان الدافع من انشائها إثبات الأديب قدرته على النظم والنثر وتفوقه على أقرانه والردّ على خصومه ممن حاول التقليل من شأنه ليؤكد أنّ أصل كل أديب

¹ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، ج1، ص:45

² ينظر الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد هيكل، ص:334.

³ ينظر الأدب الأندلسي، التطور والتجديد، ص:572

الموهبة أو الغريزة المتدققة والتجربة ولا يعول على الكتب وحدها،¹ فقد أشار إلى الصّراع القائم بين الموهبة وسعة الإطلاع، مقدّماً خير ما يختاره من نظمه ونثره، مبنياً على المعارضة ومزج ذلك بشيء من التّخيل، وقسط قليل من الفكاهة وكمية أكبر من العجب والعنف.²

وتقوم الرسالة على اعتقادٍ قديمٍ أساسه أنّ الشّعراء يفتقدون للموهبة، ولكلّ واحد منهم قرين من الجنّ يُلهِمه تلك الأشعار ويثبّتها فيه، لبلاغة ما كان ينطقونه، وقد سعى الشّعراء أنفسهم إلى توكيد فكرة استحالة أن يكون هذا النّظم من صنع البشر، ليُرفَعوا قدرهم عند النّاس، وقد مهّد الكاتب لرسالته بمدخل توجه فيه بالخطاب إلى صاحبه أبي بكرٍ يحيى بن حزم الذي تساءل عن سر نبوغه، فيذكر لصديقه أنّه أرتج عليه الشّعْر يوماً، فجاءه أحد الجنّ، فألقى عليه الشّعْر، ولما سأله ابن الشهيد عن نفسه، أجابه أنّه زهير بن ثمير، من قبيلة أشجع في الجنّ، وابن شهيدٍ من قبيلة أشجع الإنسيّة؛ وكأنّه يرى أن كل قبيلة إنسية لها ما يماثلها عن الجن، ثمّ علّمه بعض الأبيات يقولها إذا أراد أن يحضّر له، فكان إذا أرتج على ابن شهيدٍ يُنشِد تلك الأبيات يستحضره بها ويُلهمه الأشعار، ولما تأكّدت الصّداقةُ بينهما طلب منه ابن شهيدٍ أن يذهب به إلى قرناء الشّعراء والكتّاب من الجنّ، وأبدى رغبته في لقاء صاحب امرئ القيس والمنتبي فحقق الجني رغبته، وغيرها من الأحداث، التي صيغت بأسلوب خيالي ممتع،³ وتعدّ الرّسالة من مفاخر النثر الأندلسي لطرافة مضمونها وجدّة منحائها القصصي، الذي يعتمد على الخيال، عارضاً فيها قصائد الشّعراء الكبار، فحدّث كلّ واحدٍ بأسلوبه وطريقته، وأكثر فيها من وصف الأماكن، وغلب عليها الحوار، وروح الفكاهة والتّهكم والسخرية .

¹ ينظر الأدب الأندلسي، فوزي عيسى، ص: 371-389..

² ينظر في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، ص: 247.

³ ينظر الأدب الأندلسي، فوزي عيسى، ص: 371-389.

ومن الرسائل الأدبية التي نالت شهرة وذاع صيتها "طوق الحمامة في الألفة والألأف" للفقير ابن حزم، ألفه سنة (418هـ أو 419هـ)، تتناول الحب العذري، يصف مظاهر الحياة الإنسانية في الحب والمحبين، يغوص في أعماق النفس البشرية، والحياة الاجتماعية، يعكس جانباً كبيراً من حياة الكاتب الشخصية¹، وتناول فيها بعض حكايات الأندلسيين الواقعية التي شاهدها أو سمع بها، ويضمن كلامه قطعاً من شعره، قد قالها ملائمة للظاهرة التي يتحدث عنها²، ومما ميز الرسالة أنّ موضوعها في الحب يكتبه فقيه من فقهاء الأندلس كرّس حياته في المدافعة عن الدين، والمجادلات الفقهية العنيفة، فتخصيصه شيئاً من وقته للحديث في هذا الموضوع يثير الجدل، وقد كان يحس وهو يكتبه أن بعض المتعصبين سينكرون عليه تأليفه³، وقد آثر المرسل السلس دون تكلف وإغراق في السجع⁴.

انتشر فنّ الرسالة بالأندلس، وحمل لواءه مجموعة من الشخصيات البارزة، وحرصوا على تطويره والإجادة فيه وترك بصمة خاصة بهم، فكانت رسائلهم خير دليل على ذلك.

2- التّوقيعات:

¹ ينظر في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، ص: 249.

² ينظر الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد هيكل، ص: 396.

³ ينظر الأدب الأندلسي، إحسان عباس، ص: 282.

⁴ ينظر في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، ص: 249.

وتعدّ التّوقيعاتُ فناً فارسياً، تعتمد على الإيجاز والبلاغة¹، فهي بمنزلة البصمة التي تُدُلُّ على بلاغة الموقِّع وسعة عقله وتأثيره بالعلوم العقلية والأدبية، وقد نقل لنا النثر الأندلسي كثيراً من توقيعات الخلفاء والأمراء والكتّاب، التي تأتي في غالب الأحيان ارتجاليةً تواكب الموقف المفاجئ كتوقيع الأمير عبد الرحمن بن معاوية عندما ثار نائر ببعض بلاد الأندلس، فغزاه فظفر به، فبينما هم منصرف به، وقد حمل النائر على بغل مكبولاً، نظر إليه الخليفة عبد الرحمن وتحتة فرس له، قنع رأسه بالقناة وقال: «يا بغل! ماذا تحمل من الشقاق والنفاق، فقال النائر: يا فرس! ماذا تحمل من العفو والإشفاق! فقال: والله! لا ذقت موتاً على يدي» فأطلقه²، وأبدى الأمير حمزاً ورباطة جأش وحنكة سياسية كبيرة، وقدرة متميزة على اتخاذ قرار الحاسم في وقت قصير، فكان بحق الرجل المناسب في المكان المناسب.

ومنها توقيع عبد الرحمن بن الحكم حين سأل بعض مواليه عملاً لم يكن أهلاً له، فوقع على كتابه قائلاً: «من لم يعرف وجهه مطلبه كان الحزماً أولى به»³، وقد جاءت العبارة بليغة وموجزة تكونت من جملتين جملة الشرط وجوابه، مسجوعتين، غير أنّ معنهما أبلغ من حجمها، فقد تضمنتا حكماً قاطعاً لارجعة فيه.

وقد تمت بعض التوقيعات بين الأهل على غرار ما كتبه عبد الرحمن بن الحكم رداً على ابنه المنذر، عندما كتب إليه يسأله أن يأذن له في اعتلاء المنبر بالبلد الذي كان يليه له ليقوم الجماعة ويخطبهم، ليحيي رسوم سلفهم ويؤتوه به في أتباعهم، فوقع على ظهر كتابه: قالت الحكماء: «لو كان الكلام من فضة، لكان الصمت من ذهب، وإني لأشفق عليك مما تحسنه، فكيف مما تؤهم عليك بعض التّفصير فيه؟»⁴ وهذا التوقيع يعد

¹ ينظر إحكام صنعة الكلام، أبو القاسم الكلاعي، ص: 160.

² البيان المغرب، ابن عذاري، ج 2، ص: 59.

³ المقتبس، ابن حيان، ص: 222.

⁴ المقتبس، ابن حيان، ص: 222..

شهادة على سعة علمه وحنكته، فقد تميّز كلامه بالإيجاز غير أنّه حمل في طيّاته تنبيهاً للأمير وتوبيخاً له على جرأته.

وَوَقَّعَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْأَوْسَطُ عَلَى رِسَالَةٍ كَتَبَهَا ابْنُ فَرْلَمَانَ أَحَدُ خَوَاصِّهِ، وَكَانَ غَائِبًا حِينَ وَزَعَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَعْضَ الْعَطَايَا، فَكَتَبَ إِلَيْهِ شِعْرًا يَسْتَحِثُّهُ فِيهِ عَلَى أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِ نَصِيْبَهُ، فَوَقَّعَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: «مَنْ آثَرَ التَّضَجُّعَ فَلْيُرِضْ حَظَّهُ مِنَ النَّوْمِ»¹ وتحمل العبارة لهجة حادّة وصرامة في قرار لارجعة فيه، تدل على سرعة بديهة الخليفة وحنكته في التصرف، لبث الهيبة والرّهبة في نفوس السامعين.

وأقصر التّوقيعات ماكتبه الخليفة عبد الرحمن الناصر ردّاً على أمير مصر معذّب بن إسماعيل العبيدي، إذ كانت بينهما منافرة وعداوة، أفحش فيه السّب، وأكثر من هجائه «يا هذا، عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبنك، والسلام»².

والعبارة على الرّغم من قصرها إلا أنّها تتضمّن معاني عميقة تمثلت في افتخار الأمير بنفسه ونسبه، فمن يجهل بني أمية وفعالهم؟، ويثني على أعماله التي جعلته أشهر من نار على علم، كما تضمن الكلام هجاء وقدحا للعدو وتقليلاً من شأنه ونسبه المجهول .

وقد برهنت هذه التّوقيعات على فصاحة الحكّام وبلاغتهم، كما كشفت عن قدر كبير من حنكتهم ونباهتهم ورباطة جأشهم وحسن تديبرهم حتّى في المواقف الحرجة.

3-الخطابة :

هي من أسمى الفنون النثرية عند العرب، وتقوم على كلام منظوم له بال¹، استعانوا

¹الحلّة السيرة، ابن الأبار، ج1، ص:119.

²نفح الطيب، المقرّي، ج3، ص:558.

بها لتمام رسالته السّامية في نشر الإسلام وتعاليمه، فطبيعة الفتح تقتضي وجود خطباء يثيرون الحماسة في الجند، ويبعثون الشّجاعة في قلوبهم، ويثيرون الحميّة في صدورهم، ويحثّونهم على الصّبر في الجهاد لنيل أحسن الجزاء،² ولم تتوقف عند هذا القدر بل ظلّ المسلمون في حاجة إليها، لإلقائها في المساجد أيام الجمعة والعيدين،³ وفي سبيل إيضاح حقيقة الدّين ومبادئه التي يدعو إليها، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، فكانت أحسن وسيلة لفعل ذلك، وتنوعت هذه الخطب بتنوع مضامينها ومنها:

3-1- الخطبة السياسية:

احتلت الخطبة السياسية مكانة مرموقة لدورها الفعّال في تحقيق استقرار البلاد، التي تسيطر عليها الفتن والاضطرابات والنزاعات السياسية والقبلية والدينية، ويتربص بها الأعداء من كل جانب بغية الفتك بها، فكان لا بدّ من وجود خطباء يوقظون الحماسة ويشعلون فتيل الجهاد في أفئدة المجاهدين، ويخضعون الأقاليم لسلطان الدّولة الأموية⁴، ومن نماذجها خطبة قاضي القضاة المنذر بن سعيد حين وفدت سفارة من القسطنطينية عام (336 هـ) ففرح الخليفة الناصر لقدمهم، وأقيم احتفال كبير على شرفهم، بالغوا فيه بإظهار معالم الجاه والسلطان وتبادلوا فيه الهدايا، وأحب الخليفة أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه لإلقاء كلمة حين جلس ينتظر دخول وفود الروم عليه، وكان المجلس عامراً بالملوك والأمراء فأوعز إلى أحد الفقهاء بإعداد خطبة بليغة تتناسب وذلك المقام وأبّهة الخلافة، غير أنّه عجز عن ذلك وأغمي عليه من الدهشة، فوكّل الأمر لأبي علي القالي وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد من العراق، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى الله على نبيه ثم وقف ساكناً مفكراً في كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه، فلما رأى منذر

¹ إحكام صنعة الكلام، أبو القاسم الكلاعي، ص: 163.

² ينظر الجامع في تاريخ الأدب العربي، حتّا الفاخوري، ص: 902.

³ تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، ج8، ص: 486.

⁴ ينظر أشكال الخطاب النثري الفني الأموي في المغرب الأندلسي، حسين علي الهنداوي، ص: 64.

بن سعيد ذلك واصل الكلام عنه¹ مرتجلاً: «أما بعد حمد الله والثناء عليه، والتعداد لآلائه والصلاة والسلام على صفيّه وخاتم أنبيائه فان لكل حادثة مقاماً ولكل مقام مقالاً، وليس بعد الحقّ إلا الضلال وأني قمت في مقام كريم بين يدي ملك عظيم، فأصغوا إلي معشر الملاء بأسماعكم والقفوا عني بأفئدتكم، أن من الحق ان يقال للمحق صدقت، وللمبطل كذبت وان الجليل - تعالى في سمائه وتقدس بصفاته وأسمائه - أمر كليمه موسى (ص) وعلى نبينا وعلى جميع أنبيائه أن يذكر قومه بأيام الله - جل وعز - عندهم»²، استهل الخطيب كلامه بالحمد والثناء على الله سبحانه وتعالى والصلاة والسلام على رسوله الكريم، ثم انتقل إلى تذكير السامعين بسنة رسوله التي دعت إلى قول الحق «وفيه وفي رسول الله (صلى الله عليه وآله) أسوة حسنة وأني أذكركم بأيام الله عندي وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شعثكم وأمت سربكم، ورفعت فرقكم بعد أن كنتم قليلاً فكثرتم، ومستضعفين فقواكم، ومستذلين فنصركم، وواه الله رعايتكم وأسند إليه إمامتكم أيام ضربت الفتنه سرادقها على الآفاق حتى صرتم في مثل صدفة البعير من ضيق الحال ونكد العيش والتعسير فأستبدلكم بخلافته من الشدة بالرخاء...»³.

ثم أقرّ بمناب الخليفة وعظيم أعماله التي تستحق الشكر والإمتنان، وماحققه من استقرار، دون مبالغة أو تملق، كما دعا إلى ضرورة طاعة الحاكم حتى يستتب الأمن والإستقرار، وختم خطبته بالدعوة إلى وحدة الكلمة «فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به فإنّ الله تبارك وتعالى يقول (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين (...) أقول قولي هذا وأختم

¹ ينظر نفع الطيب، المقري، ج1، ص:365.

² جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، ج3، ص:170.

³ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

بالحمد مستغفراً لله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين.¹، وما يثير العجب أن الخطبة اتّسمت بطولها على الرّغم من أنّ الموقف يحول دون ذلك، وهذا يدلّ على أن الخطيب على قدر كبير من البلاغة، والبديهة وسعة الخاطر، وشدّة القلب ورباطة الجأش، وممتلك ناصية القول، وهي أهم الصفات التي ينبغي أن يتحلّى بها الخطيب .

وجاءت لغتها جزلة فصيحة، مرسلة ميسورة تقوم على أساس الجملة القصيرة والعبارة الموجزة وهي لا تعتمد الإسراف في التتميق اللفظي، وفيها بعض فنون البديع غير المتكلفة من جناس وطباق واقتباس من القرآن الكريم.²

وقد تؤدي الخلافات بين أقطاب السلطة إلى إضرار الحقد والحسد لبعضهم البعض، ومن الضرورة أن يتدخل الحاكم لإخماد هذه الشحناء لأنهم ليسوا أعداء وينبغي لهم الإتحاد ضدّ العدو، وحفظت لنا خطبة المنصور هذا النوع من الخلاف عندما تحدّث أحدهم في حضرته عن الرّمادي وكان حاسدا له فقال: «ما بال أقوام يُشيرُون في شيء لم يُستشارُوا فيه، ويُسيئون الأدب بالحكم فيما لا يُدرون، أيرضي أم يُسخط؟ وأنت أيها المبتعث للشر دون أن يُبيعث، قد علمنا غرضك، في أهل الأدب والشعر عامّة، (...). وعرفنا غرضك في هذا الرجل خاصة، ولسنا إن شاء الله نبّغ أحداً غرضه في أحد، ولو بلغناكم بلّغنا في جانبكم، وإنك ضربت في حديد بارد، وأخطأت وجه الصواب، فزدت بذلك احتقاراً وصغاراً»³ ويظهر غضب الخليفة جلياً من نبرته الحادّة التي خاطب بها الوزير، وكلّها زجر له ونهي عن اقحام نفسه في أمور لا تعنيه، ثم ينتقل إلى تعليل حنقه من الرّمادي مبرراً أفعاله «وإني ما أطرقت من كلام الرّمادي إنكاراً عليه، بل رأيت كلاماً يجلّ عن الأقدار الجليّة، وتعجّبتُ من تهدّيه له بسرعة، واستنباطه له على قلة من

¹ جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، ج3، ص:172.

² ينظر الجامع في تاريخ الأدب العربي، حتّا الفاخوري، ص:902.

³ نفتح الطيب، المقرئ، ج1، ص:226.

الإحسان الغامر، ما لا يستنبطه غيره بالكثير... وإياكم أن يعود أحد منكم إلى الكلام في شخص، قبل أن يؤخذ معه فيه، ولا تحكموا علينا في أوليائنا، ولو أبصرتم منا التغيير عليهم، فإننا لا نتغيّر عليهم بَعْضًا لهم، وانحرافًا عنهم، بل تأدييًا وإنكارًا، فإننا مَنْ نريد إبعاده لم نظهر له التغيّر، بل ننبذه مرة واحدة، فإن التغيّر إنما يكون لمن يُراد استبقاؤه، ولو كنت ماثل السمع لكل أحد منكم في صاحبه، لتفرقتم في أيدي سبّاء، وجُونِبْتُ أنا بجانب الأجر، وإني قد أَطَلَعْتُكم على ما في ضميري، فلا تعدلوا عن مَرْضَاتِي، فتجنّبوا سخطي بما جنّبتموه على أنفسكم»¹، ويستمر في تهديد أعوانه ويحذّرهم غضبه، كما يبين لهم أنّ سخطه وسيلة لتأديب بعضهم، وينهاهم عن حسد بعضهم البعض كونه يؤدّي للتفرقة.

3-2 الخطبة الدينية:

جاءت الخطبة والمواعظ الدينية، لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ولم تكن تلك الخطب تقتصر على الجمعات والأعياد والمواسم، بل كانت قصور الخلافة ومجالس الناس في الشوارع والأسواق مسرحاً لها، فكلما سنحت الفرصة لإمام أو غيره، انتهزها لتبصير الناس بأمر دينهم، وحثّهم على الصلاح والفلاح.

ومن الخطب الوعظية ماجاءت على لسان الأمير يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط يزر فيها أحد خدامه، فبعد أن مدح بعض الشعراء يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط، وعده بمال جزيل، فلما حان وقت أخذه جاءه بمدح آخر، فقال أحد خُدّام يعقوب: هذا اللئيم له دين عندنا يقتضيه! فقال الأمير: «يا هذا، إن كان الله تعالى خلقتك محبوباً على كره رب الصنائع، فاجر على ما جُبلت عليه في نفسك، ولا تكن كالأجرى يُعدي غيره، وإن هذا رجل قصدنا قبل، فكان منا ما أشّر به، وحمله على العودة، وقد ظن فينا خيراً، فلا تحيّب ظنّه، والحديث أبداً يحفظ القديم، وقد جاءنا على جهة التهئة بالعمر، ونحن

¹ نفع الطيب، المقرئ، ج1، ص:226.

نسأل الله تعالى أن يطيل عمرنا، حتى يُكثِر تَرَدَّاده، ويُدِيم نعمنا حتى نجد ما نُنعم به عليه، ويحفظ علينا مُرُوءتنا، حتى يعيننا على التَّجَمُّل معه، ولا يُبَلِّينا بجليسٍ مثلك، يَقْبِض أيدينا عن إسداء الأيادي¹»، وفي الخطبة تأديب للخادم، فقد وصفه الأمير باللئيم والبخل، ووضح له أن المال رزق الله يبارك لمن تصدَّق به، ويدعو الله أن يطيل عمره لينفق من خيره، وخير شيء يصنعه أن يجبر بخواتم الخلق.

وخطبة أئمة المساجد التي تكون الغاية منها في الأصل التأثير في المتلقي، وجعل قلبه معلق بالمسجد، منها خطبة أحمد بن بقي بن مخلد التي سكت في آخرها ثم واصل يتضرع فيها لله سبحانه وتعالى ويسأله المغفرة والتواب: «اللَّهُمَّ وَقَدْ دَعَاكَ هَذَا النَّفْرُ مِنْ عِبَادِكَ، السَّاعُونَ لثَوَابِكَ، الْمُجْتَمِعُونَ بِبَابِكَ، فَرَعًا مِنْ عِقَابِكَ، وَطَمَعًا فِي ثَوَابِكَ، وَقَبْلَهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ مَا قَدْ أَحَاطَ بِهِ عِلْمُكَ، وَأَحْصَاهُ حِفْظُكَ، فَعَدَّ عَلَيْهِمْ فِي مَوْقِفِهِمْ هَذَا بِرَحْمَةِ تَوْجِبَ لَهُمْ جَنَّتِكَ، وَتَجِيرَهُمْ بِهَا مِنْ عَذَابِكَ آمِينَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»² فالفقيه خصَّ خطبته بالدعاء للرعية، وسأل الله أن يتجاوز عنهم تقصيرهم في جنبه، واستعاذ من نار جهنم ومما يميز خطبته ميله للتأني والروية في إلقائها مما يعكس رجاحة عقله وتواضعه.

وقد تكون الغاية من الخطبة تعزية النفس ومواساتها وبيان أن المرء وجد في الدنيا للامتحان والابتلاء، منها خطبة الأمير عبد الرحمن، عندما بويع للخلافة، فبعد أن صلى على أبيه الحكم، ودفنه جلس بالأرض متطأطأ، ليس تحته وطاء، وجلس من كان معه، ثم افتتح القول؛ فقال: الحمد لله، الذي جعل الموت حتما من قضائه، وعزما من أمره، وأجرى الأمور على مشيئته، فاستأثر بالملكوت والبقاء، وأذل خلقه بالفناء، تبارك اسمه وتعالى جده، وصلى الله على محمد نبيه ورسوله، وسلم تسليما، وكان مصابنا بالإمام - رحمه الله! - مما جلت به المصيبة، وعظمت به الرزية، فعند الله تحتسبه، وإياه نسأل إلهام

¹ نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص: 578-579.

² تاريخ قضاة الأندلس، النباهي، ص: 65.

الصبر، وإليه ترغب في كمال الأجر والذخر! وعهد إلينا فيكم بما فيه صلاح أحوالكم ولسنا ممن يخالف عهده، بل لكم لدينا المزيد إن شاء الله!»¹ فالأمير أمام مصاب عظيم تجلّى في فقد والده، ومع ذلك وجب عليه الثبات والسير على نهج والده حتى تستقيم له أمور البلاد، فكانت خطبته اعلان رسمي لتولية المنصب مع زجر لنفسه عن التيه والعجب بالمنصب الجديد.

وتلقى هذه الخطب استحسانا من الناس في أغلب الأحيان، لما تثيره في نفوسهم من أحاسيس ومشاعر كالندم والخوف، ولما عُرف عن أصحابها من ورع وتقى وصلاح، ومن نماذجها خطبة منذر بن سعيد البلوطي، قائلاً: «حتى متى، وإلى متى، أعظ ولا أتعظ، وأزجر ولا أنزجر، وأدُلُّ الطريق إلى المستدلين، وأبقى مُقيماً مع الحائرين! كلا، إن هذا هو البلاء المبين! إن هي إلا فتنتك تضلُّ بها من تشاء، وتهدي بها من تشاء، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا، وأنت خير الغافرين، اللهم فرِّغني لما خلقتني له، ولا تشعلني بما تكفّلت لي به، ولا تحرمني وأنا أسألك، ولا تعذبني وأنا استغفرك، يا أرحم الراحمين»² ووجه القاضي الخطبة لنفسه حتى يزجرها وينهاها عن الكبر والعجب الذي يصيب المرء إذا أحسن عملاً.

وقد لعبت المواعظ كذلك دوراً بليغاً في تبصير الناس بعيوبهم، وتصحيح نظرهم للحياة، ودعوتهم إلى التوجه إلى الله، وكانت الخطبة خير معين على ذلك، ولم توجه إلى عامة الناس فقط بل طالت حتى الأمراء والخلفاء، ومن نماذجها خطبة منذر بن سعيد البلوطي، انتقد فيها الناصر حين أسرف في تشييده لقصر الزهراء، حتى شغله ذلك عن حضور صلاة الجمعة بالمسجد الجامع حيناً من الزمان، ثم رجع إلى صلاة الجمعة بعد ذلك، فأراد أن يعظه موعظة بالغة زاجرة، فبدأ خطبته بقول الحق تبارك وتعالى: «أَتَبْنُونَ

¹ البيان المغرب، ابن عذاري، ج2، ص: 90-91.

² نفح الطيب، المقرئ، ج1، ص: 333.

بِكُلِّ رِيحٍ آيَةٌ تَعْبُثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُمْ
بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (131) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا
تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ (133) وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135)»¹ ثم أعقبها كلاماً ذم به الخليفة واستغراقه في
زخرفته، وإسرافه في الإنفاق عليه وعلم الخليفة أنه المقصود فغضب، وأقسم أن لا يُصلي
وراءه، وحين سأله ابنه الحكم أن يعزله عن الصَّلَاة، ويستبدله بغيره، زجره والده، وقال:
«أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه، لا أمَّ لك، يُعزل لإرضاء نفس ناكبة عن
الرُّشد، سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون، وإني لأستحي من الله، ألاَّ أجعل بيني وبينه
في صلاة الجمع شفيعاً مثل منذر، في ورعه وصدقه، ولكنه أخرجني، فأقسمتُ لوددت أن
أجد سبيلاً إلى كفارة يميني بملكي، بل يُصلي بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى، فما
أظننا نعاض عنه أبداً»² والقصة خير دليل على أن الخطيب لم يتوان لحظة عن أداء دوره،
ولم يخش في الحق لومة لائم، فأتت نصيحته أكلها وتسببت في ندم الخليفة على ما بدر
منه، وخوفه من الله وسخطه .

ولأن المال فتنة، ووجب على الخلفاء التّدخل بوعظ العمّال ممن منّ الله عليهم
بالمال، كونه فتنة قد يضرّ صاحبه، فمحمد بن سعيد المعروف بابن السليم قد جمع أموالاً
كثيرة بتصرفه في كبار الولايات في المدة الطويلة، فعلم ذلك منه الناصر، فعرض له مرارا
في أن يساهمه فيه عن طيب نفس منه، ولو شاء لأخذه منه عنوة، ولكنه رفض الاستبداد
بعامله، ورأى أن يخصّه بخطبة علّه يتّعظ، فقال: «ما بال رجال من خاصتنا توسعوا في
دنيانا، فطفقوا يحتجون الأموال، ويضيعون تعمدنا، وهم يرون غليظ مؤونتنا في الإنفاق
على شؤوننا التي بقدرتنا عليها صلاح أحوالهم ورفاهية عيشتهم، ويعلمون أن أمير المؤمنين
عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قسطاس الموازين، قاسم عماله أرباحهم في

¹ سورة الشعراء 128-135.

² نصح الطيب، المقرئ، ج 1، ص: 367.

تجاراتهم، فجعلها في بيت المال، وهو من هو، وهم من هم، والأسوة في فعله»¹، ففي كلام الخليفة تقرير وتأييد له لجمح شغفه وتعلقه بالمال واكتنازه، استعان فيه بتذكير بسيرة خليفة المؤمنين عمر بن الخطاب وكيف صنع مع رعية في موقف مشابه، لعلها تكون عبرة له.

والحقيقة أن الخطب -على قلتها- كشفت بوضوح عن قدرة الأندلسيين على الكتابة، والفصاحة في القول وحسن البيان، وجودة الإبانة والإفهام، فرغم حرص الخطباء الوعاظ على اصلاح السامعين واقناعهم بضرورة التمسك بجبل الله لم يغفلوا الجانب الفني لخطبهم، إذ اعتنوا به عناية كبيرة، ومالوا إلى الاهتمام بإعدادها، والتدبر في ترتيب أجزائها وتنسيق أفكارها، فيزودونها ضروبا من المحسنات البديعية، والصور البيانية التي تزيد المعنى وضوحاً وجلالاً.

4- الوصايا:

الوصايا من الفنون النثرية المستمرة باستمرار وجود الإنسان، تصدر من قريب خبير بأمور الحياة وتقلباتها، إلى أهله وخاصته دون رياء ولا تصنع، تهدف إلى النصيح والتوجيه والتعليم،² وهي أيضا نوع من الأدب غايته التوجيه والإرشاد والحث على اكتساب المحامد، أو التبصير بحسن السياسة، أو الدعوة إلى مكارم الأخلاق³، للفلاح في الدارين الدنيا والآخرة.

وقد حفل الأدب الأندلسي بالعديد من الوصايا التي واكبت حياة أصحابها في مجتمع يحرص على إرساء تعاليم الدين الحنيف، ويسعى إلى القضاء على الفتنة والتناحر

¹ البيان المغرب، ابن عذارى، ج2، ص: 225.

² ينظر تاريخ الأدب الأندلسي، محمد سيوفي، ص: 232.

³ أساليب النثر الفني، لطيف محمد العكّام، مطبعة الآداب، النجف، 1974، ص: 105.

بين أبنائه، ومن جملة من عرفوا بوصاياهم الماثورة في هذه الفترة خلفاء وأمراء بني أمية الذين حاولوا قدر الإمكان الحفاظ على ملكهم وحمايته من الأخطار المحدقة به.

ومن هذه الوصايا ما كان يدعو إلى توحيد الصفوف واستنهاض الهمم، وإلحاق الهزيمة بالأعداء، منها وصية الأمير عبد الرحمن الداخل يوم دارت موقعة عظيمة جداً، واشتد الكرب بين يديه يوم حربه مع الفهري، ورأى شدة معاناة أصحابه، قال «هذا اليوم هو أس ما يبنى عليه، إما ذلّ الدهر وإما عزّ الدهر، فاصبروا ساعة فيما لا تشتتون ترجوا بها بقية أعماركم فيما تشتتون»¹، فالوصية خير سند معنوي ومحضّ لجنود اشتدّ بهم التعب، وتسأل اليأس إلى قلوبهم، والأمير بنباهته وفطنته علم بحالهم، ورأى أن يخفف عنهم الوطأ قبل أن تذهب مساعيه سداً، وبإذن الله تحقّق مطلبه، وانتصر ومن معه، وهزم يوسف بن عبد الرحمن الفهري من أرض المعركة بجيشه الكبير، وفرّ يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وكما جرت العادة أن يتابع المنتصرون المنهزمين حتى يقتلوهم ويقضوا على الثورة، فبدأ اليمينيون يجهزون أنفسهم حتى يتبعوا الجيش الفار، لكن عبد الرحمن بن معاوية منعهم من تتبع الفارين، وهو يقول «لا تتبعوهم، اتركوهم، لا تستأصلوا شأفة أعداء ترجون صداقتهم، واستبقوهم لأشدّ عداوة منهم»² فهو يوصيهم بالعفو عنهم لأنه في حاجة إليهم للقضاء على الأعداء الحقيقيين وهم النصارى، فمن هم أعداء اليوم سيكونون حلفاء غدا يكفي أن يصبروا عليهم، وتُتم الوصيتان عن حنكة وحكمة ونباهة تحلى بها الرجل ذي الخمس وعشرين سنة، وهو تدبير يفوق عمره، فقد جرت العادة أن تكون الحكم من ذوي التجارب الخصبّة ممن عمّروا طويلاً.

ومن أشهر الوصايا وصايا الإستخلاف التي يقدّمها الخلفاء والأمراء إلى أبنائهم ممن سيخلفونهم في المنصب، تتضمن نصائح وحكم تعينهم على تقلّد المنصب، يرسمون لهم

¹ نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص:42

² المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

فيها الطريق الصحيح الذي يجب اتباعه، منها وصية الحكم بن هشام الرضوي لولده وولي عهده عبد الرحمن، حين حضرته الوفاة يا بُني، احفظ ما أقول لك وأوصيك به، وأصغ إليه بسمعك وذهنك: «إني وطّدت لك الدنيا، وذللّت لك الأعداء، وأقمت أود الخِلافه، وأمّنت عليك الاختلاف والمنازعة، فاجر على ما نهجت لك من الطريقة»،¹

ويتحدث الأمير عن أعماله وجهوده في توطيد الأمر لولي عهده، ويدعوه إلى اتباع نهجه، ثم ينتقل إلى تحديد أهم الواجبات التي يجب عليه أن يراها نحو أقربائه ومواليه ورعيته، وتجاه أنصاره الموالين له وخصومه الناقمين عليه «واعلم أنّ أولى الأمور بك وأوجبها عليك حفظ أهلِكَ ثمّ عشيرتك، ثمّ الذين يلوّهم من مواليك وشيعتك، فهُم أنصارك وأهل دعوتك، ومشاركوك في حلوك ومرك، فبهم أنزل ثقتك، وإياهم واس من نعمتك، وعصابتهم استشعر دون المتوثبين إلى مراتبهم من عوام رعيتك، الذين لا يزالون ناقمين على الملوك أفعالهم، مستثقلين لأعبائهم، فاحسبم عليهم ببسط العدل لكافتهم، واعتيام أولى الفضل والسداد لأحكام عمالاتهم، دون أن ترفع عنهم ثقل الهيبة وإصر الرهبة».²

وينصحه بالحفاظ على هيئته، والتزام العدل، واختيار المسؤولين من عرفوا بحسن السيرة والكفاءة الجديرين بالمنصب، وبتشجيع ذوي الهمم والطموح وتحفيزهم وتكريمهم، ومعاينة المخطئ، ترغيباً للناس فيه، وفي الوقت ذاته ترهيباً لهم، والحرص على حفظ المال لضمان استمرار الملك «فلتحيهم ما تحملهم عليه من قصد السيرة وبذل النصفة، فلا تمكّنهم من الارتقاء إلى فوق منازلهم البتة، إلا أن ترى رجلاً قد نهضت به نفسه، وسمت به خصاله، فانهض به وأعنه؛ فإنّ أول كلّ شرفٍ خارجيّة، ولا تدع كلّ وقتٍ وعلى كلّ حال تعجيل مكافأة المحسن بإحسانه، وتنكيل المسيء بإساءته؛ فهما يجبان عنك

¹ دولة الإسلام في الأندلس محمد عنان، ص: 248.

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الرَّغْبَةَ والرَّهْبَةَ، وَمِلاكَ أَمْرِكَ كُلَّهُ المَالُ وَحِفْظُهُ، بِأَخْذِهِ مِنْ حِلِّهِ، وَصَرْفِهِ فِي حَقِّهِ (...). وَخِتامُ وَصِيَّتِي إِلَيْكَ بِأَحْكامِكَ فِي أَحْكامِكَ، فَاتَّقِ اللَّهَ ما اسْتَطَعْتَ، وَإِلَى اللَّهِ أَكِلُكَ، وَإِيَّاهُ اسْتَخْفِظُكَ»¹ وَيخْتَمُ وَصِيَّتَهُ بِتَذْكِيرِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالْحِكمِ بِشَريعَتِهِ، فَمَتَى صَنَعَ ذَلِكَ اسْتَبَدَّ لَهُ أَمْرُ البِلاَدِ وَالعِبادِ، وَهَذِهِ الوَصِيَّةُ نَتاجُ خِبرَةٍ فِي الحِياةِ وَحِكمةِ وَذوقِ أَدِبي رَفيعٍ لِلأَميرِ.

وقد تكون الوصية تأديبية يراد بها ردع الأمير وتوجيهه والحد من طيشه، فقد ذاق الأمير عبد الرحمن الأوسط ذرعا من ابنه المنذر وسوء خلقه، وانصاته لأقوال الوشاة وكثرة شكواه، فقرّر الأمير نفيه، وعزله عن أحبّته، فأحس الابن بوطأة الوحدة واشتاق إلى غلمانه وأصحابه، وعلم ما أراده أبوه من محنته وتأديبه فكتب إليه رسالة، لما قرأها الأمير علم أن وسيلته في التربية قد أجدت نفعاً، استدعاه وبرّر له موقفه نافياً أن يكون ما قام به عقاب له بل هو تأديب له وإراحتة ممّن كثرت شكواه منهم، وحثّه على التحلي برحابة الصدر، وتجاهل أصاغر الأمور «وصلت رقعتك، تشكو ما أصابك من توحّش الانفراد، في الموضوع، وترغب أن تأنّس بحَوْلِكَ وعبيدك وأصحابك، وإن كان لك ذنب يترتب عليه أن تطول سكنك في ذلك المكان، وما فعلت ذلك عقاباً لك، وإنما رأيناك تُكثر الضجّر والتشكّي من القال والقيّل، فأردنا راحتك بأن نُحجّب عنك سماع كلام من يرفع لك ويبيّن، حتى تستريح منهم... فَإِذْ قد عرفت وتأدّبت، فارجع إلى ما اعتدته، وعوّل على أن تسمع كأنك لم تسمع، وترى كأنك لم تر»²، وبعد تعليمه سياسة التغافل، انتقل إلى ليعبّر له فن حبه له، وحثّه على اجتناب كرهه وربط محبّته بالمواقف البادرة منه، وأن يضمّر له السوء وحمد الله على نعمة ستره للبشر فجعل نفسه-الله- الوحيد القادر على معرفة خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فلو علمنا ما نكنّ لبعضنا البعض لما نظر أحدنا إلى الآخر، وكثيرا ما كان يصادف مواقف يستحق أصحابها قطع الرؤوس، ولكنه كان يتجاهل ويعفو لأن طبائع البشر غير ثابتة، فكم من مسيء أصبح ولياً

¹ دولة الإسلام في الأندلس محمد عنان، ص: 248

² نفع الطيب، المقرئ، ج3، ص: 576.

حميماً» واعلم أنك أقرب الناس إليّ، وأحبهم فيّ، وبعد هذا فما يخلو صدرك في وقت من الأوقات عن إنكار عليّ، وسخط لما أفعله في جانبك، أو جانب غيرك، مما لو أطلعني الله تعالى عليه لساءني، لكن الحمد لله الذي حفظ ما بين القلوب بستر بعضها عن بعض، فيما يجول فيها، وإنك لذو همة ومطمح، ومن يكن هكذا يصبر ويعض ويحمل، ويبدل بالعقاب الثواب، ويصير الأعداء من قبيل الأصحاب، ويصبر من الشخص على ما يسوء، فقد يرى منه بعد ذلك ما يسرّ، ولقد يخفُّ عليّ اليوم من قاسيت من فعله وقوله ما لو قطعتم عضوا عضوا لما ارتكبه مني، ما شفيت منهم غيظي، ولكن رأيت الإغضاء والاحتمال، لاسيما عند الاقتدار أولى، ونظرت إلى جميع من حولي ممن يحسن ويسيء، فوجدت القلوب متقاربة بعضها من بعض، ونظرت إلى المسيء يعود محسناً، والمحسن يعود مسيئاً، وصرْتُ أندم على من سبق له مني عقاب، ولا أندم على من سبق له مني ثواب، فالزم يا بني معالي الأمور، وإن جماعها في التغاضي، ومن يتغاض لا يسلم له صاحب، ولا يُقرب منه جانب، ولا ينال ما تترقى إليه همته، ولا يظفر بأمله، ولا يجد معيناً حين يحتاج إليه»¹ وفي آخر الوصية حثّه على السعي وراء مناصب رفيعة، جاعلاً التغاضي شعاره في الحياة.

ومميّز هذه الوصية أنها جاءت في وقت مبكر، ولم تكن خلاصة تجارب تركها لآخر حياته، لأن الغاية منها تقويم سلوك ابنه الطائش الذي ينم عن اللامسؤولية، وما كان للأمير أن يترك الأمر يستفحل خوفاً على ضياعه، بحكم انتمائه للسلالة الحاكمة، فاستعان بخلاصة تجربته ورؤيته الشخصية للأمور، وانتهج أسلوب الأبعاد والحرمان من النعم حتى يدرك قيمة ما يملكه فلا يفكر مرة أخرى في تبديده.

¹المصدر نفسه، ج3، ص:576.

وكانت بالفعل وصية قيمة أتت ثمارها وساعدت على تغيير سلوكه فكان بحق على قدر المسؤولية سلوكاً وعملاً، وقد ذكر المقرئ ذلك في كتابه «ولم يزل يأخذ نفسه بما أوصاه به والده حتى تخلق بالخلق الجميل وبلغ ما أوصاه به أبوه، ورفع قدره»¹.

ولم يكن المنصور محمد بن أبي عامر أقلّ حكمة ودهاء ممن سبقه، فقد ترك لابنه عبد الملك المظفر وصية في مرضه الأخير، استهلها بدعوته إلى الالتزام برأي أبيه وسلوكه السياسي واتخاذ نمودجا ومثالا يحتذيه ويقتدي به «يا بني، لست تجد أنصح لك مني فلا تعدين مشورتي، فقد جردت لك رأيي ورويتي على حين اجتماع من ذهني، فاجعلها مثالا بين يديك.. وقد وطأت لك مهاد الدولة، وعدلت لك طبقات أوليائها، (...) فلا تطلق يدك في الإنفاق، ولا تقبض لظلمة العمال، فيختل أمرك سريعاً، فكل سرف راجع إلى اختلال لا محالة، فاقصد في أمرك جهدك... واستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك، والرعاية قد استقصيت لك تقويمها، وأعظم منها أن تأمن البادرة، وتسكن إلى لين الجنبه...»² ويذكر ابنه كيف استطاع بقوته وبأسه أن يخضع الرعية لسلطته، وينصحه بضرورة التأي والتثبت في إصدار الأحكام، ويخبره بنوع الرعية التي يسوسها، ويوصيه بضرورة الحفاظ على ملكه، وأولى المال عناية خاصة وحثه على الحفاظ عليه لما له من دور في استقرار البلاد، وأخوك عبد الرحمن قد صيرت إليه في حياتي ما رجوت إني قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثي عن ولاية الثغر لئلا يجد العدو مساعاً بينكما في خلاف وصيتي فيسرع ذلك في نقص أمري، ويجلب الفاقره على دولتي... فإن انقادت لك الأمور بالحضرة، فهذا وجه العمل، وسبيل السيرة...»³ وتطول الوصية في حث الابن على حفظ نصيب أخيه واجتناب التفرقة بينهما والصراع حول السلطة، مدركاً لما يمكن أن يؤول إليه الأمر إذا حصل ذلك، والحد من بني أمية وعدم الإنخداع بوعودهم، حتى

¹ نقح الطيب، المقرئ، ج3، ص: 576

² أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، لسان الدين بن الخطيب، ص: 82.

³ أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، لسان الدين بن الخطيب، ص: 82.

الفصل الثاني الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالأندلس

يضمن لنفسه سبل النجاة والاستئثار بالحكم، بأسلوب مرسل مباشر بعيد عن التكلف أو الزخرفة، وألفاظ منتقاة، ومعاني واضحة، وحوحج مقنعة تزيد من قيمة الوصية.

قد لعبت الوصية دورا هاما في تربية النشء على مر العصور والأزمنة، وتعدّ الوصية الأندلسية أحد ركائز الحكم، وخلاصة تجارب الخلفاء، تعكس نباهتهم وبلاغتهم.

عبّر الأدب الأندلسي في هذه الفترة عن رؤى وأفكار الأدباء الأندلسيين، ولو غلب عليه التقليد في أشكاله فهو مجدّد في المضامين لأنه تعلّق بتجارب شخصية مرّوا بها وارتبط بأغلب الظروف اليومية التي عاشوها.



الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية
بالأندلس:

أولا- البعد السياسي

ثانيا البعد الاقتصادي

ثالثاً: البعد العمراني

رابعا: البعد الانساني

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

تعدّ الأندلس معقلا من معاقل الإسلام ومركزا من مراكز الإشعاع الثقافي والحضاري في عصور الإسلام الزاهرة، ونخص بالذكر الخلافة الأموية في الأندلس - من القرن الثاني حتى القرن الرابع الهجري - التي لم تقف عند الاقتباس عن حضارة بغداد، بل أخذت تعمل على أن يشع نفوذها إلى خارج حدودها كأمة عظيمة متمدنة.

واستطاع أهلها في أقل من قرن أن يُحيوا ميت الأرض، ويُعمروا خراب المدن ويُقيموا أفخم المباني ويُوطّدوا العلاقات التجارية بالأمم الأخرى، ويُدرسوا العلوم والآداب ويُترجموا كتب اليونان واللاتين، ويُنشئوا الجامعات، فأخذت حضارة العرب تنهض في الأندلس وسطعت شمسها على الأمم المجاورة المسلمة والمسيحية على حد سواء، لُتُبَدَدَ الظلمة وتزيح الجهل، وتنفع البلاد والعباد حاملة معها أبعادا سياسية وإنسانية وعلمية وفنية.

ومن العوامل المساعدة على انتشار الثقافة الأموية الأندلسية، وامتداد إشعاعها على البلدان المجاورة، سعي العديد من الدول الأوروبية إلى توطيد العلاقات مع الأندلس لاسيما في عصر الخلافة الأموية، حيث ساعدت العلاقات الدبلوماسية على نقل علوم العرب إلى هذه البلدان، كما أسهم حب المسلمين للتجارة والتنقل في نقل ثقافتهم للبلدان الأخرى، فهؤلاء التجار الذين جاؤوا البلاد وأقاموا علاقات تجارية مع الكثير من البلدان الأوروبية، نقلوا حضارتهم إليها،¹ وينبغي أن لا نغفل دور البعثات العلمية الأوروبية التي توافدت على مراكز الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس للنهل من معارفها وعلومها².

والمستعربون mozarabes الذين عاشوا مع العرب في الأندلس، كان لهم دور بارز في نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى اسبانيا النصرانية، وأطلق عليهم اسم المستعربين كونهم تبنوا تقاليد العرب ولغتهم، وبحكم معرفتهم للغتين العربية والاسبانية القديمة كانوا

¹ ينظر المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، القاهرة، ط1، 1963، ص: 118

² ينظر المرجع نفسه، ص: 43.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

ينتقلون بحرية بين البلدين، ولم ينقطعوا عن الهجرة إلى المناطق الشمالية في إسبانيا¹، فهذا الاحتكاك والتعايش بين مختلف شرائح المجتمع الأندلسي، وقرّ للاسبان وغيرهم سبل الأخذ عن المسلمين، بشكل مباشر وغير مباشر².

وحافظ المدجنون (Mudejares) على الخصوصية الإسلامية في المجتمعات المسيحية، فبعد وقوع «قواعد ومدن المسلمين في الأندلس واحدة إثر الأخرى في يد الاسبان، أصبح الكثير من المسلمين رعايا للمسيحيين، عليهم دفع الجزية والضرائب والخضوع للحكم الاسباني المسيحي»³، وكان موقفهم شبيه بموقف أهل الذمة تحت ظل الحكم العربي الإسلامي، وهم أحرار في إتباع عقيدتهم الإسلامية، وممارسة حرفهم وتجارتهم⁴ يعيشون في أحياء خصصت لهم كمواطنين من الدرجة الثالثة⁵، وقد لعبوا دوراً هاماً في نقل مختلف العلوم إلى الاسبان في الشمال، ومنها إلى أوروبا، وكان ملوك وأمراء هذه الإمارات الإسبانية يضطرون إلى الاحتفاظ بهؤلاء المسلمين بسبب أهميتهم الاقتصادية للبلاد، فكان وجودهم ظاهرة تاريخية مهمة جداً في حياة إسبانيا، أدت إلى خلق بنية اقتصادية، وحضارة مادية وعلمية مشتركة بين المسيحيين والمسلمين، بلغت أوجّها في العهود التي أعقبت عهد الإمارة الأموية⁶.

هذه العوامل مجتمعة حققت التّواصل الحضاري بين العالمين المتصارعين - العالم الإسلامي والغرب المسيحي - ذلك التّواصل الذي شمل أوروبا برمتها⁷، حتى عُدّت

¹ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 148.

² ينظر انتقال الطب العربي إلى الغرب، معايير وتأثيره، محمود الحاج قاسم، دار النفائس، دمشق، 1999، ص: 23-24.

³ المسلمون المدجنون في الأندلس، حسين يوسف دويدار، مطبعة الحسين الإسلامية، مصر، ط1، 1993، ص: 9.

⁴ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 147.

⁵ ينظر المسلمون المدجنون في الأندلس، حسن دويدار، ص: 10.

⁶ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 147.

⁷ ينظر الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت، 1999،

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

الأندلس أهم المعابر التي تمت خلالها عملية الإخصاب بين الفكر العربي الإسلامي والفكر الأوربي.

أولاً: البعد السياسي :

لم يكن الفتح العربي للأندلس احتلالاً عسكرياً بل كان حدثاً حضارياً هاماً، امتزجت فيه الحضارات السابقة للبلاد بحضارة جديدة هي الحضارة الإسلامية، ونتج عن هذا المزج والانصهار حضارة أندلسية مزدهرة، مرَّ عليها أنواع من نُظم الحكم، والأوضاع السياسية والإدارية، كانت تسيّر طوراً بعد طور مع مختلف الحوادث والحروب والانقلابات، وتمثلت في :

1- التنظيم الإداري:

إنَّ حرص الأمراء على التقرب من الرعية والسهر على شؤونهم ومراقبة الأعمال في مختلف الأقاليم ومحاسبة المقصرين، استوجب جهازاً إدارياً مُحكماً يضمن التحكُّم في زمام الأمور ورعاية مصالح البلاد، ولذلك تنوعت المؤسسات الإدارية وتعدّدت وامتازت بالتنظيم المحكم، وأهم هذه الأنظمة :

1-1- نظام الخلافة:

غيَّرَ عبد الرحمن الداخل الأمور وجعل الأندلس إمارة أموية بدأ فيها عهد جديد يسمى عصر الإمارة الأندلسية 138 - 316 هـ، وهي إمارة وراثية حكمتها الأسرة الأموية تولاهما الابن عن والده، أو الأخ عن أخيه، أو الحفيد عن جده، مستقلةً سياسياً عن خلافة المشرق العباسية، وعاصرت هذه الإمارة دول إسلامية ذات نظام خلافي.¹

¹ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 361.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

ويتزأس جهاز الحكم الأمير الأموي، يتولى شؤون الدولة، ويتمُّ تنصيبه عن طريق المبايعة بعد وفاة الأمير السابق، ويأمر بإحضار الكُتَّاب والوُصفاء والمقدمين والعرفاء فيبايعونه وبعدها يتم إحضار الإخوة والأعمام وأولادهم بواسطة بعض الوزراء ومعهم الجند¹، فيجلسون في مجالس خاصة مع أعظم رجال الدولة وأرقى العائلات الأندلسية، ويجلس الحاكم الجديد للبلاد على سرير الملك بمجلسه الضخم، ويكون إخوته وعمومته وأولادهم أول الدَّاخلين عليه، ولباسهم الأردية البيض إعلاناً لحزبهم على الحاكم الراحل، فيبايعونه بأيديهم، بعد الإنصات لقراءة صحيفة البيعة بصوت أحد الوزراء، ويعلنون التزامهم، ثم يقوم أحد أولئك الأمراء ويرتل كلمة نيابة عن أبناء الأسرة الأموية يُعزي فيها الحاكم بوفاة والده الفقيه ويهنئه بالمنصب الجديد²، ثم يتقدم الوزراء وأولادهم وإخوانهم ويتبعهم أصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة، فإذا بايعوه قعدوا جميعاً عن يمين الأمير وشماله، ويتولى أحد كبار رجالات الدولة أخذ البيعة عن بقية الحضور³، وبهذا الشكل تتم مراسيم تنصيب الحاكم، في كل مرة يُتوفى فيها الأمير.

وظلت الدولة الأموية زمناً تتشخُّ بثوب الإمارة وفقاً لما قرره مؤسسها عبد الرحمن الداخل، مع أن بلاط قرطبة بلغ مبلغاً عظيماً من القوة والبهاء، في عصر الأمراء مثل الحكم بن هشام، وولده عبد الرحمن وأضحى ينافس بلاط بني العباس في الأخذ بزعامة الإسلام، إلا أنّ أمراء بني أمية ساروا على نهج أجدادهم في الاكتفاء بلقب الإمارة.⁴

وتحوّلت الدولة الأموية من إمارة إلى خلافة، عام 316 هـ استجابة لرغبة الأندلسيين في أن يكون أميرهم خليفة للمسلمين- وخاصة بعد قضائه على أهم حركات

¹ ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج1، ص: 387.

² نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، سالم بن عبد الله الخلف، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط2003، 1، ص: 134.

³ ينظر نفع الطيب، المقرئ، ج1، ص: 387.

⁴ ينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان، ص: 682.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

التمرد-وأصبح الأمير بحاجة إلى رفع مكانته السياسية والدينية، فكان عبد الرحمن الناصر أول خليفة أندلسي، واستمر لقب الخليفة في ذريته من بعده حتى سقوط الدولة الأموية في الأندلس سنة 422هـ، ويقوم نظام الخلافة في الأندلس على أساس التوريث، ويعتمد على السياسة والدين، عكس الخلافة الراشدة التي قامت على مبدأ الشورى والانتخاب.¹

ومن مظاهر الرئاسة بالأندلس، استخدام الأمير الأموي الخاتم «وهو من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية»²، وهو عبارة عن آلة تصنع بدقة تنقش عليها بعض الكلمات ويلبس بالإصبع ويختتم به على الرسائل أو الأوامر الصادرة من الأمير أو الخليفة،³ ولكل أمير أو خليفة أموي في الأندلس خاتم خاص به منقوش عليه اسمه، يتولى أحد كبار رجالات الدولة عملية الإشراف على نقشه، كمنقش الأمير عبد الرحمن الداخل ومضمونه "عبد الرحمن بقضاء الله راض".⁴

وفي الوقت الذي نجد فيه الخليفة العباسي يحكم بتفويض من الله، كما قال الخليفة المنصور " إنما أنا سلطان الله في أرضه"، والخليفة الفاطمي يرى نفسه إماماً معصوماً من الخطأ، ولا يُسأل عما يفعل، نرى الخليفة الأندلسي يُقدِّم نفسه للناس بصفة، إنسان عادٍ يخطئ ويصيب، وللناس حرية نقده⁵، فقاضي قرطبة المنذر بن سعيد البلوطي انتقد الخليفة الناصر على الأموال الطائلة التي صرفها في بناء مدينة الزهراء، وخصَّه بخطبته يوم الجمعة، فعلم الخليفة أنه المقصود، ومع ذلك لم يعزله من منصبه، ومن هنا يتبين أن نشأة الخلافة الأموية الأندلسية تخالف نشأة الخلافة الإسلامية في الممالك الأخرى.

¹ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي ص: 363

² العبر وديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون، ص: 704.

³ المصدر نفسه، ص: 705-706.

⁴ ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ص: 81.

⁵ ينظر في التاريخ السياسي والأندلسي أحمد مختار، ص: 380-381.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

1-2- ولاية الأقاليم:

إن النظام الإداري للأندلس في هذه الفترة بقي على حاله السابق، وأصبحت الأندلس إمارة مستقلة قاعدتها قرطبة، وتولى أمرها الداخل وذريته من بعده، حيث اعتمدوا في إدارة الثغور والولايات والكور على جماعة مختارة من الأعوان المخلصين، ومن أفراد البيت الحاكم، مع الاعتماد على الأسر المشهورة بالأندلس،¹ فقد جعل حبيب بن عبد الملك* والياً على طليطلة، وعبد الملك بن عمر بن مروان* والياً على اشبيلية، وولده عبد الله* على مورور*، والغرض من وجود والٍ أو عامل في الكورة، إدارتها وتصريف شؤونها الإدارية والعسكرية والمالية وغيرها، نيابة عن الأمير أو الخليفة، وتمثيله في جميع المناسبات التي تجري في تلك المنطقة². فاتساع الرقعة الجغرافية للبلاد استوجب تفويض شؤونها لمجموعة من الرجال الأكفاء يساعدون الخليفة في الحفاظ على استقرار كل قطر من أقطارها .

¹ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 375.

* أبو سليمان حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، هو جد الحبيبيين الذين بقرطبة ورية، كانت له منزلة خاصة لدى الأمير عبد الرحمن الداخل لم تكن لأحد سواه، ولاه طليطلة وأعمالها، وكان دائم الاستشارة له، توفي حبيب في أيام الأمير عبد الرحمن الداخل، فشهد جنازته ومعه ستة من ولده (ينظر جمهرة أنساب العرب، ص: 89-90).

* أبو مروان عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم، قعيد الأمويين في وقته وفارسهم، دخل الأندلس سنة 140 هـ ومعه عشرة من بنيه كل منهم فارس، وقد كان له الأثر الكبير في تثبيت حكم الأمير عبد الرحمن الداخل وبالذات في بداياته، ولذا فقد كافأه الأمير بأن استوزر بنيه، وزوج ابنته كنزه من ابنه هشام. انظر: جمهرة أنساب العرب، ص 107-108.

* عبد الله بن عبد الملك بن عمر، قدم مع أبيه من مصر، ودخل الأندلس سنة 140 هـ، كان فارساً قاد الجيوش ضد يوسف الفهري وأبلى في حربه، قتل عبد الله على يد أبيه وذلك بسبب فراره من إحدى المعارك. ينظر: الحلة السيرة، ج 1، ص: 56.

* مورور: تقع على سفح جبل يحمل نفس الاسم كانت في بداية الأمر كورة قاعدتها تحمل نفس الاسم، إلا أن المعتمد بن عباد ضمها إلى اشبيلية سنة 438 هـ ومنذ ذلك الحين أصبحت مورور وإقليمها من توابع اشبيلية، وقد سقطت مورور في يد فرناندو الثالث سنة 646 هـ، ينظر: الحلة السيرة، ج 2، ص: 371.

² ينظر نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، سالم بن عبد الله الخلف، ص: 324.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

وقد عُرف بنو أمية بحرصهم الشديد على تسيير شؤون رعيتهم، «فكان يتم إرسال بعض الثقات للثغور والكور لسؤال الناس هناك عن سيرة عمّالهم وقادتهم فيهم، ومن ثبت عليه شيء يتم عزله ومعاقبته»¹، وينم هذا التصرف عن روح المسؤولية التي تحلى بها الحكام آنذاك، وإمامهم بأمور السياسة الرشيدة، فمتى صاحب الحكم التساهل والتغافل كثر الاستهتار وشاع الظلم والجور.

1-3-الحجابه: تُعدّ الحاجة أحد المناصب الإدارية المشرقية، وتتمثل مهمة الحاجب في إدخال الناس على الخليفة حسب مقامهم وأهمية أعمالهم، ولكن هذا المنصب في الأندلس الذي أوجده الأمير عبد الرحمن الداخل وقلده أخلص رجاله، هو بمثابة رئيس الوزراء ويعتبر حلقة الوصل بين الأمير الأموي وبين وزرائه.²

ويختلف منصب الحاجب لدى الأمويين بالأندلس عن العباسيين ببغداد، وقد وضع ابن خلدون ذلك، فالحاجب عند العباسيين «يُحجّب السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم أو يفتحه لهم على قدره في مواقيته، وكانت هذه مُنزلة عن الخطط مرؤوسة لها، إذ الوزير متصرف بما يراه... وأما في الدولة الأموية بالأندلس فكانت الحجابه لمن يحجّب السلطان عن الخاصة والعامة، ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم»³، فالحاجب في الدولة الأموية بالأندلس لم يقصد به ذلك الموظف الذي يحجّب السلطان عن العامة والخاصة كما كانت الحال عند الخلفاء الأمويين بالشام، وإنما قُصد به من يتولى الوزارة بمعناها المعروف.⁴

¹ نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، سالم بن عبد الله الخلف، ص: 335.

² ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 367.

³ العبر وديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون، ص: 671.

⁴ ينظر نفع الطيب للمقري، ج1، ص: 102.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

ويتولى منصب الحجابة في غالب الأحيان رجال من الطراز الأول، ورجال السيف وأغلبهم قادة الدولة وفرسانها الشجعان، وأحياناً أخرى يجمع الحاجب بين السيف والقلم¹، وفي ذلك يقول ابن خلدون: «جعل له النظر في القلم والتّرسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور، وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الدّياح والشّياع»²، حتى صار جامعاً لخطتي السّيف والقلم، ومن وظائفه النظر في أحباس الخليفة وأخذ البيعة لولي العهد، وفي بعض الأحيان يتولى أمر إدارة الدولة وتسيير شؤونها.³

وقد أُلّف حكام بني أمية تمييز الحاجب عن غيره من الوزراء، بتخصيص فراش له مختلف عن فرش الآخرين، فكان فراشه من الدّياح بينما فرشهم من الكتان، غير أن الخليفة هشام المؤيد غير هذا النظام وساوى بينه وبين بقية الوزراء.⁴

ولأهمية منصب الحجابة، ورفعة شأن متّوِّليه، كان التنافس شديداً بين الوزراء للوصول إليه، فقد ذكر ابن القوطية أنه بعد وفاة الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث* أكثَرَ الوزراء من الكتابة للأمير عبد الرحمن الأوسط كل واحد منهم يطلب منصب الحجابة لنفسه، ولمّا أكثروا عليه الطلب ضجّر، وجعلها مُعطلة مُدّة يسيرة، ثمّ ولّاهَا أحد الحزبان محمد بن عبد ربه⁵، ففي تعطيلها غاية مفادها أن الأمير لم يكسب

¹ ينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان ص: 684.

² العبر وديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون، ص: 670.

³ ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج2، ص: 233-234.

⁴ ينظر نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، سالم بن عبد الله الخلف، ص: 417.

* أبو حفص عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث الرومي، قائد أندلسي، جدّه المغيث الرومي مولى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، تولى قيادة بعض حملات في عهد الأمراء هشام والحكم وعبد الرحمن الأوسط، خاض بعض المعارك التي عاد منها منتصراً محملاً بالغانائم والسي، ولاة الأمير الحكم الرضي مناصبي الحجابة والكتابة، وكان شاعراً بليغاً، ت209هـ (ينظر البيان المغرب، ابن عذارى، ج2، ص69 و75).

⁵ ينظر تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، ص 78.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

عداوتهم، وفي الوقت نفسه لم يترك للضعينة والحقد مجالاً بينهم، وفيها كذلك تأديب لهم وتهديد بعزل أحدهم في أي لحظة.

والمتتبع لحال الحجابة في الدولة الأموية بالأندلس، يجد أن مُتَوَلِّيها حتى نهاية خلافة الحكم المستنصر لا يختلف عن الوزراء في شيء، فهو لا يَعُدُّو كونه مُنفذاً للأوامر الصادرة إليه من الأمير أو الخليفة، حتى أن عَزَله وإعادة تنصيبه تتم بمنتهى السهولة، فهو أشبه ما يكون بوزير التنفيذ، إلا أن الأمر تَغَيَّر منذ وصول المنصور محمد بن أبي عامر¹ إلى الحجابة في عصر الخليفة هشام المؤيد، إذ أصبح بحق رئيساً للوزراء، فهو يعزل منهم من شاء ويبقي من يشاء، وبذلك تحول منصب الحاجب من وزير تنفيذ إلى وزير تفويض².

1-4-الوزارة:

وُجد نظام الوزارة في الأندلس منذ قيام الإمارة الأموية، وكانت وزارة متعددة المناصب، لها رئيس وزارة يسمى الحاجب، ويعدّ حلقة اتصال بين الوزراء والأمير³، وعن خطة الوزارة يتحدث المقري: «وأما قاعدة الوزارة بالأندلس فإنها كانت في مدّة بني أمية مشتركة في جماعة يعينهم صاحب الدولة للإعانة والمشاورة ويخصهم بالمجالسة ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير فيسميه بالحاجب... وصار اسم الوزارة عاماً لكل من يجالس الملوك، ويختص بهم وصار الوزير الذي ينوب عن الملك يعرف بندي الوزارتين»⁴.

وشملت الوزارة مختلف الميادين والمجالات وعُرفت في الأندلس باسم الخُطّة، في ذلك يقول ابن خلدون «أما دولة بني أمية بالأندلس، فأنفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة،

*أبو عامر محمد بن أبي عامر الحاجب المنصور، وحاجب الخليفة هشام المؤيد بالله والحاكم الفعلي للخلافة.

² ينظر نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، سالم بن عبد الله الخلف، ص: 428.

³ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 369.

⁴ نفح الطيب، المقري، ج1، ص: 216.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

ثم قسموا خطته أصنافاً، وأفردوا لكل صنف وزيراً، فجعلوا لحسبان المال وزيراً، ولترسيل وزيراً، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً، وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً¹.

وأشهر هذه الوزارات خطة الكتابة أو الكتابة العليا وتلي الحجابة في الرتبة، وهي أعلى أجهزة الدولة، تقع عند الباب الرئيسي للقصر بقرطبة، والمعروف بباب السدة²، تعاقب في ولايتها جمهرة من أعظم الرجال، ويتولى أمرها رجلان يسمى الأول الكاتب، ويشترط فيه أن يكون بليغا حسن الأسلوب جزل العبارة «وأهل الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السمة لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة، فإن كان ناقصا عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه، من تسلط الألسن في المحافل والطنع عليه وعلى صاحبه»³، ويسمى الآخر بكاتب الزمام أي كاتب الجهبذة، وينبغي أن لا يكون من أهل الذمة ويكون نبيها من العظماء، وكثيرا ما يتعرض هذا الكاتب للاضطهاد والعزل والمصادرة⁴، مهمته الإشراف على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الداخل والخارج، وإحصاء العساكر بأسمائهم، وتقدير أرزاقهم وصرف عطاياهم في أوقاتها⁵، وهذه الوظيفة من الوظائف المهمة في أي دولة.

وبلغت شهرة ومكانة بعض من ولي خطة العرض والمظالم في الأندلس درجة عالية بين الخاصة والعامة، وترقى بعضهم في المناصب الإدارية العليا في الدولة، ولكنها في عهد الناصر، قسمت إلى خطتين فجعل العرض خطة مستقلة بذاتها، وكذلك المظالم أضحت خطة مستقلة⁶، حتى يتسنى لكل وزير تأدية مهامه على أكمل وجه.

¹ العبر وديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون، ص: 670.

² ينظر الحلة السيرة، ابن آبار، ج1، ص: 253.

³ نفع الطيب المقرئ، ج1، ص: 217.

⁴ ينظر تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج3، ص: 273.

⁵ ينظر العبر وديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون، ص: 675.

⁶ ينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان، ص: 685.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

وتعدّ خطة السّوق أو الحسبة من أهمّ الوزارات التي تحرص على محاربة الفساد لدى الباعة والتّجار، ويشترط فيمن تولّاها أن يكون مشهودا له بالعلم والمعرفة والفتنة، ويؤكد المقرئ ذلك قائلا: «إنها موضوعة عندهم في أهل العلم والفتن وكأن صاحبها قاض والعادة فيه أن يمشي راكبا على الأسواق وأعوانه معه، وميزانه الذي يزن به الخبز في يد أحد أعوانه، لأن الخبز عندهم معلوم الأوزان... وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حدّ له المحتسب في الورقة»¹، وتتحرى الوزارة صدق التجار ببعث أحد الصبيان أو جارية لشراء البضاعة ليختبر المحتسب الوزن فإن نُقصَ تعرض التاجر للعقاب، وللمحتسبين «في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما نتدارس أحكام الفقه لأنها عندهم تدخل في جميع المبتاعات»²، فقد سنّ المشرع للمحتسب قوانين يتقيد بها حتى يضمن استقرار السوق، ونزاهة التّجار، ويحارب كل انتهازي تُسوّل له نفسه أخذ أموال إخوانه بالباطل.

ولقد استحدث الأمويون خطة سموها خطة الشورى، وكانوا يُسندونها إلى كبار العلماء من ذوي الشرف والهيبة، يُسمّون بالفقهاء المشاورين، وهم الشيوخ ذوّوا العلم الواسع والخلق المتين والدين القويم، أي الذين يشاورهم الأمير في كبار شؤونه، وخاصةً الدينيّة منها، وكان أشهر من وليها بقي بن مخلد³.

ولكثرة اللصوص وما خلفوه من اقتحام للبيوت وذبح لأهلها، استحدث الأندلسيون خطة الطواف بالليل، ويسمى أصحابها بالدرايين نسبة إلى الدروب الضيقة والمغلقة، وفي ذلك يقول المقرئ: «بلاد الأندلس لها دروب تُغلق بعد العتمة ولكل زقاق بائت فيه، له سراج معلق وكلب يسهر وسلاح مُعدّ، وذلك لشطارة عامتها وكثرة

¹ نفح الطيب، المقرئ، ج 1، ص: 218-219.

² المصدر نفسه، ص 219.

³ ينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان، ص: 685.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

شَرَّهْم»¹، فالأبواب تُغلق بعد كل صلاة عشاء، ولكل زُقاق من هذه الأزقة بَوَّاب يَعرف أهل الزقاق ويفتح لهم الباب مستعينا في مهمته بسلاح وكلب يتولى الحراسة، خوفا من اللصوص الذين اعتادوا السرقة وقتل صاحب الدار المسروقة خوفا من أن يتعرف عليهم وَيَشِي بهم فيما بعد، فيتولى الدرابون مهمة القضاء على مثل أولئك الجرمين، وغيرها من الوزارات التي تسعى إلى تسيير شؤون الرعية وضمان استقرار البلاد .

وتطورت المناصب الوزارية لتشمل الأدب ففي أيام المنصور بن أبي عامر، وُجد ديوان يسمى ديوان الندماء، يلحق به كل أديب وشاعر ممن يُؤثرهم الأمير بصحبته ومجالسته.²

وتميزت الوزارة في الأندلس بالتعدد حيث كانت السلطة في المشرق مركزة في يد وزير واحد، وقلما وُجد وزيران، أما في الأندلس فلكل ناحية من نواحي الإدارة العامة وزير يختص بها³، ويسهر على تنظيم شؤونها، فمتى أوكل الأمر لمستحقه أنجزوه في أحسن صورة وأبدعوا فيه .

وعَدَّل الأمير عبد الرحمن الأوسط نظام الوزراء، فقسَّمها إلى عدة وزارات مختلفة، و«ألزم هؤلاء الوزراء الاختلاف إلى القصر كل يوم، والتكلم معهم في الرأي، والمشورة لهم في النوازل، وأفردهم بيت رفيع داخل قصره مخصوص بهم يقصدون إليه ويجلسون فيه فوق أرائك قد نضدت لهم، يستدعيهم إذا شاء إلى مجلسه جماعة وأشتاتا، يخوض معهم فيما يطالع به من أمور مملكته، ويفحص معهم الرأي فيما يبرمه من أحكامه، وإذا قعدوا في بيتهم أخرج رقاعه ورسائله إليهم بأمره ونَهْيهِ فينظرون فيما يصدر إليهم من

¹ ينظر نفع الطيب، المقري، ج1، ص: 219

² ينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان ص: 685

³ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي ص: 369.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

عزائمه»¹، فالأمير قد أجبر وزراءه الحضور يومياً إلى بيت الوزارة الذي خصّصه لهم في قصر الإمارة، وذلك من أجل مشاورتهم في جميع أمور الدولة حرصاً منه على تنظيمها وضمن عدم تعطل مصالح الرعية .

وأجلّ الأمير محمد الوزراء فوضع نظاماً جديداً للوزارة يمتاز فيه الوزراء بنوع من التعظيم، وقدّم الوزراء الشاميين على الوزراء البلديين وأعلاهم في الجلوس على كراسيهم بيت الوزارة، وعن هذا التنظيم الذي أحدثه الأمير محمد يقول ابن حيان «الأمير محمد هو الذي قسم مراتب الخدمة، وفصل خططهم النبيهة، وأناف على جميعهم من متقدمة خطة الوزارة، وأشعرهم التعظيم والجلّة، وأرجح أهل الشام من الوزراء على أصحابهم الأندلسيين، فقدمهم في الإذن عليه، وأعلاهم في الجلوس على أرائكهم بيت الوزارة»².

ولا تقتصر عناية بني أمية بوزرائهم فقط، بل تمتد هذه العناية إلى أولادهم، فإذا «حدث أن غاب أحد الوزراء كأن وقع بالأسر أو قتل، فإن ولده يحل محله، وإن كان هذا الولد غير كفء لتحمل المسؤولية لهذا المنصب الخطير، تم تكليف أحد ذوي الخبرة بالوقوف إلى جانبه وتدريبه حتى يتقن عمله، وإذا توفي أحد الوزراء، ذهب الخليفة بنفسه إلى والد الوزير ليقدّم له التعزية، وحفظاً لود ذلك الوزير يأمر الخليفة بتقديم أحد أبناء المتوفّي أو أحد إخوته إلى منصب عالٍ في الدولة»³، وعليه يمكن القول بأن الجوانب الإيجابية لسياسة بني أمية أنهم لا يفرطون برجالهم، مما يُعزّز ثقة الرعية بهم .

1-5-الشرطة :

¹المقتبس، ابن حيان، ص: 168.

²المقتبس، ابن حيان، ص: 137.

³ ينظر نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، سالم بن عبد الله الخلف، ص: 467.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

وتعدُّ الشرطة من أهم المناصب الإدارية المتعلقة بضبط النظام والأمن، يقول ابن خلدون: «وعظمت نباهتها في دولة بني أمية ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء وجعل الحكم له على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلامات، وعلى أيدي أقربائهم ومن إليهم من أهل الجاه، وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامّة ونصب لصاحب الكبرى كرسي بياب الدار السلطان رجل يتبوءون المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها إلا في تصريفه»¹، ويتضح من قول ابن خلدون أن الشرطة قسمت إلى قسمين: الشرطة العليا يتولى صاحبها الحكم على من تقلد المناصب العليا من الناس والحكم على أقاربهم، وجعل لصاحبها كرسيّاً بياب دار الإمارة، وفي خدمته عدة رجال ينفذون أوامره، أما الشرطة الصغرى فيقوم صاحبها بالحكم على عامة الناس .

وبدأت ولاية الشرطة في الأندلس منذ عصر الأمير عبد الرحمن الداخل، عندما أحسَّ بخطر اليمانية عليه بعد انتصاره في معركة المسارة، و منَعهم من نَهَب قصور قرطبة، وأسند إدارتها إلى عبد الرحمن بن نعيم، ومن بعده للحصين بن الدجن العقيلي*، وظلت الشرطة تنقسم إلى قسمين في عهد الإمارة إلى أن ابتدع الناصر لدين الله نوعاً ثالثاً للشرطة سماه بالشرطة الوسطى، يختص صاحبها بالنظر في جرائم الطبقة الوسطى كأصحاب المصانع والتجار وأصحاب المهن الراقية من أطباء وأساتذة «وكان أول من تقلدها سعيد بن سعيد بن جدير»².

¹ العبر وديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون، ص: 249.

* الحصين بن الدجن بن عبد الله العقيلي، زعيم جند بالأندلس، وسيد بني كعب من هوازن بالأندلس، انضم إلى عبد الرحمن الداخل بعد دخوله الأندلس، فولاه الشرطة لما عرف عنه من بلاء وشدة بأس ونجدة، وموقفه المعادي ليوسف الفهري وحليفة الصميل بن حاتم (ينظر الحلة السيرة، ابن آبار، ج 1، ص 176) ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 381.

² دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان، ص: 685.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

ولِحَسَابِيَةِ مَنْصَبِ صَاحِبِ الشَّرْطَةِ وَضَعَتْ شُرُوطَ وَجَبَ تَوْفَرُهَا فِيمَنْ تَقَلَّدَهُ، فَيَنْبَغِي لِصَاحِبِ الشَّرْطَةِ «أَنْ يَكُونَ رَجُلًا خَيْرًا، عَفِيفًا، غَنِيًّا، عَالِمًا، مَتَحَنَكًا فِي عِلْمِ الْوَثَائِقِ وَوَجْهِهِ الْخَصُومَاتِ، وَيَكُونَ وَرَعًا، لَا يَرْتَشِي وَلَا يَمِيلُ، وَيَجْرِي فِي حُكْمِهِ وَأَمْرِهِ إِلَى الْحَقِّ وَالْإِعْتِدَالِ، وَلَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ»¹، يَحْرُصُ عَلَى حِفْظِ مَصَالِحِ النَّاسِ وَنَشْرِ الْأَمْنِ بَيْنَهُمْ، حَتَّى يَسْتَتَبَّ الْإِسْتِقْرَارَ السِّيَاسِيَّ.

وَأُعْطِيَتْ لِصَاحِبِ الشَّرْطَةِ صِلَاحِيَاتٍ وَاسِعَةً فِي الْأَنْدَلُسِ، تَصِلُ أحيانًا إِلَى تَنْفِيذِ حُكْمِ الْإِعْدَامِ دُونَ الرَّجُوعِ إِلَى الْحَاكِمِ، وَيُؤَكِّدُ الْمُقْرِي ذَلِكَ قَائِلًا: «وَأَمَّا خِطَّةُ الشَّرْطَةِ بِالْأَنْدَلُسِ فَإِنَّهَا مَظْبُوتَةٌ إِلَى الْآنِ مَعْرُوفَةٌ بِهَذِهِ السَّمَةِ، وَيُعْرَفُ صَاحِبُهَا فِي أَلْسِنِ الْعَامَّةِ بِصَاحِبِ الْمَدِينَةِ وَصَاحِبِ اللَّيْلِ وَإِذَا كَانَ عَظِيمَ الْقَدْرِ عِنْدَ السُّلْطَانِ كَانَ لَهُ الْقَتْلُ مَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ دُونَ اسْتِئْذَانِ السُّلْطَانِ، وَذَلِكَ قَلِيلٌ وَلَا يَكُونُ إِلَّا فِي حَضْرَةِ السُّلْطَانِ الْأَعْظَمِ، وَهُوَ الَّذِي يُحَدُّ عَلَى الزَّانِ وَشَرِبَ الْخَمْرَ وَكَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ رَاجِعٍ إِلَيْهِ»²، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَحْدُثُ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ النَّادِرِ، فَسِيَاسَةُ الْبِلَادِ تَقْتَضِي عَدَمَ الْخُرُوجِ عَنِ طَاعَةِ الْحَاكِمِ وَالْعُودَةِ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْأَحْكَامِ.

وَقَدْ يُكَلِّفُ صَاحِبَ الشَّرْطَةِ بِمَهَامٍ خَارِجَ إِخْتِصَاصِهِ، فَمَثَلًا نَرَى الشَّرْطِيَّ أَحْمَدَ بْنَ نَصْرِ شَارِكًا مَعَ غَيْرِهِ فِي تَشْيِيدِ مِحْرَابِ الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ، وَبَعْدَ أَنْ أَعْطَاهُ الْخَلِيفَةُ الْمُسْتَنْصِرُ وَايَةَ السُّوقِ كَلَّفَهُ بِتَوْسِيعِ الْمِحْجَةِ الْعَظْمَى بِسُوقِ قَرْطَبَةَ لِضَيْقِهَا، وَهَدَمَ الْخَوَانِيتَ مِنْ أَجْلِ التَّوَسِيعِ، وَكَانَ صَاحِبَ الشَّرْطَةِ أحيانًا هُوَ قَائِدَ الْجَيْشِ فِي بَعْضِ الْوَلَايَاتِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ، حَيْثُ يُكَلِّفُهُ الْخَلِيفَةُ فِي بَعْضِ الْمَهَامِ كَالْمِشَارَكَةِ فِي عَمَلِيَّاتِ الْجِهَادِ.³

¹ نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، سالم بن عبد الله الخلف، ج2، ص: 861.

² فتح الطيب، المقرئ، ج1، ص: 103.

³ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 382-383.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

فاهتمام الأمراء بشأن أمن الدولة والدين وتنظيمهم الهياكل العامة لذلك، وإبداعهم في بعض فروعها بما يتناسب ومستجدات العصر، ضرب من ضروب التقدم الحضاري .

1-6- القضاء:

استقرت الدولة العربية في الأندلس وبدأت نظمها تظهر في عهد الإمارة أكثر وضوحاً مما كانت عليه في عصر الولاة، ومنها نظام القضاء، فخطّة القضاء من أسنى الخطط وأشرفها، فلا منصب بعد الخلافة أشرف من القضاء و«لا يصح للقضاء إلا القوي على أمر الناس، المستخف بسخطهم وملامتهم في حق الله، العالم بأنه مهما اقترب من سخط الناس وملامتهم في الحق والعدل والقصد استفاد بذلك ثمنا ربيحا من رضوان الله»¹، فهذا المنصب يتطلّب إنسانا، بمقت المحاباة ويصبر أمام المغريات الدنيوية، يؤثر الأجر والثواب وصلاح البلاد والعباد على محبة الناس وتبجيلهم له.

وتعدّ خطة القضاء من أعظم الخطط عند الخاصة والعامة لتعلقها بأمر الدين، مع احترام ولاة الأمر فيها لهذه الخطة، وتطبيقها على أنفسهم وحاشيتهم إذا اقتضى الأمر ذلك²، فكتب التاريخ التي تترجم حياة كل أمير أموي تشير إلى أهم قضااته، الذين تولى تعيينهم، وتبرز حرصهم على إيجاد القاضي العادل، ومساندة أحكامه، حتى ولو خالفت أهواءهم³.

¹ تاريخ قضاة الأندلس، النباهي، ص: 3.

² ينظر نفتح الطيب، المقرئ، ص: 217.

³ ينظر نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، سالم بن عبد الله الخلف، ج2، ص: 630.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

وأخذ اللقب يتغير وظهر مسمى جديد هو قاضي الجماعة بدلاً من قاضي الجند، لا تتجاوز سلطته حدود الإقليم أو المدينة، وأول من حمل هذا اللقب هو يحيى بن يزيد¹، في عهد عبد الرحمن الداخل، وللمدن والأقاليم الأندلسية الأخرى قضاة لا علاقة لهم بقاضي الجماعة، ولكن أحياناً كان الأمير يستشير قاضي الجماعة في تعيين قضاة الأقاليم، وأحياناً يقوم قاضي الجماعة بمهمة التحقيق مع قضاة الإقليم عندما يكلفه الأمير بذلك.²

وما ميّزَ نظام القضاء الأندلسي خلال عصر الإمارة، نظام المناوبة على منصب قاضي الجماعة بقرطبة، فيعطى عاماً لقاضي، وعاماً لقاضي آخر، وإذا نسي الأمير عملية المناوبة يذكره القاضي صاحب الدور بهذا الأمر.³

وعُرف القضاء بصفة الورع والتقوى والصلابة التي تصل أحياناً إلى تحدي الأمير وحاشيته،⁴ وإذا أشكل عليهم أمرٌ قضائي أو فقهي، استعانوا برأي زملائهم قضاة المشرق، خاصة قاضي الجماعة، وهذا يعكس بوضوح الصلات الفكرية المتصلة التي تتجاوز الخلافات السياسية، فنرى القاضي يحيى بن معمر قاضي الأمير عبد الرحمن الداخل «إذا أشكل عليه أمرٌ من أحكامه كتب فيه إلى أصبغ بن الفرّج ونظرائه بمصر فكشفهم عن وجه ما يريد علمه، فيحقق عليه ذلك فقهاء الأندلس»⁵، وكذلك القاضي محمد بن بشير المعافري قاضي الأمير الحكم «كان إذا اختلفت عليه الفقهاء بقرطبة وأُشكل عليه الأمر في قضية كتب إلى عبد الرحمن بن القاسم بمصر وإلى عبد الله بن

¹ يحيى بن يزيد التجيبي، من عرب الشام الساكنين في إفريقية، قدم الأندلس مع أبي الخطار الكلبي، واستلم قضاء الجند بقرطبة، وكان رجلاً صالحاً، اعتزل الحرب عند دخول الأمير عبد الرحمن بن معاوية الأندلس (ينظر قضاة قرطبة، ص 14-15).

² ينظر قضاة قرطبة، الحشني، المقدمة ح.

³ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 421..

⁴ ينظر المرجع نفسه، ص: 422.

⁵ تاريخ قضاة الأندلس، المرّبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا، النباهي، ص: 45.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

وهب وأشباههما»¹، وقد يُكَلِّفُ بعضهم نفسه عَناء الرحلة والتنقل إلى المشرق بنفسه كرحلة القاضي "عامر بن معاوية" قاضي الأمير المنذر²، وهذا التصرف بادر عن نفس تقية حريصة على نشر العدل وساعية للخير محققة لشعار الإسلام "دولة لا يظلم فيها أحد".

وتعددت اختصاصات القاضي بالأندلس فهو المشرف على موارد الأحباس، وسجّلات الفتاوى الفقهية والصّلاة في أيام الأعياد والدّعاء في صلاة الاستسقاء، حتى سمي بصاحب الصّلاة، إلى أن فصل الخليفة عبد الرحمن الناصر بين المهام فجعل للصّلاة شخصا معيناً وللقضاء شخصا آخر³، حتى يتفرّغ الإمام لعبادة الله ووعظ الناس، ويترك شؤون تأديبهم لأهل الاختصاص.

وعرف القضاء بالأندلس مكانة مرموقة وتشرّف الناس بتقلدهم لمنصبه، وتميّز بالتنظيم المحكم، «فهناك مجلس الشورى أو المشاورة الذي يجمعه الأمير في أمر جليل، ويشمل قاضي الجماعة وفقهاء الأندلس، وسمي هذا المجلس بالأندلس بمجلس النشمة وكان كذلك للقاضي أعوان يُسمّون بأعوان القاضي، وهم الذين يستدعون الخصوم إلى مجلس القضاء في المسجد الجامع وهم الذين يُسمّون أيضاً بالقومة، وهناك الأمناء الذين يعتمد عليهم القاضي وهم الذين يشرفون على التركات والودائع»⁴، حتى غدا نظاما شاملا مكتمل الجوانب، أساسه العدل والمساواة، يتساوى فيه الحاكم والمحكوم، شعاره القانون فوق الجميع، ومرجعه كتاب الله وسنة رسوله.

¹المصدر نفسه، ص:48.

² ينظر قضاة قرطبة الحشني ص:35.

³ ينظر تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج4، ص:364.

⁴ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص:423.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

وبالرغم من المكانة السامية لخطبة القضاء فهو عرضة للعزل، ولكن لأسباب موضوعية، فهو غير مرتبط برضى أو سخط حاكم الدولة الأموية على القضاء، والمصادر الأندلسية تعجّ بالأمثلة المؤيدة لذلك،¹ فقاضي قرطبة المنذر بن سعيد البلوطي انتقد الخليفة الناصر على الأموال الطائلة التي صرفها في بناء مدينة الزهراء، وخصّه بخطبته يوم الجمعة، فعلم الخليفة أنه المقصود فقال: «والله تعمدني منذر بخطبته وما عنى بها غيري فأسرف علي وأفرط في تقريعي»، فأقسم الخليفة الأندلسي أن لا يصلي خلفه صلاة الجمعة، ورفض عزله عن الخطبة والقضاء مجيباً من اقترح عليه ذلك قائلاً: «لا أم لك!، يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الحق!»²، فكم من موقف خالف فيه القاضي رغبة الأمير أو الخليفة الأموي ولم يعزله عن منصبه، وبالمقابل وجدت هيئة من الفقهاء تتولى متابعة القاضي ومؤاخذته إذا دعت الضرورة لذلك، وفي الوقت نفسه تركت له حق الدفاع عن نفسه،³ وهذا خير دليل على تطبيق بني أمية لأحكام الشريعة، وتغليبهم ميزان العدل على السلطة .

وإذا بحثنا في أسباب عزل القضاة بالأندلس، وجدناها متعددة منها انتهاء مدة ولاية القاضي، «فإذا حددت مدته بسنة واحدة مثلاً، يُعتبر معزولاً بانتهائها... ومن دواعي عزل القاضي كذلك اشتراكه مع الحاكم بالنسب»⁴، وقد تكون الأخلاق الصعبة سبباً في عزله عن القضاء، فالقاضي يخامر بن عثمان الشعباني كان يعامل الناس «بخلق صعب، ومذهب وعمر، وصلابة جاوزت المقدار»⁵، فضجر الناس منه وتسببوا في عزله، وكثرة القضايا التي ينظرها القاضي في فترة وجيزة قد تكون كذلك سبباً في عزله⁶، وغيرها من

¹ ينظر تاريخ قضاة الأندلس، النباهي، ص: 69

² تاريخ قضاة الأندلس، النباهي، ص: 70.

³ ينظر نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، سالم بن عبد الله الخلف، ج: 2، ص: 728.

⁴ ينظر المرجع نفسه، ص: 730.

⁵ قضاة قرطبة، الخشني، ص: 54.

⁶ ينظر نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، سالم بن عبد الله الخلف، ج: 2، ص: 731.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

الأسباب التي تستوجب العزل تفاديا لاستئثار بعض الناس بهذا المنصب، و ذرءاً للفتنة في المجتمع.

إن كثرة القضاة بالأندلس وعزل الكثير منهم ممن فقد الشرعية المؤهلة للمنصب، يُنم عن التنظيم المحكم وبراعة التسيير لدولة بني أمية بالأندلس.

2- النظام العسكري:

خاض الأمويون حروبا عديدة ضد القوى النصرانية المجاورة لهم ما حتم عليهم ايلاء القطاع العسكري أهمية خاصة حتى يتسنى لهم الدفاع عن بلادهم وأنفسهم، فأسسوا نظاما عسكريا قويا أساسه:

2-1- الجيش:

يعدُّ الجيش أحد الأركان الأساسية في الدولة، وإعداده ضرورة تفرضها الأوضاع السياسية، ولهذا حرص أمراء بني أمية على تجهيزه بالشكل الذي يجعله في الطليعة وصرفت الدولة لرعايته وتطويره ما تأتي لها من إمكانات، فبدأ الأمير الأول الداخل بإنشاء جيش يعتمد عليه في تثبيت حكمه وحشد له المتطوعة والمرتزة من سائر الطوائف¹، واعتمد الأمير بالدرجة الأولى على البربر بناءً على مشورة أحد أقربائه، فأحسن استقبال من وفد إليه من بربر العدو الذين انخرطوا في جيشه، وكانوا يده الحديدية التي يضرب بها الأعداء²، وبدأ ينظر بعين الرّيبة إلى الجند العربي فأسقط ألويتهم

¹ ينظر تاريخ الدولة الأموية في الأندلس التاريخ السياسي، عبدالمجيد نعني، ص: 171.

² ينظر نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، سالم بن عبد الله الخلف، ج 2، ص: 495.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

بعد أن قامت ضده ثورات عربية أشهرها التي قادها العلاء بن مغيث*، كما استعان بعنصر الصّقالبة الذين كانوا يُشْتَرَوْنَ بالمال، ويدربون على أعمال الفروسية والقتال وعلى الطاعة العمياء للدولة والإخلاص لها، وقد شكلوا نواة الجيش الأموي¹، يحضون بوَدِّ وثقة الحُكَّام حرصاً منهم على تقوية الجيش ذلك الحصن المنيع الذي يقي الدولة من اجتياح الأعداء لدولة الإسلام .

وسار الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل على خطى والده في استخدام الحرس الخاص المكوّن من المماليك العجم وهم الخرس أو الصّقالبة،² واهتم بالجيش، وهياًه لمعارك الجهاد، ورَتَّب في ديوان الجند أرزاقاً لأسر الشهداء، وافتدى أسرى المسلمين حتى لم يبق في عهده منهم أحد في قبضة العدو³.

وأكثّر الأمير الحكم من جلب الصّقالبة، وكان أغلبهم من الرقيق والحِصيان الذين يُؤْتَى بهم أطفالاً من الجنسين، من بلاد الفرنج وحوض نهر الدانوب وغيرها، ويُربَّون تربية إسلامية، ثم يُدْرَبون على أعمال الفروسية والإدارة⁴، وبلغ عددهم في عهده زهاء خمسة آلاف، وكانت له «فرقة من الحرس الخاصة معظمهم من فيء أربونة ورثهم عن والده هشام»⁵، لم يخيبوا ظنَّ الأمير فيهم، وأبْلَوْا أحسن بلاء في الدِّفاع عنه.

واستمر أمراء الأندلس يكثرون من الموالي والصّقالبة، ويجعلونهم حرساً خاصاً لهم، فقد اختار الأمير عبد الرحمن الأوسط مثلاً خمسة آلاف مملوك، وثلاثة آلاف فارس

* العلاء بن مغيث اليحصبي الجذامي، زعيم عربي، ثار باسم الخليفة أبي جعفر المنصور ضد عبد الرحمن الداخل، وتمكن من فرض حصار عسكري على الأمير الأموي في قرمونة، لكن الأمر انتهى بقتل العلاء وتمزيق قواته (ينظر ابن القوطية، ص 32-33)

¹ ينظر نفع الطيب، المقري، ج 1، ص 341.

² ينظر نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، سالم بن عبد الله الخلف، ج 2، ص: 490.

³ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 391.

⁴ دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان، ص: 249..

⁵ المرجع نفسه، ص: 250.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

يرابطون إزاء باب القصر فوق الرصيف، وألغا رجل على أبواب القصر المختلفة، وسار الأمير محمد على نهجه وحرص على تقوية الجيش نتيجة الظروف الصعبة التي مرت بها الأندلس في عهده¹، وتعكس أرقام الفرسان الذين يحشدون في مختلف المدن مدى قوة الجيش الأندلسي في تلك الفترة .

وأبدى الخليفة الناصر اهتمامه بالجيش الذي أصبح عماد الدولة وسياس الملك، فسهر على إصلاحه، بعد أن أنهكته حركات التمرد والحروب ضد الممالك الإسبانية، وحشد له الجند من سائر أنحاء الأندلس والمغرب.²

وقد سار الخليفة المستنصر على سياسة والده في الاستكثار من الصقالبة، وتوليتهم المناصب الرفيعة، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل طالب الناس بالتغاضي عن التجاوزات التي تحدث منهم محتجاً بأنهم مؤتمنون على من في القصر، ولذلك لا يمكن معاقبتهم أو معاقبتهم في كل وقت خشية تمردهم.³

إلا أن هؤلاء الصقالبة مع مرور الزمن أصبح لهم قوتهم داخل البلاط، وأصبحوا يتدخلون في شؤون الدولة، مما دعا الحاجب المنصور - حين أصبحت السلطة بيده - إلى إقصائهم تدريجياً من المناصب، واستبدالهم بعناصر من البربر، استقدمهم من العدو، وأجزل عليهم الهدايا والعطايا⁴، وبسبب إكرامه لهم أخذت أعداد هائلة تنزح من العدو إلى الأندلس، ولا يمكن تقدير عددهم الكلي خاصة إذا أن قبائل عديدة بأكملها نزحت إلى الأندلس وانخرط الكثير من أبنائها في الجيش⁵، وضم إلى جيشه العديد من المرتزقة

¹ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص 391.

² تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص 393.

³ ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج 2، ص: 259.

⁴ ينظر نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، سالم بن عبد الله الخلف، ج 2، ص: 497.

⁵ ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج 2، ص: 294.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

النصارى، ومعظمهم من المستعربين رعايا الحكومة الأندلسية¹، واستطاع المنصور بما بذله من جهود، وما أنفقه من أموال وفيرة أن ينشئ للأندلس قوة عسكرية هائلة لم تعرفها من قبل.

2-2- التعبئة العسكرية في الأندلس:

وتعني التهيؤ وأخذ كافة الاستعدادات اللازمة للحرب، من وضع خطط قتالية مُتقنة، وترتيب الجيش، وتوزيع الأسلحة، والاستفادة من كافة الإمكانيات المتاحة، لتحقيق النصر، وقد اتَّبَع الأندلسيون نظاما خاصا في تجمع الجيش وسيره، فبعد الإعلان عن الجهاد في جميع أنحاء البلاد «يتوافد الجنود من مختلف ولايات الأندلس متجهين إلى العاصمة، وفي منطقة في شرقي قرطبة كان يُعسكر هذا الحشد الكبير في مكان متسع يُسمى ساحة العرض أو ساحة الحشد أو فحص السرادق»²، استعدادا لملاقاة العدو والانطلاق نحو غزوة جديدة.

وتَنَبَّه الأندلسيون إلى أهمية التَّعبئة النفسية في شحذ همم الجيوش «فبعد أن يكتمل شمل الجنود يخرج إليهم الأمير الأموي من قصره وسط الهتاف والتكبير فيعسكر مع جنده ويستعرض أسلحتهم المختلفة، ويُعين قائد الحملة، وقبل الرَّحيل كان الأمير أو الخليفة وجنوده يقيمون صلاة عامة في المسجد الجامع بقرطبة، يتبعها الدَّعاء بالنصر، ثم يخرج الجيش براياته وأعلامه إلى الجهة المرسومة له، وخلال سيره يُنضم إليه قواد وأمرء الثغور الأندلسية وعمال المدن بجيوشهم وأتباعهم»³، وكُلُّهم عزيمة وإصرار على تحقيق النصر، والظَّفَر بفتحٍ جديد وإعلاءٍ لراية الإسلام والمسلمين أو نيل الشهادة.

¹ ينظر دولة الإسلام بالأندلس، محمد عنان، ص: 588.

² ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص 400.

³ ينظر المرجع نفسه، ص 400.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

وكان من عادة الأندلسيين أن يتقدم الجيش فرقةً استطلاعية لمعرفة أخبار العدو ومعرفة المسالك والممرات الصحيحة بين الجبال الوعرة¹، ويُختار لهذه المهمة الرجال الموثوق بأمانتهم وإخلاصهم لتهيئة المسالك الصالحة لسير الجيش وسط هذه الجبال الوعرة².

والمُتَّبِع في تعبئة الجيش الأموي وترتيبه ما كان سائداً لدى الجيوش الإسلامية عامة، إذ يُقسم الجيش إلى خمسة أقسام مقدمة وساقة ويمنة وميسرة وقلب³، وعند لقاء العدو يتقدم الرجال بدروعهم ورماحهم الطوال، وخلفهم الرماة المهرة، ثم تليهم الخيالة مع وجود مبارزات فردية قبل وقوع المعركة⁴، وعلى عادة المسلمين في حروب الجهاد يرددون شعارات إسلامية مُعينة تحفزهم على الاستبسال في الجهاد، كالتكبير وصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم⁵، وكلها شعارات تَفْشَعُرُّ لها الأبدان، تُنسيهم قساوة الحرب، وتمنع تسرّب الخوف إلى نفوسهم، وتذكرهم بروعة الاستشهاد.

وبعد عودة الأمير أو الخليفة من الغزو مُكَلِّلاً بالنصر، تُعَلَّق الألوية على جدران المحراب بالمسجد الجامع، ويجلس الخليفة للتهنئة، ويتبارى الشعراء في إلقاء قصائدهم التي تُثني على حُسن بلائه، وتُبارك له بالنصر، وتدعو له بدوام العزّ وطول البقاء⁶.

وكانت الحملات العسكرية التي يقوم بها الجيش الأموي، تُكلف خزينة الدولة الشيء الكثير، فالخليفة عبد الرحمن الناصر كان يُخصّص ثلث دخل دولته كتكلفة للجيش¹، وكان الحكام في أغلب الأحيان يلجأون للأوقاف لتجهيز الجيوش.

¹* لأن المنطقة التي يسير فيها الجيش، انطلاقاً من مناطق الثغور إلى الممالك الإسبانية، منطقة جبلية وعرة.

² ينظر المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ابن حيان القرطبي، ص: 192-193.

³ ينظر العبر وديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون، ص: 717.

⁴ ينظر المصدر نفسه، ص: 402.

⁵ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي: 400-401.

⁶ ينظر المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ابن حيان القرطبي، ص: 423.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

2-3- الأسطول البحري :

فرضت الطبيعة الجغرافية للأندلس على الحكومة الأندلسية وجوب العناية بأمر الأسطول والتحصينات البحرية، فبدأت بإنشاء السفن الحربية، لدفع غارات العدو²، وشهدت البحرية الأموية في الأندلس تطوراً كبيراً في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط الذي وجّه عنايته لشجر طرطوشة*، وأخذ منها قاعدة من قواعد الأسطول التابع لإمارته، ومن أجل ترغيب رجال البحر الأندلسيين المتواجدين بالقرب من ذلك الشجر، فقد أمّد عامله على طرطوشة عبيد الله بن يحيى بن خالد بالأموال والجند، وبتشجيع من الأمير قام العامل بإجراء القطائع على المرابطين بالساحل لديه، كما صرف لهم الرواتب والنفقات والعلوفات مما في يده من مال إمارة قرطبة³، سعياً من الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى ترغيب رجال البحر الأندلسيين في العمل بقواته واستعانة منه بخبرتهم البحرية لإدارة أسطوله.

وذهب بعض الباحثين إلى اعتبار الخليفة عبد الرحمن الأوسط المؤسس الحقيقي للبحرية في الأندلس، إذ سعى إلى تقوية الأسطول البحري بعدما أحس بخطور الأعداء من الساحل، وبدأ يشارك بصورة فعّالة في معارك الجهاد ضد الممالك الإسبانية، وقام بفتح بعض المناطق الجديدة⁴، ولم تقتصر غاراته على قواعد الفرنجة وسواحلهم البحرية، بل شملت أيضاً جزر البليار⁵ التي خضعت إلى سيادة الأمير عبد الرحمن الأوسط، بعد أن

¹ ينظر المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد علي بن موسى المغربي، ج1، ص: 183.

² ينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان ص: 587.

* طرطوشة: مدينة بالأندلس تتصل بكور بلنسية، تقع شرقي بلنسية وقرطبة، قريبة من البحر متقنة العمارة (ينظر العبر وديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون، ج4، ص: 136).

³ نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، سالم بن عبد الله الخلف، ج2، ص: 566.

⁴ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص458.

⁵ يطلق إسم جزر البليار حالياً على مجموعة من الجزر في غرب البحر المتوسط، تشكل أرخبيلاً يغطي مساحة كبيرة تصل إلى 4900 كم²، وتتكون من خمس جزر رئيسية، هي ميورقة ومنورقة ويابسة وفرمنتيرة وقبريرة، وتتميز بموقع جغرافي استراتيجي هام

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

نقضت عهداً سبق إبرامه بينها وبين المسلمين¹، مما يعكس الحضور المميز للأسطول البحري الأموي، ودوره الفعّال في صدّ الاجتياح، وزحف الفتوحات الإسلامية.

وزادت قوة البحرية الأندلسية في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، فقد وصل عدد قطع الأسطول الأموي في عهده نحو مائتي قطعة، يتولى قيادتها² عبد الرحمن بن رماحس³، وما كان للبحرية الأندلسية أن تصل إلى ما وصلت إليه في عهده لولا إنشاء دور الصناعة، وأكبرها دار الصنّاعة لإنشاء السفن في مياه الوادي الكبير اتجاه إشبيلية⁴، وتعددت الدور وأخذت تُنتج المزيد من القطع البحرية⁵، فقوي الأسطول البحري حتى صار بحق قُوّة بحرية مرهوبة الجانب.

وبسط الأسطول الأندلسي نفوذه على سواحل البحر المتوسط وكانت له «الكلمة النهائية في المياه المحيطة بالأندلس من الناحيتين الشرقية والغربية، فالقطع الحربية البحرية المرابطة في قاعدة المرية تقف في مواجهة أي اعتداء قد يأتي من قبل العبيديين*، في حين أن قاعدة إشبيلية البحرية تذود عن الساحل الغربي ضد أي هجوم

بين سواحل شرق أسبانيا وجنوب فرنسا (ينظر جزر الأندلس المنسية التاريخ الإسلامي لجزر البليار عصام سالم بن سالم، دار العلم للملايين، ص: 10).

¹ ينظر في التاريخ العباسي والأندلسي، أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص: 347.

² ينظر العبر وديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون، ص: 691.

* عبد الرحمن بن رماحس: قائد بحري مسلم قاد أسطول الدولة الأموية بالأندلس، في العديد من المعارك البحرية، أبرزها ضد عدة هجمات النورمان على عدد من مدن الأندلس الجنوبية وإيقاعه الخسائر في صفوف سفنهم ومطاردتهم بعيداً عن الشواطئ الأندلسية، وقيادته الأسطول الأندلسي بأمر من الخليفة الحكم المستنصر للمساهمة في القضاء على حركة الحسن بن كنون، فتمكن من السيطرة على مدينة طنجة سنة 361 للهجرة (ينظر نوح الطيب المقرئ، ج 1، ص: 384).

⁴ دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان، ص: 587.

⁵ ينظر نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، سالم بن عبد الله الخلف، ج 2، ص: 585.

* العبيدية: إحدى دول الخلافة الإسلامية التي اتخذت من المذهب الشيعي مذهباً رسمياً لها. قامت هذه الدولة بعد أن نشط الدعاة الإسماعيليون في إذكاء الجذوة الحسينية ودعوة الناس إلى القتال باسم المهدي المنتظر، الذي تنبؤوا بظهوره في القريب العاجل فامتد نطاقها على طول الساحل المتوسطي من بلاد المغرب إلى مصر (ينظر الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ص: 363).

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

يقوم به النورمانديون*¹ وهذا خير شاهد على قوة البحرية الأموية في الأندلس، وسيطرتها التامة على الحدود الساحلية، وتصدّيها لكل من تُسول له نفسه اجتياح قطر من أقطارها.

3-النظام المالي :

يدور النظام المالي في الأندلس حول ثلاثة أمور: الخزانة العامة وإدارة بيت المال وإدارة خاصة الأمير أو الخليفة، ولكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة، إيرادات ومصاريف، ونظام دقيق تسير عليه.

3-1-الخزانة العامة :

تُعدُّ أهم وأضخم أجهزة الدولة الأموية، وقد تأخّر إنشاء خطة خاصة بها، حتى عهد الأمير الحكم الربضي الذي أنشأ خطة الخزانة، وجعلها جهازاً قائماً بذاته، وأول من تولى مسؤولية الإشراف عليها² سفيان بن عبد ربه*، ولا تُسند هذه الخطة إلا لمن كان ثقة أميناً، ذا دراية واسعة بالحساب³، وظهر هذا جلياً في موقف شيخ الخزان موسى بن حدير الذي رفض تنفيذ أمر الأمير عبد الرحمن الأوسط بصرف مبلغ ثلاثين ألف دينار للمغني

* في سنة 300هـ استقر النورمانيين في ولاية نورمانديا في غرب فرنسا نتيجة إقطاع ملك فرنسا شارل الثالث زعيم النورماندية رولون هذه المقاطعة التي عرفت باسم نورمانديا، وقد مكنتهم في هذه المقاطعة من شن هجمات برية على الثغر الأعلى للأندلس من ذلك أنهم أسروا يحيى بن محمد بن عبد الملك عامل الخليفة عبد الرحمن الناصر (ينظر، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص 274-276).

¹ نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، سالم بن عبد الله الخلف، ج2، ص:586.

² ينظر نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، سالم بن عبد الله الخلف، ج1، ص:374.

* سفيان بن عبد ربه المصمودي، لم يكن من أسرة عريقة في خطط الدولة الأموية تولى خدمة الخزانة الكبرى، وتنقل في عدة مناصب، حتى نال منصب الحجابة للأمير عبد الرحمن بن الحكم، ولم يزل في منصبه هذا حتى توفى سنة 211هـ، وقد كان سفيان موصوفاً بالغناء والكفاية والعفة والأمانة (ينظر جمهرة أنساب العرب، ص:500

³ ينظر المرجع نفسه، ص:375.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

زرياب، فقد قال موسى بن حدير لصاحب الرسائل الذي حمل الأمر «نحن وإن كنا حُزَّان الأمير أبقاه الله، فنحن حُزَّان المسلمين، نجى أموالهم ونفقها في مصالحهم، ولا والله ما يُنقذ هذا، ولا مِنَّا من يرضى أن يرى هذا في صحيفته غداً، أن نأخذ ثلاثين ألفاً من أموال المسلمين وندفعها إلى مُغن في صوت غنَّاه، يدفع إليه الأمير أبقاه الله ذلك مما عنده»¹، فخازن المال موسى أدرك أن منصبه مسؤولية وتكليف وليس تشريفاً، وخاف الله في حق الرعية وصان أموالهم، ولم يخف في قول الحق لومة لائم، فكان أهلاً لذلك المنصب.

ويسمى صاحب هذه الخطة بخازن المال، ويطلق على معاونيه اسم " الحُزَّان، ويصل عددهم أحياناً إلى ثلاثة معاونين²، يُشرفون على الخزانة المتواجدة بالقصر، وفيها تُودع الأموال التي تُجمع من المدن والقرى، أهمها التُّركات التي يتركها الموتى ممن ليس لهم ورثة، وأموال الضرائب المفروضة على الأسواق، والرسوم الجمركية التي تفرض على السفن والخراج والجزية والأعشار³، وقيل أن عبد الرحمن الناصر خلف في بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف ألف، وكانت تقسم ثلاثة أقسام: قسم للجند وقسم للبناء وقسم يذخر⁴، وبلغت الأندلس مبلغاً كبيراً من الرخاء، وتضاعف دخلها القومي، فبلغت حصيلة الجباية من المكوس وحدها زهاء مليون دينار في السنة، وبلغت من الكور والقرى خمسة آلاف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار، وبلغت من المستخلص (وهي الأملاك السلطانية) سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار⁵.

¹ تاريخ افتتاح الأندلس، ابن قوطية ص: 84.

² ينظر نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، سالم بن عبد الله الخلف، ج 1، ص: 375.

³ ينظر تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج 3، ص 313.

⁴ أزهار الرياض في أخبار العياض شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، تقديم عثمان بدري، ج 2، د. ط، منشورات ثالة الأبيار الجزائر 2001، ص: 272.

⁵ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 462.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

3-2- بيت المال:

عرفت الدولة الأموية في الأندلس هذا النوع من الخزائن، في عهد الأمير المنذر بن محمد سنة 275 هـ، فهو الذي أمر بإنشائه لاستلام أموال الأوقاف، وأطلق عليه لقب بيت المال¹، ويقتصر بيت المال في الأندلس على واردات الأحباس والأوقاف، مقره المسجد الجامع بقرطبة، ويحرص هذا الديوان على حفظ المنشآت الدينية ودفع رواتب موظفي المسجد وتوزيع الصدقات على المحتاجين.²

ويُشرف على بيت مال المسلمين، قاضي الجماعة، ويتولى بدوره تعيين أناس تُثقت لهذا المنصب، ويُشترط في من يتولاه أن يكون «غنياً، عدلاً، ثقة، ومع ذلك يكون القاضي دائم التفقد لهم، والسؤال عن أحوالهم في كل شهر إن أمكن»³، ويستعين القاضي بآراء الفقهاء، في بحثه عن سبل تنمية تلك الأموال وزيادتها، مُشهداً أعوانه على ما يفعله حتى «يكونوا جميعاً على علم بما يُدخل إلى بيت المال وما يُخرج منه، وفي أي شيء صُرف»⁴، ويحفظ بذلك أموال المسلمين، ويتجنب التلاعب بها أو اختلاسها.

3-3- إدارة الأمير الخاصة:

يُشرف عليها موظف يعرف بصاحب الدية تضم موارد الخليفة الخاصة كالأراضي، ويُشرف على زراعتها جماعة من المزارعين شرط أن يأخذوا جزءاً من المحاصيل لأنفسهم⁵، ويحمل إليها الأموال التي تركها الأمراء والخلفاء الأمويين لأبنائهم⁶، ومن

¹ ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج2، ص:230.

² ينظر المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسين دويدار، ص:378.

³ نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، سالم بن عبد الله الخلف، ج1، ص:363.

⁴ المرجع نفسه، ص:363.

⁵ ينظر تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج3، ص:313.

⁶ ينظر نفح الطيب، المقرئ، ج1، ص:330.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

مواردها كذلك الهدايا الخاصة التي تقدّم للأمير من الوفود والسفارات التي تصل قرطبة¹، ومما ساهم في ثراء هذه الخزانة أموال المستخلص - وهو ما يحصله القائمون على الأسواق جراء أخذهم الضريبة من بائعي الخضر والفواكه وغيرها - التي عرفت ضخامة لا مثيل لها، وقدرت سنوياً في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر 765 ألف دينار²، وتُنْفَق هذه الأموال على أمراء وخلفاء بني أمية، وعلى لوازم قصورهم وضياعهم والمنى التي يروحون فيها عن أنفسهم، وتُصرف منها نفقات الخدم والحشم والحرس الذين يعملون بقصورهم³.

3-4- سك النقود:

ذكر بعض المؤرخين أن الأندلس لم تعرف ضرب العملة منذ أن فتحها العرب، وأن أول من نظّم السكّ الرسمي للنقود هو الأمير عبد الرحمن الأوسط الذي أسس دار السكة، وضرب الدراهم باسمه⁴، وبدأ عدد النقود المتداولة يتضاعف شيئاً فشيئاً، خاصة النقود ذات القيمة المتوسطة والدنيا، وتَحَسَّن إتقان ضربها ابتداءً من عام 229 هـ.⁵

ويُشرف على هذه الخطة رجلٌ من الثّقات، عالمٌ بأنواع خطوط الطوابع، ويشترط في من يضع الرّسم على العملة أن يكون « بارع الخط، وأن تكون آلاته وأقلامه محفوظة في حرز لا تخرج منه إلا عند الحاجة»⁶، خوفاً من أن تسرق الآلة فيعمّ الغش والتزوير، وذرعاً للمفسدة .

¹ ينظر المصدر نفسه، ص: 375.

² ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج2، ص: 232.

³ ينظر نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، سالم بن عبد الله الخلف، ج1، ص: 372.

⁴ ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج2، ص: 91.

⁵ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 462.

⁶ نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، سالم بن عبد الله الخلف، ج1، ص: 403-404.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

وتولى الخليفة عبد الرحمن الناصر أمر تنظيم العملة وتثبيتها، فأمر في عام 316 هـ «باتخاذ دار السكة داخل مدينة قرطبة لضرب الدينير والديراهم، وولى أمرها أحمد بن محمد بن حُدير الذي بذل جهده في الاحتراس من المدلسين وكان لهذا أثره في تثبيت العملة واستقرار التعامل»¹، وأصبحت فيما بعد ولاية السكة من الوظائف المالية المهمة في الدولة يُعهد بإدارتها إلى خالص الرجال.

ويُعدّ قيام بعض ملوك الاسبان بضرب عملاتهم تتضمن وجهين، عربي وقشتالي، وارتدائهم الملابس على الطريقة الإسلامية، دليلاً واضحاً على تغلغل الحضارة العربية الإسلامية في نفوس الاسبان.²

وانتقلت كثير من التنظيمات القانونية والحربية من الأندلس إلى الإمارات الإسبانية، فقد اضطر الاسبان إلى الإبقاء على التنظيمات القائمة في المناطق التي أعادوا السيطرة عليها والمؤهولة بالمسلمين، بينما وضعوا أنظمة أخرى لتنظيم حياة رعاياهم في هذه المناطق، مما أدى إلى تفشي كثير من المصطلحات العربية في مجال التنظيم الإداري والسياسي لدى إسبانيا في العصور الوسطى أو في العصر الحديث³، ففي مجال الإدارة نجد كلمات في اللغة الإسبانية بألفاظها وأصولها العربية مثل: القاضي *Alcalde* المحتسب *Almotacin*، وصاحب المدينة *Zalmedina*، وصاحب الشرطة *Zavazorda*، كما انتقلت بعض الألفاظ العسكرية العربية نحو: الطليعة أو المقدمة *Atalaya*، المؤخرة أو الساقة *Zaga*، الملازم أو الفارس *Alferez*⁴، وهناك أمثلة لا حصر لها لمفردات ذات أصل عربي في مجال التنظيم المدني أو العسكري، التي تمثل وثيقة

¹ تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي ص: 465.

² ينظر حضارة العرب في الأندلس، ليفي برونسسال ص: 94.

³ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي ص: 148.

⁴ حضارة العرب في الأندلس، ليفي برونسسال ص: 89-90.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

تاريخية تعكس سيادة الدولة الأموية، واشعاعها الحضاري على اسبانيا المسيحية، والبلاد المجاورة .

ثانيا: البعد الاقتصادي:

تزايدت إيرادات الدولة الأندلسية وتنوعت وتَشَعَّبَتْ علاقاتها الاقتصادية فقوي عودها، وبَسَطَتْ سلطاتها على البلدان المجاورة، ومن أهم موارد هذا الاقتصاد ودعائمه:

1- الزراعة :

تلعب الزراعة دورا مهما في حياة الإنسان منذ أقدم العصور، وقد أدرك الأمويون هذه الأهمية فأحدثوا ثورة زراعية في بلاد الأندلس، وكان للخصائص الجغرافية التي امتازت بها المنطقة أثر بارز في هذه النهضة.

فقد عُرفت الأندلس بكثرة أنهارها وتربتها الخصبة وتنوع أقاليمها، واعتدال مناخها، وهذا ما أكده الكثير من الجغرافيون، وفي ذلك يقول المقري: «وهو بلد كريم البقعة طيب التربة، خصب الجناب، منبجس الأنهار... معتدل الهواء والجو والنسيم، ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال»¹، ووصف أبو عبيد البكري خيراتها الحسان قائلا: «الأندلس شامية في طبيعتها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها»² ونظرا لجمال طبيعتها، ووفرة خيراتها دأب أهلها إلى الزراعة يتخذونها عمودا لاقتصاد بلادهم وموردا من موارد رزقهم.

¹ نفع الطيب المقري، ج1، ص:120.

² أزهار الرياض في أخبار العياض، المقري، ج2، ص:60.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

ومما ساعد على وفرة المحاصيل الزراعية بالأندلس، إبداع أهلها في مجال الري وتنظيمه، واستغلاله أحسن استغلال، فقد أوقفوا ماء نهر طونة بجسر مانع، ثم قطعوا منه سبعة جداول ثلاثة في شاطئ وأربعة في آخر، يُفتح كل فرع منها في يوم من أسبوع، وقسموا كل جدول من تلك الجداول السبع إلى جداول صغيرة، يُفتح كل منها في ساعة، فكان كل جدول مع فروعه على هيئة مروحة، ولعدم انحدار ذلك السهل رتبوا له مساقبي صغيرة، وقناطر عليها مجاري مياه موزعة على المزارع¹، واستفادوا من مياه الأمطار المتساقطة من الجبال، ووسَّعوا القيعان حتى تصبح أحواضا فسيحة تمتلئ بالمياه وترفع منها السواقي، كما حفروا الدهاليز في عمق الآبار من أجل الحصول على المياه لاستخدامها في الري²، فهذه الوفرة في المياه المستخدمة لريّ الأراضي الزراعية، جعل الأرض تفرز أجود ما لديها من خيرات ومحاصيل.

ومما ساهم كذلك في ازدهار الزراعة لدى أمويي الأندلس، مهارتهم الفائقة في فلاحه الأرض، فهم «يبدرون الحبّ في الأرض بمجرد حصاد ما فيها ويأخذون منها كل سنة ثلاثة حصائد»³، الأمر الذي ضاعف المحاصيل الزراعية وزاد من وفرتها.

ويتجلى إبداعهم في مجال الزراعة براعتهم في غرس الأشجار والعناية بها حتى تينع ثمارها على أطيب صورة، وسعيهم إلى استصلاح الأراضي البور، وتحديد خواص الأسمدة وملاءمتها بحسب الحالات⁴، واستحدثهم تقويما للزراعة، يشير إلى زراعة الأشجار والجنانة

¹ خلاصة تاريخ العرب، لويس سيدو، تر محمد أحمد عبدالرزاق، مؤسسة الهنداوي ص: 167.

² العمارة الأندلسية، عمارة المياه، باسيليو بابون مالدونادو، ص: 192.

³ خلاصة تاريخ العرب، سيدو، ص: 167.

⁴ ينظر الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج2، ص: 1304.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

والبستنة في ختام كل شهر من شهور السنة، ويعينهم على تنظيمها،¹ كل هذه الظروف والعوامل مجتمعة ساهمت في ارتقاء الزراعة الأندلسية .

ونرى الأمير الداخل يحرص على جعل قرطبة صورة من دمشق في منازلها البيضاء ذات الأحواش الداخلية المزينة بالأزهار والورد ونافورات المياه، كما اهتم ببعض الثمار والبذور، وأرسل بعض رجاله إلى المشرق لجلب أشجار الفاكهة من بلاد الشام، منهم سفر بن عبيد الكلاعي والذي تنسب إليه أسماء بعض الفواكه التي غرسها في جنانه بكوره مرية، وأثمرت مثل التين السفري والرمان السفري، ثم اهتم بها الأمير الداخل وغرسها في منيته، وانتشرت بذلك زراعتها في سائر أنحاء الأندلس.²

وعرفت الأندلس بوفرة خصبها وكثرة مواردها الزراعية، وتعدُّ مناطق الأرياف أهم مصادر هذه الثروة، المتمثلة في الزيتون والموز واللوز والرمان، وقصب السكر والقرمز المعروف بطيبه، وأكثر ما يكون بنواحي إشبيلية ولبلة وشدونة وبلنسية،³ وكذلك التين القوطي والتين الشعري والخوخ والجوز والحبوب⁴، الذي عرف وفرة منقطعة النظير.

ومن أهم المحاصيل الزراعية التي شهدت وفرة « القمح والزيتون والفاكهة وغابات الأشجار الخشبية، وما تزال هذه المحاصيل إلى اليوم هي أهم موارد اسبانيا الزراعية»⁵، واشتهرت مدينة إشبيلية بزراعة القطن المعروف بجودته، وفي ذلك يقول الحميري: «والقطن

¹ ينظر المرجع نفسه، ص 1368..

² ينظر البيان المغرب، ابن عذارى، ج 2، ص: 60.

³ ينظر المسالك والممالك، البكري، ج 2، ص 897.

⁴ ينظر نفع الطيب، المقري، ج 1، ص: 200.

⁵ دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان، ص: 689.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

يجود بأرضها ويعم بلاد الأندلس ويتجهز به التجار إلى افريقية وسجلماسة وما والاها»¹.

وعرفت جبال سيرانيفادا زراعة التفاح، والبطيخ السندي الذي لازال يعرف باسبانيا باسم سانديا Sandia،² وزراعة التوت والنخل والفسق³ وشاعت زراعة الأرز بمدينة بلنسية، التي أصبحت اليوم المستودع الرئيسي للأرز باسبانيا وتشتهر بنوع من الطعام يقوم عليه يسمى Paella، وظل الأرز محافظاً على معناه العربي Arroz، وبعض الخضروات كالبدنجان والخرشوف والزيتون والزعفران والسلق وغير ذلك⁴.

وكان الأندلسيون يحملون إلى بلاد المغرب منتجاتهم الزراعية التي لا توجد بالمغرب، وكذلك ما يرد من الأندلس إلى المشرق كان يصرف عموماً في الأسواق الإفريقية.⁵

لذلك يمكن القول بأن الزراعة في الأندلس استمرت في الازدهار منذ بداية عهد الإمارة، وكانت أهم منبع للثروة، إذ يستحيل قيام نشاط تجاري واسع في تلك الأيام دون الاعتماد على زراعة مزدهرة، ولأن الأندلس في هذه الفترة كانت قبلة طلاب العلم، فمن البديهي أن يتأثروا بها ويسعون إلى نقل كل ماتعلموه فيها، ومن هذه العلوم علم الزراعة ويؤكد ذلك انتشار بعض المصطلحات الخاصة بالفلاحة في أوروبا.

2- الصناعة:

لما استقرت الأمور، واستطاع الأمويون أن يضعوا أيديهم على موارد البلاد وثرواتها الطبيعية، وأن يستغلّوها بمقدرة وذكاء، لم تبق الزراعة هي المورد الوحيد، وإن لبثت دائماً

¹الروض المعطار في خبر الأقطار الحميري، ص: 59.

²ينظرالمجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسين دويدار، ص: 342..

³ينظر خلاصة تاريخ العرب، لويس سيديو، ص: 167.

⁴ينظرالمجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسين دويدار، ص: 343.

⁵ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 458.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

هي المورد الرئيس، بل تنبَّهوا لأهمية الصناعة، ذلك أن شبه الجزيرة الاسبانية، تضم ثروات متنوعة من المعادن.

وكرت الصناعات في مختلف أنحاء الأندلس، وتخصصت كل ناحية في إنتاج صناعة معينة، فعلى سبيل المثال تخصصت مرسية في صناعة الطرز الذهبية والأساور المذهبة والسكاكين والأسلحة¹، ويؤكد الحميري ذلك: «وبها معادن فضة غزيرة متصلة بالمادة وكانت تصنع بها البسط الشريفة الرفيعة ولأهلها حذق بصنعتها وتجويدها لا يبلغه غيرهم»²، أما المرية ومالقة فقد اشتهرتا بصناعة الخزف والأواني الزجاجية والأقمشة، واشتهرت غرناطة بصناعة البلد - وهو ثوب حريري ملون - ومن اشبيلية شاعت صناعة الأقواس والرماح والسهام بالإضافة إلى صناعة السرج المزينة وغيرها³، وأشهر هذه الصناعات:

2-1 الصناعة المعدنية:

تنوّعت المعادن وتعددت مناطق تواجدها، وبذل الأمويون جهدا كبيرا في البحث عنها، فأغنت مناجم الفضة والنحاس في قرطبة وكورة تدمير⁴، المسلمين لوفرقتها، وكذلك الذهب «بنهر لادرة يجمع بها منه كثير، ويجمع أيضا في ساحل الأشبونة»⁵، وعُرفت تدمير بحجر اللازورد الجيّد، ومدينة الأشبونة بحجر البجادي، الذي يتلأأ في الجبل ليلا كالسراج المنير، ووُجد الياقوت الأحمر بمالقة، إلا أنه دقيق جدًا لا يصلح للاستعمال لصغره، وكشفت الحفائر بمدينة بجانة في خندق بقرب قرية ناشر عن وجود حجر بأشكال

¹ ينظر المرجع نفسه، صفحة نفسها.

² الروض المعطار في خبر الأقطار الحميري، ص: 539.

³ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 458.

⁴ ينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان، ص: 690.

⁵ ينظر المسالك والممالك، أبو عبيد البكري، ص: 897.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

مختلفة يشبه الياقوت الأحمر¹، ونقّب المختصّون عن الرّثيق في جبال البرانس، والقصدير في ولاية الغرب، واهتموا كذلك بالبحث عن البلّور المتواجد بمنطقة لورقة، والرّحام في جبل قرطبة وباجة و جبال سيرّا مورينا،² ويتضح مما سبق أن الله قد حبا الأندلس بمعادنها النفيسة التي تعدّ أساس الصناعات المعدنية، والعمود الفقري لاقتصاد البلاد.

وتقدّمت الصناعة المعدنية تقدّما عظيما، فاستخدموا الحديد في صناعة آلات السفن كالمراسي والمسامير وآلات الحدادة كالمزاليج والمفصلات، واستعمل الذهب والفضة والنحاس في صنع الآنية والطّسوت، وقد ذكر المقري ذلك قائلا: «في الجامع حاصل كبير ملآن من آنية الذهب والفضة لأجل وقوده»³، وشاع استعمال النحاس في تصفيح أبواب المساجد حتى غدت «مخرمة تخريما عجيبا بديعا يعجز البشر ويهرهم»⁴.

2-2- صناعة السّكر:

من أبرز الصناعات التي تهتم بالمواد الغذائية، صنّع السّكر الذي عرّف وفرة لا مثيل لها في هذا العصر، لكثافة قصب السكر بالبلاد خاصة في القرن الرابع هجري، ومن أهم مراكز تصنيعه البيرة ومالقة واشبيلية.⁵

2-3 صناعة النّسيج:

كما برع الأمويون في صناعة النسيج، وأولّوه رعايتهم واهتمامهم، وانتشرت هذه الصناعة في مختلف أنحاء البلاد نظرا لتوفر المواد الخام اللازمة لها من القطن والحريير

¹ ينظر المصدر نفسه، ص 897.

² ينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان، ص: 690.

³ نفع الطيب المقري، ج 2، ص 95.

⁴ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁵ ينظر المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسين دويدار، ص: 354.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

والصوف، فصنعوا قماش أبي قلمون¹، وبلغوا أقصى الغايات في صناعة أقمشة الحرير²، الأحمر النقي الطيب غاية الطيب، وحرير السقلاطون الذي استعمل في المناسج الفاخرة، وهو من الحرير المطرّز بخطوط الذهب، ومن أفضل أنواع الحرير لدى التجار، لما يتمتع به من ألوان بَرّاقة³، وقد عَرَفَ وفرة لا مثيل لها لكثرة أشجار التوت وتوفر الأيدي العاملة المدربة والماهرة، وسعي النساء إلى تربية دود القز، ورعاية بيضه وانتقاء شرانقه، وقد أشاد الرحالة ابن حوقل بأنسجة الديباج الأندلسية، والسروج الحريرية وذكر أنها فاقت في صنعها أي مكان في العالم.⁴

وساعدت تربية الأغنام وكثرة المراعي على صناعة الجلود المزخرفة الزاهية والاستفادة من بعضها في صنع الأحذية،⁵ إذ امتازت الأندلس بمراعيها الجيدة والموزعة على معظم المناطق،⁶ مما زاد شهرتها في إنتاج الصوف، ووصف ابن حوقل ذلك بقوله: «رخصت الماشية لكثرة المراعي، غزيرة النتاج والمواشي، معدومة الحوائج، قليلة الآفة، وليس بها عاهة ولا وحش يؤذيهم»⁷، فكثرت صناعة الصوف و السجاد والبسط، ولا زالت اسبانيا إلى اليوم رائدة في صناعة الأغطية والسجاد.⁸

¹ أبو قلمون يقال انه اسم للحرياء باللغة اليونانية وسمي بها القماش لتعدد ألوانه (المجتمع الأندلسي في العصر الأموي ص:348)، وقيل أن معناه حرير الروم، وهو شعيرات تخرج من صدفة كستنائية اللون يفرزها هذا الحيوان الذي هو من فصيلة الرخويات وهذا الشعر سواء كان أسود أو أخضر يتميز بلون ذهبي يشبه قزحية العين وكان يسمى كذلك صوف البحر (الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج2، ص:1400 .)

² ينظر خلاصة تاريخ العرب، لويس سيديو، ص:166.

³ اقتصاد النسيج في الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، محمود هدية، مؤسسة الهداوي، ص:146.

⁴ ينظر المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسين دويدار، ص:349.

⁵ ينظر الزراعة في الأندلس، أبودياك صالح، ص:206.

⁶ صورة الأرض، ابن حوقل، ص:115.

⁷ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁸ ينظر المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسين دويدار، ص:349-350.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

وعرفت الأندلس اهتماما كبيرا بزراعة القطن، ساهم في وفرة المنسوجات القطنية¹، حتى بلغ عدد النسّاجين بقرطبة وحدها مئة وثلاثين ألف نسّاج²، ووُجِدَت دُور خاصة لصناعة ثياب الأمراء والخلفاء من الحرير المرقوم بالذهب، تُسمى دار الكسوة أو الطراز، وأنشأت أول دار للطراز بقرطبة³، وكانت منتجاتها أروع مكافأة يمكن أن يتلقاها الناجحون في هذه الفترة الزمنية، فقد أثير عن المنصور أنه كان يجامل بها ملوك اسبانيا المسيحية ويكافئ بها من تميّز من جنوده، فَوَزَّع في إحدى غزواته «صنوف الخز الطرازي، وواحدًا وعشرين من صوف البحر، وكسائين عنبريين، وأحد عشر سقلاطونة وخمس عشرة ميريشات وسبعة أنماط ديباج، وثوبي ديباج رومي، وفرو فنك»⁴.

وبلغ الأندلسيون في هذه الصناعة مستوى عالي من الحرفية، وحظيت المنسوجات الأندلسية بشهرة كبيرة في أوروبا، وحرص الكثير من الملوك والأغنياء على اقتنائها، ولعل تواجد بعض النماذج بالمتاحف الغربية، كمتحف فيجو بكتالونيا باسبانيا ومتحف الأكاديمية الملكية بمدريد ومتحف الفن ببروكسل، خير دليل على براعة الأندلسيين في هذه الصناعة⁵.

ويعدّ تأثر الحكام الأوربيين بالأندلسيين أمر طبيعي وذلك للقرب الجغرافي، كونهم البلد الأكثر تحضرا في المنطقة، بلغت فيه صناعة الأقمشة والمنسوجات شأنا عظيما، وظل التأثير مستمرا حتى بعد سقوط الأندلس، فقد ألف النبلاء الأوربيين إرتداء الملابس الأندلسية والتزين بزينة الأندلسيين.

¹ ينظر خلاصة تاريخ العرب، لويس سيديو، ص: 166.

² ينظر قصة العرب في اسبانيا، لين بول ستانلي، ت علي الجارم، دار المعارف، مصر، ط9، ص: 136.

³ ينظر نفح الطيب، المقرئ، ج1، ص: 234.

⁴ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج2، ص: 367.

⁵ ينظر المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسين دويدار، ص: 350.

2-4 صناعة الخشب:

استغلَّ الأندلسيون خشب الغابات الكثيرة المتواجدة بالبلاد في صناعة السفن بكل أنواعها الحربية والتجارية والسفّرية، وما كان كبيراً من الخشب أو خشناً استعمل في أغراض البناء،¹ وازدهر فنُّ النَّحت على الأحشاب، وذاعت شهرته في صناعة المنابر وأشهرها ما نُحِت على منبر جامع قرطبة²، وصُنعت العلب الخشبية المزينة بالعاج التي كانت تُتخذ لحفظ الزّينة وقنينات العطر والعنبر والحلّي الخاصة بزوجات الخلفاء والأمراء وجواريتهم³، ويتبيّن من خلال ما عُثر عليه من هذه التحف أنّها على شكلين: علب أسطوانية الشكل ولها غطاء مقبب، وأخرى صناديق مستطيلة الشكل لها أغطية على شكل هرم ناقص، تتنوع زخارفها بين توريقات ورُسوم حيوانات أو رُسوم آدمية أو مناظر للصيد ومجالس للطرب⁴.

2-5 صناعة الرُّجاج والخزف:

برزت صناعة الكؤوس التي تُعلق في الثريات الموضوعة في المساجد والقصور، وصناعة الأواني الزجاجية والنّمارق، وما زاد في شهرتها استعمال زرياب الأكواب الزجاجية الصافية في شرب الماء بدلا من الأكواب المعدنية من الذهب والفضة⁵، كما

¹ ينظر الزراعة في الأندلس، أبودياك صالح، ص 205..

² ينظر قرطبة حاضرة الخلافة، عبدالعزيز سالم، ج 1، ص: 344.

³ ينظر المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسين دويدار، ص: 352.

⁴ ينظر قرطبة حاضرة الخلافة، عبدالعزيز سالم، ج 2، ص: 132-133.

⁵ ينظر المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسين دويدار، ص 351..

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

اشتهرت الأندلس بصناعة الخزف، وبرع صنّاعها فيه، حيث مزجوا بين التقاليد الخزفية المشرقية والمحلية، وأهم شيء أضافوه هو التزجيج، ورسم التصميم الزخرفي بالمغنيز والشحم والفصل بين المربعات أو الخانات ذات الألوان المختلفة¹، وانتقلت صناعة الخزف إلى أوروبا فيما بعد.

وقد كشفت حفائر مدينة الزهراء عن «إناء زجاجي طويل الرقبة مُضلع، ووعاء عميق يزدان سطحه بزخارف نباتية من النوع الذي يوضع في قوالب»². ويكشف هذا الإناء عن تقدم صناعة الزجاج في تلك الآونة، كما يعكس إبداع الأمويين في هذا المجال.

2-6- صناعة الأسلحة:

كلّ جيش من الجيوش يعتمد على أسلحة مُعينة في خوض الحروب، كالترس والخوذة والدّرع والسيوف والرماح والقسيّ والسهام، فحاجة الأندلسيين لها جعلتهم يُنتجون هذه الأسلحة بشكل كبير، وكثُر صنعها بمدينة طليطلة³ ومرسية واشبيلية، وما ميّز الفولاذ الأندلسي جودته وشدة صلابته⁴.

2-7- صناعة الورق:

كثُرَت مصانع الورق في البلاد، واشتهر بتصنيعه أهل شاطبة التي «يُعمل بها كاغد لا نظير له بمعمور الأرض يَعُمُّ المشرق والمغرب»⁵، وأنتج بكميات كبيرة وتميَّز بجودته

¹ مكانة الأندلس في التواصل الحضاري بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، وجدان فريق عناد، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، العدد 10، مركز إحياء التراث العلمي العربي، العراق، ص: 60.

² قرطبة حاضرة الخلافة، عبد العزيز سالم، ج 2، ص:

³ ينظر قصة العرب في اسبانيا، لين بول ستانلي، ص 138..

⁴ المرجع نفسه: ص: 354.

⁵ الروض المعطار في خبر الأقطار الحميري، ص: 337.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

ولمعانه، ومهر بتصنيعه كذلك أهل مدينة لقنت، وساعد موقعها الساحلي على تصديره بكميات كبيرة للبلدان المجاورة.¹

واشتهر الورق الشاطبي* في العالم الإسلامي بأسره، فكانوا لا يكتبون الوثائق إلا عليه، لجودته ورُخس ثمنه، وانتشر استعماله في بقية أنحاء أوروبا، كما عرف الأندلسيون إلى جانب الكاغد نوعاً آخر من الورق المتين السميك الشبيه بالقماش، وهو الورق المعروف بالبارشمان، كثرت الحاجة إليه في أوروبا لكتابة الأناجيل والوثائق الكنسية²، وأدى انتشار هذا الورق إلى إزدياد عدد الكتباوروبا وركيزة من ركائز النهضة العلمية بها.

2-8- صناعة التماثيل:

إن حُب الأمويين واهتمامهم بالفخامة والأناقة والأبهة جعلهم يتفننون في صناعة التماثيل البرونزية لحيوانات وطيور كانت توضع حول البرك والأحواض، تمج المياه من أفواهاها³، بُغية تزيين القصور، وكان الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر يُحث على صنع تماثيل تفوق التماثيل البيزنطية جمالا وقيمة، حتى أنه لم يتوان عن استخدام الذهب في صنعها إظهاراً لأهميتها⁴، ويحتفظ متحف قرطبة الأثري بـ «الوعل البرونزي الشهير الذي يعتبر من أروع القطع الفنية»⁵.

وما يشهد لتطور الصناعة آنذاك وبراعة الأندلسيين في هذا المجال وإبداعهم فيه، ولُع نساء ليون Leon وبيرجس Burgas بالمنتوجات الأندلسية، «وهنّ يمطرن

¹ ينظر الزراعة في الأندلس، أبودياك صالح، ص: 202. *الشاطبي: نسبة إلى مدينة شاطبة.

² ينظر المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسين دويدار، ص: 355.

³ ينظر قرطبة حاضرة الخلافة، عبد العزيز سالم، ج2، ص: 138.

⁴ ينظر الأندلس في العصر الذهبي، منذ حملة طارق بن زياد إلى وفاة عبد الرحمان الثالث الناصر لدين الله، سوزي حمود، ص: 86.

⁵ ينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان، ص: 444-445.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

سفراء البلاط بأسئلتهن متلهفات لمعرفة أنواع الأقمشة والألوان الدارجة وأنسجة البروكار الثقيلة والمبتكرات من العاج... التي كان تجار قرطبة يعرضونها في أسواقهم.¹

ويظهر تأثير المسلمين على اسبانيا في تطوير فنون الصناعة كصناعة العاج، والمصنوعات الذهبية والزجاجية والحزفية والتطريز، فقد ظلّت هذه الصناعات مُستمرة في المدن التي استعادها الاسبان في وقت لاحق بعد عصر الإمارة، وذلك لأن إشعاع الحضارة الأندلسية الذي بلغ أقصى اندفاعه في القرن العاشر الميلادي/الرابع الهجري، لم يتلاش بل امتدّ حتى سقوط الأندلس شاملاً جميع أجزاء شبه الجزيرة، ولم يقف الملوك والأمراء الاسبانيون ضد هذا التيار، بل شجّعوه وتبنّوا مختلف المبتكرات المستقاة من الحضارة العربية الإسلامية المجاورة.²

3- التجارة :

كان لازدهار الزراعة والصناعة بالأندلس أثر بارز في انتعاش التجارة، وأصبح للأندلس أسطول تجاري بحري كبير يجوب المدن القريبة والبعيدة حاملاً المنتجات الزراعية والصناعية الأندلسية، منطلقاً من موانئ اشبيلية ومالقة ودانية وبلنسية والمرية، وكانت حركة النقل التجارية ناشطة جداً بين الأندلس وشواطئ المغرب، وبصورة خاصة شواطئ المغرب الأوسط والأقصى الممتدة من بجاية حتى سبتة لأنها مقابلة للمراسي الأندلسية.³

وكثُر تبادل السِّلَع والبضائع والغلال بين الأندلس والمغرب كالقطن والزيت والكتّان والخشب، ولم تقتصر المواد المتبادلة بين البلدين عليها فقط، بل نجد أيضاً الأندلس تصدر

¹ حضارة العرب في الأندلس، ليفي برونفيسال، ص: 93.

² ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي ص: 459.

³ ينظر المرجع نفسه، ص: 459.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

إلى إفريقية الأسلحة والنسيج والجلود والسكر، وقام التجار من اليهود والبربر بنقل هذه السلع وبيعها في المغرب والمشرق.¹

وأدى ازدهار النشاط التجاري بين المغرب والآنندلس إلى وجود جاليات أندلسية أقامت في مدن المغرب الساحلية إما بصورة مؤقتة أو بصورة دائمة ويختلطون مع سكان المغرب، يلتمسون حمايتهم مقابل حصة معينة من الأرباح أو كمية من المال، كما هو الحال في مدينة مليلة، وكثيراً ما تقوم الجاليات الأندلسية ببناء مدن جديدة إما بمفردها كبنائهم لمدينة تنس أو بالاشتراك مع غيرهم من البنائين في أحيان أخرى كبنائهم لمدينة أصيلة.²

وازدهرت التجارة مع بلاد الفرنجة واتخذت ثلاثة سبل لذلك، أولها: الطريق البري الذي يمر عبر جبال البرانس³ وكانت القوافل التجارية تعبر هذه الممرات إلى موانئ جنوب فرنسا، وثانيها الطريق البحري عبر ساحل إسبانيا الغربي المطل على المحيط الأطلسي، وأما الثالث يمر عبر الساحل الشرقي للآنندلس المطل على البحر الأبيض المتوسط، ثم تنقل البضائع عبر الممرات عبر جبال البرانس و عن طريق الموانئ الجنوبية لفرنسا.⁴

وفتحت الآنندلس أبوابها للتجارة مع العراق، فدخلتها بعض البضائع العراقية كالملابس وأدوات الزينة، وتذكر بعض الروايات أن الأمير عبد الرحمن الأوسط اشترى من

¹ حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص: 274.

² ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الآنندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 459.

³ جبال البرانس التي تفصل بين فرنسا وإسبانيا ويصل ارتفاعها حوالي 3000 متر فوق سطح البحر وهي من السلاسل الرئيسية بأوروبا، ينظر البكري، ج2، ص: 895.

⁴ المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسين دويدار، ص: 361.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

أحد التجار عقداً كان للسيدة زُبيدة زوجة هارون الرشيد بمبلغ عشرة آلاف ديناراً، وأهداه إلى زوجته.¹

إن اقتصاد الأندلس قام على الاكتفاء الذاتي، حيث «كانت قادرة في سنة 400هـ وحتى بعد 75 سنة إضافية أن تدعم وتمول نمو مجموعة اجتماعية أخرى طفيلية وأجنبية، هي الدول النصرانية الشمالية»²، وزادت أموال الخزينة فكانت تبلغ مليون دينار أحياناً، وانعكس ذلك على المجتمع الأندلسي الذي عرف ثراءً فاحشاً، ويتجلى ذلك في اقتناء الأمراء الجوارى والعبيد البيض، وفي منحهم الهدايا والهبات للشعراء والمغنين، فمثلاً كان المغني المشرقي زرياب يقبض مخصصات شهرية قدرها مائتا دينار، كما أن كلاً من أبنائه الأربعة كان يأخذ عشرين ديناراً شهرياً، وقد تسَلَّم زرياب في إحدى المناسبات هدية قدرها ثلاثة آلاف دينار.³

ومن مظاهر الرفاهية والتّرف صرف الأمراء أموالاً طائلةً في الأعمال العمرانية المتمثلة في بناء المساجد الجديدة أو توسيع المساجد القديمة، وبناء القصور والأسوار، وبناء المدن المملّكية، كمدينة الزهراء التي بناها الخليفة النّاصر، وأنفق مالا وفيراً في إنشائها⁴، وتبادلهم الهدايا الثمينة مع حاشيتهم، كما فعل الوزراء مع الخليفة النّاصر والحكم المستنصر، وتُعدّ هذه الهدايا من أشهر الحوادث الاجتماعية في هذا العصر، التي تعكس رخاء المجتمع الأندلسي⁵.

¹ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ص: 91.

² الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج2، ص: 1060.

³ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 460.

⁴ ينظر المرجع نفسه ص: 465.

⁵ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 427.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

وقد لعب الرخاء الاقتصادي دوراً هاماً في ازدهار الحركة العلمية، وكان السر وراء اغداق الخلفاء المال على العلماء، اهتمامهم بشراء نفائس الكتب بأثمان غالية، فالخليفة الحكم المستنصر كان يبعث إلى أكابر العلماء المسلمين في كل قطر الهدايا الثمينة، للحصول على النسخ الأولى من مؤلفاتهم، فنقد أرسل إلى أبي الفرج الأصفهاني ألف دينار من الذهب ليحصل على نسخة من كتابه "الأغاني"، قبل أن يحصل عليه أحد في العراق، كما أرسل إليه الأصفهاني كتاباً ألفه في أنساب بني أمية فجازاه الحكم في مقابله الكثير من المال والهدايا¹.

أحدث النشاط الاقتصادي تطوراً إدارياً وعسكرياً في الأندلس، صاحبه رقي اجتماعي وحضاري، ساعد أمراء هذه الفترة على الإصلاح والانفتاح على العالم الخارجي، وساهم في تلاقح الحضارات.

ثالثاً: البعد العمراني :

المعروف أن شعوباً كثيرة سكنت الأندلس، وساهمت في تطوير العمارة الإسلامية بها ويشهد لذلك كثرة المشيدات التي بقيت فيها شاهدة على النهضة الفكرية والفنية التي عرفتتها هذه الحضارات ، وامتداد تأثيراتها الفنية العربية إلى بقية المناطق المجاورة، وما زالت معالم الحضارة الإسلامية في الأندلس ماثلة إلى يوم الناس هذا مُثلة في القصور والمباني والعمران، بوصفها معالم سياحية تعكس قوة الحضور الإسلامي، وقوة الحضارة الإسلامية العربية، و مما يلفت الانتباه دعم أمراء بني أمية لكل جديد، ومسارعتهم إلى تشييد المدن وبناء المساجد والقصور وكأن غايتهم كانت رفع راية الإسلام والمسلمين وفرض سلطاتهم ونفوذهم على العالم المسيحي وإبراز قدرتهم على الإبداع ومسيرة الركب الحضاري .

¹ ينظر الحلة السيرة ابن آبار، ج1، ص: 201-202.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

وبعد سقوط الدولة الأموية بالشام استطاع عبد الرحمن الداخل أحد أمراء بني أمية أن يؤسس دولة جديدة بالأندلس «فضرب بين جندها بخصوصيته، وجمع بعضهم بقوة حيلته، واستمال قلوب رعيتهما بحسن سياسته حتى انقاد له عصيهم، وذللَّ له أبيهم»¹، وما كاد الخليفة يستقر بالبلاد حتى شرع في بناء المساجد والقصور والمدن، ومنذ ذلك العهد بدأ فن العمارة يأخذ طريقه في الأبنية الدينية والعمرانية .

أولاً: العمارة الدينية :

تتعلق العمارة الدينية بتصميم وبناء أماكن العبادة، وكون الإمارة الأموية رفعت راية الإسلام، فالمقصود بهذه العمارة المساجد لا محالة .

1- المساجد:

لقد كان المسجد المبني الرئيس في أي مدينة إسلامية منذ هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وسار العرب الفاتحون على النهج نفسه، حيث كانت المساجد أول ما يبنى بعد الفتح، أو إنشاء المدن الإسلامية، مما جعل الدارسين يعتبرونه أهم الأسس في تخطيط المدينة الإسلامية² وقد حرص مسلمو الأندلس على نشر الإسلام في البلاد المفتوحة، فحولوا أغلب الكنائس الواردة في المدن إلى مساجد، كما عمدوا إلى إنشاء مساجد جديدة ترفع راية الإسلام والمسلمين «وعدد المساجد بقرطبة على ما أحصي وضبط أربعمائة وأحد وتسعون مسجدا»³، وتعدُّ عمارة المسجد محطة رئيسة في طريق الحضارة المعمارية بشكل عامّ والفرنّ الإسلامي بشكل خاصّ، من أشهرها:

1-1 مسجد قرطبة :

¹ المساجد والقصور في الأندلس، عبد العزيز سالم، ص:5

² ينظر العمارة الإسلامية والبيئة، يحيى وزيري، مطابع السياسة، الكويت 2004، سلسلة عالم المعرفة، ص:135.

³ الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحميري، ت إحسان عباس، مكتبة لبنان 1984، ص:458

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

ويسمى المسجد الجامع، ويُعدُّ هذا الصَّرح شاهداً من شواهد الزخرفة العمرانية يعكس درجة التطور المعماري والفني الذي عرفته الأندلس في تلك المرحلة، بناه عبد الرحمن الداخل سنة (169هـ) بعدما هدم الكنيسة التي كانت بجواره واستغرق بناؤه سنة كاملة¹، وأتمها ابنه هشام ثم توالى الخلفاء من بني أمية على الزيادة فيه، ويتكون من أعمدة رخامية «وباب مقصورة الجامع ذهب وكذلك جدار المحراب وما يليه قد أُجري فيه الذهب على الفسيفساء وثريات المقصورة فضة مَحْضَة وارتفاع الصومعة ثلاثة وسبعون ذراعاً إلى أعلى القبة المفتحة التي يستدير بها المؤذن وفي رأس هذه القبة تفتيح ذهب وفضة... فائنتان من التفتيح ذهب ابريز وواحدة فضة وتحت كل واحدة منها و فوقها سوسنة قد هُنْدست بأبدع صنعة ورُمانة ذهب صغيرة على رأس الزجاج وهي إحدى غرائب الأرض»²، وأتمها ابنه هشام ثم توالى الخلفاء من بني أمية على الزيادة فيه، ويتكون من أعمدة رخامية «وباب مقصورة الجامع ذهب وكذلك جدار المحراب وما يليه قد أُجري فيه الذهب على الفسيفساء وثريات المقصورة فضة مَحْضَة وارتفاع الصومعة ثلاثة وسبعون ذراعاً إلى أعلى القبة المفتحة التي يستدير بها المؤذن وفي رأس هذه القبة تفتيح ذهب وفضة... فائنتان من التفتيح ذهب ابريز وواحدة فضة وتحت كل واحدة منها و فوقها سوسنة قد هُنْدست بأبدع صنعة ورُمانة ذهب صغيرة على رأس الزجاج وهي إحدى غرائب الأرض»³، وقد وصفه الحميري على أنه «الجامع المشهور أمره، الشائع ذكره، من أجَلِّ مصانع الدنيا كبر ساحة، وإحكام صنعة، وجمال هيئة، وإتقان بنية، اهتم به الخلفاء المرابطون فزادوا فيه زيادة وتتميماً إثر تتميم حتى بلغ الغاية في الإتقان، فصار يحار فيه الطرف، ويعجز عن حسنه الوصف، فليس في مساجد المسلمين مثله تنميماً وطولاً وعرضاً... وفي سقفه من ضروب الصنائع والنقوش ما لا يشبه بعضها بعضاً، قد

¹ ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج2، ص:229.

² نفتح الطيب، المقري، ج1 ص:548.

³ المصدر نفسه، ص:555.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

أحكم ترتيبها وأبدع تلوينها بأنواع الحمرة والبياض والزرقة والخضرة والتكحيل، فهي تروق العيون وتستميل النفوس بإتقان ترسيمها ومختلفات ألوانها ... ولهذا الجامع قبلة يعجز الواصفون عن وصفها وفيها إتقان يبهر العقول تنميقها، وفيها من الفسيفساء المذهب والبلور، مما بعث به صاحب القسطنطينية العظمى إلى عبد الرحمن الناصر لدين الله¹، إن هذا البناء يحمل صفات مدهشة و تناسق بديع بين أجزاء العناصر، مثل الأعمدة الرفيعة والأقواس التي على شكل حذوة حصان يعلوها نصف دائرة، إنهما هندسة في الأعمدة التي تشيع شعورا بالاطمئنان².

وزاد فيه عبد الرحمن الأوسط رواقين، ويقول ابن مثنى³ عن تلك الزيادة⁴:

بَنَيْتَ لِلَّهِ حَيْرَ بَيْتٍ يَخْرُسُ عَنْ وَصْفِهِ الْأَنَامُ

حَجَّ إِلَيْهِ بِكُلِّ أَوْبٍ كَأَنَّهُ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ

كَأَنَّ مِحْرَابَهُ إِذَا مَا حَفَّ بِهِ الزَّنُّ وَالْمَقَامُ

ويعتبر المسجد الجامع المركز الديني الأول في البلاد ومصدر الإشعاع الفني وأصبح المثل الأعلى لمساجد المغرب والاندلس فقد قلد المرابطون تصميمه في جامع تلمسان واتخذ الموحدون تصميمه أنموذجا لجوامعهم، وحوكيت قبابه القائمة على الضلوع المتقاطعة في قباب طليطلة وغيرها من مدن الأندلس حتى صار مدرسة فنية تلقن الغرب المسيحي والإسلامي دروس الزخرفة العمرانية، فمثلما عظمه المسلمون قدسه المسيحيون لكنيسة كانت في الجانب الغربي منه سابقا، إذ أشار القسيسيون على ملك قشتالة (ألفونسو)

¹الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري ص 456-457

²الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج2، ص: 847

*هو عثمان بن مثنى النحوي، هاجر إلى المشرق ولقي أبا تمام وروى عنه شعره (ينظر ابن فرضي ص: 346)

⁴المقري، نفح الطيب، ج1، ص: 348.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

السادس (Alfonso) أن يرسل زوجته (القمطيحة) التي كانت حاملا لتلد فيه¹، وبلغ هذا المسجد مكانة مرموقة في عهده كونه مكانا للعبادة ومركزاً فكرياً غاية في الأهمية.

1-2- مسجد الزهراء:

و يُعدُّ تحفة معمارية لامثيل لها فهو الجامع الذي ليس في معمور الأرض مثله، أقامه الخليفة عبد الرحمن الناصر حيث « كان يعمل في بنائه كل يوم ألف رجل منهم ثلاثمئة بناء ومائتي نجار.... وكان يتكون من بلاطات مفروشا بالرخام الخمري اللون وتتوسطه فوارة يجري فيها الماء وكان ارتفاع معذنته أربعين ذراعاً وهي شبيهة بالمتئذنة الأولى لجامع قرطبة التي أقامها الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل، أما منبره فقد جاء في غاية الحسن والبهاء وجعلت حوله مقصورة من الخشب بديعة الصنع وقد بلغ طوله من القبلة إلى الجوف سوى المحراب سبعة وثلاثون ذراعاً وعرضه من الشرق إلى الغرب تسعة وخمسون ذراعاً»²، ويحوي المسجد ألف سارية كبيرة، ومائة وثلاثة عشرة ثريا للوقيد، أكثر ما تحمل الواحدة ألف مصباح، وفيه من النقوش والرسوم ما لا يقدر على وصفه، وبقبلته صناعات تُدهش العقول، وعلى فرجة المحراب سبع قسي قائمة على عمد، طول كل قوس فوق القامة، قد تحير الروم والمسلمون في وصف حُسنها، وفي عضادتي المحراب أربعة أعمدة، اثنان أخضران، واثنان لازوردیان، و به منبر ليس على معمور الأرض مثله وله عشرون باباً مصفحة بالنحاس مُحَرَّمة تحزيماً يعجز عن وصفه البشر، وفي كل باب حلقتان، وبه الصومعة التي هي من عجائب الدنيا والحكمة، وارتفاعها مائة ذراع كل ذراع بثلاثة أشبار، وفيها من أنواع الصنائع الرقيقة ما يعجز الواصف عن وصفه وإتقانه، وبهذا الجامع ثلاثة أعمدة مكتوب على كل واحد اسم

¹ قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، عبد العزيز سالم، ج2، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، 1997، ص: 36-37.

² نفح الطيب، المقري، ج1، ص: 264.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

محمد صَلَّى اللهُ عليه وسلم وعلى الآخر صورة عصا موسى (عليه السلام) وأهل الكهف، وعلى الثالث صورة غراب نوح (عليه السلام)¹.

تعرض المسجد للحريق وأُتلف وطَّاله النهب لأن لصوص الأطلال انتزعوا الكثير من الكتل الحجرية المزخرفة وخاصة الموجودة بالأساس، ولم يتبق إلا القليل من القطع المزخرفة وبعض عقود الواجهة والأشرطة الحاملة للنقوش الكتابية وبعض تيجان الأعمدة².

وتعكس هذه المساجد صفة الوحدة التي تنبع من وحدة البرنامج المعماري، وقد عبر عنه المفكر (روجي جارودي) Roger garudy قائلاً: «أنا شخصياً عندما أرى روائع الفن الإسلامي أشعر أن رجلاً واحداً قد قام ببنائها مدفوعاً بإيمانه بإله واحد من الجامع الكبير بقرطبة إلى فسيفساء المساجد في تلمسان، ومن جامع ابن طولون بالقاهرة إلى مساجد اسطنبول الفخمة»³.

ولم تكن رسالة المسجد في العصر الأموي تقتصر على الصلاة فحسب، بل تعددت فيه المهام، وكان مركزاً لانطلاق الجيوش المجاهدة، فقبل الرحيل إلى المعركة يقيم الأمير صلاة عامة هو وجنوده في المسجد الجامع بقرطبة، ويُقام بالمسجد احتفال يسمى "بعقد الألوية" أو "عقد الرايات"، تُجمع فيه الرايات، وتُعقد في الرِّمَّاح التي يحملها قادة الحملة، على أن تُعلَّق بعد العودة على جدران الجامع، كما عمل الأمويون على إقامة بيت

¹ نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، محمود مقديش، ت علي الزواري، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1988م، ص: 847

² ينظر العمارة الإسلامية في الأندلس عمارة القصور، عصر الخلافة وعصر ملوك الطوائف، باسيليون بابون مالدونادو، ت علي ابراهيم المنوفي، محمد حمزة، ج1، المركز القومي للترجمة، ط2010، ص: 141-142

³ العمارة الإسلامية والبيئة، يحيى وزيري، ص: 138-139.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

للمال بالجامع توضع فيه الأموال الموقوفة، وكان حلقة من حلقات العلم ونشر التعليم الشرعي.¹

ثانيا-العمارة المدنية :

اهتم أمراء بني أمية وخلفاؤها بتشييد المدن وإقامة القصور وبناء الحمامات وغيرها من المعالم التي تعكس الإبداعات الفنية والنهضة العمرانية الواسعة، ولم تكن مجرد نهضة في البناء وحسب ،بل نقل لنا جزءا من الطابع العام للحياة آنذاك .

1-القصور :

وهي تحفة فنية تعكس مزاجهم الفكري آنذاك ،وملجأ الخلفاء وملاذمهم الآمن ،بَهَرَت الشعراء بروعة ابداعها ،مما جعلهم يتغنون بجمالها في أشعارهم ،ويُفاخرون بها أعداءهم، نذكر منها :

1-1- قصر الرصافة :

وهو من القصور التي بناها الخليفة عبد الرحمن في أول أيامه ،تَيَمُّنًا بقصر جده الذي قضى أيام صباه فيه «فاتخذ ... قصرا حسنا ، ودحا جنانا واسعة،ونقل إليها غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية ،وأودعها ما كان استجلبه يزيد وسفر رسؤلاه إلى الشام من النوى المختارة والحبوب الغريبة حتى نمت يئمن الجد وحسن التربية في المدة القريبة أشجارا معتمة أثمرت بغرائب من الفواكه انتشرت عما قليل بأرض الأندلس فاعترف بفضلها على أنواعها»²ومن أشهر الفواكه التي غرست في هذا القصر

¹ تاريخ التعليم بالأندلس، محمد عبد الحميد عيسى، دار الفكر العربي، ط1 ، 1982، ص:221.

²نفتح الطيب، المقرئ ج 1 ص:467 *السفري نسبة إلى سفر الكلاعي من جند الأردن الذين قدموا الأندلس ولازال هذا النوع من الرمان يعرف بهذا الاسم إلى اليوم في اسبانيا (دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ص:384).

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

الرُّمَّان السُّفْرِي* ، وهذا الرُّمَّان «الموصوف بالفضيلة ،المقدم على أجناس الرُّمَّان بعدوبة الطعم وِرْقَة الحَجْم وغازرة الماء وحُسن الصورة»¹، من الفواكه التي لقيت إعجاب الخليفة واستحسانه، فولَّعه بالطبيعة وميَّله إليها، جعله يُتحف القصر بُصنوف الأشجار .

وكانت ظاهرة بناء القصور والتفاخر بها من العادات التي ميَّزت أمراء الأندلس، فهاهو الأمير عبد الرحمن يصف نخلة بالقصر مُعبراً عن شوقه وحنينه إلى وطنه الذي تركه فآراً منه قائلاً:

تَبَدُّثُ لَنَا وَسَطِ الرُّصَافَةِ نَخْلَةٌ تَنَاءَتْ بِأَرْضِ القَرْبِ عَن بَلَدِ النُّخْلِ
فَقُلْتُ شَدِيدِي فِي التَّغْرِبِ وَالتَّوَى وَطَوَّلِ التَّنَائِي عَن بَيْتِي وَعَن أَهْلِي
نَشَأَتْ بِأَرْضِ أَنْتِ فِيهَا غَرِيْبَةٌ فَمِثْلِكَ فِي الإِفْصَاءِ وَالمُنْتَأَى مِثْلِي²

وقد تغنى الشعراء كثيراً بهذا القصر وسحروا به ،فوصف الشاعر قاسم بن عبود الرياحي _ الذي عُرف بين الناس بأنه موسوس وأحمق _ القصر قائلاً:

إِسْقِنِيهَا إِزَاءَ قَصْرِ الرُّصَافَةِ وَاعْتَبِرْ فِي مَالِ أَمْرِ الخِلَافَةِ
وَانظُرِ الأفُقَ كَيْفَ بَدَّلَ أَرْضَا كَيْ يُطِيلَ اللَّيْبُ فِيهِ اعْتِرَافَهُ
وَيَرَى أَنَّ كُلَّ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ نَعِيمٍ وَعِزٍّ أَمْرٍ سَاحَافَةٍ³

وكان الخليفة هشام بن عبد الرحمن يؤثر الجلوس في عِلْيَةِ بالرُّصَافَةِ مطلَّة على النهر لمشاهدة الجنان المحيطة بالقصر، كما كان يلجأ إلى هذا القصر عندما كانت تواجهه مشكلة كبيرة من الثائرين والمتمردين.¹

¹نفح الطيب ،المقري ج 1 ص:467

²البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،ابن عذارى ،ج2،ص:60

³نفح الطيب للمقري ج 1 ص:469

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

ولم يكن اختيار هذا الاسم للقصر من قبيل الصدفة، فالأمير نفسه أطلق هذا الاسم على إحدى مؤسساته المفضلة في قلب إمارته التي هاجر إليها لكي يحفظ ذكرى الوطن الذي اضطرّ إلى مغادرته والعرش الذي أقصي عنه بكل شراسة وهذا دليل واضح على وجود تقليد سوري تأصل في اسبانيا²، وحنين إلى بلد وخلافة مسلوبة .

1-2 القصر الخلافي :

عُرِفَ بجماله وروعة إبداع صانعيه، فقد «ابتدع الخلفاء من بني مروان - منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها - في قصرها البدائع الحسان وأثروا فيها الآثار العجيبة والرياض المونقة وأجروا فيها المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة وتموّنوا المؤمن الجسيمة حتى أوصلوها إلى القصر المكرّم، وأجروها في كل ساحة من ساحاته، وناحية من نواحيه في قنوات الرصاص تؤديها منها إلى المصانع صور مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والفضة الخالصة والتحاس الممّوه إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصّهاريج الغربية في أحواض الرخام الرومية، المنقوشة العجيبة... وفي القصر القباب العالية السمو المنيفة العلو التي لم ير الرّاؤون مثلها في مشارق الأرض ومغاربها»³، وضمّ القصر مجلسين المجلس الأوّل والمسمى المونس أو بيت المينام الخلافي، نصب في وسطه حوض من الرخام الأخضر، نُقِشت عليه صور آدمية مُدَهَّبة وكان عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر مُرَصَّعا بالدرّ النَّفيس والآخر يسمى بالمجلس البديع يتوسّطه اليّتيمة وهي إحدى تُحف القيصر اليوناني صاحب القسطنطينية بعث بها للخليفة الناصر⁴، و للقصر عدة أبواب منها باب السدة وهو الباب الرئيسي في الناحية القبليّة وباب قورية وباب الصّناعة في الناحية الشماليّة وباب الجامع في الناحية الشرقيّة وكان

¹المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسن دويدار، ص: 232.

²حضارة العرب في الأندلس، ليفي برونسسال، ص: 45.

³نفتح الطيب، المقرئ، ج1، ص 464

⁴ ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج2 ص231-232.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

يدخل منه الأمراء يوم الجمعة، أما الجهة الغربية من القصر لم تشتمل على أبواب وكانت كلها بساتين وروضات¹، ويعتبر هذا القصر رمزا من رموز التطور المعماري في تلك الفترة، فرضته الأوضاع السياسية فحُكِّم بلاد تُمثل البوابة الغربية للقارة الأوربية يتطلب أُبَّهَةً تتناغم مع فخامة قصور أوروبا، وتبادل الهدايا بما فيها التماثيل يُحث الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر على صُنع تماثيل تفوقها جمالا وقيمة حتى أنه لم يتوان عن استخدام الذهب في صنعها إظهارا لأهمية الخلافة الإسلامية إذا ما قارنها أحد مع عظمة القصور البيزنطية².

وقد أسفرت الأبحاث الأثرية في أطلال هذا القصر أن مجلسه قد تعرض لحريق تتجلى آثاره في طبقة الرَّماد السَّميكة والفحوم والأحجار المكسَّسة التي تظهر في الانقاض المكسَّسة على أرضية المجلس، كما كشفت عن بقايا عقود زُحرفية على شكل حدوة فرس، وبنينات وأشرطة مُقوسة وسنجات حجرية حُفرت فيها جميعا زخارف من التوريقات قوامها سَعف النَّخيل، وعُثِر على قطع حجرية تزدان بزخارف هندسيَّة وطرز من النُّقوش الكِتَابية وعُثِر على بقايا اللُّوحة التَّأسيسية لمجلس عبد الرحمن الناصر، من الحجر الجيري نُقِش عليها النَّص بخط كوفي مُزهر تحوي اسم الخليفة وسنة التأسيس 345هـ³.

2- الدور :

سكن أمراء بني أمية القصور وبالغوا في تزيينها وبهروا بِهَا الأعداء والأصدقاء على حد سواء، ولم يكن الاهتمام بالتزيين والزخرفة خاصية مقصورة على الأمراء والخلفاء

¹ قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، عبد العزيز سالم ص: 193

² ينظر الأندلس في العصر الذهبي، منذ حملة طارق بن زياد إلى وفاة عبد الرحمان الثالث الناصر لدين الله 19-350هـ/710-961م، سوزي حمود دار النهضة العربية، ط2009، ص: 86.

³ ينظر قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، عبد العزيز سالم ص: 16-18.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

فقط، حتى عامة الناس اهتموا بمنزلهم، فكانت المنازل الأندلسية تتألف من جزأين أساسيين هما الواجهة الخارجية وداخل البيت، وتميزت الواجهة الخارجية ببساطتها تكاد تخلو من الزخارف، بينما الغرف تشتمل على زخارف كثيرة وجميلة، وكان المدخل في دور الأثرياء عادة ما يُفضي إلى زُدهة تؤدي إلى البهو، أما في دور العامة كان يُفصل بِمَمَرٍ منكسر على شكل زاوية قائمة حتى لا يرى المارة من في الداخل، كما حوت المنازل عِلِّيَّات، وهي غرف بارزة عن جدران البيت مُزودة بشبكة من عيدان الخشب المتقاطعة تُسهل للنساء الرؤية منها دون أن ينتبه إليها من هو بالخارج، ويعدُّ الصحن عنصراً هاماً في المنازل الأندلسية، فبفضله ينتشر الهواء والضوء إلى غرف الدار، يَتَمَيَّز بأرضيته المفروشة رُحاما وغرس الأشجار في جَنَبَاتِهِ كالليمون والبرتقال ومَدَّهُ بالمياه الجارية¹، ويبدو هذا التصميم مألوفاً فهو يُحاكي منازل دمشق المفتوحة وهي خير شاهد على الوجود الأموي بالأندلس.

3-المدن :

لا يمكن الحديث عن الصروح العمرانية في الأندلس دون التطرق إلى هندسة المدن وتنظيمها، فقد سارع أمراء بني أمية إلى تشييد المدن رغبة في التنمية وحبا للفخامة والعظمة، وغاية في الاستجمام أحيانا أخرى وأشهرها:

3-1-مدينة البيرة:

¹ ينظر المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسن دويدار، ص: 263-264.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

لما استقر عبد الرحمن الداخل بالأندلس سعى إلى إرساء قواعد إمارته الجديدة فحاول تأسيس مدينة جديدة استقر بها هو وجنده ومواليه، ولأنها إمارة إسلامية فقد أمر ببناء مسجد بها لإقامة شرائع الله، تبعد عن غرناطة ستة أميال وحوها أنهار كثيرة، تُعد قاعدة من قواعد الأندلس، عُرفت بوفرة معادنها الجوهريّة من الذهب والفضة والصفير والحديد والرصاص والتوتياء، تحوي ثروة اقتصادية هائلة ساهمت في إرساء قواعد الدولة، إلا أنّها تعرضت للتخريب إثر الفتنة البربرية¹

3-2- مدينة مُرسية:

بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم سنة 216هـ وسماها (تدمر) تشبهاً (بتدمر) الشام، واستمر الناس على تسميتها بمُرسية، وهي القاعدة الثامنة من قواعد الأندلس، كما تسمى البستان لكثرة الجنان المحيطة بها تعلوها جبال مجردة من كل نبات كأنها صخرة صماء مُحاطة بِجَنَّةٍ غَنَاءٍ، وهواؤها كثير النقلب،² وذكر الحميري في كتابه أن بها «جامع جليل وحمامات وأسواق عامرة وهي راحية أكثر الدهر، رخيصة الفواكه كثيرة الشجر والأعنان وأصناف الثمر وبها معادن فضة غزيرة متصلة المادة، وكانت تُصنع بها البسط الرّفيعة الشّريفة... وهي على ضفّة النهر يُجاز إليها على قنطرة مصنوعة من المراكب تنتقل من موضع إلى موضع وبها شجر التين كثير ولها حصون وقلاع وقواعد وأقاليم معدومة المثال»³، وقد استولى عليها النصارى صلحاً مع المسلمين سنة 636هـ، ويقال أن الحكومة الإسبانية حديثاً أرسلت لجنة من المهندسين لفحص قنوات المياه والسُدود الموجودة بها، فلم تجد بها أي خَلَل، ويذكر الباحثون أن بقايا آثار الحضارة العربية لازال بهذه المدينة إلى يوم الناس هذا فقد عُثر على حمام قديم يُنزل إليه بدرج وخزانة آثار عربية

¹ ينظر الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري ص: 28-46.

² ينظر الحلال السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، شكيب أرسلان، ج3، ص: 381.

³ الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري ص: 539-540.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

بها بلاطات عليها كتابات عربية إحداها بالخط الكوفي والأخرى بالخط النسخي¹، فهندسة العرب وتخطيطهم لتوزيع المياه تميَّزَ بإتقان مُنقطع النظر يعكس روعة المهندسين الأمويين وابداعهم في فن العمارة والتخطيط، ولا تزال (مُرسية) مُحافظَة على هذه الروعة والجمال إلى اليوم .

3-3- مدينة الزهراء:

وتعتبر من أجمل المدن وأروعها، أنشأها الخليفة عبد الرحمن الناصر بالقرب من مدينة قرطبة: «سنة خمس وعشرين وثلاثة مئة (325 هـ) ومسافة ما بينهما أربع أميال وثلاث ميل، وطول الزهراء من الشرق إلى الغرب ألفا وسبعمائة ذراع، وعرضها من القبلة إلى الجنوب ألف وخمسمائة ذراع وعدد السواري التي فيها أربعة آلاف سارية وثلاثمئة سارية، وعدد أبوابها يزيد على خمسة عشر ألف باب»² ، وقيل أن السَّبب في بنائها يعود لجارية عنده تحمل هذا الاسم قد أشارت عليه أن يبنيتها تخليدا لاسمها، لكن الوقائع تشير إلى أنه أراد بناءها لتخليد اسمه وأسرته الأموية ولعل اسمها يُنسب إلى القصور الزاهرة التي أسَّسها في هذه المدينة، أو نسبة إلى الصُّورة التي يعكسها منظر المدينة على سفح جبل قرطبة وأزهار الأشجار الكثيرة التي غرسها عليه وخاصة أشجار التَّين واللُّوز³، وتميزت المدينة باشتمالها على ثلاث مستويات متدرجة في البناء «وهي في ذاتها مدينة عظيمة مدرّجة البنية مدينة فوق مدينة سطح الثلث الأعلى يوازي الجزء الأوسط وسطح الثلث الأوسط يوازي الثلث الأسفل ولكل منها صور فكان الجزء الأعلى منها قصورا يعجز الوصف عن صفاتها والجزء الأوسط للساتين والروضات والجزء الثالث

¹ ينظر الحلال السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ص: 384-385.

² نفع الطيب المقرئ، ج1، ص: 524.

³ ينظر نفع الطيب المقرئ، ص: 524-526.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

للديار والجوامع»¹، وهي مدينة ذات ثراء فاحش وفخامة من يريد الوصول إلى الخليفة عليه أن يخوض في متاهاتها، فقاعة عرش الخليفة محمية بمجموعة من المباني المدهشة كالقصور والغرف والدهاليز، مما يوحي بقوة الحاكم ورغبته في العزلة داخل نظام هندسي مكتظ²، ثم هجرها أهلها خلال ثورة البربر، ونُهبت ذخائرها ونُحِفها وغمرها الحراب .

وقد كشفت الحفائر الإسبانية عن معالم كثيرة من ضروب الفخامة والجلال التي اتسمت بها مدينة الزهراء إذ عُثر على «القطع الزخرفية والعقود والأعمدة والألواح والأحواض الرخامية، ومئات من القطع والأواني الزخرفية والبلورية، وقد جُمعت كلها في متحف خاص أقيم عند مدخل مدينة الزهراء، وعُرِضت فيه بعض القطع والأحواض الرخامية البديعة الزخرف والنقوش، وبعض الأواني الخزفية والبلورية المصححة، وهذا إلى جانب ما يوجد من تحف الزهراء ونقوشها الزخرفية بمتحف قرطبة الأثري، وفي مقدمتها الوعل البرونزي الشهير الذي يعتبر من أروع القطع الفنية»³.

3-4- مدينة المرية :

بناها الأمير عبد الرحمن الناصر سنة (344 هـ)، تقع على ساحل البحر، من مراسي الأندلس» من أجل أمصارها وأشهرها وعليها سور حصين منيع... وكانت تقصدها مراكب التجار من الإسكندرية والشام ولم يكن بالأندلس أكثر من أهلها مالا (والمرية) في ذاتها جبلان بينهما خندق معمور... والمدينة كبيرة كثيرة الخيرات»⁴ عرفت

¹ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي المعروف الشريف الإدريسي، ج1، عالم الكتاب بيروت 1409هـ، ص: 312.

² ينظر الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج2، ص: 868.

³ ينظر دولة الإسلام في الأندلس، محمد عنان ص: 444-445.

⁴ الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري ص: 537-538.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

بوفرة فاكهتها وبساتينها، وصناعة الآلات من حديد ونحاس وزجاج، بها باب يُسمى باب العقاب نسبة إلى صورة العقاب من الحجر القديم العجيب المنظر¹، تعرضت للتخريب من طرف الروم وسُبي أهلها وصفها أحد الشعراء قائلاً :

قَالُوا المِرية صِفْهَا فَقُلْتُ مَطٌّ وَشِيحُ

فَقِيلَ فِيهَا مَعَاشٌ فَقُلْتُ إِنَّ هَبَّ رِيحٍ²

3-5- مدينة الزاهرة :

بناها المنصور بن أبي عامر سنة 368هـ « وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الأعظم، وشرع في بنائها سنة ثمان وستين وثلاثمئة فحشر إليها الصُّناع والفعلة، وأبرزها بالذهب واللازورد متوجة منعلة، وجلب نحوها الآلات الجليلة وسربلها بما يَرُدُّ العيون كليلة»³، تعكس روعة الإبداعات الفنية المعمارية في طريقة تصميمها وبنائها حيث «اتسعت هذه المدينة في المدة القريبة، وصار بناؤها من الأبنية الغربية وبنى معظمها في عامين... ونزلها بخاصته وبعامته فتبوأها وشحنها بجميع أسلحته، وأمواله وأمتعته، وأتخذ فيها الدواوين للعمال، ترتفع فيها ضروب الأعمال... فاتسعت هذه المدينة في المدة القريبة، وقامت فيها الأسواق، وكثرت فيها الأرزاق، وتنافس الناس في النزول بأكنافها والحلول بأطرافها»⁴، رغبة في التقرب من الخليفة، فكثرت أموالها وازدهر اقتصادها، ومما ساعده على ذلك جمع أموال الجباية، فلجأ إلى البناء والتعمير، «وأنشأ في مدينة الزاهرة من المباني والقصور والبساتين ما عفا على مباني من سَبَقَهُ وأتخذ فيها دورا فسيحة للوحوش

¹ نفح الطيب، المقري، ج1، ص:163.

² الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، ص: 538 *مظ: الزمان البري

³ المصدر نفسه، الصفحة 284

⁴ الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، ص:538.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

متباعدة السياج ومسارح للطيور مظلة بالشباك»¹، وعلى الرغم من جمال هذه المدينة وحسنها فإنها تعرضت للتخريب والتدمير وزال بهاؤها أثناء فترة الاضطرابات .

وما يجب التنويه به هو أن بناء المدن صفة وُصِفَ بها الخلفاء العظماء تخليداً لعصورهم الجيدة، وفي هذا الصدد نجد الخليفة عبد الرحمن الناصر يُنشد قائلاً :

هِمَّ الْمُلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا مِنْ بَعْدِهِمْ فَيَأْتِسُنِ الْبُنْيَانِ
أَوْ مَا تَرَى الْهَرَمِينَ كَمْ بَقِيَا وَكَمْ مَلِكٍ مَعَاهُ حَوَادِثُ الْأَزْمَانِ
إِنَّ الْبِنَاءَ إِذَا تَعَاظَمَ قَدْرُهُ أَخْضَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ الشَّانِ²

فقد كان مولعا بالبناء وأعماله الخالدة تشهد بذلك، وهذه المدن الأندلسية بروعة بنائها ودقة تخطيطها شاهد على عصر ذهبي اندثر.

4-القناطر :

إن كثرة الأنهار في البلاد أعاقت الناس عن سعيهم، وإعمارهم في الأرض مما استوجب إنشاء القناطر والجسور، فكانت قنطرة هشام بن عبد الرحمن بن معاوية (ت180هـ) من أكبر القناطر وأعظمها في الأندلس، إذ «أنفق في إصلاحها أموالاً عظيمة، وتولَّى بناءها بنفسه، وتُعطى الأجرة بين يديه... ولما بنى هشام القنطرة، تكلم بعض الناس فيه، وقالوا: إنما بناها لتصيده ونزهته! فحلف حين بلغه ذلك ألا يجوز عليها

¹العبر وديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون، ج4، ص:144.

²ينظر دراسات في التاريخ والفن والأدب الأندلسي، محمد حسن، دار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ط1985، ص:1، ص:71.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

إلا لغزو أو مصلحة"،¹ وتأتي قنطرة المنصور بن أبي عامر في قرطبة من أهم قناطر الأندلس التي بقيت حتى يومنا هذا، فقد استمرّ البناء فيها عامين كاملين أنفق عليها مائة وأربعين ألف دينار كاملة، وكذلك قنطرة إستجة، فقد «تجشّم لها أعظم مؤنة، وسهّل الطرق الوعرة والشعاب الصعبة»² لتسهيل حركة السير والتنقل على الرعية.

وقد تبقت من هذه القناطر اليوم قنطرتان، القنطرة الأولى تتألف من ثلاثة أقواس ترتفع على نخير (كانتراناس) Cantarranas وأما الأخرى فأكبر قليلا من الأولى، وتعلو وادي ياطه (Guadiato) وعقود هاتين القنطرتين منفوخة متجاوزة تقتصر سنجاتها على الثلث الأعلى، وتتميز هذه السنجات بطولها ونظام البناء في الجدران والأكتاف التي تحمل العقود يتبع نظام التناوب بين كتل الحجارة طولاً وعرضاً.³

5- الحمامات :

كثرت الحمامات وتعددت لارتباطها الوثيق بالطهارة المتأصلة بعمق في الإسلام، وقد تميزت قرطبة بوجه خاص بكثرة حماماتها حتى قيل إنّ عددها بلغ 300 حمام و أن أغلبها كان خاصا بالنساء⁴، وكانت هذه الحمامات وثيقة الصلة بالحمامات الشرقية والرومانية، تتكون من مدخل وثلاث أو أربع حجرات، غرفة لخلع الملابس تسمى "البيت البارد" وتليه غرفة تسمى "البيت الوسطاني"، والبيت الساخن عبارة عن حجرة صغيرة وفي الحائط الذي يقع في صدر الحجرة قِدر كبير من النحاس الأحمر تخرج منه أنابيب رصاصية حاملة الماء الساخن إلى أحواض مصنوعة من الرخام أو الحجر وتسمى

¹ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى ج2، ص: 66

² المصدر نفسه، ص: 288.

³ ينظر قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، عبد العزيز سالم، ج2، ص: 26.

⁴ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى ج2، ص: 346

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

صهاريج، وهناك حجرة ملاصقة للقدر مخصصة للوقود تسمى الأفنية ليس بينها وبين سائر الحجرات اتصال بل تنفرد بمدخل مستقل،¹ وفي القسم السّاخن من الحَمَّام قباب فيها فتحات صغيرة لدخول الضوء، كما كانت الفُتُحات مكونة من أربعة فصوص في تبادل مع أربعة أطراف ذات زاوية قائمة، وهناك شكل نُجْمِي مُكون من ستة أطراف، ومن ثمانية وهناك أشكال مربعة ومسدسة ومُثْمَنة وأسطوانية ومنها ما هو على شكل قطرة أو لؤلؤة، فوقها يُوضع شكل هرمي غير مُكتمل من الرُخام، على جوانبه الأربعة المائلة مِيدَالِيَات مَحْفُورَة ذات أربع فصوص مع وجود ما يُشبه العليقة في الجزء العلوي عندما ننظر إليه من الأسفل² وهي السبيل الوحيد للإضاءة آنذاك، كما تميزت هذه الحَمَّامات بأعمدتها الرخامية المزينة بنقوش كوفية واشتملت العُرف على زخرفة هندسية تتخللها التوريقات والطُيور وصورة امرأة، أما أرضيات الحمام عبارة عن ألواح حجرية أو رخامية³، ولم يختلف نظام الحَمَّامات في القصور عن الحَمَّامات الشعبية المنتشرة في المدن .

ولم يتبق من الحمامات الخاصة سوى حَمَّامان أحدهما عُثر عليه سنة 1903م في جوف الأرض بالمنطقة المعروفة بساحة الشهداء يرجع إلى عصر الحكم المستنصر، ويحتفظ متحف آثار الأهلبي ببعض الزخارف التي تم الكشف عنها داخل الحمام منها عقد زخرفي ثلاثي الفصوص من الجصّ كما عُثر على قطع من الحجارة مزينة بزخارف على شكل شرفات صغيرة مسننة على أرضية حمراء وقطع جصّية عليها كتابة كوفية، والحمام الآخر يعود بناؤه إلى زمن عبد الرحمن الناصر تقع بقاياها بالقرب من

¹ ينظر قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي - الخامس الهجري، الحياة الاجتماعية والاقتصادية، محمد عبد الوهاب خلاف، الدار التونسية للنشر 1984، ص: 30-31.

² العمارة الأندلسية، عمارة المياه، باسيليو بابون مالدونادو، علي ابراهيم، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط2008، ص: 368-369

³ ينظر العمارة الأندلسية، عمارة المياه، باسيليو بابون مالدونادو، ص: 377-380.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

المسجد الجامع، وهو عبارة عن بلاطين مُقَبَّبين بِقُبَّتين نصف أسطوانيتين تتخللهما مضاربي نجمية الشكل.¹

وبالرغم من أن الحمّامات الأندلسية تأثرت بالحمّامات الرومانية فإنّها فاقتها حجماً وجمالاً وترفاً لما حملته من خصوصية عربية إسلامية ولازمتباطها الوثيق بالدين.

ويجمع المؤرخون على أن فن العمارة والبناء الذي ظهر في إسبانيا منذ بداية القرن التاسع الميلادي/الثالث الهجري، وظل فيها بصورة نهائية تقريباً نقله المدجنون، ويتميز هذا الفن، بوجود القباب التي ترتفع فوق أقواس على شكل حذوة حصان وبشكل خاص في الكنائس.² ويؤكد ذلك (ليني بروفنسال) في حديثه عن العالم (قوميير مورينو) Gomez Moreno الذي درس تلك الكنائس التي أقامها النصارى في قشتالة وليون وغاليسيا دراسة مستفيضة في عصري الإمارة والخلافة الأمويتين في الأندلس فوجد أنّها تتميز بصورة دائمة بالعقود (القباب) التي ترتفع فوق أقواس على شكل حذوة الحصان.³ وتجلى بأعظم صورة في كنيسة (سان ميغل دي اسكالادا) San Miguel de Escalada، التي شيدت سنة 300هـ على يد القس (ألفونسو) وأصدقائه الذين جاؤوا من قرطبة⁴ وهي نتيجة واضحة لهذا التأثير الذي شهدته العمارة المسيحية، وتحلل وانحيار للنظام الكنسي التقليدي.

ومن جملة الأبنية الأخرى غير الدينية التي تأثرت بالفن العربي، الجسور والأقنية المائية المعلقة، ونواعير المياه وغيرها، فقد «أقام بعض المهندسين العرب أكبر جسر على نهر التايمس في بريطانيا عرف باسم جسر هليشم Helichem وهذه الكلمة تحريف

¹ ينظر قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، عبد العزيز سالم، ص: 24-25

² تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي ص: 479..

³ حضارة العرب في الاندلس، ليني بروفنسال ص: 89.

⁴ ينظر العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، عبد الحليم رجب، ص: 440.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

لكلمة هشام خليفة الأندلس الذي أطلق الإنكليز اسمه على هذا الجسر عرفاناً بفضله لأن أرسل إليهم أولئك المهندسين العرب، وكذلك كان المهندسون العرب هم الذين شيّدوا قباب الكنائس في بافاريا، ولا تزال توجد بإحدى المدن الألمانية (شتوتغارت) حتى اليوم سقاية ماء تدعى (أميديو) Amedeo وهو تحريف لكلمة أحمد المهندس العربي الذي بناها»¹.

ومما يعكس تأثر الغرب الأوروبي بالعمارة الأندلسية شيوع بعض الألفاظ العربية في مجال العمارة في أوروبا مثل: البناء aibanil، الرض arrba، الحوز alhoz، القبة alcoba، الطوب adube، القصر alkosar، منبر minbar، منارة minarate، محراب mihraabe.

ويُجمع المؤرخون على أن الفن المعماري زمن الخلافة الأموية بالأندلس أساس الفن الزخرفي الأندلسي، إذ كان له الفضل في إمداده بمادته الحيوية ومقوماته الأساسية زمن ملوك الطوائف الذي استكمل فيه هذا الفن نموه ونضارته وإسرافه في التعقيد، ثم واصل هذا الفن تطوره الطبيعي في العصور التي تلت.

رابعا: البعد الانساني :

يتفق أغلب الباحثين أن الأخلاق أساس الملك والسلطة، والشخصية العظيمة ترسمها الأخلاق الفاضلة التي يلتزمها الرجال في أعمالهم وأفعالهم، ووجب التعامل وفق هذه المبادئ والقيم للمحافظة على الرعية وتحقيق التكافل والتعاون بينهم، لأن الفصل بين الحكم والأخلاق يؤدي إلى حلول الاستبداد، ويحلُّ الظلم محل الاستقرار والأمن، فالخليفة يعي جيدا أن صلاح الرعية من صلاح الراعي، فالأولى أن يقيم دولته على دعائم من مكارم الأخلاق، وقد أرسى عهد الإمارة والخلافة الأموية بالأندلس قواعد

¹ تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 479..

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

حُكِّمَ عادِلٍ، يسوي بين الجميع في المعاملة، ويكفل الحرية لكل فرد في المجتمع، ويعمل للصالح العام ويمتق الأنانية والانتهازية، وحفل بمظاهر رائعة للتكافل والتسامح مع أهل الذمة، ورعاية الأمراء والخلفاء شؤون المكروبيين والمحتاجين وحرصهم على التخفيف من معاناتهم، حتى ولو كانوا أعداءً.

1- العدل والمساواة:

فالمساواة التي أقرها الإسلام يتساوى فيها البشر أمام القانون، فلا يعلو فرد على تطبيق القانون مهما علا شأنه، وكلهم متساوون أمام القضاء، ونرى الخليفة الأندلسي يُقدِّم نفسه للناس بصفة إنسان عادي يخطئ ويصيب، وللناس حرية نقده¹، والمصادر الأندلسية تعجُّ بالأمثلة المؤيدة لذلك، فالخليفة الناصر لما فرغ من بناء مدينة الزهراء وقصورها، وزين أسقفها بالذهب والفضة سأل الجماعة عن رأيهم فيها، فأثنوا عليه وبالغوا في مدحه، عادا القاضي منذر بن سعيد البلوطي الذي ظل ساكتا، ولما سأله الخليفة عن رأيه بكى حتى تبللت لحيته، وقال: «والله ما كنت أظن يا أمير المؤمنين أن الشيطان أخزاه الله يبلغ منك هذا المبلغ المهلك لصاحبه في الدنيا والآخرة، ولا أنك تمكنه من قيادك هذا التمكين مع ما آتاك الله وفضلك به على كثير من الناس، حتى أنزلك منازل الكافرين والفاستقين، فسأله عن السبب الذي جعله يعده من الفاسقين، فأجابه: . قال الله - تعالى - : { وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَّكَبُونَ * وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكُ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ² }، فبكى الخليفة وقال: جزاك الله عنا خيراً وعن المسلمين، وأكثر في المسلمين مثلك، الذي قلت هو الحق، ثم

¹ ينظر في التاريخ السياسي والأندلسي، أحمد مختار، ص: 380-381

² سورة الزخرف، الآية 33-35.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

قام عن المجلس وأمر بنقض سقف القبة، ونزع الذهب والجواهر¹، فبكاء الخليفة وخوفه من الله سبحانه وتعالى وخشيته العقاب، كان أقوى من حب الأبهة، وتلك الحسائر المادية الدنيوية لا تضاهي جناح بعوضة أمام عقاب الله تعالى، فأنتى لنا أن نجد هذا الورع في زماننا هذا؟.

وانتقد القاضي الخليفة على الأموال الطائلة التي صرفها في بناء مدينة الزهراء، وخصه بخطبته يوم الجمعة، فعلم الخليفة أنه المقصود فقال: ²«والله تعمدني منذر بخطبته وما عنى بها غيري فأسرف علي وأفرط في تقريري»، فأقسم الخليفة الأندلسي أن لا يصلي خلفه صلاة الجمعة، ورفض عزله عن الخطبة والقضاء مجيباً من اقترح عليه ذلك قائلاً: «لا أم لك!، يُعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الحق!»³، فكم من موقف خالف فيه القاضي رغبة الأمير أو الخليفة الأموي ولم يعزله عن منصبه، وهذا خير دليل على تطبيق بني أمية لأحكام الشريعة، وتغليبهم ميزان العدل على السلطة.

2- الكرم والميل إلى الصدقة :

يعد الكرم من الأخلاق التي حث عليها الدين في أكثر من موضع لما له من أثر في بناء المجتمعات وتطورها، لأن الكرم يقلل الأعداء والخصوم ويستجلب محبة القلوب، ويزرع المودة بين الحاكم والمحكوم، فغاية الإنسان إنفاق المال لا جمعه، ولذلك سعى أمراء بني أمية إلى التقرب من الرعية والتعامل معهم بحنكة في مختلف القضايا التي تخصهم، ومن الوقائع التي تعكس ذلك مجيء أحد العامة إلى عبد الرحمن الداخل، وطلب حاجةً منه أمام أعين الحاضرين، فقضاها له، ثم قال: «إذا ألمَّ بك خَطْبٌ أو حَزَبٌ أمر فارعه إلينا في رُقعةٍ لا تعدوك، كي نستر عليك، وذلك بعد رفعك لها إلى

¹ سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج8، ص: 267.

² تاريخ قضاة الأندلس، النباهي، ص69

³ المصدر نفسه، ص: 70.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

مالكك ومالكنا - عزَّ وجهه - بإخلاص الدعاء وصدق النيّة»¹، فالواقعة تعكس حصال الأمير النبيلة والمتمثلة في كرمه و تلبية شؤون رعيته وتأديب السائل وتذكيره بضرورة التوكل على الله، وحرصه الشديد على ستره.

وممن عُرف بكرمه أيضا الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل، فبالرغم من كثرة انشغاله بالحروب والجهاد، فإنه كان يتصدَّق بالصدقات الكثيرة، وربما كان يخرج في الليالي المظلمة شديدة المطر، ومعه صرر الدراهم يتحرَّى بها المساتير، وذوي البيوتات من الضعفاء، ولم يزل هذا مشهورًا من أمره إلى أن مات²، تاركًا انطبعا حسنا لدى الرعية .

وللفقر صلة وثيقة بالقهر، وليس فقط بالجهل وبالمرض، ولهذا كان التصدي له في مقدمة أولويات الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الذي عُرف بجوده وكرمه ووجه للأعمال الخيرية وإعانة الفقراء والمحتاجين ونصرة المستضعفين«فقد ابنتى المستنصر في غربي جامع قرطبة دارًا للصدقة، واتخذها معهدًا لتفريق صدقاته المتوالية، وابنتى الفقراء البيوت قبالة باب المسجد الكبير الغربي»³، حتى يرفع الغبن ويضمن للفقراء عيشا كريما، يقيه العلل والقهر، ولكن يبدو أن التعرض للصدقات في الأندلس كان قاصرا على كل محتاج معذور، أما القادر على الكسب فكان يتجه إلى حرفة تكفيه وتعيّنه على الحياة، ولذلك انتعشت روح التعاون بينهم⁴.

والاعتدال في الكرم يرمى حقوق الضعفاء ويخرجهم من وطأة الأحزان، فهاهو الحَكْمُ يَخْفَفُ عن المسلمين ويرفع عنهم الغبن والبؤس والحرمان حينما وقعت المجاعة

¹ نفع الطيب، المقري، ج 3 ص: 39.

² المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، ص 8

³ موسوعة تاريخ الأندلس، حسين مؤنس، ج 1، ص 501.

⁴ تاريخ الأدب الأندلسي، احسان عباس، ص: 21.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

الشديدة بالأندلس عام 197هـ، حينما أخرج لهم الأموال، وأعطى الفقراء والجائعين، حتى أزاح الله الغمة، وكشف الكربة وفي ذلك يقول عباس بن ناصح الجزيري :

تَكَدِ الزَّمَانُ فَأَمَنْتَ أَيَّامَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ بَعْضُهُ عُسْرُ

ظَلَعَ الزَّمَانُ بِأُزْمَةٍ فَجَلَا لَهُ تِلْكَ الْكَرِيمَةُ جُودُهُ الْقَمْرُ¹

فقد عانى المسلمون من المجاعة ضروبَ الحرمان والبؤس، ومات كثير منهم، جراء هذه الفاجعة، وما خفف البلاء عن الرعية أن الأمير شد أزرهم، ووآسأهم في مُصآبهم الجليل، ولم يتوان لحظة عن نجدتهم حتى لطف الله بهم وأجارهم في مصيبتهم.

وكذلك أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الملقب بالناصر، المعروف بورعه وثقاه وتمسكه بخالقه، حين «بلغت الحاجة بالناس مبلغًا لا عهد لهم بمثله، وبيع قفيز قمح سوق قرطبة بثلاثة دنانير، ووقع الوباء بالناس، وكثر الموتان في أهل الفاقة والحاجة حتى كاد يُعجز عن دفنهم، فكثرت صدقات الأمير عبد الرحمن الناصر على المساكين في هذا العام، وصدقات أهل الحسبة من رجاله، فكان الحاجب بدر بن أحمد أكثرهم صدقة، وأعظمهم بماله مواساة»²، فمن باب الإنسانية أن يغدق الخليفة بأمواله على الفقراء والمحتاجين من ماله الخاص ويسعى إلى رفع الغبن عنهم في عزّ البلاء، تصرف يُثم عن نفس كريمة تخشى الله وتسعى إلى نشر الثقة بين الحاكم والمحكوم.

وارتبط الكرم بالعلم وسأهم في نشره، فالحكيم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر أحبّ العلم وأهله، واهتم بأحوال المسلمين وخاصةً الفقراء منهم «فقد ابنتى المستنصر بغربي الجامع دار الصدقة، اتَّخذها معهدًا لتفرق صدقاته، ومن مستحسنات أفعاله وطيبات أعماله، اتَّخذه المؤدبين يُعلِّمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن، وبكلِّ رِبضٍ

¹ نفع الطبيب، المقرئ، ج 1 نص: 341

² البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ص: 168.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

من أرباض قرطبة؛ وأجرى عليهم المرتبات، وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح، ابتغاء وجه الله العظيم، وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتباً، منها حول المسجد الجامع ثلاثة، وبقائها في كلِّ ربيضٍ من أرباض المدينة¹ فالحكم نشر لواء الأمن ونور المعرفة، ونذر نفسه لخدمة العلم والعلماء مما يعكس إنسانيته ونفسه الطيبة .

فهؤلاء الأمراء والخلفاء يرون أن البذل والعطاء أصل من أصول الحياة وشرط من شروط السيادة، وعلو المكانة في الدنيا والآخرة، ورسالتهم في الإنسانية .

3- إنشاء الأوقاف:

وإلى جانب حب الأمراء والخلفاء للخير بذلهم المال في سبيل الفقراء والمساكين وسعيهم إلى رفع الغبن عن المظلومين، تفننوا في إنشاء الأوقاف، ويُعدُّ وقف الحكم بن عبد الرحمن الناصر على المسجد الجامع بقرطبة من أعظم الأوقاف التي ذكرتها المصادر الأندلسية، ففي عهده توسَّعت قرطبة وازداد عدد الناس بها، فدعت الحاجة إلى الزيادة في المسجد الجامع، وبعد الانتهاء من الزيادة أمر بوقف جليل عليه وكان هذا الوقف ربع ثروته التي ورثها عن أبيه الناصر.²

ووصلت الأوقاف ذروتها في الأندلس في عهد الحكم بن عبد الرحمن الناصر، حيث اهتمَّ بإنشاء الأوقاف بكافة أنواعها، وعلى رأسها ما يسدُّ حاجات المجتمع الضرورية؛ فأنشأ أوقاف المياه، وشقَّ القنوات لجلبها من المناطق البعيدة، ففي عام (356هـ) «أجرى الماء إلى سقايات الجامع (بقرطبة) والميضأتين اللتين مع جانبيه: شرقيه وغربيه،

¹ المصدر نفسه، ص:240.

² البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج2، ص:234.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

ماءً عذبًا جلبه من عين بجبل قرطبة، خرق له الأرض، وأجراه في قناة من حجر متقنة البناء، محكمة الهندسة، أودع جوفها أنابيب الرصاص لتحفظه من كل دنس»¹.

واهتمَّ الحكم رحمه الله بإنشاء مكاتب موقوفة لتعليم أبناء المسلمين، وكانت هذه المكاتب مختصة بتعليم القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، ودراسة منهج لا بأس به من السنة والسيرة النبوية، ومن ثمَّ اتخذ الحكم «المؤدبين لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع، وبكلِّ ربيضٍ من أرباض قرطبة، وأجرى عليهم المرتبات، وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح، ابتغاء وجه الله العظيم؛ وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتبًا، منها حوالي المسجد الجامع ثلاثة، وبقائها في كل ربيض من أرباض المدينة»²، فقرطبة وحدها حوت سبعة وعشرين مدرسة متطورة لتعليم أبناء المسلمين بالبحر، مما يرسم لنا صورة صادقة عن إنسانية المجتمع الأندلسي آنذاك!.

كما أن كثرة الأنهار في البلاد أعاقت الناس عن سعيهم و إعمارهم في الأرض مما استوجب إنشاء القناطر والجسور، فكانت قنطرة هشام بن عبد الرحمن بن معاوية (ت180هـ) من أكبر القناطر وأعظمها في الأندلس، إذ «أنفق في إصلاحها أموالاً عظيمة، وتولَّى بناءها بنفسه، وتُعطي الأجرة بين يديه... ولما بنى هشام القنطرة، تكلم بعض الناس فيه، وقالوا: إنما بناها لتصيده ونزهته! فحلف حين بلغه ذلك ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة»³، وتأتي قنطرة المنصور بن أبي عامر في قرطبة من أهم قناطر الأندلس التي بقيت حتى يومنا هذا؛ فقد استمرَّ البناء فيها عامين كاملين من أنفق عليها مائة وأربعين ألف دينار كاملة؛ وكذلك بناؤه قنطرة على نهر إستجة؛ فقد «تجشَّم لها أعظم مؤنة، وسهَّل الطرق الوعرة والشعاب الصعبة»⁴، لتسهيل حركة السير والتنقل على

¹ المصدر نفسه، ج2، ص:240.

² المصدر نفسه، ج2، ص:236.

³ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري، ج2، ص:66.

⁴ المصدر نفسه ص:288.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

الرعية، وظلَّت هذه الأوقاف شاهدة على مجتمع مسلم عرف بإنسانيته وتقدمه الحضاري، وتسامحه حتى مع الأعداء.

4-إغاثة الملهوف:

كان الأمراء على إطلاع بالمستجدات الطارئة في البلاد عبر مساءلة الوافدين إليهم من مختلف الربوع وهو ما ألفيناه عند الأمير الحكم حين شنَّ العدو الغارات في أطراف الثغور، يسبي ويقتل عام 194هـ، وسمع العباس بن ناصح-شاعر- امرأة في ناحية وادي الحجارة، وهي تقول: واغوثاه يا حكم! قد ضيَّعتنا وأسلمتنا واشتغلت عنا، حتى استأسد العدو علينا، فلمَّا دخل العباس على الحكم أنشده هذه القصيدة يقول فيها:

| | |
|------------------------------|----------------------------------|
| تملمت في وادي الحجارة مسئدًا | أراعي نجرًا — وما ما يرون تغيرًا |
| إليك أبا العاصي نضيت مطيتي | تسير بهم ساريًا ومهجرًا |
| تدارك نساء العالمين بنصرة | فإنك أحترى أن تغيب |
| وتنصرًا ¹ | |

ووصف ما ساد هذه الأرجاء من خوف وهلع، واستنجد المرأة واستغاثتها به، وأنهى إليه ما عليه الثغر من الوهن وضعف الحال، فأمر الحكم بالاستعداد للجهاد، وخرج غازيًا إلى أرض الشرك، فأوغل في بلادهم، وافتتح الحصون، وهدم المنازل، وقتل كثيرًا، وأسر كذلك، وقفل على الناحية التي كانت فيها المرأة، وأمر لأهل تلك الناحية بمالٍ من الغنائم، يُصلحون به أحوالهم، ويفدون سباياهم، وخصَّ المرأة وآثرها، وأعطاهم عددًا من الأسرى عونًا، وأمر بضرب رقاب باقيهم، وقال للعباس: سلها هل أغاثها الحكم؟ فقالت المرأة وكانت نبيلة: والله لقد شفى الصدور، وأنكى العدو، وأغاث الملهوف فأغاثه الله، وأعز نصره»، فارتاح لقولها وبدا على وجهه السرور وقال:

¹ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى، ج2، ص: 73-74.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالاندلس

ألم تر يا عبّاسُ أنّي أحببتُهما على البعد اقتادُ الحميسَ المُظفراً ؟

فأدركتُ أوطارًا وبردثَ غلالة ونفّستُ مكروبًا وأعثنيتُ مُعسرًا¹

ورُوي عن الحاجب المنصور أنّه سَيَّر جيشًا كاملاً، لإنقاذ ثلاثٍ من نساء المسلمين كنّ أسيراتٍ لدى مملكة مسيحية، ذلك أنّه كان بينه وبين المملكة عهد، ومن شروط هذا العهد ألاّ يأسروا أحدًا من المسلمين أو يستبقوهم في بلادهم، فحدث ذات مرّة أن ذهب رسولٌ من رسل الحاجب المنصور إلى المملكة، وهناك وبعد أن أدّى الرسالة إلى الملك قام بجولة، وفي أثناء هذه الجولة وجد ثلاثةً من نساء المسلمين في إحدى كنائسهم، فتعجّب لوجودهن، وحين سألهنّ عن ذلك قلن له أنّهنّ أسيراتٌ في ذلك المكان، فعَضِب رسول المنصور غضبًا شديدًا وعاد إلى الحاجب المنصور وأبلغه الأمر، فما كان من المنصور إلّا أن سَيَّر جيشًا لإنقاذ النسوة، فتساءل الملك عن الجرم الذي ارتكبه، فعرفه قصة النسوة الثلاث ومخالفته العهد، فأقسم له بأنه ما أبصرهن ولا سمع بهن فاستحي منه وصرف الجيوش عنه، وأعاد النسوة معه²، فالحاجب سعى أن تنام أعين الرعية هنيئة قبل أن تنام عينه، واتسم بصحة باطنه وخوفه من ربه، لا يبتغ جاها ولا عظمة بل حبا للخير والحق

وقد سعى الأمراء إلى غرس روح البطولة في الإنسان، وذلك من خلال استحضار بطولات العظماء في تاريخ هذه الأمة، فلقد كان عبد الله بن محمد، وهو جد الناصر بالله يقصّ على حفيده منذ نعومة أظافره قصص بطولات جده الأكبر عبد الرحمن الداخل صقر قريش، فصنع بذلك بيئةً مليئةً بالبطولة في مخيلة حفيده عبد الرحمن تختلف عن تلك بيئة الهزيمة القائمة المحيطة به في الخارج.³

¹ نفع الطيب، المقرئ، ج 1، ص: 343-344.

² نفع الطيب، المقرئ، ج 1، ص: 404.

³ ينظر مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ، جهاد الثرباني، ص: 172.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

5-التسامح الديني :

منح أمراء بني أمية وخلفاؤها أهل الأندلس الحرية لإقامة شعائر دينهم، وكفلوا حرياتهم الدينية والاجتماعية،«حيث أنشأ منذ عهد الحكم بن هشام أو قبله بقرطبة، منصب خاص لإدارة شئون أهل الذمة يعرف صاحبه "بالقومس"، وقد كان للنصارى المعاهدين، فوق ذلك قاض خاص، وقد يكون أسقفهم في نفس الوقت؛ وعين بعد ذلك للنصارى مطران خاص، مركزه بمدينة إشبيلية،وقد استمر هذا التسامح نحو النصارى المعاهدين عصوراً»¹، وكثيرا ما حارب المسيحيون مع المسلمين جنبا إلى جنب.

فقد طبق الأمويون رسالتهم الإنسانية في الحضارة بتسامحهم وحلمهم مع النصارى حيث سمحوا لأساقفتهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية كمؤتمر أشبيلية النصراني الذي عقد سنة 166هـ، ومؤتمر قرطبة الذي عقد سنة 238هـ، وتعد كنائس النصارى الكثيرة التي بنيت إبان الحكم الإسلامي من الأدلة الواضحة على احترام المسلمين للآخرين وللمعتقدات، وبلغت الحرية مبلغها في السماح لهم بتقلد مناصب الدولة،² فقد تبنا سياسة الانفتاح على الآخر والتعايش معه، والحقيقة أن هذا التسامح الكريم النابع عن العرب، كان لها أثر في اجتذاب أهل الذمة للإسلام جعل أغلبهم يعتقدون هذا الدين السمح، «فقد أدرك الخلفاء السابقون الذين كان عندهم من العبقورية السياسية ما ندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة، أنّ النظم والأديان ليست مما يُفرض قسراً، فعاملوا أهل...إسبانية وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ومعتقداتهم غيرَ فاضين عليهم سوى جزية زهيدة في الغالب، إذا ما قيست بما كانوا يدفعونه سابقاً، في مقابل حفظ الأمن بينهم، فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ولا

¹ دولة الاسلام في الاندلس، محمد عنان، ص:682.

² حضارة العرب، لوبون غوستاف، ص:276-277.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

ديناً مثل دينهم»¹ فالفرق واضح بين هذه السياسة المتساهمة القائمة على العدل والمساواة وسياسة الأعداء، فلو تعسفوا لتأبَّت عليهم جميع الأمم التي كانت غير خاضعة لهم.

وأشار لوبون إلى أن الأندلسيين أثروا على أوروبا تأثيراً خلقياً كبيراً، واستعان بما ذكره سوباونلي في كتابه قائلاً: «أسفرت تجارب العرب وتقليدهم عن تهذيب طبائع سنبرواتنا الغليظة في القرون الوسطى وتعلم فرساننا أسمى العواطف وأنبأها وأرحمها من غير أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم»²

وهذا فيض مما عُرف به أهل الأندلس من إنسانيتهم وخوفهم الشديد من الله وحرصهم على نشر الخير ومد يد العون للغير وبناء مجتمع متماسك أساسه التكافل ومرضاة الله، وفي مثل هذا الجو من التسامح أصبحت البلاد أكبر قوة سياسية في المنطقة، تتمتع بالتطور الاقتصادي، والتعايش الاجتماعي والتبادل الثقافي والاستقرار السياسي، إلى أن أدال الله الأحوال وغير الأوضاع، تفككت البلاد إلى دويلات متناحرة .

خامساً: البعد العلمي:

بينما كان الناس في أوروبا يحاولون طرد الغول الذي ابتلع القمر بالصراخ والعويل، والغرب المسيحي يعتبر «مبادئ وتعاليم الطب مخالفة للمعرفة الإلهية»³، ومن يحاول اللجوء إلى الطبّ والعلاج كافر بالله، وكنيسة ترى أن ضرب المريض بالعصا لإخراج الشيطان من جسمه أهم وسائل العلاج، و«أباطرة وبطارقة لا ضمير لهم يناضلون ليقرروا هل تحكم

¹ المرجع نفسه، ص: 630.

² حضارة العرب، لوبون غوستاف، ص: 576.

³ حضارة الاسلام واثرها في الترقى العالمي، جلال مظهر مكتبة الخانجي، القاهرة، 1974، ص: 162.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

الإمبراطورية القوية أو الأساطير، السيف أو الكلام»¹، كان الأندلسيون نجوماً في سماء العلم والحضارة، بما قدموه من إبداعات واكتشافات، يدحضون بها هذه الأساطير والخرافات التي يقوّسها الغرب المسيحي.

وازدهرت الحركة العلمية بالأندلس ازدهاراً عظيماً، وظهر العلماء والعباقرة في كل ميدان، وكثرت المدارس والجامعات وزاد الوعي الثقافي، حتى بلغ عدد المكتبات سبعون مكتبة عامة تحوي مئات الآلاف من الكتب في مختلف حقول المعرفة الإنسانية، بالإضافة إلى المكتبات الخاصة، هذا فضلاً عن مكتبة قرطبة المركزية، وصارت قرطبة يوماً تستقطب العلماء والطلاب من كل حدب وصوب، حتى عدت جسراً حضارياً بين مختلف أقطار العالم الإسلامي ينتقل بين ربوعه العلماء والطلاب والمؤلفات والمذاهب الفكرية.

وامتد تأثير الحضارة الأندلسية في عهد الأمويين إلى أوروبا المسيحية، وظهر هذا التأثير جلياً على الأوروبيين -بمختلف طبقاتهم وأنواع مشاربهم- في الطب والفلك والفيزياء والكيمياء والفن والفلسفة وسائر أنواع العلوم، واتخذت طرق التواصل بين الأندلس وأوروبا صوراً وأشكالاً متعددة، مباشرة وغير مباشرة، أهمها:

1- توافد الطلاب الأوروبيين على مراكز الحضارة العربية الإسلامية بالأندلس:

سارع طلاب العلم ومحبه في أوروبا إلى الأندلس رغبة في التّعلم، ونهل العلوم والمعارف والإطلاع وحباً في الاستكشاف، وكان في مقدمة هؤلاء الراهب الفرنسي (جربرت دي أورياك) الذي وفد إلى الأندلس على عصر الحكم المستنصر (350 - 366هـ)، واهتم بصورة خاصة بدراسة العلوم الرياضية، وبرع فيها حتى تُخيل لعامة فرنسا

¹ قصة الحضارة، ويليام جيمس ديوزانت، تقدم محيي الدين صابر، ترجمة زكي نجيب محمود وآخرين، ج14، دار الجيل، لبنان، 1988، ص: 162.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

-بعد رجوعه- آنذاك بأنه ساحر، وأصبح فيما بعد بابا روما باسم البابا (سلفستر الثاني)، وكان له دوره البارز في نشر علوم العرب في أوروبا¹.

2- وجود كتب عربية في وقت مبكر بأوروبا:

فوجود نسخة لاتينية من (حكم أبقرط) كانت تستخدم في التدريس في مدينة (شارتر) الفرنسية عام 382 هـ/991 م، خير دليل على وجود نفوذ عربي مبكر في فرنسا، كون هذه النسخة كانت عن أصل عربي، ومعلوم أنّ الغرب المسيحي في هذا العصر كان لا يعرف أيّ شيء عن الأصول اليونانية لأعمال اليونان القدامى².

3- البعثات الأوربية التي توافدت على الأندلس :

وأخذت هذه البعثات تتوالى على الأندلس بأعداد متزايدة سنة بعد أخرى سواء العامة منها أو الخاصة، حتى بلغت سنة 312 هـ في عهد الخليفة الناصر زهاء سبعمائة طالب وطالبة. منها:

*بعثة من ألمانيا: ففي سنة 313 هـ / 925 م أرسل ملك ألمانيا (أوتو الكبير)، الراهب (جون) إلى قرطبة مبعوثاً إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر، وأثناء مكوثه فيها لمدة ثلاث سنوات تعلّم العلوم والثقافة العربية، وحمل معه المخطوطات العلمية العربية³.

¹ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 477.

² ينظر الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمي الحديث، جلال مظهر، مركز كتب الشرق الأوسط، مصر، 1969، ص 129.

³ ينظر انتقال الطب العربي إلى الغرب، محمود الحاج قاسم، دار النفائس، دمشق، 1999، ص 27.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

*بعثة من فرنسا: توجّهت بعثة من فرنسا برئاسة الأميرة (إليزابيث) ابنة خال الملك (لويس السادس) ملك فرنسا إلى الأندلس بُغية الدّراسة والاستفادة من علوم المسلمين.¹

*بعثة من ملك (بافاريا): فقد بعث فيليب ملك (بافاريا) إلى الخليفة هشام الثاني بكتاب يطلب إليه أن يأذن له بإرسال بعثة من بلاده إلى الأندلس للإطلاع على مظاهر التقدم الحضاري فيها والاستفادة منها، فوافق الخليفة هشام، وجاءت بعثة هذا الملك برئاسة وزيره المدعو (ويلمبين)، الذي يسميه العرب وليم الأمين.²

وتألّفت هذه البعثة من مئتين وخمسة عشر طالباً وطالبة وُزعوا على جميع معاهد الأندلس لينهلوا من مواردها الثقافية، إلّا أن حفاوة الحكّام وحُسن استقبالهم للبعثة، جعلت ثمانية منهم يعتنقون الدين الإسلامي، ويمكثون في الأندلس رافضين العودة إلى بلادهم، مُبهرين بسماحة الإسلام وعدل أصحابه ورفاهية أغلبهم، منهم ثلاث فتيات تزوّجن بمشاهير من رجال الأندلس في ذلك الوقت، أنجبت إحداهن عالماً، كان عبّاس بن مرداس الفلكي.³

*بعثة من ملك (ويلز): أوفد ملك (ويلز) بعثة برئاسة ابنة أخيه، كانت تضم ثماني عشرة فتاة من بنات الأشراف والأعيان، وقد وصلت هذه البعثة مدينة اشبيلية برفقة النبيل (سفيلك) رئيس موظفي القصر في (ويلز)، الذي حمل رسالة من ملكه إلى الخليفة هشام الثالث، وكان هدف هذه البعثة كما تقول الرسالة «فقد سمعنا عن الرُّقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة فأردنا ولأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يسودها الجهل من أربعة أركان... ولقد وضعنا ابنة شقيقنا

¹ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 477.

² ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 477.

³ ينظر المرجع نفسه، ص: 478.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

الأميرة (دوبانت) على رأس بعثة من بنات أشرف الإنجليز تتشرف بلثم أهذاب العرش والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم. وحماية الحاشية الكريمة ولقد أرفقت مع الأميرة الصغيرة هدية متواضعة لمقامكم الجليل أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب، من خادمكم المطيع جورج ملك إنجلترا¹، فاستقبل خليفة الأندلس البعثة أحسن استقبال، وحظيت باهتمام رجال الدولة الذين قرروا الإنفاق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين²، ولا يوجد أدلّ من هذه الرسالة على شغف الأوربيين ببلاد الأندلس ورغبتهم الملحة في زيارة بقاعها، وما يثير العجب عبارة خادمكم المطيع، فمن كان يظن أن الغرب المسيحي سيتذلل يوماً للمسلمين ويستجدي منهم العطف والرضى، وهذا ما يؤكد على عظمة الحضارة العربية الإسلامية بالأندلس وبثها الرعب في نفوس الأعداء .

4- الزواج المختلط:

ومن سبل التأثير المصاهرة بين المسلمين والنصارى، وكان الحكام يُشجعون تلك المصاهرات، حتى أن بعضهم تزوّج من نساء اسبانيات، كزواج المنصور من ابنة ملك (نافارا)، التي اعتنقت الإسلام وتسمت باسم عبدة³، وكانت لهذه المصاهرة أثر بارز في احتكاك الشعبين واختلاطهما، وانتقال مظاهر الحضارة فيما بينهما.

كما استقدم بعض ملوك أوروبا علماء من الأندلس لتأسيس المدارس ونشر ألوية العلم والعمران، ففي خلال القرن التاسع الميلادي وما بعده وقعت حكومات هولنده وسكسونيا وإنكلترا على عقود مع حوالي تسعين من الأساتذة العرب في الأندلس

¹ مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ، جهاد الترابي، دار التقوى للطباعة والنشر، مصر، ط2010، ص:1، ص:169.

² ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص:478.

³ ينظر في التاريخ العباسي والأندلسي، أحمد مختار العبادي، ص:457.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

بمختلف العلوم، ممن يجيدون اللغتين الإسبانية واللاتينية إلى جانب اللغة العربية، كما استعانوا بمئاتي خبير عربي في مختلف الصناعات، أهمها إنشاء السفن وصناعة النسيج والزجاج والبناء وفنون الزراعة.¹

وتتفق أغلب المصادر التاريخية على أن النهضة الفكرية في أوروبا ما هي إلا نتاج احتكاك الأوروبيين بمسلمي الأندلس، ونهلهم من حضارتهم، ويشير جوان براند تراند جون إلى ذلك قائلاً: «إن قرطبة التي فاقت كل حواضر أوروبا مدنيّة - أثناء القرن العاشر - كانت في الحقيقة محط إعجاب العالم ودهشته، كمدينة فينيسيا في أعين دول البلقان، وكان السياح القادمون من الشمال يسمعون بما هو أشبه بالخشوع والرهبنة عن تلك المدينة؛ التي تحوي سبعين مكتبة، وتسعمائة حَمَامٍ عمومي؛ فإن أدركت الحاجة حُكَّام ليون أو النافار أو برشلونة إلى جَرَّاح، أو مهندس، أو معماري، أو خائط ثياب، أو موسيقي فلا يَتَّجِهون بمطالبتهم إلا إلى قرطبة».² ويصف أحد الشعراء جمالها قائلاً:

بَارِيعَ فَاقَتِ الْأَمْصَارَ قُرْطَبَةُ *** مِنْهُنَّ قَنْطَرَةُ الْوَادِي وَجَامِعُهَا

هَاتَانِ نِثْنَانِ وَالزُّهْرَاءُ ثَالِثَةٌ *** وَالْعَلْمُ أَعْظَمُ شَيْءٍ وَهُوَ رَابِعَةٌ³

تجلى الإشعاع الحضاري للحركة الثقافية للأمويين بالأندلس على الأوروبيين في علومهم وآدابهم، وأهمّها:

¹ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 479

² إسبانيا والبرتغال، جون براند تراند، دراسة منشورة بكتاب تراث الإسلام، سير توماس أرنولد، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2، 1973، ص 27.

³ نفع الطيب، المقرئ، ج 1، ص 153

ويتجلى الإشعاع الحضاري للثقافة العربية الأندلسية على السكان الإسبان في كل شبه الجزيرة الأيبيرية في الاستعارات اللغوية التي أخذتها اللغة الإسبانية من اللغة العربية في جميع الميادين والمجالات، وإمام العديد من الإسبان باللغة العربية، ويقول المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال عن اللغة الإسبانية «أنها وجدت نفسها مضطرة طيلة مرحلة نموها، وحتى القرن الحادي عشر على الأقل، إلى أن تأخذ من العربية كل ما كان ينقصها حتى ذلك الوقت للتعبير عن المفاهيم الجديدة وبخاصة في مضممار المؤسسات والحياة الخاصة»¹.

فقد شاعت المصطلحات العربية في كل من ليون وقشتالة ونافار، وببقية المناطق الأخرى في الشمال²، ودخلت الكثير من الكلمات والمصطلحات العربية إلى اللغة الرومانسية، وهي اللغة الإسبانية القديمة الناتجة من اللهجة اللاتينية الأيبيرية التي كانت في طور التكوين في ذلك الوقت، وكان هناك الكثير من العرب الذي يفهمون هذه اللغة ويتكلمون بها، وبشكل خاص في مناطق الثغور والحدود³، وتوجد في المصادر العربية «إشارات واضحة تدل على أن الأمراء وكبار القوم والشعراء كانوا يتكلمون هذه اللغة الإسبانية القديمة أو الرومانية إلى جانب اللغة العربية، وكان القضاة يناقشون بها المتهمين أثناء محاكمتهم»⁴، واشهر هذه الكتب كتاب قضاة قرطبة للخشني .

وتُعدّ الاستعارات اللغوية أفضل من جميع الوثائق التاريخية لأنها تبرز الأبعاد الحضارية الحقيقية التي سلطتها الأندلس على اسبانيا المسيحية، و«هي أكثر الأدلة

¹ حضارة العرب في الاندلس، ليفي بروفنسال ص: 89.

² ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي ص: 479.

³ ينظر حضارة العرب في الاندلس، ليفي بروفنسال ص: 93.

⁴ في التاريخ العباسي والأندلسي، أحمد مختار العبادي، ص: 371.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

إفصاحاً على سيادة الدولة الأموية الثقافية، سيادة لا جدال فيها، استطاعت أن تنعم بها في شمال شبه الجزيرة¹.

2- الطب:

كان لتطور العلوم الطبية في الأندلس أثره في النهضة العلمية في أوروبا من خلال مؤلفات أطبائها، فقد ساعدت آلات العرب وابتكاراتهم في مجال الطب على وضع حجر الأساس للجراحة في أوروبا، وكان كتاب العالم الزهراوي "التصريف لمن عجز عن التأليف"، مصدراً أساسياً لطلبة العلم، واندفع أطباء الغرب إلى دراسته وتدريبه في مدارسهم ومعاهدهم الطبية، واتخذ البعض منهم هذا الكتاب مقراً علمياً في مدارسهم، كمدرستي (سالرنو) و(مونبيليه)².

ويعدُّ (جون أوف أدرن) أول جراح إنجليزي أدخل علم الجراحة إلى إنجلترا أحد المتأثرين بإنجازاته في الطب، فقد استعان بكل ما ورد في كتابه من أسس لعلم الطب³، وتأثر الجراح الفرنسي (ج يدي شوليك) إلى حد كبير به أيضاً، فضمَّ مبحث الجراحة إلى أعماله، كما ألَّف (سيمون الجنوي) قاموساً في المادة الطبية استقى مفرداته من كتابه وغيره من الأطباء⁴.

وحاز كتابه إعجاب الكثير من الأطباء، فسعوا إلى ترجمته، كما فعل (جيرارد الكريمويني) الذي ترجمه إلى اللاتينية، وسمَّاه كتاب الزهراوي في الجراحة، وصدرت منه عدَّة طبعات⁵.

¹ حضارة العرب في الاندلس، ليفي بروفنسال ص: 93.

² ينظر شمس العرب تسطع على الغرب، زغريد هونكة، ص: 247.

³ حضارة الاسلام واثرها في الترقى العالمي، جلال مظهر، ص: 155.

⁴ المرجع نفسه، ص: 154.

⁵ ينظر تاريخ الفكر الأندلسي، أنخل بالثيا ص: 466.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

وتشهد المستشرقة الألمانية (زيغريد هونكة) بإبداعاته في مجال الطب قائلة: «عنه أخذنا طريقة ترك فتحة في رباط الجبس في الكسور المفتوحة، وأمدّ الجراحين وأطباء العيون والأسنان الأوربيين بالآلات اللازمة للعمليات بواسطة الرسوم الجديدة التي وضعها»¹.

وكان كتاب الأدوية المفردة لابن وافد (ت 467 هـ) من أهم كتب الصيدلة التي اعتمدت عليها أوروبا في القرون الوسطى²، فقد تُرجم كتابه في العلاج بالحمامات والينابيع الطبية والعقاقير النباتية المفردة إلى اللغة اللاتينية، والثاني إلى اللغة القطلونية بعنوان كتاب العقاقير المفردة.³

ويعدُّ تفكير الأندلسيين في وضع هذا العلم في مؤلفات متخصصة نقطة تحول في مجال التأليف والبحث العلمي، وتُعتبر إسهاماتهم في هذا الميدان أسساً للطب الحديث.

3- الكيمياء:

ظهر عديد من العلماء اتَّخذوا علوم المسلمين ومعارفهم مشعلا ينير لهم طريقهم، ولمع في سماء الكيمياء النجم أحمد بن مسلمة الجريطي (ت 398 هـ) بكتابه غاية الحكيم، وكان أول من اكتشف أكسيد الزئبق وكيفية تحضيره، ويُعدُّ هذا الاكتشاف حدثا بالغ الأهمية، لم يتفطن إليه الغرب إلا بعد عدّة قرون⁴، وتُرجم كتابه إلى اللاتينية في القرن السابع هجري، وبفضله عرف الأوروبيون تقسيم المواد الكيمياوية إلى نباتية وحيوانية ومعنوية، ومازالت المعدات الكيمائية الحديثة، تحمل أسماءها العربية الأصيلة⁵ كما كان للعالم عباس بن فرناس إسهامات في مجال الكيمياء، فهو أول من استنبط استخراج

¹ شمس العرب تسطع على الغرب، زغريد هونكة، ص: 279.

² حضارة الاسلام واثرها في الترقى العالمي، جلال مظهر، ص: 352.

³ الحضارة العربية الاسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج: 2، ص: 1300.

⁴ حضارة الاسلام واثرها في الترقى العالمي، جلال مظهر، ص: 76.

⁵ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 484.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

الزجاج من الحجارة والرمل¹، وغيرهم من العلماء الذين كان لهم الفضل في تطوير هذا العلم والإبداع فيه، وما وصل إليه الغرب من تقدّم في هذا المجال ما هو إلا نتاج لتفوق هؤلاء العلماء في هذا العلم .

4- الرياضيات:

جاءت الرياضيات العربية حصيلة تمازج بين الحضارات السابقة وحضارة الإسلام، وأسهمت في تقديم الجديد لهذا المجال، فالغرب مدين للحضارة العربية الإسلامية بمعرفة الأرقام ومن ضمنها الصفر الذي حل مشاكل كثيرة في العمليات الرياضية، فقد «أخذ العرب الأرقام الحسائية من الهند، وعن طريقهم انتقلت الأعداد الغبارية إلى الأندلس، ومنها إلى أوروبا، وأول من أخذ بالأرقام العربية من الأوروبيين جربرت Gerbert الذي عرف فيما بعد بالبابا (سلفستر الثاني)، الذي درس في الأندلس وبعدها ألف كتاباً شرح فيه كيفية استخدام الأرقام العربية»²، وكان ذلك بداية تبني أوروبا للأرقام العربية، وبداية علم الرياضيات الأوروبي.

5- الفلك:

كان الإرث الأندلسي غنيا في مجال الفلك، في المصطلحات، الآلات والمخطوطات وغير ذلك، فقد درس العلماء مواقع الأجرام السماوية وحركاتها، وتوصلوا إلى العديد من الاكتشافات العلمية، أشهرهم مسلمة بن أحمد المجريطي (ت 397هـ) بكتابه غاية الحكيم في التنجيم³، الذي ترجم إلى الإسبانية وسمي بالحكيم الإسباني⁴.

¹ مكانة الأندلس في التواصل الحضاري بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، وجدان فريق عناد، ص: 25.

² ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 484.

³ ينظر الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج2، ص: 1316.

⁴ شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكة، ص: 126.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

ويعود الفضل في نقل هذا العلم إلى أوروبا إلى العالم (جرير) الذي كان يستخدم كرة ومعدادا أحضرهما معه من الأندلس، ويقضي لياليه في مراقبة النجوم ورصدها من خلال أنابيب خاصة، كما قام كذلك باختراع ساعة كبيرة، وكانت هذه الأبحاث والإنجازات ثمار ما تعلمه وأخذه عن الأندلسيين.¹

وكان الملك (ألفونسو) العاشر الملقب بالحكيم، ملك ليون وقشتالة محبا للعلوم راغبا في نقل ثقافة العرب وحضارتهم فأسس جامعة لذلك، وأمر بتأليف جداول فلكية وجمع لهذه المهمة مجموعة من الفلكيين العرب وسميت هذه الجداول بالجدول الألفنسية².

وقد ألف (اديلارد الباثي)، كتابه الذي سماه "كيف تستخدم الاسطرلاب، و استقى ما جاء به عن الاسطرلاب من كتاب مسلمة الجريطي مستندا على الترجمة اللاتينية³.

وتأثر الأوربيون بالعرب في صنعهم للساعات، فقد عثرت المخلفات الأثرية على آلة تعود للقرن الرابع تسمى البلاطة، «وهي بلاطة من رخام مثبتة في الأرض قد رُسمت عليها خطوط مستقيمة و سطرت أسماء الساعات، إنها عبارة عن دائرة في مركزها مسمار مستقيم وقائم الزاوية وكلما ألقى هذا المسمار بظله فوق خط من هذه الخطوط بان ماتقضى من ساعات النهار»⁴، وانتشر هذا النوع من الساعات في أوروبا المسيحية، ويعكس هذا الاختراع براعة الأمويين في علم الفلك .

فقد قدمت الأندلس عددا كبيرا من الفلكيين ومؤلفات أصيلة في هذا المجال نُهلت منها أوروبا لتحقق نهضة علمية في هذا المجال، وخير دليل على ذلك أن هذا العلم لازال يحمل مصطلحات عربية .

¹ حضارة الاسلام واثرها في الترقى العالمي، جلال مظهر، ص: 127.

² المرجع نفسه، ص: 154.

³ الحضارة العربية الاسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، ج2، ص: 1335.

⁴ فضل الأندلس على ثقافة الغرب، خوان قيرنيت، ترجمة نهاد رضا، اشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، 1997 ص: 171.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

6- الدين :

يسعى دين الإسلام إلى الحفاظ على التوازن في الكون، فهو يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة، والدين والعلم، والعقل والمادة، ويظهر تأثيره على الأوربيين جلياً من خلال العالم (جربير)، الذي تأثر بتعاليم الإسلام السمحة، فراح يُهاجم البابوية ويندد بجرائمهم، وأصر على ضرورة إحداث إصلاح أخلاقي شامل، كما صحح نظرتَه إلى حقائق الأشياء وأباح بعض الممنوعات في الشريعة المسيحية، ويتضح ذلك من خلال قوله: «أنا لا أُمْنَع الزواج ولا أدين الزواج الثاني، ولا أذمّ أكل اللحم»¹، ثم تولى كرسي البابوية في روما باسم سلفستر الثاني، وظل يدافع عن آرائه محاولاً تصحيح تعاليم المسيحية، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً فقد تعرض للقتل بواسطة السم.²

فالحركة التي بدأها جربير ودافع عنها ولقي في سبيلها كل تعنت من زملائه ورؤسائه، أتت ثمارها ونتج عنها حركة إحياء بين الرهبان الذين انفصلوا شيئاً بعد شيء عن التقاليد الكنسية القديمة التي حرمت العلوم الدنيوية.³

وقد تأثرت الممالك المسيحية المجاورة بمسلمي الأندلس، واتبعت هي الأخرى سياسة المذهب الديني الواحد واقتصرت على المذهب الكاثوليكي وتعصبت له حتى ضُرب بها المثل في ذلك.⁴

فالإسلام سعى إلى تعليم البشرية كيفية التفاهم والعيش بسلام في هذا العالم، وهو الأمر الذي فقدته الديانة المسيحية، ممّا أدّى إلى ضعفها، وجعل أبناءها المنصفين يفرّون منها بحثاً عن البديل.

¹ حضارة الاسلام واثرها في الترقى العالمي، جلال مظهر، ص: 128.

² المرجع نفسه، ص: 129.

³ المرجع نفسه، ص: 125.

⁴ في التاريخ العباسي والأندلسي، أحمد مختار العبادي، ص: 328.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

ولم تقتصر التأثيرات الثقافية على العالم المسيحي فحسب، بل امتد الإشعاع الحضاري للدولة الأموية بالأندلس ليشمل بلاد المغرب ويتجلى ذلك في مجال العلوم الشرعية فالفقه أول شيء اهتم به الأندلسيون وتمتع الفقيه بمكانة مرموقة عندهم، ومن أشهر علمائه الخشني* الذي قام بدور كبير في تعليم أهل المغرب، بعد أن زار مدينة سبتة رحب به أهلها واستقبلوه عندهم فترة طويلة تفقهوا فيها على يديه وأخذوا الكثير من علمه، ويقال أنه اقترح عليهم تصحيح قبلة جامعهم بعدما وجد فيها تغريباً، فاستجابوا له وقاموا بتشريقها.¹

كما يعود الفضل للكثير من علماء الأندلس في نقل مذهب مالك للمغرب وتأصله في نفوس أهله، والحدّ من انتشار المذهب الشيعي في تربة المغرب.²

7- الأدب:

وكان من أبرز الظواهر الأدبية في هذا العصر، انتشار اللغة العربية وآدابها بين طائفة المستعربين أو النصارى المعاهدين، ونبوغ الكثير منهم فيها، وبلوغهم مرتبة البراعة في كتابتها، و نذكر منهم الأسقف (جومث بن أنتنيان)، قومس أهل الذمة، الذي كان أديباً بارعاً، و كاتباً مقتدرًا من كُتّاب الأمير عبد الرحمن.³

* هو العالم أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد الخشني (ت 361هـ) حافظ للفقہ متقدم فيه دونباهة و فطنة و اتقان حسن القياس في المسائل و الموارث (طبقات علماء إفريقيا و تونس، ابو العرب القيرواني ص: 140).

¹ ينظر العلاقات بين المغرب و الاندلس في عهد عبد الرحمان الناصر، ص: 283.

² المرجع نفسه، ص: 285.

³ دولة الاسلام في الاندلس، محمد عنان، ص: 695.

الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

وكان للأدب الأندلسي- وخاصة الشعر- أثر كبير في نشأة الشعر الأوروبي الحديث في إسبانيا وجنوبي فرنسا، وأثبت المستشرق الإسباني (خليان ريبيرا) Gulian Ribe الذي درس دواوين شعراء التروبادور والمينسنجر* انتقال بحور الشعر الأندلسي فضلاً عن الموسيقى العربية إلى أوروبا¹، فشعر التروبادور يعود إلى أصل عربي، وذلك لوجود أوجه شبه لفظية موسيقية بين ما شاع بأوروبا، وبين الزجل الأندلسي، وفن الموشح، ومن حيث المضمون شاع في هذا النوع من الشعر بعض مضامين الشعر العربي كحب المروءة.²

وقد كان لابن حزم الأندلسي وكتابه الشهير «طوق الحمامة» تأثير كبير على شعراء إسبانيا وجنوب فرنسا، إذ اتسم شعره بالرقة والعفة، وعكس تقاليد شعر الغزل العربي، ويتسم شعر الغزل عند شعراء التروبادور بعاطفة الحب المميزة التي تصل إلى حدّ العبادة الرومانسية للمرأة، وتُعبّر عن حالة غرامية شبه مرضية تعكس تعلق الشاعر بالمحبوبة، وهذا الاتجاه يتنافى ومعتقدات الكنيسة³.

8- في مجال الزخرفة والخط:

تشير العديد من المصادر التاريخية إلى تأثير الفنون الإسلامية في الحضارة الغربية، فالكثير من الفنون التشكيلية الأوروبية استلهمت الفكرة والشكل من المصدر الإسلامي.

فبعض الفنانين الغربيين أضافوا أشكال الفن الإسلامي إلى أعمالهم بطريقة تكميلية أو زخرفية، مع جهل بمعاني الكلمات عند نقل أشكال حروف الكتابة العربية، فقد نقلوا الشكل دون المحتوى، بطريقة تدلُّ على انبهارٍ من الخارج بلامح الأشكال الزخرفية، وفي

* شعراء التروبادور، وهم الشعراء الجواله في العصور الوسطى، و المينسنجر وهم شعراء الغرام.

¹ ينظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، ص: 486.

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ اسهامات العرب في أوروبا، جلال مظهر، ص: 306.

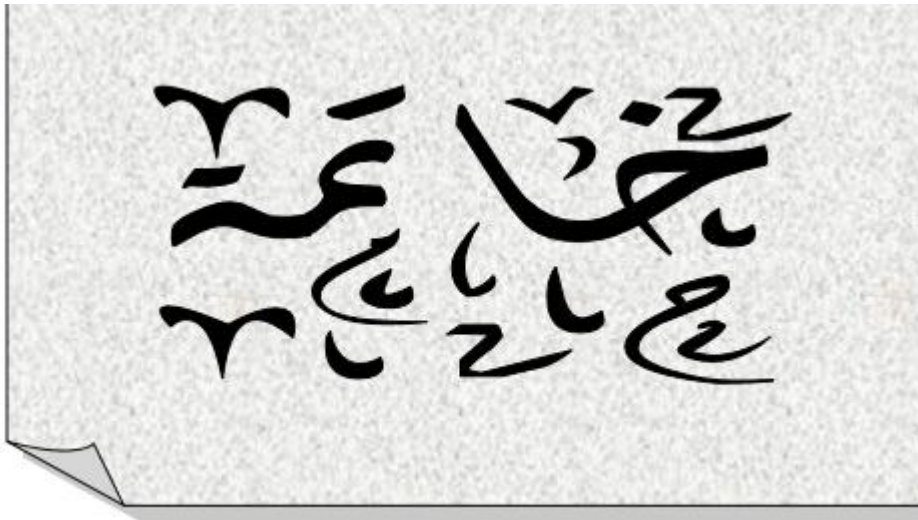
الفصل الثالث الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس

ذلك يقول جوستاف لوبون «وقد بلغ الخط العربي من الصلاح للزينة ما كان رجال الفنّ من النصرارى في القرون الوسطى وفي عصر النهضة يُكثرون من استنساخ ما كان يقع تحت أيديهم اتِّفَاقًا من قطع الكتابات العربية على المباني المسيحية تزيينًا لها، سائرين في ذلك مع الهوى، وقد شاهد مسيو لُنْجَبْرِيَه ومسيو لافوا وغيرهما الشيء الكثير منها في إيطاليا، وممَّا شاهدته مسيو لافوا في مكان الأمتعة من كاتدرائية ميلانو بابٌ مبنيٌّ على طراز رسم البيكارين يحيط به إفريزٌ حجريٌّ مؤلّف من كلمة عربية مكرّرة عدّة مرّات، وكتابةٌ عربيةٌ حول رأس المسيح المصوّر فوق أبواب القديس بطرس التي أمرَ بإنشائها البابا أوجين الرابع، وخطوط كوفية طويلة على قميص القديس بطرس والقديس بولس... ومن دواعي أسفي عدم ترجمة هذا الكاتب لهذه الكتابات، فلعلّ الكتابة التي حول رأس المسيح هي كلمة: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)!»¹

ويتضح مما سبق أن الخط العربي أثر في أعمال عديد من فناني أوروبا بعد احتكاكهم بالعرب، فأعجبوا به واستخدموه في أعمالهم الفنيّة، والعديد من لوحاتهم. وتاريخ اسبانيا العربية المسلمة صحيفة مشرقة من صحائف التاريخ الإنساني، وسجل حافل بالأبجاء، ذاخر بمختلف نواحي الحضارة، التي كانت مركز إشعاع هائل للحضارة الأوروبية آنذاك.

فأوروبا ظلّت تعتمد على مؤلفات العرب حتى عصرنا الحديث، وتلك الأفكار الجديدة التي شاعت في ذلك العصر، أحدثت صدعا كبيرا في العالم المسيحي المعادي للعلوم الدنيوية، وأيقظت أوروبا من سبات الخرافات والأساطير.

¹ جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص 531.



توصل البحث إلى مجموعة من النتائج أهمها:

-شهدت الأندلس نهضة علمية بارزة خلال فترة الحكم الأموي حيث كثر الإنتاج العلمي وشاعت المعرفة، وما يشهد بذلك كثرة المؤلفات التي أسهم بها المؤلفون، واهتمام الأندلسيين باقتناء الكتب وإنشاء المكتبات العامة والخاصة، حتى الجاهل منهم يحرص على أن تكون له مكتبة خاصة يفخر بما تضمه من كتب، وما أسهم في ازدهار الحركة العلمية آنذاك، جلب الكتب والمؤلفات من المشرق على يد الأندلسيين، والمشاركة الذين قدموا إلى الأندلس، وإنشاء المساجد التي تعدُّ النواة الحقيقية للحركة العلمية، وعلى رأسها مسجد قرطبة، ضف إلى ذلك اهتمام أمراء وخلفاء بني أمية بالعلم وتشجيعهم للعلماء، فقد عرفت هذه الفترة -خاصة في عهد عبد الرحمن الأوسط -دفعة كبيرة ووثبة عظيمة في مختلف المجالات، حيث شهد عصره الكثير من الهدوء والاستقرار واليسر والرخاء، كما كان حريصاً على اقتناء الكتب وجلبها من الأمصار، وتأسيس المكتبات، وسار على نهج الحكم المستنصر، الذي عرف التعليم في عهده رقياً كبيراً يُبين عنها معرفة معظم المحكومين من شعبه القراءة والكتابة، بينما كان أرفع الناس مكانة في أوروبا لا يجيدون ذلك، وكانت جامعة قرطبة آنذاك أشهر جامعة في العالم، وقد اختلف في تقدير محتويات المكتبة الأموية العظيمة، حيث قدرها بعض المؤرخين بأربعة مائة ألف مجلد وقدرها بعضهم الآخر ستمئة ألف، وهذا لا ينفي أن الميل إلى تشجيع العلوم وجمع الكتب قد ظهر منذ عصر عبد الرحمن الداخل، وأدلوا بدلوهم في العلوم بمختلف أنواعها، وخاصة العلوم الدينية التي تساعد على فهم الدين، فبرعوا في علم اللغة، وبرز منهم الفقهاء والمحدثون بمصنفاتهم النفيسة، وأبدوا مقدرة كبيرة على الخوض في مضمار الفلسفة لولا بغض المجتمع لها، واستطاعوا أيضاً الخوض في ميدان العلوم التجريبية والخروج منه بأفضل النتائج كعلم الطب، واستخلصوا الترياق من الأعشاب والنباتات، وطوّروا ما نهلوه منها من تجارب التراث الطبي البشري السابقة لعصرهم، ولم يحتكروه بدافع

الجشع، بل خدموا البشرية جمعاء كالزهراوي أول جراح أحرز السبق في اكتشاف الأدوات المستعملة في الجراحة.

-انتقل الشعر العربي مع العرب أينما حلّوا، فحتى لو غيروا وجهتهم فهو شعر عربي أصيل ،حافظت فيه الشخصية الأندلسية على مقومات الأصالة العربية،واستجابت في الوقت نفسه إلى دواعي التجديد،وتأثرت بمستجدات العصر،فاتجه الشعراء إلى نظم القصائد،تعزّلوا فيها بمعشوقاتهم،ومدحوا أمراءهم،وعند فقدهم للأحبة مالوا إلى رثائهم والصبر على المأساة ،ومال بعضهم إلى الزهد في الحياة قولاً وفعلاً،وقدّم آخرون خلاصة تجاربهم على شكل حكم، واشتكى صنف من نواب الدهر ومعاناة السجن ،وآثرت فئة نقد المجتمع وهجاء التصرفات السلبية لأصحابه،وتفنّوا في وصف جمال طبيعتهم الساحرة،فكان أدب حضارة ملتزم بقايا الأمة معبر عن واقعها بكل صدق،ناقلاً أهم المنجزات الحضارية، ممجّداً تاريخنا يستحق التخليد.

-ساير الأدب الواقع السياسي للإنسان في محاولته الاستقرار وتحقيق السلم والأمان وبلوغ القمة ،ولعبت الفنون النثرية دوراً هاماً في تحقيق عذا المطلب من رسالة وخطبة ووصية تعظ حيناً وتزجر حيناً آخر، حتى تحقق الغاية .

- اتّخذ الأمويون الإمارة نظاماً لهم،لكن سرعان ما تحولت إلى خلافة تقوم على أساس التوريث،تستند إلى السياسة أولاً ثم إلى الدين ثانياً،عكس الخلافة الراشدة التي قامت على مبدأ الشورى،وشملت الوزارة مختلف الميادين والمجالات،وحظي فيها الوزراء بشيء من التعظيم والإجلال،جعلهم يحرصون على أداء وظيفتهم على أكمل وجه،فمتى أحس الإنسان أنه أخذ حقه لم يتوان لحظة عن أداء واجبه.

- كانت خطة القضاء من أعظم الخطط عند الخاصة والعامة لتعلقها بأمر الدين، وثُم كثرة القضاة بالأندلس وعزل الكثير منهم مِمَّن فقد الشرعية المؤهلة للمنصب، عن التنظيم المحكم وبراعة التسيير لدولة بني أمية بالأندلس، فالكل سواسية أمام القضاء، فمتى فَرَّق القاضي بين الحاكم والمحكوم والغني والفقير والمالك والمحروم في إصدار الأحكام تزعزع نظام البلاد وعمّها التشتت والاضطراب.

- من الأجهزة الإدارية الهامة جهاز الشرطة، يحرص على حفظ مصالح الناس ونشر الأمن بينهم، حتى يستتب الاستقرار السياسي، ويلتفت الناس إلى بناء مجتمعهم .

- تعتبر المعالم العمرانية شواهد بارزة على حضارة عريقة قدمت الكثير، ولم تكن مجرد نهضة في البناء وحسب، بل عكست لنا طابع الحياة آنذاك، فقد سعى الأمويون لنقل أسلوب عيشهم وبنوا منشآتهم وفق ثقافتهم المحلية - بمساجدهم وقصورهم ذات الأفنية المفتوحة-رغبة في تخليد أسمائهم، فهذه الأبنية كلها حفظت الفن المعماري الإسلامي، وأسست مدرسة فنيّة قدمت دروسها للعالم المسيحي وبلاد المغرب، وجسّدت أساليب البناء المتقن بإظهار فنّ الزّحرفة والتّزيين، ويُجمّع المؤرخون على أن المسجد الجامع بقرطبة هو المنبت الأول للفنّ الأندلسي، والمنبع الرئيس الذي ارتوت منه الفنون الإسلامية، التي حاكت قبابه القائمة على الضلوع البارزة المتقاطعة فيما بينه، إذ كان له الفضل في إمداد الفنّ الزّحرفي الأندلسي بمادته الحيوية ومُقوماته الأساسية ليستكمل نموه ونضارته وعمقه في التعقيد، ويواصل هذا الفنّ تطوره الطبيعي في العصور التي تلت.

- يعدُّ الاقتصاد أحد ركائز الدولة والعامل الأساسي في بناء الحضارات، ممثلاً في الزراعة فقد أحدثوا ثورة زراعية في بلاد الأندلس وكان للخصائص الجغرافية التي امتازت بها المنطقة أثر بارز في هذه النهضة، فقد عرفت الأندلس بكثرة أنهارها وترتبتها الخصبة وتنوع أقاليمها، واعتدال مناخها، ولم تبق الزراعة هي المورد الوحيد، بل تنبهوا لأهمية الصناعة، وذلك لأن الأندلس تضم ثروات متنوعة من المعادن، وقد كان لازدهار الزراعة والصناعة بها أثر بارز في انتعاش التجارة وأصبح للأندلس أسطول تجاري بحري كبير يجوب المدن القريبة والبعيدة، حاملاً المنتجات الزراعية والصناعية الأندلسية، ولقد أدلى الأمويون بدلهم في هذا المجال، وحرصوا على التطوير فيه مما حقق رخاءً اقتصادياً لا مثيل له، من مظاهره اهتمام الخلفاء بالحركة العلمية والإغداق على العلماء وشراء نفائس الكتب بأثمان غالية، تبعه تطور علمي وازدهار في مختلف الميادين والمجالات، جعل من قرطبة وجهة تستقطب البعثات العلمية من كل حذب وصوب.

- تميَّز الإسلام بإنسانيته، فهو موجه إلى البشرية جمعاء ليُسهم في تحقيق السلام، وليبرهن بالفعل أن خاتم الأنبياء محمداً صلى الله عليه وسلم أرسله الله رحمة للعالمين، وهذا ماسعى إلى تحقيقه أمراء وخلفاء بني أمية بالأندلس بانتهاجهم سياسة خاصة في إدارة شؤون البلاد، وإتباعهم جهازاً إدارياً منظماً يكفل حقوق الرعية، من ولاية محكمة وقضاء مقسطٍ ووزارة مُنظمة، وشرطة عادلة، حملت معها أبعاداً إنسانية، وأخلاقاً فاضلة، وعُرفوا بخوفهم الشديد من الله وحرصهم على نشر الخير ومد يد العون للغير، وبناء مجتمع متماسك أساسه التكافل ومرضاة الله، وفي مثل هذا الجو من التسامح أصاب البلاد الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي بحيث أصبحت الأندلس أكبر قوة سياسية في المنطقة، ساعدت على زحف الإسلام في هذه الجنت الساحرة، وعكست دورهم في ازدهار حضارتهم وتطورها، وإشعاع نورها على أوروبا لتخرجها من الظلمات إلى النور.

والمتتبع لأوضاع الأندلس في هذه الفترة، يعي أنها بلغت درجة من التقدم والازدهار وفخرت بمجدها وفرضت هيمنتها وبسطت نفوذها على العالم المسيحي حينما تمسك أصحابها بكتاب الله وسنة رسوله، وحرصوا على العلم وتعظيم أهله، وكسب الحكام ثقة الرعية والسعي وراء وحدتهم وارساء مبدأ العدل بينهم، واعداد العدة في سبيل نشر الدين أولاً وحماية البلاد ثانياً، فكل هذه الأسباب مجتمعة كفلت قوة الحضارة العربية الإسلامية، غير أن دوام الحال من المحال، فقد تشرذم المسلمون وتصارعوا فيما بينهم، وبرز الحقد العرقي بين فئات المجتمع، واستغلوا هذه الأحداث ليستأثروا بالمناصب والمدن والأموال على حساب وحدة البلاد، وهانت الأسباب في سبيل تحقيق الغاية، حتى أنهم لجؤوا إلى التحالف مع العدو، وأصبح القتل أهون الأمور، واستبيحت دماء المسلمين ونساءهم، ووكل الأمر لغير أهله، وهو بلا شك سبب ضياع الأندلس وتفككها إلى دويلات متناحرة، فسنة الله اقتضت تغير الأحوال لكن العجز يكمن في الخنوع مع عدم الرغبة في التغيير، وهو غير بعيد عن حالنا اليوم.

الملاحق

ملحق الصور:

- صور لبعض الآلات التي استعملها الزهراوي في الجراحة :



• • أداة من أدوات الكي يكوى بها الراس والجبهة



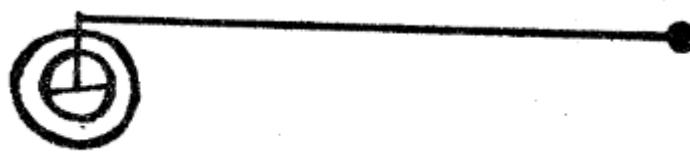
• أداة من أدوات الكي تسمى المسامير يكوى بها الراس أيضا



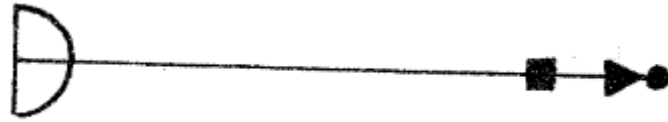
• من أدوات الكي تسمى النقطة يكوى بها منطقة الاذن



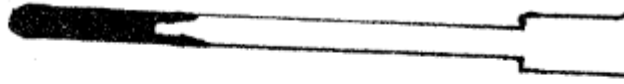
• • أداة يكوى بها الناصور وهو ورم يصيب الوجنه



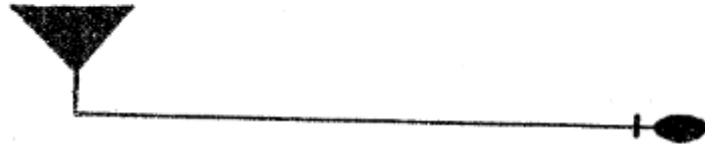
آلة تكوى بها أوجاع الظهر.



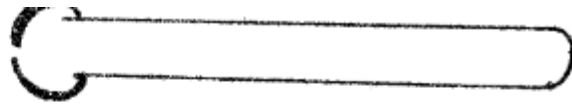
آلة تستعمل في كيّ مواضع الفتوق



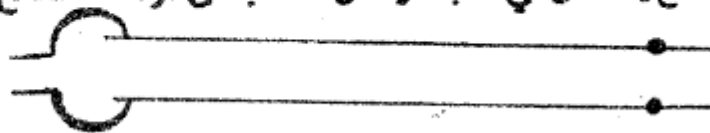
• اداة تستعمل في جراحة اخراج الماء الذي يجتمع في رؤوس الصبيان



• • الة تستعمل في كي المنطقة المحيطة بالكبد



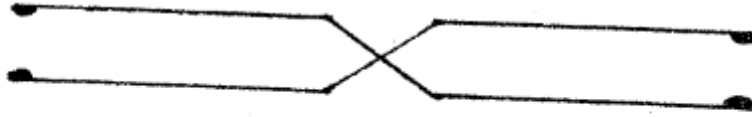
• • قمع يستعمل في صب الرصاص المذاب على موضع الناصور لازالته



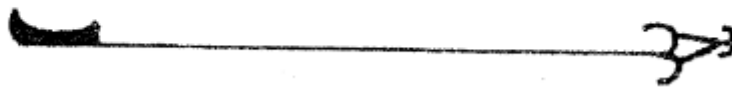
• اداة لكي الخنازير . وهي فتوحة الطرفين ليخرج الدخان من الطرف الاخر



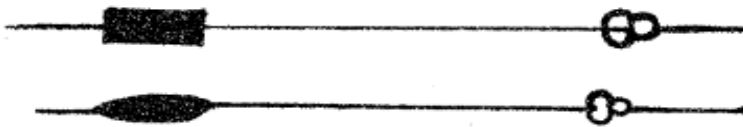
تستعمل هذه الأداة في إخراج ما يعلق في الأذن من الأشياء الصغيرة .



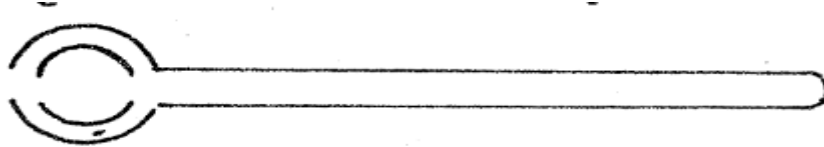
أداة تستعمل في جراحة الأذن وإزالة ما يزيد في الجفن من زوائد لحمية .



تستعمل في عملية جراحة العيون.

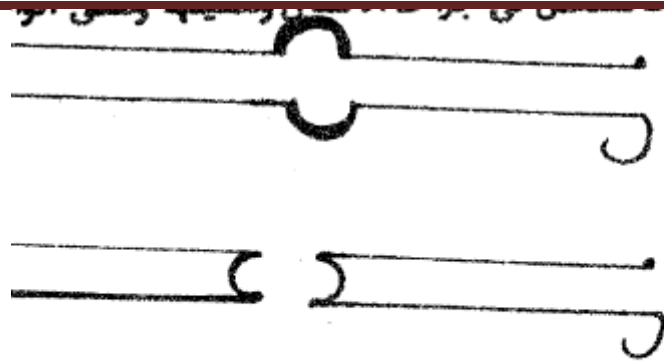


التان تستعملان في مسالماء من العين وتسمى الواحد هقدح .

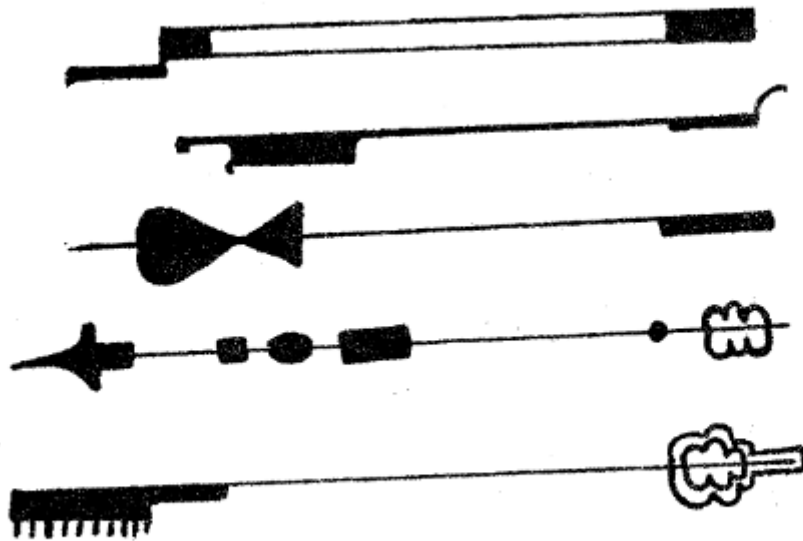


أنبوب يستعمل في تقطير الدواء في أنف المريض

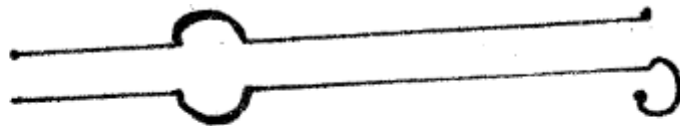
-صنف خاص بالفم:



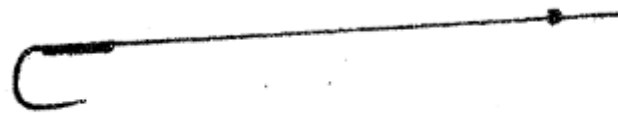
• • كلاليب تستخدم في جراحة الاسنان وخلصها



• ادوات مختلفة الاشكال تستعمل في جراحة الاسنان وخلصها وتنظيفها



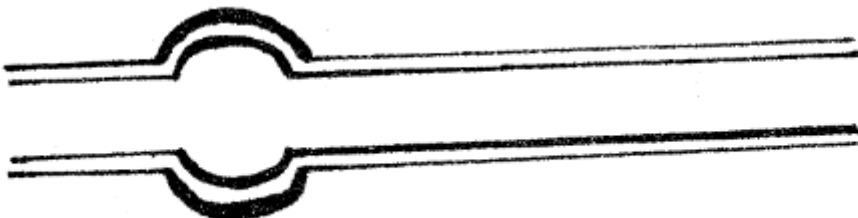
• اداة تستعمل عند فحص الطبيب الفم المريض فيكس بها اللسان الى اسفل



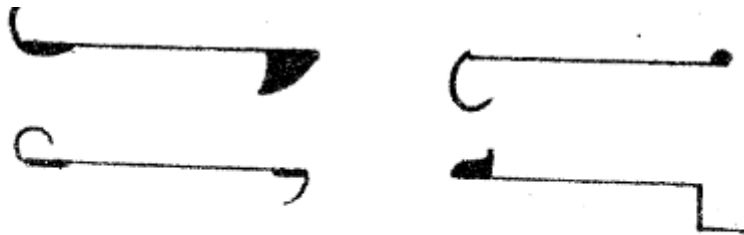
• الة تستخدم في جراحة الملوز وازالته



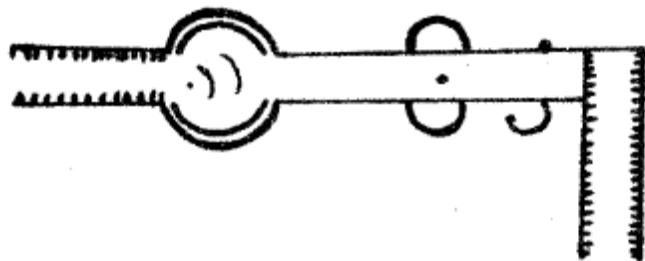
• اداة تستعمل في علاج ورم اللهاة حيث يوضع الدواء في طرفها الشبيه بالطعنة



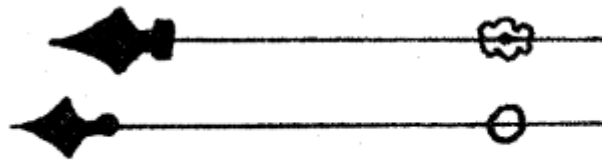
• الة تستخدم في علاج ورم اللهاة ايضا ويكون العلاج بواسطة البخار



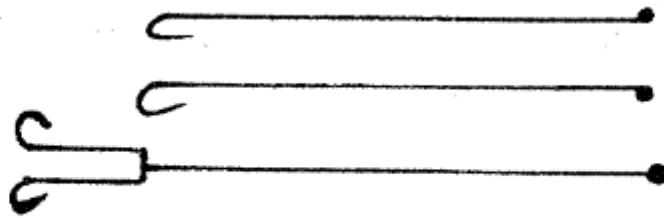
• ادوات تستعمل في جراحة الاسنان وتنظيفها وتسمى الواحده مجسره



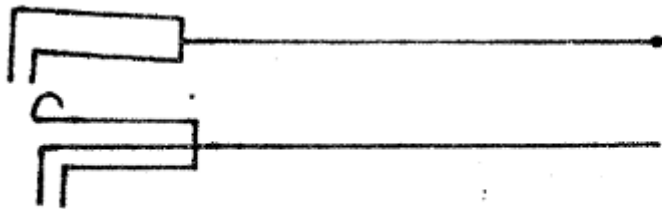
• الة جراحيه تستخدم في اخراج ما يكون في الحلق من اشياء تسده



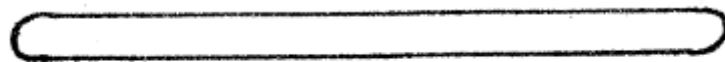
- التان تستعملان في جراحة الاورام وشقها



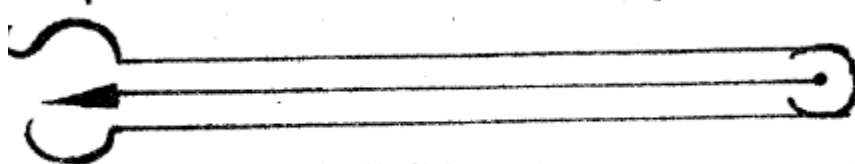
هذه الادوات تستخدم في جراحة الاورام وشقها ويطلق على واحد ها صناره



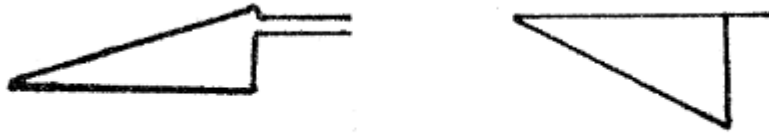
- صنارتان ذاتا مخاطف متعددة لاغراض الجراحه



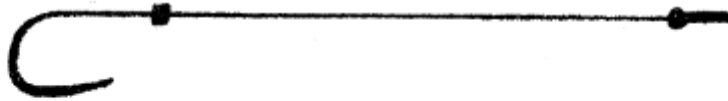
- مشرط يستخدم في شق الجلد وسلخه وجراحه الاورام



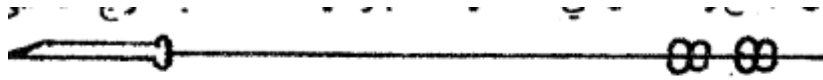
- الة تسمى مخدم وتستعمل في ازالة الاورام وسلخها



الثان تستخدمان في قطع نزف الدم ويسمى واحد ها محجيم .

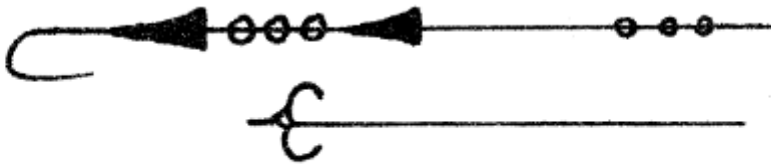


اداة تسمى مبيض وتستخدم في العمليات الجراحية المتعلقة باخراج الحصى من المثانه



التي تسمى مشعب وتستخدم ايضا في اخراج الحصى من المثانه .

-صنف خاص بعملية الولادة:

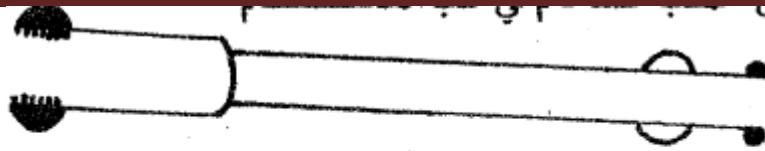


علاج الولاده العسيره

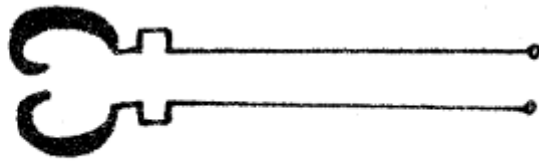
الثان تسمى الواحد منها مبيض وتستخدم في



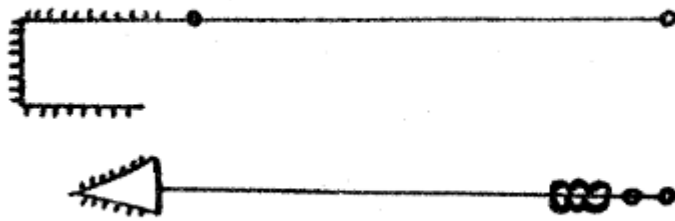
اداة تستخدم في تسهيل عملية الولادة واخراج الجنين .



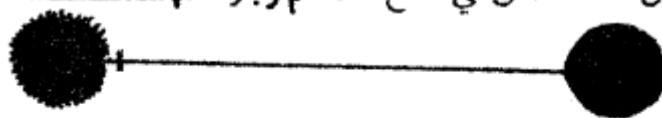
تستعمل في العمليات الجراحية المتعلقة بالولادة المسيرة وت



محقن يستخدم في حقن القعدة لمن يعتره امراض باطنيه

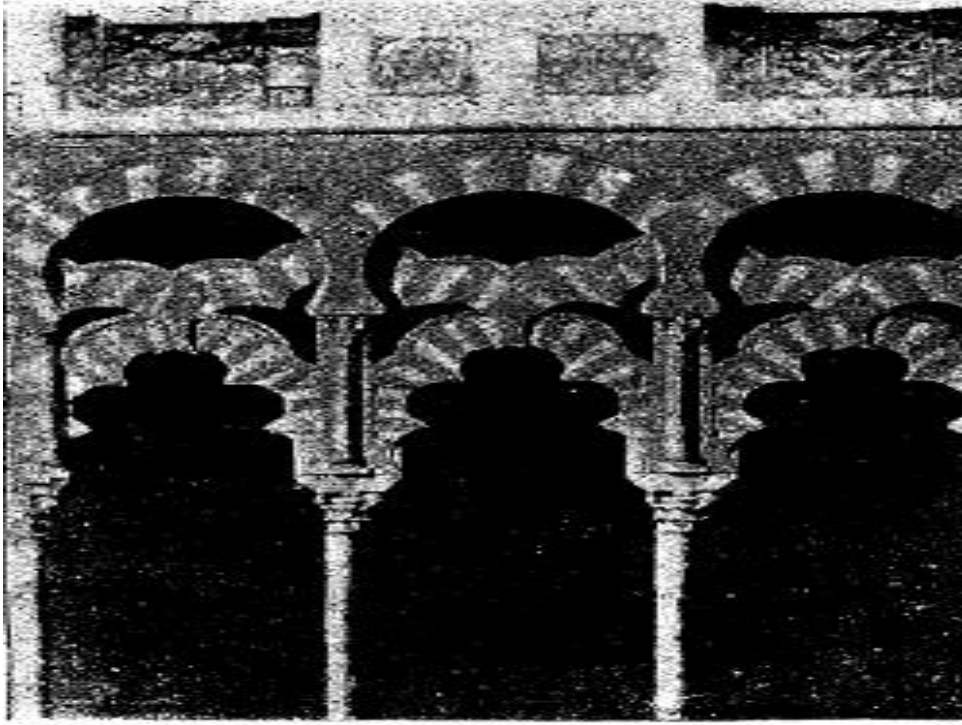


التان تستخدمان في قطع العظام وجراحتها



صورة مجرد تحد به رؤوس المفصل اذا فسدت

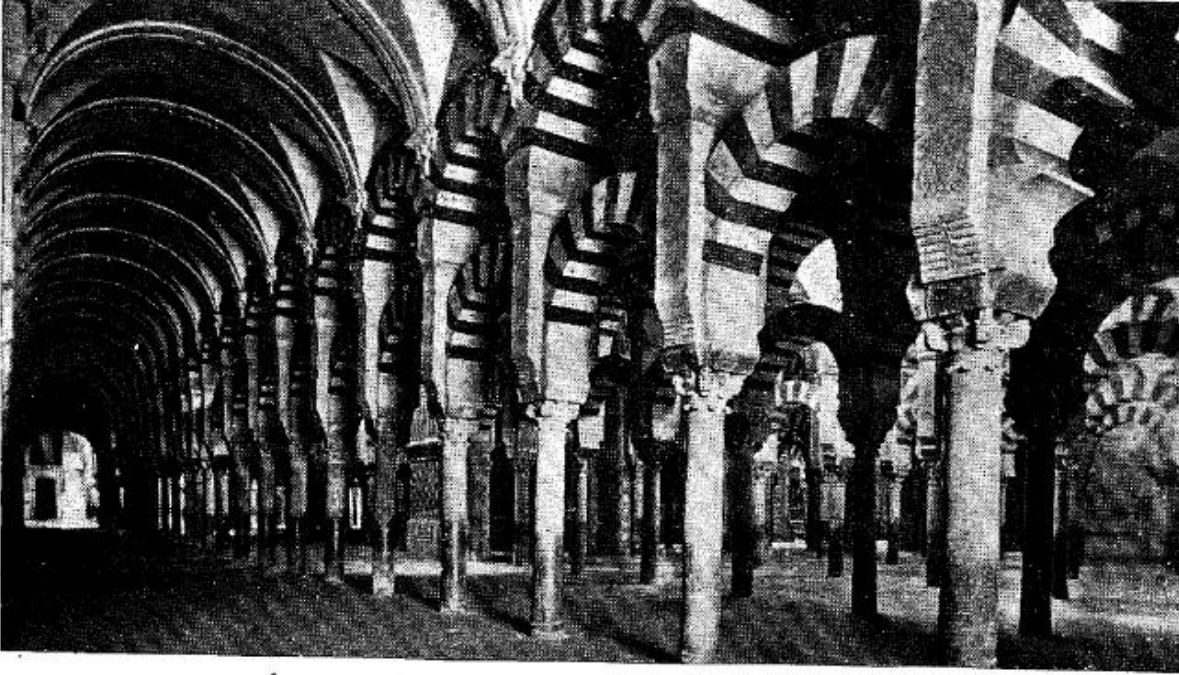
- صور العمارة الأندلسية:



جامع قرطبة . عقود مدخل المخراب

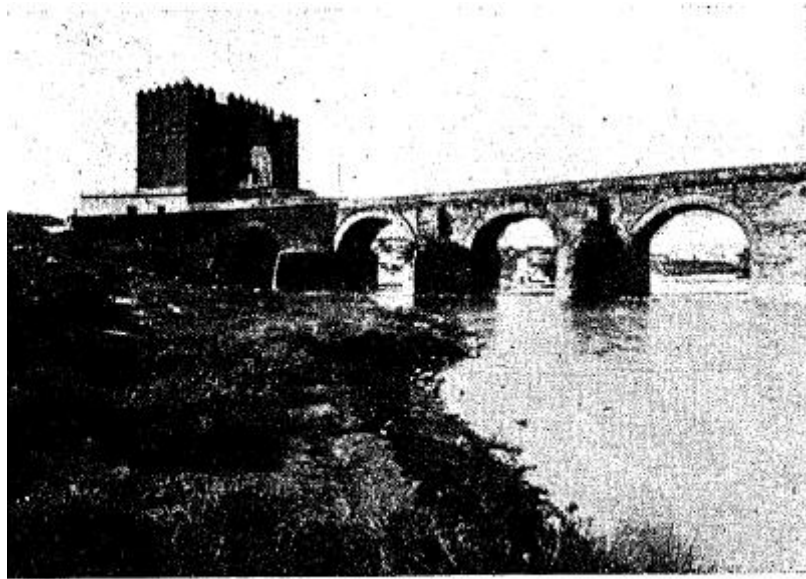
1

¹ الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، ص: 23.



جامع قرطبة . الجناح الأيسر المسمى « جامع المنصور » ، وهو الذي أنشأه المنصور بن أبي عامر سنة ٣٧٧ - ٣٨٠ هـ (٩٨٧ - ٩٩٠ م) وما يزال قائماً على حاله حتى اليوم .

1



2

قرطبة . الفنطرة العربية على نهر الوادي الكبير

¹ الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، ص: 27

² المرجع نفسه، ص: 32



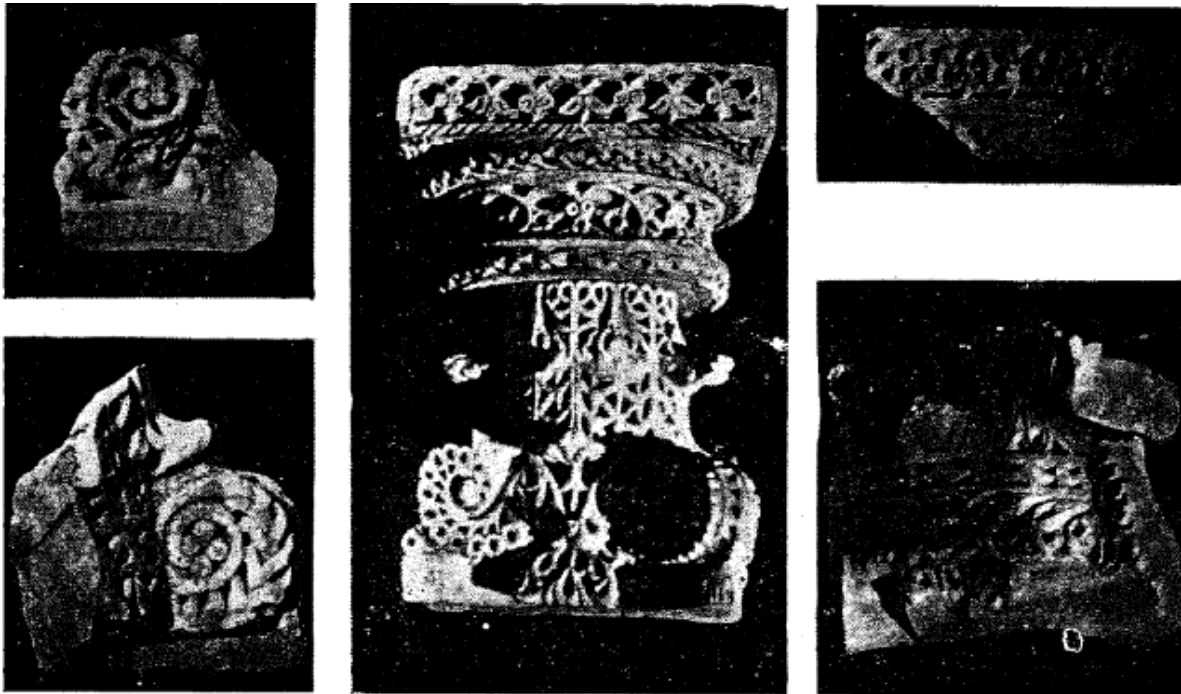
مدينة الزهراء



مدينة الزهراء



مدينة الزهراء



زخارف رؤوس وقواعد أعمدة من المرمر الأبيض ، مما وجد في سفائر الزهراء

1

¹ الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، ص: 37



1

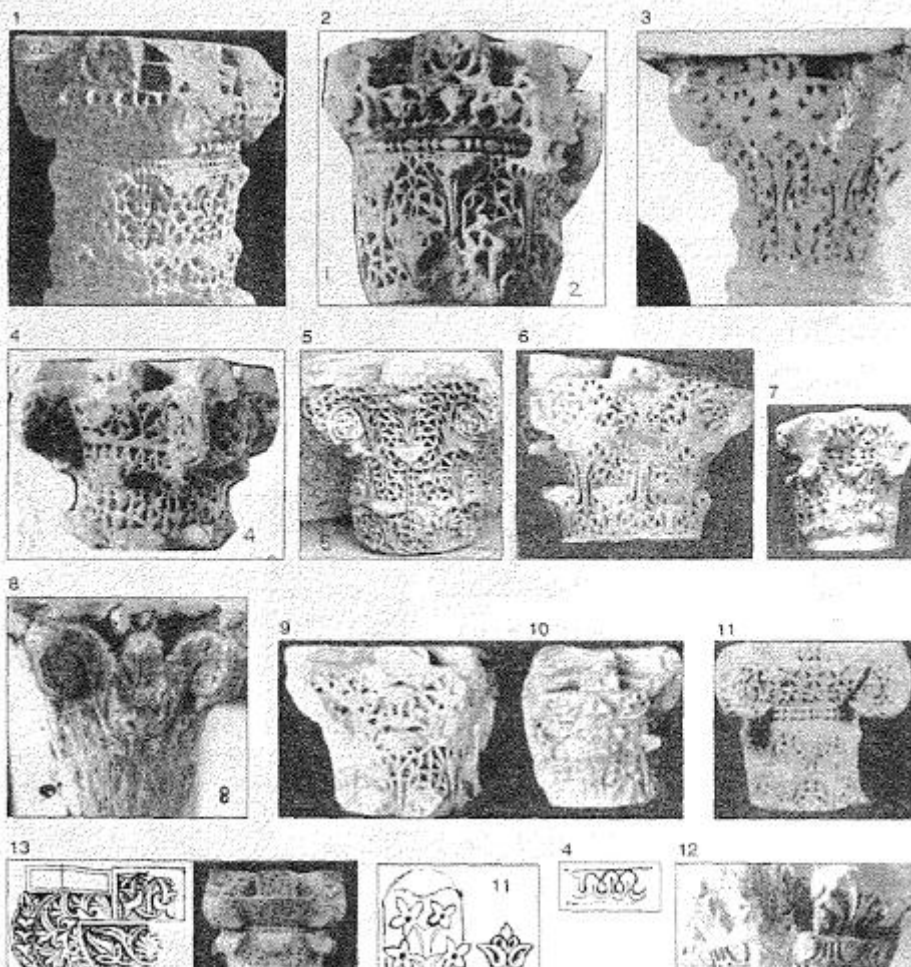
صور الآثار المتبقية من الحضارة الأندلسية:

¹الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، ص: 41



وعل الزهراء البرونزي المحفوظ بمتحف قرطبة

1



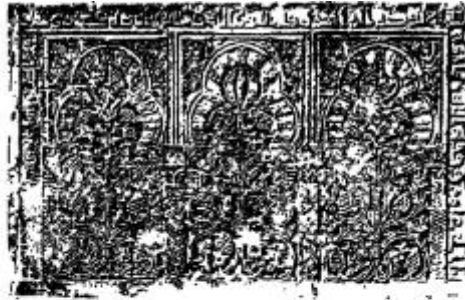
¹لآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، ص: 43





1

صندوق عاجي لعبد الملك المنصور (٨٣٩٥) محفوظ بكنيسة بنبلونة العظمى



أ - عرض من الرخام من صناعة قرطبة كان بين إحدى قاعات قصر الزاهرة محفوظ بتحف الآثار الأمل، مدريد

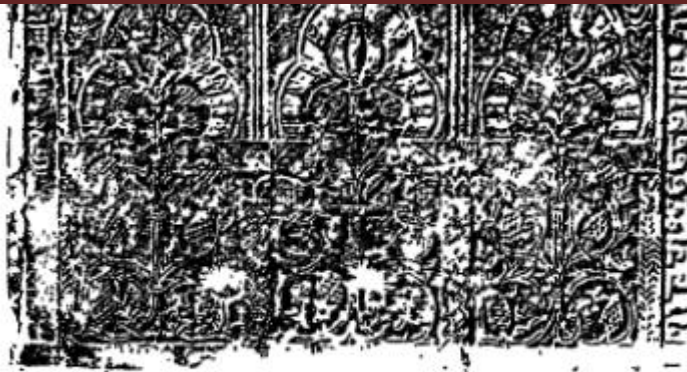


2

ب - قطعة من الرخام ودان بخاروف نباتية ومهندسة وكتابية محفوظة تحف الآثار بقرطبة

¹قرطبة حاضرة الخلافة بالأندلس،ص:158.

²المرجع نفسه،ص:161.



أ - حوض من الرخام من صناعة قرطبة كان يزين إحدى قاعات قصر الزاهرة
محفوظ بمتحف الآثار الأهلي بمدريد



ب - قطعة من الرخام ودان بخاروف نباتية
وهندسة وكتابية محفوظة بمتحف الآثار بقرطبة

1

ب - قبة من الفخار
المرجع من صناعة قرطبة
عثر عليها بمدينة الزمراء



2

¹قرطبة حاضرة الخلافة بالاندلس، ص: 158

²المرجع نفسه، ص: 163.



أ - قطعة من النسيج
المنوع من الكتان لشرق
بغداد هشام الأويد من
صناعة قرطبة

ب - كفتان من الفضة
من صناعة قرطبة



ج - قدر معدني من صناعة
قرطبة محفوظ بمتحفها

1

ص ١٦٤



د - قطعة من النسيج
نوع من الكتان لشرق
بغداد هشام الأويد من
صناعة قرطبة

ب - كفتان من الفضة
من صناعة قرطبة



د - قدر معدني من صناعة
قرطبة محفوظ بمتحفها

2

¹ قرطبة حاضرة الخلافة بالاندلس، ص: 164.

² المرجع نفسه.

ملحق الوثائق:

- رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله وعلى أصحابه الأكرمين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته الفاضلين الطيبين.

أما بعد يا أخي يا أبا بكر، سلام عليك، سلام أخ مشوق طالت بينه وبينك الأميال والفراسخ، وكثرت الأيام والليالي، ثم لقيك في حال سفرٍ ونقله، ووادك في خلال جولةٍ ورحلة، فلم يقضٍ من مجاورتك أرباً، ولا بلغ في محاورتك مطلباً. وإني لما احتللت بك، وجالت يدي في مكنون كتبك، ومضمون دواوينك، لمحت عيني في تضاعيفها درجاً فتأملته، فإذا فيه خطاب لبعض الكتّاب من مصاقبنا في الدار، أهل إفريقية، ثم ممن ضمته حضرة قيروانهم، إلى رجل أندلسي لم يعينه باسمه، ولا ذكر بنسبه، يذكر له فيها أن علماء بلدنا بالأندلس، وإن كانوا على الذروة العليا من التمكن بأفانين العلوم، وفي الغاية القصوى من التحكم على وجوه المعارف، فإن هممهم قد قصرت عن تخليد مآثر بلدهم، ومكارم ملوكهم، ومحاسن فقهاءهم، ومناقب قضاتهم، ومفاخر كتابهم، وفضائل علمائهم، ثم تعدى ذلك إلى أن أحلى أرباب العلوم منا من أن يكون لهم تأليف يجيي ذكرهم، ويقي علمهم، بل قطع على أن كل واحد منهم قد مات فدفن علمه معه، وحقق ظنه في ذلك، واستدل على صحته عند نفسه، بأن شيئاً من هذه التأليف لو كان منّا موجوداً لكان إليهم منقولاً، وعندهم ظاهراً، لقرب المزار وكثرة السفار، وترددهم إليهم، وتكرهم علينا.

ثم لما ضمنا المجلس الحافل بأصناف الآداب، والمشهد الآهل بأنواع العلوم، والقصر المعمور بأنواع الفضائل، والمنزل المحفوف بكل لطيفة وسيدة من دقيق المعاني وجليل المعالي، قرارة المجد ومحل السؤدد، ومحط رحال الخائفين، ومُلقى عصا التسيار، عند

الرئيس الأجل الشريف قديمه وحسبه، الرفيع حديثه ومكتسبه، الذي أُجله عن كل خطة يشركه فيها من لا توازي قومته نومته، ولا ينال حُضْرُهُ

هويناه، وأربأ به عن كل مرتبة يلحقه فيها من لا يسمو إلى المكارم سموه، ولا يدنو من المعالي دنوه، ولا يعلو في حميد الخلال علوه، بل أكتفي من مدحه باسمه المشهور، وأجتزي من الإطالة في تقريظه بمنتماه المذكور، فحسبي بذينك العلمين دليلاً على سعيه المشكور وفضله المشهور، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم صاحب البونت

أطال الله بقاءه، وأدام اعتلاءه، ولا عطل الحامدين من تحليهم بحلاه، ولا أخلى الأيام من تزينها بعلاه، فرأيته أعزه الله تعالى حريصاً على أن يجابو هذا المخاطب، وراغباً في أن يبين له ما لعله قد رآه فنسي، أو بعد عنه فخفي، فتناولت الجواب المذكور، بعد أن بلغني أن ذلك المخاطب قد مات، رحمنا الله تعالى وإياه، فلم يكن لقصده بالجواب معنى، وقد صارت المقابر له مغنى، فلسنا بمسمعين من في القبور، فصرفت عنان الخطاب إليك، إذ من قبلك صرت إلى الكتاب المجاب عنه، ومن لدنك وصلت إلي الرسالة المعارضة، وفي صول كتابي على هذه الهيئة حيثما وصل كناية لمن غاب عنه من أخبار تأليف أهل بلدنا، مثلما غاب عن هذا الباحث الأول، والله الأمر من قبل ومن بعد، وإن كنت في إخباري إياك بما أرسمه في كتابي هذا كمهد إلى البركان نار الحباحب باني صوئاً في مهيع القصد اللاحب، فإنك وإن كنت المقصود والمواجه فإنما المراد من أهل تلك الناحية من نأي عنهم علم ما استجلبه السائل الماضي، وما توفيقني إلا بالله سبحانه.

فأما بلدنا فقد ألف في ذلك أحمد بن محمد الرازي مآثر جمه منها كتاب ضخم ذكر فيه مسالك الأندلس ومراسيها وأمهاات مدنها وأجنادها الستة وخواص كل بلد منها، وما فيه مما ليس في غيره، وهو كتاب مريح مليح.

وأنا أقول لو لم يكن لأندلسنا إلا ما رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر به، ووصف أسلافنا المجاهدين فيه، بصفات الملوك على الأسرة، في الحديث الذي روينا من طريق أبي حمزة أنس بن مالك أن خالته أم حرام بنت ملحان، زوج أبي الوليد عبادة ابن الصامت، رضي الله تعالى عنه وعنهم أجمعين، حدثته به عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أخبرها بذلك لكفى شرفاً بذلك، يسرُّ عاجله ويغبط آجله، فإن قال قائل: عله صلوات الله تعالى عليه إنما عنى بذلك الحديث أهل صقلية وإقريطش، وما الدليل على ما ادعيته من أنه صلى الله عليه وسلم عنى الأندلس حتماً، ومثل هذا من التأويل لا يتساهل فيه ذو ورع دون برهان واضح وبيان لائح، لا يحتمل التوجيه، ولا يقبل التجريح. فالجواب، وبالله التوفيق، أنه صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب، وأمر بالبيان لما أوحى إليه، وقد أخبر في ذلك الحديث المتصل سنده بالعدول عن العدول بطائفتين من أمته يركبون ثبج البحر غزاةً واحدة بعد واحدة، فسألته أم حرام أن يدعو ربه تعالى أن يجعلها منهم، فأخبرها صلى الله عليه وسلم، وخبرة الحق، بأنها من الأولين، وهذا من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم، وهو إخباره بالشيء قبل كونه، وضح البرهان على رسالته بذلك، وكانت من الغزاة إلى قبرس، وخرت عن بغلتها هناك، فتوفيت رحمها الله تعالى، وهي أول غزاة ركب فيها المسلمون البحر، فثبت يقيناً أن الغزاة إلى قبرس هم الأولون الذين بشر بهم النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت أم حرام منهم، كما أخبرت صلوات الله تعالى وسلامه عليه، ولا سبيل أن يظن به، وقد أوتي ما أوتي من البلاغة والبيان، أنه يذكر طائفتين قد سمى إحداهما أولى، إلا والتالية لها ثانية، فهذا من باب الإضافة وتركيب العدد، وهذا مقتضى طبيعة صناعة المنطق، إذ لا تكون الأولى أولى إلا لثانية، ولا الثانية ثانية إلا لأولى، فلا سبيل إلى ذكر ثالث بعد ثان ضرورة، وهو صلى الله عليه وسلم إنما ذكر طائفتين، وبشر بفتنتين، وسمى إحداهما الأولين، فاقضى ذلك بالقضاء الصدق آخريين، والآخريين من الأول هو الثاني الذي أخبر صلى الله عليه وسلم أنه خير القرون بعد قرنه، وأول القرون بكل فضل بشهادة رسول الله صلى الله عليه

وسلم بأنه خير من كل قرن بعده، ثم ركب البحر بعد ذلك أيام سليمان بن عبد الملك إلى القسطنطينية، وكان الأمير بها في تلك السفن هبيرة الفزاري، وأما صقلية فإنها فتحت صدر أيام الأغالبة سنة 212هـ أيام قاد إليها السفن غازياً أسد بن الفرات القاضي صاحب أبي يوسف رحمه الله تعالى، وبها مات، وأما إقريطش فإنها فُتحت بعد الثلاث والمائتين...

وأما في قسم الأقاليم فإن قرطبة، مسقط رؤوسنا ومَعْقُ تَمَائِمْنَا، مع سُرٍّ من رأى في إقليم واحد، فلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه إقليمنا، وإن كانت الأنوار لا تأتينا إلا مغربة عن مطالعها على الجزء المعمور. وذلك عند المحسنين للأحكام التي تدل عليها الكواكب ناقص من قوى دلائلها، فلها من ذلك، على كل حال، حظٌّ يفوق حظَّ أكثر البلاد، بارتفاع أحد النيرين بها تسعين درجة، وذلك من أدلة التمكن في العلوم، والنفوذ فيها عند من ذكرنا، وقد صدق ذلك الخبر، وأبانتته التجربة، فكان أهلها من التمكن في علوم القراءات والروايات، وحفظ كثير من الفقه، والبصر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم، بمكان رحب الفناء، واسع العطن، متنائي الأقطار، فسيح المجال.

والذي نعاه علينا الكاتب المذكور، لو كان كما ذكر، لكنا فيه شركاء لأكثر أمهات الحواضر، وجلائل البلاد، وامتسعات الأعمال، فهذه القيروان بلد المخاطب لنا، ما أذكر أني رأيت في أخبارها تأليفاً¹

¹رسائل ابن حزم، ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1980

قَابِلَةٌ (بِصْنَاءِ) وَرَأْوَانٌ (بِأَسْمَاءِ) جَمْعٌ
بِأَسْمَاءِ بِأَسْمَاءِ بِأَسْمَاءِ بِأَسْمَاءِ

المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

أولاً: المصادر:

1. الإحاطة في أخبار غرناطة لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني، تحقيق يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003.
2. إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1982.
3. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي، دار الكتاب العلمية، لبنان، ط1، 2009.
4. أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، مؤلف مجهول، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت ط2، 1989.
5. أزهار الرياض في أخبار العياض، شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، تقديم عثمان بدري، د.ط، منشورات ثالة الأبيار الجزائر 2001، ج2.
6. الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 2005، ج4.
7. أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، ط2، 1956.
8. البديع في وصف الربيع، إسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب الحميري، تحقيق عبد الله عبد الرحيم عسيلان، دار المدني، السعودية، ط1، 1987.
9. بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، أبو جعفر الضبي، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967.

10. البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق محمد المصري، جمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت، ط1، 1407هـ،
11. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى المراكشي، ت.ج.س كولان وإ.ليقي بروفنسال، ج2، دار الثقافة لبنان، ط2، 1980.
12. تاريخ افتتاح الأندلس، أبوبكر محمد بن عبد العزيز ابن القوطية، تحقيق ابراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، ط2، 1989.
13. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، لبنان، ج30.
14. تاريخ علماء الأندلس، عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر ابن الفرضي، تحقيق ابراهيم الأبياري، الدار المصرية للتأليف والترجمة، دار الكتاب اللبناني، ط2، 1989، ج1.
15. تاريخ قضاة الأندلس، المرقبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا، النباهي، المكتب التجاري للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت.
16. تذكرة الحفاظ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق عبدالرحمن بن يحيى، دار دار الكتب العلمية، -لبنان، 1998، ج3.
17. ترتيب المدارك وتقريب المسالك، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي، مطبعة فضالة، المغرب، ط1، 1970.
18. التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، أبو عبد الله محمد بن الحسن الكتاني، تحقيق، إحسان عباس، دار الشروق، بيروت، ط2.
19. التكملة لكتاب الصلة، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي بن الأبار، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة ، لبنان، 1995، ج3.
20. جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس الحميدي محمد بن فتوح ابي عبد الله ، تحقيق محمد تاويت الطنجي الدار المصرية للتأليف و الترجمة ، القاهرة ط1. 1966 .

21. جمهرة أنساب العرب، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر، 1962.
22. الحلة السيرة، ابن آبار، تحقيق حسين مؤنس، الشركة الوطنية للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1963، ج1.
23. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون، تحقيق محمد الأحمد، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، ط1، 2005، ج2.
24. ديوان ابن الشهيد، جمع يعقوب زكي، راجعه محمود علي مكّي، دار الكتاب العربي، القاهرة.
25. ديوان ابن حزم الظاهري، تحقيق صبحي رشاد عبد الكريم، دار الصحابة للتراث، مصر، ط1، 1999.
26. ديوان ابن دراج القسطلي، تحقيق محمود علي مكّي، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ط1، 1961.
27. ديوان ابن عبد ربه، محمد رضوان الداية الشركة المتحدة للتوزيع والنشر، بيروت.
28. ديوان ابن هانئ، ابن هانئ الأندلسي، تحقيق كرم البستاني، دار بيروت، لبنان، 1980.
29. ديوان يحيى الغزال، جمعه وحققه، محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، لبنان، ط1، 1993.
30. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام الشنتري، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ط1، 1979، ج7.
31. الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2012، ج2.

32. الرسالة الجامعة، الجريطي، تحقيق جميل صليبا، المجمع العلمي العربي، مطبعة الترقى، 1949، دمشق، ج1.
33. رسائل ابن حزم، تحقيق الدكتور إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981، ج3، الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحميري، ت إحسان عباس، مكتبة لبنان 1984.
34. سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق بشار عواد معروف، ومحيي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1985، ج8.
35. الشامل في الصناعة الطبية، الأدوية والأغذية، علاء الدين ابن النفيس علي بن أبي الحزم القرشي، تحقيق يوسف زيدان، المجمع الثقافي، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2000، ج1.
36. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، أبو الفلاح، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1، 1986، ج2، ج3.
37. الصلة، أبو قاسم خلف بن عبد الملك ابن شكوال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب، القاهرة، 1966، ج1.
38. صورة الأرض، أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي دار صادر بيروت، 1938.
39. طبقات الأطباء والحكماء، أبو داود سليمان بن حسان ابن جلجل، تحقيق فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1975.
40. طبقات الأمم، أبو القاسم صاعد بن احمد الأندلسي، تحقيق لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1912.
41. طبقات الفقهاء، أبو اسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، ط1، 1970، ج1.

42. طبقات النحويين، محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الزبيدي، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط1.
43. العقد الفريد، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983، ج6.
44. غاية النهاية في طبقات القراء، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع، ط2017، ج1، 1.
45. فهرسة مارواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف، أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1997.
46. قضاة قرطبة، الخشني القروي، تحقيق ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط2، 1989.
47. الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار التوفيقية للطباعة، 2008، ج5 .
48. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله، الشهير بحاجي خليفة تعليق وترتيب محمد شرف الدين يالتقيا، وزارة المعارف التركية، إسطنبول، 1943.
49. المسالك والممالك أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري، دار الغرب الإسلامي، 1992، ج2.
50. المطرب من أشعار أهل المغرب، أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسي الشهير بابن دحية الكلبي، تحقيق إبراهيم الأبياري، حامد عبد المجيد، أحمد أحمد بدوي، راجعه طه حسين، دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 1955.
51. مطمح الأنفس ومسرح التآنس في ملح أهل الأندلس، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان، د. محمد علي شوابكة، دار عمار، بيروت، ط1، 1983 .

52. المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، محيي الدين، تحقيق، صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط1، 2006.
53. معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، ت. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993، ج4.
54. معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار صادر، بيروت، ط2، 1995، ج3.
55. المغرب في حلى المغرب، أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1955، ج2.
56. المقتبس من أنباء الأندلس، حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي، ت: محمود علي مكي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1995.
57. موسوعة تاريخ الأندلس، فكر وتاريخ وحضارة وتراث، حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1996، ج1.
58. نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، محمود مقديش، ت علي الزواري، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1988م.
59. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي المعروف الشريف الإدريسي، عالم الكتاب بيروت 1409هـ، ج1.
60. نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر للطباعة والنشر، 1968.
61. الوافي بالوفيات، الصفدي، ج4، دار إحياء التراث، بيروت، ط1، 2000.

62. وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط 1، 1900، ج1.

63. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، تحقيق، مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1983.

ثانيا- المراجع:

64. اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث هجري، نافع محمود، دار الشؤون الثقافية العامة، 1980.

65. الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة أحمد هيكل، دار المعارف، مصر، ط3، 1967.

66. الأدب الأندلسي (النثر-الشعر-الموشحات) فوزي عيسى، دار المعرفة الجامعية، مصر 2015

67. الأدب الأندلسي، التطور والتجديد، ممد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992.

68. أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، بطرس البستاني، دار نظير عبود، لبنان.

69. أساليب النثر الفني، لطيف محمد العكّام، مطبعة الآداب، النجف، 1974 .

70. أشكال الخطاب النثري الفني الأموي في المغرب الأندلسي، حسين علي الهداوي.

71. اقتصاد النسيج في الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، محمود هدية، مؤسسة الهداوي.

72. انتقال الطب العربي إلى الغرب، معايير وتأثيره، محمود الحاج قاسم، دار النفائس، دمشق، 1999 .

73. الأندلس في العصر الذهبي، منذ حملة طارق بن زياد إلى وفاة عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله 19-350هـ/710-961م، سوزي حمود دار النهضة العربية، ط1 2009 .
74. تاريخ الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة إحصان عباس، دار المعارف، مصر، ط1967، 3.
75. تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، إحصان عباس، دار الثقافة، لبنان، ط1، 1962.
76. تاريخ الأدب الجغرافي العربي، كراتشكوفسكي اغناطيوس، ت. صلاح الدين عثمان هشام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1957، ج1.
77. تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط1، 1995.
78. تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، حسن إبراهيم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1933، ج3، ج4.
79. التاريخ الإسلامي الوجيز، محمد سهيل طقوش، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط5، 2011.
80. تاريخ التعليم بالأندلس، محمد عبد الحميد عيسى، دار الفكر العربي، ط1، 1982.
81. تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، حسين مؤنس، مكتبة مدبولي، المنظمة العربية للتربية والثقافة، ط2، 1986.
82. تاريخ الدولة الأموية في الأندلس التاريخ السياسي، عبدالمجيد نعنعى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1991.
83. تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، تحقيق عبد الواحد ذنون طه، ناطق صالح، دار الكتاب الجديد المتحدة بيروت، لبنان، ط1، 2000 .

84. تاريخ العلم و دور العلماء العرب في تقديمه، عبد الحلیم منتصر ،دار المعارف مصر، الإسكندرية، ط.4.1971.
85. تراجم إسلامية شرقية و أندلسية، محمد عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط2، 1970.
86. التفسير النفسي للأدب ،عز الدين اسماعيل، مكتبة غريب ،القاهرة، ط4.
87. جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي ،السعودية، ط1، 1994، ج2.
88. الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم، حنا فاخوري، دار الجيل، لبنان، ط1، 1986.
89. الجراحة الطيبة عند المسلمين في القرون الوسطى ممارسة وتأليف، شرقي الرزقي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2014.
90. حضارة الاسلام وأثرها في الترقى العالمى، جلال مظهر مكتبة الخانجي، القاهرة، 1974،
91. الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمي الحديث، جلال مظهر، مركز كتب الشرق الأوسط، مصر، 1969.
92. الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، ج2.
93. الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ،شكيب أرسلان ،ج3، مؤسسة الهداوي للتعليم والثقافة ،مصر.
94. الخصائص الأسلوبية في الشعر الرومانسي عند الأندلسيين، بوعلام رزيق، منشورات جامعة محمد بوضياف المسيلة، الجزائر.
95. دار الطراز في عمل الموشحات، أبو القاسم هبة الله بن جعفر بن سناء الملك، تحقيق جودت الركابي، دار الفكر، ط1.

96. دراسات في التاريخ والفن والأدب الأندلسي، محمد حسن، دار السعودية للنشر والتوزيع، جدّة، ط1، 1985، 1.
97. دولة الاسلام في الاندلس، محمد عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997، ج2.
98. زرياب أبو الحسن علي بن نافع موسيقار الأندلس، محمود أحمد الحفني، الدار المصرية للتأليف والنشر، مصر.
99. شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بشير يموت، المكتبة الأهلية، بيروت، ط1، 1934.
100. شعر ابن عبد ربّه الأندلسي، أحمد بن محمد، مكتبة العبيكان للنشر، 2000.
101. شعر بني أمية في الأندلس حتى القرن الخامس هجري، أحمد عمارة، مكتبة المتنبي، ط2، 2001.
102. صورة شعوب الشرق الأقصى في الثقافة العربية الوسيطة، شمس الدين الكيلاني، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2008.
103. ظهر الإسلام، أحمد أمين، ج3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط4، ج3، 1966.
104. عبقرية العرب في العلم و الفلسفة لعمر فروخ، المكتبة العلمية، بيروت، ط2، 1952.
105. العمارة الإسلامية والبيئة، يحيى وزيري، مطابع السياسة، الكويت 2004، سلسلة عالم المعرفة.
106. الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال افريقيا والأندلس، عبدالواحد دنون طه، دار المدار الإسلامي، لبنان، ط1، 2004.
107. فجر الأندلس، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي، إلى قيام الدولة الأموية، حسين مؤنس، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2002.
108. في الأدب الأندلسي، محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، لبنان، ط1، 2000.

109. في التاريخ العباسي والأندلسي، أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
110. قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي - الخامس الهجري، الحياة الاجتماعية والاقتصادية، محمد عبد الوهاب خلاف، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.
111. قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، عبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، 1997، ج2..
112. ماذا قدّم المسلمون للعالم؟، إسهامات المسلمين في الحضارة الإسلامية، راغب السرجاني، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط2010، ج4.
113. مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس، عبد الكريم التواتي، مكتبة الإرشاد، المغرب، 1967.
114. مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ، جهاد الثرباني، دار التقوى للطباعة والنشر، مصر، ط1، 2010.
115. المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، حسين الدويدار، مطبعة الحسين الإسلامية، جامعة الأزهر، ط1، 1994.
116. المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، القاهرة، ط1، 1963.
117. المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، عبد الله بن عفيفي الباجوري، مكتبة الثقافة، المملكة العربية السعودية، ط2، 1932، ج3.
118. المساجد والقصور في الأندلس، عبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، 1986.
119. المسلمون المدجنون في الأندلس، حسين يوسف دويدار، مطبعة الحسين الإسلامية، مصر، ط1، 1993.

120. معالم تاريخ المغرب والأندلس حسين مؤنس ،دار مطابع المستقبل،القاهرة، ط1
،1983.
121. ملامح الشعر الأندلسي،عمر دقاق،منشورات دار الشرق بيروت،1975.
122. الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب،محمد كامل حسين، المنظمة العربية
للتربية والثقافة والعلوم،ليبيا،1900.
123. موسوعة تاريخ الأندلس،تاريخ وفكر وحضارة وتراث،حسين مؤنس،مكتبة الثقافة
الدينية،القاهرة،ط1996، ج1، ج1.
124. نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس،عبدالواحد ذنون طه،دار الشؤون الثقافية
العامة ،العراق،ط1988،1.
125. نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس،سالم بن عبد الله الخلف،عمادة
البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط1، 2003.
126. الهجاء في الأدب الأندلسي،فوزي عيسى،دار الوفاء لدنيا الطباعة
والنشر،مصر،ط1، 2007.
127. اليهود في الأندلس،محمد بحر عبدالمجيد،الهيئة المصرية العامة للتأليف
والنشر،مصر،1970.

ثالثا :الكتب المترجمة:

1. أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الإنسانية ،روبرت بريفالت ،ترجمة أبو النصر أحمد
الحسيني،مطبعة عيسى البابي،القاهرة،1957.
2. إسبانيا والبرتغال،جون براند تراند،دراسة منشورة بكتاب تراث الإسلام،سير توماس
أرنولد،دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت ،ط2، 1973.
3. تاريخ الأدب الجغرافي العربي،كراتشكوفسكي اغناطيوس،ت.صلاح الدين عثمان
هشام،ج1،لجنة التأليف والترجمة والنشر،1957.

4. تاريخ الفكر الأندلسي، أنخل بالنثيا، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط2.
 5. حضارة العرب في الأندلس، ليفي بروفنسال، ت: ذوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان.
 6. حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة الهداوي للثقافة والنشر، مصر، 2012.
 7. خلاصة تاريخ العرب، لويس سيديو، ترجمة محمد أحمد عبدالرزاق، مؤسسة الهداوي.
 8. شمس العرب تسطع على الغرب، زغريد هونكة، ترجمة كمال بيوض، وفاروق دسوقي، دار الجيل بيروت.
 9. العمارة الإسلامية في الأندلس عمارة القصور، عصر الخلافة وعصر ملوك الطوائف، باسيليون بابون مالدونادو، ترجمة علي ابراهيم المنوفي، محمد حمزة، ج1، المركز القومي للترجمة، ط1، 2010.
 10. العمارة الأندلسية، عمارة المياه، باسيليو بابون مالدونادو، ت علي ابراهيم، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2008.
 11. فضل الأندلس على ثقافة الغرب، خوان قيرنيت، ترجمة نهاد رضا، اشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، 1997.
 12. قصة الحضارة، ويليام جيمس ديورانت، تقديم: محيي الدين صابر، ترجمة زكي نجيب محمود وآخرين، ج14، دار الجيل، لبنان، 1988.
 13. قصة العرب في اسبانيا، لين بول ستانلي، ت علي الجارم، دار المعارف، مصر، ط9، 2012.
- رابعا: الأطاريح الجامعية:**

1. تجليات الفكر الشيعي في الشعر العبيدي، نورة قطوش، اطروحة دكتوراه، جامعة محمد بوضياف المسيلة، 2019.

2. التقدم الفكري عند أهل الأندلس، عبد الجليل الراشد، مجلة المؤرخ العربي العدد: 13.
3. جهود نخاة الأندلس في تسيير النحو العربي، فادي صقر أحمد عصيدة، جامعة النجاح الوطنية فلسطين، 2006.
4. الحياة العلمية في عصر الخلافة (316هـ-422هـ)، أعداد سعد عبد الله صالح البشري، رسالة مقدمة لنيل الماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، 1981، السعودية.
5. الزهد في الشعر الأندلسي حتى أواخر القرن الثالث هجري، ناجية ناحي دخيل الله سعيدي، أطروحة ماجستير، جامعة أم القرى السعودية.
6. شاعرات الأندلس من عصر الإمارة إلى نهاية عصر الموحدين، سهيلة عبريق، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر 2008،
7. شعر المرأة الأندلسية من الفتح إلى نهاية عهد الموحدين 92 - 635 هـ، جمع - دراسة - تحقيق، إعداد: واقدة يوسف كريم، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة تكريت، 2003، تحت اشراف: عبد الجبار سالم عبد الكريم،
8. صورة المرأة في الشعر الأندلسي، في عصري الطوائف وبني الأحمر، عائشة ابراهيم موسى سلامة محسن، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية، جامعة أم درمان، 2007.
9. العلاقات بين المغرب و الأندلس في عهد عبد الرحمان الناصر 300هـ، ليلي أحمد نجار، جامعة أم القرى، 1982.

خامسا: الدوريات:

1. اسهامات العرب في أوروبا، جلال مظهر، مجلة آداب الرافدين، العدد 13.
2. الزراعة في الأندلس وأثرها على التصنيع الزراعي، أبودياك صالح؛ مجلة المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب، المجلد 16، العدد 44.

3. الشكوى في الشعر الأندلسي، من 399هـ-422هـ، صالح علي حسين الجميلي، مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية، المجلد 16، العدد 1، 2009 .
4. ماوصل إلينا من شعر يحي ابن هذيل ،حمدي منصور،مجلة مجمع اللغة العربية،دمشق، المجلد 77، الجزء 3.
5. ماوصل إلينا من شعر يحي ابن هذيل ،حمدي منصور،مجلة مجمع اللغة العربية،دمشق، المجلد 77، الجزء 3 ،
6. مكانة الأندلس في التواصل الحضاري بين الحضارة الاسلامية والحضارة الغربية ،وجدان فريق عناد،مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية ،العدد 10،مركز إحياء التراث العلمي العربي، العراق .
7. هل كان ابن مسرة القرطبي فيلسوفا، بيلار غاريدو كليمنتي ،دراسات استشرافية ،العدد 24، 2021 .

فما دلت
بهم را پس
مما سر سترها
و کلمه ما و ما
ما سر سترها

| | |
|---|-----|
| شكر وعرهان..... | |
| إهداء..... | |
| مقدمة..... | أ |
| المدخل..... | 7: |
| 1-أحوال الأندلس قبل عهد الإمارة..... | 8 |
| 2-تأسيس الدولة الأموية:..... | 11 |
| الفصل الأول: الحركة العلمية في الفترة الأموية بالأندلس: | |
| 1-عوامل ازدهار الحركة العلمية..... | 24 |
| 2-التعليم..... | 35 |
| 3-المعلمون..... | 37: |
| 4-مراكز التعليم..... | 39 |
| 5-أصناف العلوم المدرّسة في الفترة الأموية:..... | 40 |
| 1-العلوم النقلية..... | 40 |
| 1-1-علم القراءات:..... | 41 |
| 1-2-علم التفسير:..... | 42 |
| 1-3-الفقه..... | 45 |
| 1-4-الحديث..... | 50 |
| 2-العلوم الإنسانية..... | 54 |
| 2-1-تاريخ..... | 54 |
| 2-2-الجغرافيا:..... | 59 |
| 2-3-الفلسفة..... | 62 |
| 2-4-علوم اللغة:..... | 65 |
| 3-العلوم العقلية..... | 68 |

| | |
|--|----------------------------|
| 69 | 3-1-التنجيم والفلك..... |
| 72 | 3-2-الرياضيات : |
| 73 | 3-3-الكيمياء:..... |
| 75 | 3-4-الطب:..... |
| الفصل الثاني: الحركة الأدبية على عهد الدولة الأموية بالاندلس. | |
| 82 | أولا:الشعر:..... |
| 82 | 1-الغزل:..... |
| 96 | 2-الزهد :..... |
| 103 | 3-المدح:..... |
| 117 | 4-الوصف:..... |
| 126 | 5-الشكوى:..... |
| 134 | 6-الهجاء:..... |
| 146 | 7-الرثاء:..... |
| 157 | 8-الفخر:..... |
| 165 | 9-الحكمة :..... |
| 174 | 10-الموشحات :..... |
| 179 | ثانيا: النشر..... |
| 180 | 1-الرسائل..... |
| 180 | 1-1-الرسائل الديوانية..... |
| 187 | 1-2-الرسائل الإخوانية..... |
| 190 | 1-3-الرسائل الأدبية..... |
| 192 | 2-التوقيعاتُ:..... |
| 194 | 3-الخطابة :..... |
| 195 | 3-1-الخطبة السياسية:..... |
| 198 | 3-2 الخطبة الدينية:..... |

| | |
|----------|---|
| 202..... | 4-الوصايا:..... |
| | الفصل الثالث:الأبعاد الحضارية للحركة الثقافية في الفترة الأموية بالأندلس: 209 |
| | أولا-البعء السياسي..... |
| 212..... | 1-التنظيم الإداري:..... |
| 212..... | 1-1-نظام الخلافة..... |
| 215..... | 1-2- ولاية الأقاليم:..... |
| 216..... | 1-3-الحجابه..... |
| 218..... | 1-4-الوزارة:..... |
| 223..... | 1-5-الشرطة..... |
| 225..... | 1-6-القضاء:..... |
| | 2- النظام العسكري: |
| 230..... | 2-1-الجيش..... |
| 233..... | 2-2-التعبئة العسكرية في الأندلس..... |
| 235..... | 2-3-الأسطول البحري :..... |
| 237..... | 3-النظام المالي..... |
| 237..... | 3-1-الخزانه العامه237..... |
| 239..... | 3-2-بيت المال239..... |
| 239..... | 3-3-إدارة الأمير الخاصة..... |
| 240..... | 3-4-سك النقود:..... |
| 242..... | ثانيا البعء الاقتصادي..... |
| 242..... | 1-الزراعة..... |
| 246..... | 2-الصناعة..... |
| 246..... | 2-1الصناعة المعدنية:..... |

| | |
|-----------|----------------------------------|
| 248..... | 2-2-صناعة السكر..... |
| 250..... | 2-4-صناعة الخشب..... |
| 250..... | 2-5-صناعة الزجاج والخزف:250..... |
| 251..... | 2-6-صناعة الأسلحة..... |
| 251..... | 2-7-صناعة الورق..... |
| 252..... | 2-8-صناعة التماثيل..... |
| 253..... | 3-التجارة..... |
| 256..... | ثالثاً: البعد العمراني : |
| 257..... | أولاً: العمارة الدينية..... |
| 257..... | 1-المساجد..... |
| 257..... | 1-1مسجد قرطبة:..... |
| 260..... | 1-2-مسجد الزهراء:..... |
| | ثانياً: العمارة |
| 262..... | المدنية..... |
| 262..... | 1-القصور : |
| 262..... | 1-1-قصر الرصافة : |
| 264:..... | 1-2-القصر الخلافي..... |
| 266:..... | 2-الدور..... |
| | 3- |
| 267..... | المدن..... |
| 267..... | 3-1مدينة البيرة..... |
| 267..... | 3-2-مدينة مُرسية:..... |
| 268..... | 3-3-مدينة الزهراء:..... |

| | |
|------|-----------------------------|
| 269: | 3-4-مدينة المرية |
| 270 | 3-5-مدينة الزاهرة : |
| 271 | 4-القناطر : |
| 272 | 5-الحمامات : |
| 276 | البعء الانساني |
| 276 | 1- العدل والمساواة: |
| 277: | 2-الكرم والميل إلى الصدقة |
| 280: | 3-إنشاء الاوقاف |
| 282 | 4-إغاثة الملهوف: |
| 285 | 5-التسامح الديني |
| 286 | المبعء الخامس: البعء العلمي |
| 291 | 1-اللغة: |
| 293 | 2-الطب |
| 294 | 3-الكيمياء |
| 295 | 4-الرياضيات: |
| 295 | 5-الفلك |
| 297 | 6- الدين |
| 298 | 7-الأءب: |
| 299 | 8-في مجال الزخرفة والخط |
| 303 | الخاتمة |
| 309 | الملاحق: |
| 333 | المصادر والمراجع |
| 348 | الفهرس |

ملخص:

ظلت الأندلس منذ الفتح الإسلامي مجرد ولاية تابعة للدولة الأموية بالشام، غير أنها انفصلت انفصالاً سياسياً عن المشرق العربي بدخول بني أمية إليها، مؤسسين بها دولة جديدة، ومتمخذين قرطبة عاصمة لها، التي غدت مركزاً من مراكز العلم والمعرفة تتوافد عليها البعثات العلمية من كل حذب وصوب، نتيجة اهتمام الخلفاء بالعلم والعلماء وتشجيعهم لهم، وصاحب ذلك حركة ثقافية انتعشت فيها العلوم وازدهر الأدب، ونبغ فيها علماء كثر، وأدباء خلّدت أعمالهم الشعرية والنثرية أسماءهم، وحملت هذه الثقافة أبعاداً حضارية، أحدثت صدعاً كبيراً في العالم المسيحي المعادي للعلوم الدنيوية، وأيقظت أوروبا من سبات الخرافات والأساطير .

الكلمات المفتاحية: الحركة الثقافية-الفترة الأموية -البعد الحضاري-الأندلس.

Résumé :

Depuis la conquête islamique, l'Andalousie est restée une simple province subordonnée à l'état omeyyde en Syrie. Cependant, elle s'est politiquement séparée du Moyen-Orient arabe avec l'arrivée des Omeyyades en fondant un nouvel État et en faisant de Cordoue sa capitale, qui est devenue un centre de Science et de connaissances ou convergent des missions scientifiques de tous les coins, en raison de l'intérêt des califes pour la science et les savants, les encourageant ainsi à prospérer. Cela a été accompagné d'un mouvement culturel florissant où les sciences ont prospéré, la littérature a fleuri, de nombreux savants et écrivains ont émergé, et leurs œuvres poétiques, et en prose immortalisées. Et cette culture a introduit des dimensions civilisationnelles, créant une grande rupture dans le monde chrétien hostile aux sciences séculières, a réveillé l'Europe de son sommeil rempli de superstitions et des mythes .

Mots clés: mouvement culturel ,période omeyyade,dimension civilisationnelle, Andalousie

summary:

Since the Islamic conquest, Andalusia remained merely a province under the Umayyad state in the Levant. However, it politically separated from the Arab East with the arrival of the Umayyads, who established a new state there, making Córdoba its capital. Córdoba became a center of science and knowledge, attracting scientific delegations from far and wide. This was a result of the caliphs' attention to science and scholars, as well as their encouragement. Alongside this, a cultural movement emerged, wherein sciences flourished, and literature thrived. Numerous scholars distinguished themselves, and literary figures left works of poetry and prose that immortalized their names. This culture carried civilizational dimensions that created a significant rupture in the Christian world, which opposed worldly sciences, and awakened Europe from the slumber of myths and legends.

Key words: cultural movement, Umayyad period, civilizational dimension, Andalusia